موسوعة ابن إدريس الحلي ٢

# إكمال النقصان

## من تفسير منتخب التبيان

لمؤلفه

الشيخ الجليل أبي عبد الله محمد بن أحمد بن إدريس العجلي الحلي رحمه الله

المتوفى سنة ٥٩٨ هـ

تحقيق وتقديم

السيد محمد مهدي السيد حسن الموسوي الخرسان

مكتبة الروضة الحيدرية

مكتبة الروضة الحيدرية

٧

## موسوعة ابن إدريس الحلّي ٢

# إكمال النقصان

## من تفسير منتخب التبيان

شبكة الفكر
alfeker.net

لمؤلفه

الشيخ الجليل أبي عبد الله محمد بن أحمد بن إدريس العجلي الحلّي رحمه الله

المتوفى سنة ٥٩٨ هـ

تحقيق وتقديم

السيد محمد مهدي السيد حسن الموسوي الخرسان عفي عنه

▼
**موسوعة ابن إدريس الحلّي ٢**

**إكمال النّقصان من تفسير منتخب التّبيان**

لمؤلفة: الشيخ الجليل أبي عبدالله محمد بن احمد بن إدريس العجلي الحلّي

تحقيق و تقديم: السيد محمد مهدي السيد حسن الموسوي الخرسان

منشورات: دليل ما

اعداد: مكتبة الروضة الحيدرية

الطبعة: الاولىٰ

سنة النشر: ١٤٢٩ هـ ق - ١٣٨٧ هـ ش

عدد النسخ: ٢٠٠٠ نسخة

المطبعة: نگارش

ردمك: ١ـ ٣٣٩ـ ٣٩٧ـ ٩٦٤ـ ٩٧٨ ISBN

ردمك الدورة في ١٤ مجلداً: ٠ـ ٣٥٢ـ ٣٩٧ـ ٩٦٤ـ ٩٧٨ ISBN

العنوان: ايران، قم، شارع معلم، ساحة روح الله، رقم ٦٥

هاتف وفكس: ٧٧٣٣٤١٣، ٧٧٤٤٩٨٨ (٩٨٢٥١)

صندوق البريد: ٣٧١٣٥ـ ١١٥٣

WWW.Dalilema.com

info@Dalilema.com

---

**مركز التوزيع:**

١) قم، شارع صفائيه، مقابل زقاق رقم ٣٨، منشورات دليل ما، الهاتف ٧٧٣٧٠١١ ـ ٧٧٣٧٠٠١

٢) طهران، شارع إنقلاب، شارع فخررازي، رقم ٣٢، منشورات دليل ما، الهاتف ٦٦٤٦٤١٤١

٣) مشهد، شارع الشهداء، شمالي حديقة النادري، زقاق خوراكيان، بناية گنجينه كتاب التجارية، الطابق الأول، منشورات دليل ما، الهاتف ٥ ـ ٢٢٣٧١١٣

٤) النجف الأشرف، سوق الحويش، مقابل جامع الهندي، مكتبة الإمام الباقر العلوم، الهاتف ٠٧٨٠١٥٥٣٢٨٩

---

| | |
|---|---|
| سرشناسه | : إبن إدريس، محمد بن احمد، ٥٤٣ـ ٥٩٨ق. |
| عنوان و پديدآور | : موسوعة إبن إدريس الحلّي / تأليف محمد مهدى السيد حسن الموسوى الخِرسان. |
| مشخصات نشر | : قم: دليل ما، ١٣٨٦. |
| مشخصات ظاهرى | : ١۴ ج. |
| فروست | : مكتبة الروضة الحيدرية. |
| شابک | : (ج. ٢)؛ ISBN 978 - 964 - 397 - 339 - 1 |
| | (دوره)؛ ISBN 978 - 964 - 397 - 352 - 0 |
| وضعيت‌فهرست‌نويسى | : فيپا. |
| يادداشت | : عربى. |
| | هر جلد عنوان خواص خود را دارد. |
| مندرجات | : ج. ١. مقدمه تفسير منتخب التبيان. ـ ج. ٢. إكمال النقصان من تفسير منتخب التبيان. ـ ج. ٣ و ۴ و ۵. المنتخب من تفسير القرآن و النكت المستفرجة من كتاب التبيان. ـ ج. ۶. حاشية إبن إدريس على الصحيفة السجادية. ـ ج. ٧. اجوبة مسائل و رسائل في مختلف فنون المعرفة. ـ ج. ٨ و ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣. كتاب السرائر الحاوي لتحرير الفتاوي. ـ ج. ١۴. مستطرفات السرائر (باب النوادر). |
| موضوع | : فقه جعفرى ـ قرن ۶ق. |
| موضوع | : تفاسير شيعه ـ قرن ۶ق. |
| موضوع | : اسلام ـ متون قديمى تا قرن ١۴ ق. |
| شناسه افزوده | : خرسان، محمدمهدى، ١٩٢٨ـ م. Khaarsan, Muhammad Mahdi. گردآورنده و مصحح. |
| رده بندى كنگره | : BP ١٨١ / ٧ / ١٦الف ٨م ١٣٨۶ |
| رده بندى ديويى | : ٢٩٧ / ٣۴٢ |
| شماره كتابشناسى ملى | : ١١٧۴۵٩۵ |

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

# المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ * قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾[1].

وصلى الله على سيدنا أبي القاسم محمد المصطفى وآله الأئمة الهداة الميامين الشرفا، ورضي الله عن الصحابة المهتدين والتابعين لهم بإحسان ممن اهتدوا بهديهم وكفى.

## ١- عليكم بالقرآن.

وبعد: عن الإمام الصادق عن آبائه عن عليّ عليهم السلام قال: «خطب رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: لا خير في العيش إلاّ لمستمع واع، أو عالم ناطق، أيها الناس إنّكم في دار هدنة، وأنتم على ظهر سفر، والسير بكم سريع، وقد رأيتم الليل والنهار،

١.الكهف: ١-٣.

والشمس والقمر يبليان كل جديد، ويقربان كل بعيد، ويأتيان بكل موعود، فأعدّوا الجهاز لبعد المجاز.

قال: فقام المقداد بن الأسود فقال: يا رسول الله وما دار الهُدنة؟

قال: دار بلاء وانقطاع، فإذا التبست عليكم الأمور – الفتن – كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فإنّه شافع مشفّع[١]، وماحل مصدّق[٢] ومن جعله أمامه قاده إلى الجنّة، ومن جعله خلفه قاده وساقه إلى النار، وهو الدليل، يدل على خير سبيل، وهو كتاب فيه تفصيل، وبيان وتحصيل، وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حُكم، وباطنه علم، ظاهره أنيق، وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم[٣] لا تحصى عجائبه، ولا تبلى غرائبه، ولا يشبع منه علماؤه، وهو حبل الله المتين، وهو الصراط المستقيم، وهو الحق [الذي لا يعنى] الجن إذ سمعته أن قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۞ يَهْدِيَ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ﴾[٤].

من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عَدَل، ومن عمل به هُدي إلى صراط مستقيم، فيه مصابيح الهدى، ومنار الحكمة، ودال على الحجة، ودليل على المعرفة لمن عرف الصفة، فليجلُ جال بصره، وليبلّغ الصفة نظره، ينج من عطب، ويتخلّص من نشب[٥]، فانّ التفكّر حياة قلب

---

١.مقبول الشهادة والشفاعة.

٢.الماحل: الساعي، يقال: محل به إذا سعي به إلى السلطان.

٣.علامات وعليها دلالات (وعلامات وبالنجم هم يهتدون).

٤.الجن: ١-٢.

٥.العطب: الهلاك، والنشب: الورطة والوقوع فيما لا خلاص له منه.

البصير، كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور، فعليكم بحسن التخلص، وقلّة التربّص»(١).

بهذا أمر النبي ﷺ أمّته عندما تقبل عليهم الفتن كقطع الليل المظلم، تقطع بهم السُّبُل، وينزغ الشيطان فيما بينهم، فأمرهم بالتمسك بالقرآن والاعتصام به، وحيث لا يعرف القرآن إلاّ من خوطب به، ولا يعلم تأويله إلاّ الله والراسخون في العلم، فقد بيّن لهم مَن هو المرجع في تفسير القرآن.

## ٢- القرآن حبل الله ممدود من السماء إلى الأرض.

عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «أيّها الناس إنّي تارك فيكم أمرين إن أخذتم بهما لن تظلوا بعدي أبداً، وأحدهما أفضل من الآخر: كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض، وأهل بيتي عترتي، ألا وإنّهما لن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض»(٢).

ولما كان القرآن هو معجزة النبي الخالدة، وهو حجة الله ورسوله على الخلق، وهو برهان على صدق ما جاء به النبي ﷺ، وهو مرشد الخلق إلى مصالح معاشهم ومعادهم، وهو كاشف عنهم العمر، وقائد لهم إلى الهدى.

لذلك فقد جندت الأمة طاقاتها منذ عهد الرسالة، فعمدت على حفظه وتلاوته آناء الليل وأطراف النهار، وقد تمسّك به جميع المسلمين وبقدر ما

---

١ـ أصول الكافي ٢: ٤٣٨ ط المكتبة الإسلامية سنة ١٣٨٨، كنز العمال ٢: ١٥/ ١ نقلاً عن العسكري عن علي عليه السلام.

٢ـ كنز العمال ١: ٢٨١ الباب ٢ من كتاب الإيمان والإسلام من كتاب الأفعال، نقلاً عن ابن جرير، ورواه أحمد بن حنبل عن أبي سعيد في مسنده، وراجع كتاب (علي إمام البررة).

جهدوا أنفسهم، ولقد زاغ في تفسيره من زاغ، وران على قلبه من لم ينفعه البلاغ، لأنّه حمّال ذو وجوه، لا يعرف مراده إلاّ من آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب.

## ٣- أول من كتب تفسير القرآن.

ولما كان القرآن هو المعجزة الخالدة للنبي ﷺ كما هو الحق، وكان أحد الخليفتين والثقلين اللذين تركهما النبي ﷺ في أمّته، وألزم المسلمين بالتمسك بهما قولاً وعملاً، فكان على المسلمين أن يأخذوا منهما معالم دينهم.

وحيث كان في القرآن آيات محكمات وأخر متشابهات لا يعلمها كل واحد من المسلمين، بل ولا كل الذين أنزل القرآن بلسانهم، وإن كان أنزل بلسان عربي مبين، فليس كل العرب يعلم تنزيلاً وتأويلاً، وظاهراً وباطناً، وناسخاً ومنسوخاً، لذلك قال تعالى مخاطباً نبيه الكريم بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[1].

فأين هم أولئك الراسخون في العلم؟ ومَن هم؟ ولا يعقل أن يكونوا هم جميع أفراد المسلمين، ولو كانوا كذلك لما خصّ سبحانه علم التأويل بذاته المقدّسة وبالراسخين فقط، ولجعل علمه لجميع الأفراد من دون وصف الرسوخ،

---

١. آل عمران: ٧.

وحيث معرفة أولئك إنّما تكون مِن قبله بتعريف رسوله أمته بهم، وهذا ما كان كما في حديث الثقلين الذي مرّت الإشارة إليه، فالتمسك بهما كفيل بضمان السلامة والأمن من الضلالة ما داموا متمسكين بهما.

غير أنّ الأمّة بعد وفاته ﷺ دبّت في بعض أفرادها حسيكة النفاق، وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه، فهتف بهم واستجاب له كثير من الناس ممن حق عليه العذاب، فلم يسلم من التشريق والتغريب إلاّ الفرقة الوسطى، فكانوا هم الوسط بين الإفراط والتفريط، وهم الركب المعتدل على الجادة الواضحة والمحجّة البيضاء التي تركهم عليها رسول الله ﷺ.

فقد اتبعوا كتاب الله تعالى، وأخذوا تنزيله وتأويله من الراسخين في العلم وهم أهل بيته، وعلي أمير المؤمنين كان أولهم الذي قال فيه النبي ﷺ مما لم يقله في حق أيّ أحد من الصحابة، وهو قوله: «علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[١].

لذلك انصرف بعد وفاة النبي ﷺ، وبعد أن صرفت عنه الخلافة إلى جمع القرآن تنزيلاً وتأويلاً، وعرضه على الخالفين فأبوا قبوله، وهو أول كتاب جمع التنزيل والتأويل ولم يسبقه أحد من المسلمين إلى مثله، وهو الذي كان يتمنّى ابن سيرين – وهو من مشاهير التابعين – الحصول عليه فقال: فطلبت ذلك الكتاب وكتبت فيه إلى المدينة فلم أقدر عليه – كما في الإتقان[٢] –.

---

١. مستدرك الحاكم ٣: ١٢٤، وقال هذا صحيح الإسناد وراجع كتاب (علي إمام البررة) ١: ١٦٦ تجد بقية المصادر وقد ناهزت العشرين من مصادر العامة فقط.

٢. الإتقان للسيوطي ١: ١١٥ ط حجازي.

فلو أصيب ذلك الكتاب كان فيه علم – أو كان فيه العلم[١] – ولا بدع أن كان ذلك الكتاب كذلك، لأنّ كاتبه الذي كان يقول: سلوني عن ما بين اللوحين، كما في قول ابن شبرمة[٢]، وفي رواية غيره (سلوني ما بين لوحي المصحف من آية الاّ وقد علمت فيمن نزلت وأين نزلت، وإنّ بين جوانحي لعلماً جماً فسلوني قبل أن تفقدوني)[٣].

وقد أذعن له الصحابة بتفوّقه عليهم في ذلك، حتى قال ابن مسعود: (انّ القرآن أنزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلاّ له ظهر وبطن، وانّ علي بن أبي طالب عنده منه علم الظاهر والباطن)[٤].

وقال ابن عباس وهو حبر الأمة وترجمان القرآن، وقد سئل أين علمك من علم ابن عمك؟ فقال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط[٥] وقال: (ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب)[٦].

فعلى هذا لا يسع المسلم العربي اللسان فضلاً عن غيره أن يخوض في علم التفسير بناءً على فهمه، فيفسره برأيه، وقد حذّر النبي ﷺ المسلمين من ذلك بقوله: «من فسّر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار».

وعلى هذا أيضاً لم يكن جميع الصحابة حتى أكابرهم يعرفون جميع ما في القرآن لفظاً فضلاً عن أن يعلمون معنى، وما خبر جهل أبي بكر – وهو من أكابر

---

١. تاريخ ابن عساكر (ترجمة الإمام) ٣: ٢٣.

٢. ن. م ٣٢: ٢٤.

٣. راجع كتاب (علي إمام البررة) ١: ٢٢٧.

٤. تاريخ ابن عساكر (ترجمة الإمام) ٣: ٢٥.

٥. شرح النهج لابن أبي الحديد ١: ٦ ط مصر الأولى.

٦. مناهل العرفان للزرقاني ١: ٤٨٦ ومقدمة تفسير القرطبي: ٣٥ ط دار إحياء التراث العربي.

الصحابة وأول الخالفين – معنى كلمة (وأبّاً) في قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾[١] ليخفى على من راجع تفاسير القرطبي وكشاف الزمخشري ولباب التأويل للخازن، وتفاسير ابن كثير وابن جُزى الكلبي والدر المنثور للسيوطي وتفسير أبي السعود وغيرها، وذلك في تفسير قوله تعالى:﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ في سورة عبس[٢].

وكذلك كان عمر يجهل معنى (الأبّ) كما في مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية/٣٠، وسيرة عمر لابن الجوزي/ ١٢٠، وربما غيرهما أيضاً، مع أنّهم لا يعذرون في جهلهم معناه مع قوله تعالى: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾[٣].

وليس ذلك اللفظ مما أبهم معناه فاستبهم لفظه فظن أنّه من الغريب، كما في خبر نافع بن الأزرق الخارجي مع ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن، إذ سأله عن عدّة مسائل في غريب الألفاظ عنده، وقد ناهزت المائتين، وقد وفقني الله تعالى لجمعها وشرحها من قبل، وسميتها بـ(غريب القرآن) ضمن موسوعة (عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن) نسأل الله تعالى التوفيق لإخراجها في الحلقة الثانية منها.

فليس بدعاً إذا ما قال الزركشي في كتابه البرهان[٤]: (وصدور المفسرين من الصحابة: علي ثم ابن عباس، الاّ أنّ ابن عباس كان قد أخذ عن علي). كما أنّه لم يبالغ الزركشي حين يقول أيضاً: (كان لعلي فيه – التفسير – اليد السابقة قبل ابن عباس، وهو القائل: لو أردت أن أملي وقر بعير عن الفاتحة لفعلت)[٥].

---

١.عبس: ٣١.

٢.أعلام الموقعين ١: ٦١.

٣.عبس: ٣٢.

٤.البرهان ٢: ١٥٧.

٥.البرهان ١: ٨.

ولم يكن هذا من متفرّدات الزركشي، بل هو رأي آخرين سبقوه، منهم ابن عطيّة (ت ٥٤٦ هـ) فقد قال في مقدمة تفسير الجامع المحرّر: فأمّا صدر المفسّرين والمؤيّد فيهم، فعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ويتلوه عبدالله بن عباس رضي الله عنه، وهو تجرّد للأمر وكمّله، وتبعه العلماء عليه كمجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما، والمحفوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن علي بن أبي طالب. وقال ابن عباس: ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب، وكان علي بن أبي طالب يثني على تفسير ابن عباس، ويحضّ على الأخذ عنه.

وكان عبد الله بن مسعود يقول: نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس، وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «اللّهمّ فقهّه في الدين» وحسبك بهذه الدعوة، وقال عنه علي بن أبي طالب عليه السلام: «ابن عباس كأنّما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق» ويتلوه _ أي ابن عباس _ عبد الله بن مسعود، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عمرو بن العاص وكل ما أخذ من الصحابة فحسن متقدم)[١].

فهذا ابن عطية – وهو من علماء القرن السادس – كان أكثر دقة من الذين أتوا بعده، كالسيوطي وغيره حين لم يحشر أسماء الخلفاء الثلاثة مع المشهورين من مفسري الصحابة، ولسنا في مقام تجريد لهم عن حقل المعرفة بالتفسير، وإنّما غرضنا معرفة مقام ابن عباس بين مفسري الصحابة، حيث ظهر أنّه كان المصلّي بعد أستاذه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث كان هو المجلّي. وإليه ينسب البيت المفيد المجيد[٢].

جميع العلم في القرآن لكن    تقاصر عنه أفهام الرجال

---

١. مقدمتان في علوم القرآن: ٢٦٣ – ٢٦٤ مط السنة المحمدية سنة ١٩٥٤م.

٢. تاريخ القرآن وغرائب رسمه وحكمه تأليف محمد طاهر بن عبد القادر الكردي المكي الخطاط ص١٧ ط الثانية سنة ١٣٧٢ مصطفى البابي الحلبي وأولاده.

فهذا البيت صحّت نسبته أو لم تصح، فهو صحيح في معناه، ففي القرآن جميع العلم: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾(١).

إلا انّه لا يستخرج جواهر العلم منه إلا من أوتي حظاً عظيماً من الفهم.

ومما لا شك فيه أنّ القرآن هو المعجزة الخالدة لنبينا ﷺ، وقد جرت سنة الله تعالى الحكيم في معجزات أنبيائه أن تكون في أعلى ما تمتاز به أممهم، حتى إذا تحدّوهم أن يأتوا بمثل ما جاؤوا به عجزوا، وبذلك تقوم الحجة عليهم، ولزمهم أن يؤمنوا بما جاؤوهم به، وقصة موسى مع سحرة فرعون، وقصة عيسى في ابراء الأكمة والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله تعالى، كل ذلك معروف لدى المسلم التالي للقرآن.

وجرياً على هذه السنّة، فقد جاء القرآن الكريم بلسان العرب الذين أرسل إليهم النبي ﷺ فدعاهم أول من دعا إلى الإسلام، فكان القرآن معجزتهم ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾(٤).

ولا يعني ذلك أنّ جميع العرب علموا معانيه، بل تفاوتوا في فهمهم حسب مداركهم وقابلياتهم، لذلك صار العلماء يكتبون التفاسير، ولكل نهج

---

١.الأنعام: ٣٨.

٢.الشعراء: ١٩٥.

٣.الزخرف: ٣.

٤.فصلت: ٤٤.

خاص ارتضاه، فمنهم ارتضى التفسير بالمأثور، ومنهم من اتخذ للعقل دوراً في إدراك المعاني، ولكل منهم من الآثار ما فاق الحصر.

وقد جمع بعضهم بين المنهجين بما لم يخرج عن الحدّين، فذكر من علوم اللسان كمعرفة اللغة والإعراب والبلاغة والحجة، وهذا الصنف لم يعدم التفسير بالمنقول فيأتي بشأن النزول، وهذا ما تراه واضحاً في تفسير التبيان للشيخ الطوسي‏ﷺ الذي شغف به حباً الشيخ ابن إدريس فعكف عليه بانتخابه المفيد.

ولو سلمت لنا نسخته من أولها لقرأنا فيها الداعي إلى عمله ذلك، ولكن مع الأسف الشديد أنّا لم نعثر على نسخة كاملة من المنتخب، وما وصلت نسخته بعضه يبدأ بالآية/ ١٠٨ سورة البقرة، وبعضه يبدأ بالآية ١٢٨ من سورة البقرة.

ولما عزمت على إصدار مجموعة أعمال ابن إدريس كاملة، باسم (موسوعة ابن إدريس) وكان منها منتخب التبيان، رأيت من تمام الإحسان إكمال النقصان بأخذه من كتاب التبيان على النهج الذي ارتضاه ابن إدريس، وفي هذا سد فراغ من دون تكلّف في القول، وما دام القصد محموداً، فلا غضاضة فيه، والله سبحانه من وراء القصد ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

١٠ رجب المرجب ١٤٢٨ هـ

الراجي عفو المنان

محمّدمهدي السيد حسن الموسوي

الخرسان

---

١. البقرة: ١٢٧.

# مقدمة الشيخ الطوسي قدس سره
# في كتابه التبيان في تفسير القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

الحمد لله اعترافاً بتوحيده، وإخلاصاً لربوبيته، وإقراراً بجزيل نعمته، وإذعاناً لعظيم منته، وشكراً على جميع مواهبه، وكريم فواضله، وصلى الله على خيرته من خلقه محمّد صلى الله عليه وآله، والطاهرين من عترته، والطيبين من أرومته، وسلّم تسليماً.

أمّا بعد، فإنّ الّذي حملني على الشروع في عمل هذا الكتاب، أنّي لم أجد أحداً من أصحابنا ـ قديماً وحديثاً ـ من عمل كتاباً يحتوي على تفسير جميع القرآن، ويشتمل على فنون معانيه، وإنّما سلك جماعة منهم في جميع ما رواه ونقله وانتهى إليه في الكتب المروية في الحديث، ولم يتعرّض أحد منهم لاستيفاء ذلك، وتفسير ما يحتاج إليه.

فوجدت من شرع في تفسير القرآن من علماء الأمة، بين مطيل في جميع معانيه، واستيعاب ما قيل فيه من فنونه ـ كالطبري وغيره ـ وبين مقصر اقتصر على ذكر غريبه، ومعاني ألفاظه، وسلك الباقون المتوسّطون في ذلك مسلك ما قويت فيه مُنّتهم[1]، وتركوا ما لا معرفة لهم به، فإنّ الزّجاج والفرّاء ومن أشبههما من النحويين، أفرغوا وسعهم فيما يتعلّق بالإعراب والتصريف. ومُفضّل بن سلمة وغيره استكثروا من

---

١. المنة: القوة، والكلمة من الأضداد.

علم اللغة، واشتقاق الألفاظ. والمتكلّمين ـ كأبي عليّ الجبائي وغيره ـ صرفوا همّتهم إلى ما يتعلّق بالمعاني الكلامية. ومنهم من أضاف إلى ذلك، الكلام في فنون علمه، فأدخل فيه ما لا يليق به، من بسط فروع الفقه، واختلاف الفقهاء ـ كالبلخي وغيره ـ.

وأصلحُ من سلك في ذلك مسلكاً جميلاً مقتصداً، محمّد بن بحر أبو مسلم الأصفهاني[١]، وعليّ بن عيسى الرماني[٢]، فإنّ كتابيهما أصلح ما صنّف في هذا المعنى، غير أنّهما أطالا الخطب فيه، وأوردا فيه كثيراً ممّا لا يحتاج، وسمعت جماعةً من أصحابنا قديماً وحديثاً، يرغبون في كتاب مقتصد يجتمع على جميع فنون علم القرآن، من القراءة والمعاني والإعراب، والكلام على المتشابه، والجواب عن مطاعن الملحدين فيه، وأنواع المبطلين، كالمجبّرة، والمشبّهة، والمجسّمة وغيرهم، وذكر ما يختص أصحابنا به من الاستدلال بمواضع كثيرة منه على صحّة مذاهبهم في أصول الديانات وفروعها.

وأنا إن شاء الله تعالى، أشرع في ذلك على وجه الإيجاز والاختصار لكل فن من فنونه، ولا أطيل فيملّه الناظر فيه، ولا أختصر اختصاراً يقصر فهمه عن معانيه، وأقدّم أمام ذلك، فصلاً يشتمل على ذكر جمل لابدّ من معرفتها دون استيفائها، فإنّ لاستيفاء الكلام فيها مواضع هي أليق به، ومن الله استمدّ المعونة، وأستهديه إلى طريق الرشاد، بمنّه وقدرته إن شاء الله تعالى.

* * *

---

١ـ كاتب، متكلّم، مفسّر، محدّث، نحوي، شاعر، من آثاره: جامع التأويل لمحكم التنزيل، على مذهب المعتزلة في ١٤ مجلداً، والناسخ والمنسوخ، وكتاب في النحو، ولد سنة ٢٥٤ ومات سنة ٣٢٢. ترجمه ياقوت في معجم الأدباء ١٨: ٣٥ – ٣٨، وابن حجر في لسان الميزان ٥: ٨٩ – ٩٠، والصفدي في الوافي بالوفيات ٢: ٢٤٤، والسيوطي في بغية الوعاة. (نقلاً عن معجم المؤلفين، لكحالة باقتضاب).

٢ـ أديب، نحوي، لغوي، متكلّم، فقيه، أصولي، مفسّر، فلكي، منطقي، أصله من سر من رأى ولد سنة ببغداد ٢٧٦ وتوفي بها سنة ٣٨٤، له قريب من مائة مصنف منها: الجامع الكبير في التفسير، المبتدأ في النحو، معاني الحروف، الاشتقاق، وشرح الصفات، (راجع مصادر ترجمته في معجم كحالة ٧: ١٦٢ - ١٦٣).

# فصل

## في ذكر جمل لابدّ من معرفتها قبل الشروع في تفسير القرآن

إعلم انّ القرآن معجزة عظيمة على صدق النبيّ عليه السلام، بل هو أكبر المعجزات وأشهرها، غير أنّ الكلام في إعجازه، وجهة إعجازه، واختلاف الناس فيه، لا يليق بهذا الكتاب، لأنّه يتعلّق بالكلام في الأصول، وقد ذكره علماء أهل التوحيد، وأطنبوا فيه، واستوفوه غاية الاستيفاء، وقد ذكرنا منه طرفاً صالحاً في شرح الجُمل، لا يليق بهذا الموضع، لأنّ استيفاءه يخرج به عن الغرض، واختصاره لا يأتي على المطلوب، فالإحالة عليه أولى، والمقصود من هذا الكتاب علم معانيه، وفنون أغراضه.

وأمّا الكلام في زيادته ونقصانه فمما لا يليق به أيضاً، لأنّ الزيادة فيه مجمع على بطلانها، والنقصان منه، فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه، وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا وهو الّذي نصره المرتضى رحمه الله، وهو الظاهر في الروايات، غير أنّه رويت روايات كثيرة من جهة الخاصة والعامة، بنقصان كثير من آي القرآن، ونقل شيء منه من موضع إلى موضع، طريقها الآحاد التي لا توجب علماً ولا عملاً، والأولى الإعراض عنها، وترك التشاغل بها، لأنّه يمكن تأويلها، ولو صحّت لما كان ذلك طعناً على ما هو موجود بين الدفتين، فإنّ ذلك معلوم صحّته، لا يعترضه أحد من الأمة ولا يدفعه.

ورواياتنا متناصرة بالحثّ على قراءته والتمسّك بما فيه، وردّ ما يردُ من اختلاف الأخبار في الفروع إليه، وقد روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله رواية لا يدفعها أحد،

أنّه قال: «انّي مخلّف فيكم الثقلين، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، وانّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[١].

وهذا يدلّ على أنّه موجود في كلّ عصر، لأنّه لا يجوز أن يأمر بالتمسّك بما لا تقدر على التمسّك به، كما أنّ أهل البيت، ومن يجب اتباع قوله حاصل في كلّ وقت، وإذا كان الموجود بيننا مجمعاً على صحته، فينبغي أن نتشاغل بتفسيره، وبيان معانيه ونترك ما سواه.

واعلم انّ الرواية ظاهرة في أخبار أصحابنا بأنّ تفسير القرآن لا يجوز إلاّ بالأثر الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وآله، وعن الأئمّة عليهم السلام، الذين قولهم حجة كقول النبيّ صلى الله عليه وآله، وانّ القول فيه بالرأي لا يجوز، وروى العامة ذلك عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «من فسّر القرآن برأيه وأصاب الحقّ، فقد أخطأ»[٢] وكره جماعة من التابعين وفقهاء المدينة القول في القرآن بالرأي: كسعيد بن المسيب، وعبيدة السلماني، ونافع، ومحمّد بن القاسم، وسالم بن عبد الله، وغيرهم. وروي عن عائشة أنّها قالت: لم يكن النبيّ صلى الله عليه وآله يفسّر القرآن إلاّ بعد أن يأتي به جبرائيل عليه السلام[٣].

والّذي نقول في ذلك: إنّه لا يجوز أن يكون في كلام الله تعالى وكلام نبيّه تناقض وتضاد، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾[٤] وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[٥] وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾[٦] وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا

---

١. راجع كتاب عليّ إمام البررة ١: ٢٩٢ – ٣١٨.

٢. في اتحاف السادة المتقين ٤: ٥٢٦ «من فسّر القرآن برأيه فأصاب تكتب عليه خطيئة» ونحو ذلك في موسوعة أطراف الحديث النبوي الشريف ٨: ٤١٩.

٣. راجع مجمع الزوائد ٦: ٣٠٣ وقال: رواه أبو يعلى والبزار بنحوه.

٤. الزخرف: ٣.

٥. الشعراء: ١٩٥.

٦. إبراهيم: ٤.

عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[(١)] وقال: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾[(٢)].

فكيف يجوز أن يصفه بأنّه عربي مبين، وانّه بلسان قومه، وانه بيان للناس ولا يفهم بظاهره شيء؟ وهل ذلك إلاّ وصف له باللغز والمعمى الّذي لا يفهم المراد به إلاّ بعد تفسيره وبيانه؟ وذلك منزّه عن القرآن.

وقد مدح الله أقواماً على استخراج معاني القرآن فقال: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[(٣)] وقال في قوم يذمّهم حيث لم يتدبروا القرآن، ولم يتفكروا في معانيه: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[(٤)] وقال النبيّ ﷺ: «انّي مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي» فبيّن أنّ الكتاب حجة، كما أنّ العترة حجة، وكيف يكون حجة ما لم يفهم به شيء؟

وروى عنه عليه السلام أنّه قال: «إذا جاءكم عنّي حديث، فأعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فاقبلوه، وما خالفه فاضربوا به عرض الحائط»[(٥)]. وروي مثل ذلك عن أئمّتنا عليهم السلام، وكيف يمكن العرض على كتاب الله، وهو لا يفهم به شيء؟ وكلّ ذلك يدلّ على أنّ ظاهر هذه الأخبار متروك، والّذي نقول به: إنّ معاني القرآن على أربعة أقسام:

---

١.النحل: ٨٩.

٢.الأنعام: ٣٨.

٣.النساء: ٨٣.

٤.محمّد: ٢٤.

٥.في حديث ثوبان مرفوعاً: «إلاّ أنّ رحا الإسلام دائرة... اعرضوا حديثي على الكتاب فما وافقه فهو منّي وأنا قلته» وفي حديث ابن عمر مرفوعاً: «... وانّه ستفشوا عنّي أحاديث فما أتاكم من حديثي فاقرؤوا كتاب الله فاعتبروه، فما وافق كتاب الله فأنا قلته، وما لم يوافق كتاب الله فلم أقله» مجمع الزوائد ١: ١٧٠ نقلاً عن الطبراني في الكبير، وغمز في سنديهما.

أحدها: ما اختص الله تعالى بالعلم به، فلا يجوز لأحد تكلّف القول فيه، ولا تعاطي معرفته، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاّ هُوَ﴾[1] ومثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...﴾[2] إلى آخرها، فتعاطي معرفة ما اختص الله تعالى به خطأ.

وثانيها: ما كان ظاهره مطابقاً لمعناه، فكل من عرف اللغة التي خوطب بها، عرف معناها، مثل قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاّ بِالْحَقِّ﴾[3] ومثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[4] وغير ذلك.

وثالثها: ما هو مجمل لا ينبئ ظاهره عن المراد به مفصلاً، مثل قوله تعالى: ﴿أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[5] ومثل قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾[6] وقوله: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾[7] وقوله: ﴿فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾[8] وما أشبه ذلك، فإنّ تفصيل اعداد الصلاة وعدد ركعاتها، وتفصيل مناسك الحج وشروطه، ومقادير النصاب في الزكاة لا يمكن استخراجه إلاّ ببيان النبيّ صلى الله عليه وآله ووحي من جهة الله تعالى، فتكلّف القول في ذلك خطأ ممنوع منه، يمكن أن تكون الأخبار متناولة له.

---

١.الأعراف: ١٨٧.

٢.لقمان: ٣٤.

٣.الأنعام: ١٥١.

٤.التوحيد: ١.

٥.البقرة: ٤٣ و ٨٣ و ١١٠، النساء: ٧٧، الحج: ٧٨، النور: ٥٦، المجادلة: ١٣، المزمل: ٢٠.

٦. آل عمران: ٩٧.

٧.الأنعام: ١٤١.

٨.المعارج: ٢٣.

ورابعها: ما كان اللفظ مشتركاً بين معنيين فما زاد عنهما، ويمكن أن يكون كلّ واحد منهما مراداً، فإنّه لا ينبغي أن يقدم أحد به فيقول: إنّ مراد الله فيه بعض ما يحتمل ـ إلاّ بقول نبيّ أو إمام معصوم ـ بل ينبغي أن يقول: انّ الظاهر يحتمل لأمور، وكلّ واحد يجوز أن يكون مراداً على التفصيل، والله أعلم بما أراد.

ومتى كان اللفظ مشتركاً بين شيئين، أو ما زاد عليهما، ودلّ الدليل على أنّه لا يجوز أن يريد إلاّ وجهاً واحداً، جاز أن يقال: إنّه هو المراد.

ومتى قسمنا هذه الأقسام، نكون قد قبلنا هذه الأخبار، ولم نردّها على وجه يوحش نقلتها والمتمسّكين بها، ولا منعنا بذلك من الكلام في تأويل الآي جملة.

ولا ينبغي لأحد أن ينظر في تفسير آية لا ينبئ ظاهرها عن المراد تفصيلاً، أو يقلّد أحداً من المفسّرين، إلاّ أن يكون التأويل مجمعاً عليه، فيجب اتباعه لمكان الإجماع، لأنّ من المفسّرين من حُمدت طرائقه، ومُدحت مذاهبه، كابن عباس، والحسن، وقتادة، ومجاهد وغيرهم، ومنهم من ذمّت مذاهبه، كأبي صالح، والسدي والكلبي وغيرهم.

هذا في الطبقة الأولى، وأمّا المتأخّرون فكلّ واحد منهم نصر مذهبه، وتأوّل على ما يطابق أصله، ولا يجوز لأحد أن يقلّد أحداً منهم، بل ينبغي أن يرجع إلى الأدلّة الصحيحة: إمّا العقلية، أو الشرعية، من إجماع عليه، أو نقل متواتر به، عمّن يجب اتباع قوله، ولا يقبل في ذلك خبر واحد، خاصّة إذا كان ممّا طريقه العلم، ومتى كان التأويل يحتاج إلى شاهد من اللغة، فلا يقبل من الشاهد إلاّ ما كان معلوماً بين أهل اللغة، شائعاً بينهم.

وأمّا طريقة الآحاد من الروايات الشاردة، والألفاظ النادرة، فإنّه لا يقطع بذلك، ولا يجعل شاهداً على كتاب الله، وينبغي أن يتوقّف فيه ويذكر ما يحتمله،

ولا يقطع على المراد منه بعينه، فإنّه متى قطع بالمراد كان مخطئاً، وإن أصاب الحقّ ـ كما روي عن النبيّ ﷺ ـ لأنّه قال تخميناً وحدساً، ولم يصدر ذلك عن حجة قاطعة، وذلك باطل بالاتفاق.

واعلموا أنّ العرف من مذهب أصحابنا والشائع من أخبارهم ورواياتهم أنّ القرآن نزل بحرف واحد، على نبيّ واحد، غير أنّهم أجمعوا على جواز القراءة بما يتداوله القرّآء، وأنّ الإنسان مخيّر بأي قراءة شاء قرأ، وكرهوا تجويد قراءة بعينها بل أجازوا القراءة بالمجاز الّذي يجوز بين القرّآء ولم يبلغوا بذلك حدّ التحريم والحظر.

وروى المخالفون لنا عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف كلّها كاف شاف»[1] وفي بعضها: «على سبعة أبواب» وكثرت في ذلك رواياتهم، ولا معنى للتشاغل بايرادها، واختلفوا في تأويل الخبر، فاختار قوم انّ معناه على سبعة معان: أمر، ونهي، ووعد، ووعيد، وجدل، وقصص، وأمثال، وروى ابن مسعود عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف: زجر، وأمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال»[2].

وروى أبو قلابة عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «نزل القرآن على سبعة أحرف: أمر، وزجر، وترغيب، وترهيب، وجدل، وقصص، وأمثال»[3] وقال آخرون: «نزل القرآن على سبعة أحرف» أي سبع لغات مختلفة، ممّا لا يغيّر حكماً في تحليل وتحريم، مثل: هلم، ويقال من لغات مختلفة، ومعانيها مؤتلفة، وكانوا

---

١. مسند أحمد ٥: ٤١ و١١٤ و١٢٢، وسنن أبي داود ٢: ٧٦ تح محمّد محيي الدين عبدالحميد ط دار الفكر.

٢. مستدرك الحاكم ١: ٥٥٣ و ٢: ٢٨٩، وتفسير الطبري ١: ٦٨ تح محمود محمّد شاكر.

٣. تفسير الطبري ١: ٦٩.

مخيّرين في أوّل الإسلام في أن يقرأوا بما شاءوا منها، ثمّ أجمعوا على حدها، فصار ما أجمعوا عليه مانعاً ممّا أعرضوا عنه.

وقال آخرون: «نزل على سبع لغات من اللغات الفصيحة، لأنّ القبائل بعضها أفصح من بعض» وهو الّذي اختاره الطبري، وقال بعضهم: «هي على سبعة أوجه من اللغات، متفرقة في القرآن، لأنّه لا يوجد حرف قرئ على سبعة أوجه» وقال بعضهم: وجه الاختلاف في القراءات سبعة:

أولها: اختلاف اعراب الكلمة أو حركة بنائها، فلا يزيلها عن صورتها في الكتاب ولا يغيّر معناها، نحو قوله: ﴿هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾[١] بالرفع والنصب ﴿وَهَلْ نُجَازِي إلاّ الْكَفُورَ﴾[٢]؟ بالنصب والنون و﴿هَلْ يُجَازِي إلاّ الْكَفُورَ﴾؟ بالياء والرفع. و ﴿بِالْبُخْلِ﴾[٣] والبخل برفع الباء ونصبها. و ﴿مَيْسَرَةٍ﴾[٤] وميسرة بنصب السين ورفعها.

والثاني: الاختلاف في اعراب الكلمة وحركات بنائها ممّا يغيّر معناها ولا يزيلها عن صورتها في الكتابة، مثل قوله: ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾[٥] على الخبر ربّنا باعد على الدعاء. ﴿وإِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾[٦] بالتشديد وتلقونه بكسر اللام والتخفيف.

والوجه الثالث: الاختلاف في حروف الكلمة دون اعرابها، ممّا يغير

---

١. هود: ٧٨.

٢. سبأ: ١٧.

٣. النساء: ٣٧ الحديد: ٢٤، والبخل بالرفع مصدر بخل، والبخل بالفتح مصدر بخل.

٤. البقرة: ٢٨٠.

٥. سبأ: ١٩.

٦. النور: ١٥.

معناها ولا يزيل صورتها نحو قوله تعالى: ﴿كَيْفَ نُنشِزُهَا﴾[١] بالزاء المعجمة وبالراء الغير معجمة.

والرابع: الاختلاف في الكلمة ممّا يغيّر صورتها ولا يغيّر معناها، نحو قوله: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾[٢] والازقية، وكالصوف المنفوش و ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾[٣].

والخامس: الاختلاف في الكلمة ممّا يزيل صورتها ومعناها، نحو: ﴿وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ﴾[٤] وطلع.

السادس: الاختلاف بالتقديم والتأخير، نحو قوله: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾[٥] وجاءت سكرة الحقّ بالموت.

السابع: الاختلاف بالزيادة والنقصان نحو قوله: وما عملت أيديهم ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ﴾[٦] باسقاط الهاء واثباتها. ونحو قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ وانّ الله الغني الحميد، في سورة الحديد[٧].

وهذا الخبر عندنا وإن كان خبراً واحداً لا يجب العمل به، فالوجه الأخير أصلح الوجوه على ما روي عنهم عليهم السلام من جواز القراءة بما اختلف القرّاء فيه، وأمّا القول الأوّل فهو على ما تضمّنته، لأنّ تأويل القرآن لا يخرج عن أحد

---

١. البقرة: ٢٥٩.

٢. يس: ٢٩، ٥٣.

٣. القارعة: ٥.

٤. الواقعة: ٢٩.

٥. ق: ١٩.

٦. يس: ٣٥.

٧. الحديد: ٢٤.

الأقسام السبعة: إمّا أمر، أو نهي، أو وعد، أو وعيد، أو خبر، أو قصص، أو مثل، وهو الّذي ذكره أصحابنا في أقسام تفسير القرآن.

فأمّا ما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: «ما نزل من القرآن من آية إلاّ ولها ظهر وبطن». وقد رواه أيضاً أصحابنا عن الأئمّة عليهم السلام فإنّه يحتمل ذلك وجوهاً:

أحدها: ما روي في أخبارنا عن الصادقين عليهما السلام، وحكي ذلك عن أبي عبيدة أنّ المراد بذلك القصص بأخبار هلاك الأولين، وباطنها عظة للآخرين.

والثاني: ما حكي عن ابن مسعود أنّه قال: «ما من آية إلاّ وقد عمل بها قوم ولها قوم يعملون بها».

والثالث: معناها أنّ ظاهرها لفظها وباطنها تأويلها، ذكره الطبري واختاره البلخي.

والرابع: ما قاله الحسن البصري: «انّك إذا فتشت عن باطنها وقسته على ظاهرها وقفت على معناها».

وجميع أقسام القرآن لا يخلو من ستة: محكم، ومتشابه، وناسخ، ومنسوخ، وخاص، وعام.

فالمحكم ما انبأ لفظه عن معناه من غير اعتبار أمر ينضمّ إليه سواء كان اللفظ لغوياً أو عرفياً، ولا يحتاج إلى ضروب من التأويل، وذلك نحو قوله: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاّ وُسْعَهَا﴾[1] وقوله: ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾[2] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[3] وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً

---

١. البقرة: ٢٨٦.

٢. الأنعام: ١٥١.

٣. التوحيد: ١.

أَحَدٌ﴾[١] وقوله: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[٢] وقوله: ﴿ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ﴾[٣] ونظائر ذلك.

والمتشابه ما كان المراد به لا يعرف بظاهره بل يحتاج إلى دليل، وذلك ما كان محتملاً لأمور كثيرة أو أمرين، ولا يجوز أن يكون الجميع مراداً فإنّه من باب المتشابه، وإنّما سمّي متشابهاً لاشتباه المراد منه بما ليس بمراد ذلك، نحو قوله: ﴿يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾[٤] وقوله: ﴿وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[٥] وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾[٦] وقوله: ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾[٧] وقوله: ﴿فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾[٨] ﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾[٩] ونظائر ذلك من الآي التي المراد منها غير ظاهرها.

فإن قيل: هلا كان القرآن كلّه محكماً يستغني بظاهره عن تكلّف ما يدلّ على المراد منه، حتى دخل على كثير من المخالفين للحقّ شبهة فيه وتمسّكوا بظاهره على ما يعتقدونه من الباطل؟ أتقولون إنّ ذلك لم يكن مقدوراً له تعالى؟ فهذا هو القول بتعجيزه! أو تقولون هو مقدور له ولم يفعل ذلك، فلم لم يفعله؟

---

١.التوحيد: ٣ و ٤.

٢.فصلت: ٤٦.

٣.الذاريات: ٥٦.

٤.الزمر: ٥٦.

٥.الزمر: ٦٧.

٦.القمر: ١٤.

٧.الرعد: ٢٧، إبراهيم: ٤، فاطر: ٨.

٨ محمّد: ٢٣.

٩.التوبة: ٨٧.

قيل: الجواب على ذلك من وجهين: أحدهما انّ خطاب الله تعالى ـ مع ما فيه من الفوائد ـ لمصلحة معتبرة في ألفاظه، فلا يمتنع أن تكون المصلحة الدينية تعلّقت بأن يستعمل الألفاظ المحتملة، ويجعل الطريق إلى معرفة المراد به ضرباً من الاستدلال، ولهذه العلّة أطال في موضع وأسهب واختصر في آخر وأوجز واقتصر، وذكر قصة في موضع وأعادها في موضع آخر، واختلفت أيضاً مقادير الفصاحة فيه وتفاضلت مواضع منه بعضه على بعض.

والجواب الثاني: أنّ الله تعالى إنّما خلق عباده تعريضاً لثوابه، وكلّفهم لينالوا أعلى المراتب وأشرفها، ولو كان القرآن كلّه محكماً لا يحتمل التأويل ولا يمكن فيه الاختلاف، لسقطت المحنة وبطل التفاضل وتساوت المنازل ولم تَبِن منزلة العلماء من غيرهم، وأنزل الله القرآن بعضه متشابهاً ليعمل أهل العقل أفكارهم، ويتوصّلوا بتكلّف المشاق والنظر والاستدلال إلى فهم المراد، فيستحقوا به عظيم المنزلة وعالي الرتبة.

فإن قيل: كيف تقولون انّ القرآن فيه محكم ومتشابه، وقد وصفه الله تعالى بأنّه أجمع محكم؟ ووصفه في مواضع أخر بأنّه متشابه، وذكر في موضع آخر أنّ بعضه محكم، وبعضه متشابه ـ كما زعمتم ـ وذلك نحو قوله: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾[١] وقال في موضع آخر: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾[٢] وقال في موضع آخر: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[٣] وهل هذا إلاّ ظاهر التناقض؟

---

١. هود: ١.

٢. الزمر: ٢٣.

٣. آل عمران: ٧.

قلنا: لا تناقض في ذلك، لأنّ وصفه بأنّه محكم كلّه، المراد به أنّه بحيث لا يتطرّق عليه الفساد والتناقض والاختلاف والتباين والتعارض، بل لا شيء منه إلاّ وهو في غاية الاحكام إمّا بظاهره أو بدليله، على وجه لا مجال للطاعنين عليه.

ووصفه بأنّه متشابه أنّه يشبه بعضه بعضاً في باب الاحكام الّذي أشرنا إليه، وأنّه لا خلل فيه ولا تباين ولا تضاد ولا تناقض، ووصفه بأنّ بعضه محكم، وبعضه متشابه ما أشرنا إليه، من أنّ بعضه ما يفهم المراد بظاهره فيسمّى محكماً، ومنه ما يشتبه المراد منه بغيره وإن كان على المراد والحق منه دليل فلا تناقض في ذلك بحال.

وأمّا الناسخ فهو كلّ دليل شرعي يدلّ على زوال مثل الحكم الثابت بالنص الأوّل في المستقبل، على وجه لولاه لكان ثابتاً بالنص الأوّل مع تراخيه عنه، واعتبرنا دليل الشرع لأنّ دليل العقل إذا دل على زوال مثل الحكم الثابت بالنص الأوّل لا يسمّى نسخاً، ألا ترى أنّ المكلّف للعبادات، إذا عجز أو زال عقله، زالت عنه العبادة بحكم العقل، ولا يسمّى ذلك الدليل ناسخاً؟ واعتبرنا زوال مثل الحكم، ولم نعتبر الحكم نفسه، لأنّه لا يجوز أن ينسخ نفس ما أمر به، لأنّ ذلك يؤدّي إلى البداء.

وإنّما اعتبرنا أن يكون الحكم ثابتاً بنص شرعي، لأنّ ما ثبت بالعقل إذا أزاله الشرع لا يسمّى بأنّه نسخ حكم العقل، ألا ترى أنّ الصلاة والطواف لولا الشرع لكان قبيحاً فعله في العقل، وإذا أورد الشرع بهما لا يقال نسخ حكم العقل؟ واعتبرنا مع تراخيه عنه لأنّ ما يقترن به لا يسمّى نسخاً، وربما يكون تخصيصاً إن كان اللفظ عاماً، أو مقيّداً إن كان اللفظ خاصّاً، ألا ترى أنّه لو قال: اقتلوا المشركين إلاّ اليهود، لم يكن قوله إلاّ اليهود نسخاً لقوله اقتلوا المشركين؟ وكذا لو قال: فسيحوا في الأرض أربعة أشهر، فقيّد بهذه الغاية لا يقال لما بعدها

نسخ، وكذا لما قال في آية الزنا: ﴿فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾[١] لا يقال لما زاد عليه منسوخ لأنّه مقيد في اللفظ.

والنسخ يصحّ دخوله في الأمر والنهي بلا خلاف، والخبر إن تناول ما يصحّ تغييره عن صفة جاز دخول النسخ فيه لأنّه في معنى الأمر، ألا ترى أنّ قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾[٢] خبر؟ وقوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾[٣] أيضاً خبر؟ وكذلك قوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾[٤] خبر، ومع ذلك يصحّ دخول النسخ فيه، فأمّا ما لا يصحّ تغييره عن صفة فلا يصحّ دخول النسخ فيه، نحو الاخبار عن صفات الله تعالى، وصفات الأجناس ـ لما يصحّ عليه التغيير، لم يصحّ فيه النسخ، حيث أنّ العبارة بالاخبار عنه بأنّه قادر، عالم، سميع بصير، لا يصحّ النسخ فيه، لأنّه يمتنع دخول النسخ في الأخبار ـ إن كان الخبر لا يصحّ تغييره في نفسه.

ولا يخلو النسخ في القرآن من أقسام ثلاثة: أحدها: نسخ حكمه دون لفظه، كآية العدّة في المتوفى عنها زوجها المتضمّنة للسنّة[٥]، فإنّ الحكم منسوخ والتلاوة باقية، وكآية النجوى[٦]، وآية وجوب ثبات الواحد للعشرة[٧]، فإنّ الحكم مرتفع، والتلاوة باقية، وهذا يبطل قول من منع جواز النسخ في القرآن لأنّ الموجود بخلافه.

---

١. النور: ٢.

٢. آل عمران: ٩٧.

٣. البقرة: ٢٢٨.

٤. آل عمران: ٩٧.

٥. البقرة: ٢٤٠.

٦. المجادلة: ١٢.

٧. الأنفال: ٦٥.

والثاني: ما نسخ لفظه دون حكمه، كآية الرجم فإنّ وجوب الرجم على المحصنة لا خلاف فيه، والآية التي كانت متضمّنة له منسوخة بلا خلاف، وهي قوله: والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة، فانّهما قضيا الشهوة جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم[١].

الثالث: ما نسخ لفظه وحكمه، وذلك نحو ما رواه المخالفون عن عائشة: أنّه كان فيما أنزل الله أنّ عشر رضعات تحرمن، ونسخ ذلك بخمس عشرة[٢]، فنسخت التلاوة والحكم.

وأمّا الكلام في شرائط النسخ، فما يصحّ منها وما لا يصحّ وما يصحّ أن ينسخ به القرآن، وما لا يصحّ أن ينسخ به، وقد ذكرناه في كتاب العدة ـ في أصول الفقه ـ ولا يليق ذلك بهذا المكان.

وحكى البلخي في كتاب التفسير فقال: قال قوم ـ ليسوا ممّن يعتبرون ولكنهم من الأمة على حال ـ أنّ الأئمّة المنصوص عليهم ـ بزعمهم ـ مفوّض إليهم نسخ القرآن وتدبيره، وتجاوز بعضهم حتى خرج من الدين بقوله: انّ النسخ قد يجوز على وجه البداء وهو أن يأمر الله عندهم بالشيء ولا يبدو له ثمّ يبدو له فيغيّره، ولا يريد في وقت أمره به أن يغيره هو ويبدله وينسخه، لأنّه عندهم لا يعلم الشيء حتى يكون، إلاّ ما يقدره فيعلمه علم تقدير، وتعجرفوا فزعموا أنّ ما نزل بالمدينة ناسخ لما نزل بمكة.

وأظن أنّه عنى بهذا أصحابنا الإمامية، أن ليس في الأمة من يقول بالنص على الأئمة عليهم السلام سواهم. فإن كان عناهم فجميع ما حكاه عنهم باطل وكذب عليهم، لأنّهم لا يجيزون النسخ على أحد من الأئمة عليهم السلام، ولا أحد منهم يقول

---

١. صحيح البخاري باب رجم الحبلى ٨: ١٦٨ ط بولاق، وصحيح مسلم ٥: ١١٦ ط: صبيح.

٢. صحيح مسلم ٤: ١٦٧.

بحدوث العلم، وإنّما يحكى عن بعض من تقدّم من شيوخ المعتزلة ـ كالنظام والجاحظ وغيرهما ـ وذلك باطل. وكذلك لا يقولون: انّ المتأخّر ينسخ المتقدّم إلاّ بالشرط الّذي يقوله جميع من أجاز النسخ، وهو أن يكون بينهما تضاد وتناف لا يمكن الجمع بينهما، وأمّا على خلاف ذلك فلا يقوله محصل منهم.

والوجه في تكرير القصة بعد القصة في القرآن، أنّ رسول الله ﷺ كان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة فلو لم تكن الأنباء والقصص مكرّرة، لوقعت قصة موسى إلى قوم وقصة عيسى إلى قوم، وقصة نوح إلى قوم آخرين، فأراد الله بلطفه ورحمته أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض ويلقيها في كلّ سمع، ويثبتها في كلّ قلب، ويزيد الحاضرين في الافهام.

وتكرار الكلام من جنس واحد، وبعضه يجري على بعض، كتكراره في: قل يا أيها الكافرون، وسورة المرسلات، والرحمن فالوجه فيه، أنّ القرآن نزل بلسان القوم، ومذهبهم في التكرار ـ ارادة للتوكيد وزيادة في الافهام ـ معروف كما أنّ من مذهبهم الايجاز والاختصار ارادة للتخفيف، وذلك أنّ افتنان المتكلّم والخطيب في الفنون، وخروجه من شيء إلى شيء، أحسن من اقتصاره من المقام على فن واحد، وقد يقول القائل: والله لأفعله ثمّ والله لأفعله، إذا أراد التوكيد كما يقول: أفعله بحذف اللام إذا أراد الإيجاز.

قال الله تعالى: ﴿كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَّ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[1] وقال: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً﴾[2] وقال الله تعالى: ﴿أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى﴾[3] وقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ

---

١.التكاثر: ٣ و ٤.

٢.الإنشراح: ٥ و ٦.

٣.القيامة: ٣٤ و ٣٥.

الدِّينِ﴾[١] كلّ هذا يرد به التوكيد، وقد يقول القائل لغيره: اعجل اعجل، وللرامي: ارم ارم، قال الشاعر:

كم نعمة كانت لكم    كم كم وكم

وقال آخر:

هلا سألت جموع كنـ    ـدة يوم ولوا أين أينا

وقال عوف بن الخزرج:

وكادت فزارةُ تَصلى بنا    فأولى فزار فأولى فزار

فأمّا تكرار معنى واحد بلفظين مختلفين، كقوله: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وقوله: ﴿نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ والنجوى هو السر، فالوجه فيه ما ذكرنا من أنّ عادة القوم، تكرير المعنى بلفظين مختلفين، اتساعاً في اللغة، كقول الشاعر: كذباً وميناً، وهما بمعنى واحد وقول الآخر:

لمياء في شفتيها حوة لعس    وفي اللثات وفي أنيابها شنب[٢]

واللمى: سواد في الشفتين، والحوة واللعس كلاهما سواد في الشفتين وكرر لاختلاف اللفظ، والشنب: تحزّز في الأنياب كالمنشار، وهو نعت لها. ورحمن ورحيم، سنبين القول فيهما فيما بعد.

وقوله: ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى﴾[٣] وقوله: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنْ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾[٤] وقوله: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[٥] على ما قلناه من التوكيد، كما يقول القائل:

---

١. الإنفطار: ١٧ و ١٨.

٢. ديوان ذي الرمة.

٣. النجم: ٥٤.

٤. طه: ٧٨.

٥. الأنعام: ٣٨.

كلّمته بلساني، ونظرت إليه بعيني، ويقال بين زيد وبين عمرو، وإنّما البين واحد، والمراد بين زيد وعمرو. وقال الشاعر أوس بن حجر:

ألم تكسف الشمس شمس النهار مع النجم والقمر الواجب[١]

والشمس لا تكون إلاّ بالنهار، فأكد.

ذكرنا هذه الجملة تنبيهاً عن الجواب عمّا لم نذكره، ولعلّنا نستوفيه فيما بعد إذا جرى ما يقتضي ذكره، ولولا عناد الملحدين وتعجرفهم، لما احتيج إلى الإحتجاج بالشعر وغيره للشيء المشتبه في القرآن، لأنّ غاية ذلك أن يستشهد عليه ببيت شعر جاهلي، أو لفظ منقول عن بعض الأعراب، أو مثل سائر عن بعض أهل البادية، ولا تكون منزلة النبيّ ﷺ ـ وحاشاه من ذلك ـ أقلّ من منزلة واحد من هؤلاء، ولا ينقص عن رتبة النابغة الجعدي، وزهير بن كعب وغيرهم.

ومن طرائف الأمور أنّ المخالف إذا أورد عليه شعر من ذكرناه، ومن هو دونهم سكنت نفسه، واطمأنّ قلبه، وهو لا يرضى بقول محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب، ومهما شك الناس في نبوّته، فلا مرية في نسبه، وفصاحته، فإنّه نشأ بين قومه الذين هم الغاية القصوى في الفصاحة، ويرجع إليهم في معرفة اللغة، ولو كان المشركون من قريش وغيرهم وجدوا متعلقاً عليه في اللحن والغلط والمناقضة، لتعلّقوا به، وجعلوه حجة وذريعة إلى إطفاء نوره وإبطال أمره، واستغنوا بذلك عن تكلّف ما تكلّفوه من المشاق في بذل النفوس والأموال، ولو فعلوا ذلك لظهر واشتهر، ولكن حب الإلحاد والإستثقال لتحمّل العبادات، والميل إلى الفواحش أعماهم وأصمّهم.

---

١ـ الواجب: الغائب.

فلا يدفع أحد من الملحدين ـ وإن جحدوا نبوته ـ أنّه أتى بهذا القرآن، وجعله حجةً لنفسه، وقرأه على العرب، وقد علمنا أنّه ليس بأدون الجماعة في الفصاحة، وكيف يجوز أن يحتج بشعر الشعراء عليه، ولا يجوز أن يحتج بقوله عليهم، وهل هذا إلاّ عناد محض، وعصبية صرف؟ وإنّما يحتج علماء الموحدين بشعر الشعراء وكلام البلغاء، اتساعاً في العلم، وقطعاً للشغب، وازاحة للعلّة، وإلاّ فكان يجب ألا يلتفت إلى جميع ما يطعن عليه، لأنهم ليسوا بأن يجعلوا عياراً عليه بأولى من أن يجعل هو عياراً عليهم.

وروي عن ابن مسعود، أنّه قال: (كان الرجل منّا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهنّ حتى يعرف معانيهنّ، والعمل بهنّ)[١]. وروي أنّه استعمل عليّ عبد الله بن العباس على الحج فخطب خطبة لو سمعها الترك والروم لأسلموا، ثمّ قرأ عليهم سورة النور ـ وروي سورة البقرة ـ ففسّرها، فقال رجل: (لو سمعت هذا الديلم لأسلمت)[٢] ويروى عن سعيد بن جبير أنّه من قرأ القرآن ثمّ لم يفسّره كان كالأعجمي أو الأعرابي[٣].

---

١. تفسير الطبري ١: ٨٠ ط محققة.

٢. ن م ١: ٨١.

٣. ن م ١: ٨١.

# فصل

## في ذكر أسامي القرآن، وتسمية السور والآيات

سمّى الله تعالى القرآن بأربعة أسماء: سمّاه قرآناً في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾[1] وفي قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[2] وغير ذلك من الآي.

وسمّاه فرقاناً في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾[3].

وسمّاه الكتاب في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجاً﴾[4].

وسمّاه الذكر في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[5].

وتسميته بالقرآن تحتمل أمرين: أحدهما ما روي عن ابن عباس، أنّه قال: هو مصدر قرأت قرآناً أي تلوته، مثل: غفرت غفراناً، وكفرت كفراناً.

---

١.الزخرف: ٣.

٢.البقرة: ١٨٥.

٣.الفرقان: ١.

٤.الكهف: ١.

٥.الحجر: ٩.

والثاني: ما حكي عن قتادة، أنّه قال: هو مصدر قرأت الشيء إذا جمعت بعضه إلى بعض، قال عمرو بن كلثوم:

ذراعي عيطل[١] أدماء[٢] بكر هِجانِ[٣] اللون لم تقرأ جنينا

أي لم تضم جنينها في رحمها، وقال قطرب في معناه قولان: أحدهما هذا وعليه أكثر المفسّرين، وقال قولاً آخر: معناه لفظت به مجموعاً، وقال معنى البيت أيضاً أي لم تلقه مجموعاً، وتفسير ابن عباس أولى، لأنّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾[٤].

والوجه المختار أن يكون المراد وإذا تلوناه عليك، وبيّناه لك، فاتّبع تلاوته، ولو حملناه على الجمع ـ على ما قال قتادة ـ لكان يجب ألاّ يلزم اتباع آية آية من القرآن النازلة في كلّ وقت، وكان يقف وجوب الاتباع على حين الجمع، لأنّه علّقه بذلك على هذا القول، لأنّه قال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ يعني جمعناه على ما قالوه فاتّبع قرآنه، وكان يقف وجوب الاتباع على تكامل الجميع، وذلك خلاف الإجماع، فالأول أولى.

فإن قيل: كيف يسمّي القراءة قرآناً، وإنّما هو مقروء؟ قلنا: سمّي بذلك كما يسمّى المكتوب كتاباً، بمعنى: كتاب الكاتب، قال الشاعر في صفة طلاق كتبه لامرأته:

---

١. عيطل: طويل العنق.

٢. ناقة ادماء: بيضاء.

٣. بيضاء اللون، ورواية البيت عند أبي بكر محمّد بن القاسم الأنباري في شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: ٣٧٩ ط دار المعارف:

ذراعي عيطل أدماء بكر تربّعت الأجارع والمتونا

وقال في ص ٣٨٠ ورواه أبو عبيدة فذكر كما في المتن.

٤. القيامة: ١٧ ـ ١٨.

تـــؤمل رجعـــة منّـــي وفيهـــا     كتـــابٌ مثـــل مـــا لصـــق الغـــراء

يعني طلاقاً مكتوباً.

وتسميته بأنّه فرقان، لأنّه يفرق بين الحقّ والباطل، والفرقان هو الفرق بين الشيئين، وإنّما يقع الفرق بين الحقّ والباطل بأدلّته الدالة على صحّة الحقّ، وبطلان الباطل.

وتسميته بالكتاب لأنّه مصدر من قولك: كتبت كتاباً، كما تقول: قمت قياماً، وسمّي كتاباً وإنّما هو مكتوب، كما قال الشاعر في البيت المتقدم، والكتابة مأخوذة من الجمع في قولهم: كتبت السقاء إذا جمعته بالخرز، قال الشاعر:

لا تـــأمننّ فزاريـــاً خلـــوت بـــه     علـى قلوصـك فاكتبهـا باسـيار[١]

والكتبة، الخرزة، وكلما ضممت بعضه إلى بعض على وجه التقارب فقد كتبتة. والكتيبة من الجيش، من هذا، لانضمام بعضها إلى بعض.

وتسميته بالذكر، يحتمل أمرين: أحدهما: أنّه ذكر من الله تعالى ذكّر به عباده، فعرفهم فيه فرائضه، وحدوده، والآخر أنّه ذكر وشرف لمن آمن به وصدّق بما فيه، كقوله: ﴿إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[٢].

وأمّا السورة ـ بغير همز ـ فهي منزلة من منازل الارتفاع، ومن ذلك سور المدينة سمّي بذلك الحائط الّذي يحويها لارتفاعه عمّا يحويه، غير أنّ سور المدينة لم يجمع سوراً، وسورة القرآن تجمع سوراً، وهذه أليق بتسميته سور القرآن سورة، قال النابغة:

---

١.أسيار ج سير: الجلد، قال ابن منظور في لسان العرب (كتب) والكتب الجمع تقوله منه كتبت البغلة إذا جمعت بين شفرتيها بحلقة أو سير، والكتبة ما شدّ به حياء البغلة أو الناقة لئلا ينزى عليها... وذكر البيت الشاهد ولم ينسبه، ونحوه في تاج العروس.

٢.الزخرف: ٤٤.

ألـم تـر أنّ الله أعطـاك سـورة يرى كلّ ملك دونها يتذبـذب[١]

يعني منزلة من منازل الشرف التي قصرت عنها الملوك.

وأمّا من همز السورة من القرآن، فإنّه أراد به القطعة التي انفصلت من القرآن وأبقيت، وسؤر كلّ شيء بقيته، يقال: أسأرت في الاناء أي أبقيت فيه، قال الأعشى بن ثعلبة، يصف امرأة:

فبانـت وقـد أسـأرت فـي الفـؤا د صـدعاً علـى نأيهـا مسـتطارا

وتسمية الآية بأنّها آية، يحتمل وجهين: أحدهما لأنّها علامة يعرف بها تمام ما قبلها، ومنه قوله تعالى: ﴿أنزلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنْ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لأوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ﴾[٢] يعني علامة لاجابتك دعاءنا، والآخر أنّ الآية القصة والرسالة، قال كعب بن زهير:

ألا أبلغـا هـذا المعـرّض آيـة أيقظان قال القول إذا قال أم حلم[٣]

يعني رسالة، فيكون معنى الآيات القصص، قصة تتلو قصة، روى واثلة بن الأسقع أنّ النبيّ ﷺ قال: «أعطيت مكان التوراة السبعَ الطول، وأعطيت مكان الزبور المئين، وأعطيت مكان الانجيل، المثاني، وفضّلت بالمفصّل»[٤] فالسبع الطوال: ١- البقرة ٢- آل عمران ٣- النساء ٤- المائدة ٥- الأنعام ٦- الأعراف ٧- ويونس، في قول سعيد بن جبير[٥].

---

١. من قصيدة قالها في مدح النعمان ملك الحيرة ويعتذر إليه ممّا رُمي به، ذكر الخفاجي بعضها في كتابه الشعراء الجاهليون: ١٤٦، ط /١.

٢. المائدة: ١١٤.

٣. ديوان كعب بن زهير: ٦٤ صنعة السكري ط دار الكتب المصرية ١٣٦٩ هـ.

٤. مسند أحمد ٤: ١٠٧ ط مصر الأولى.

٥. تفسير الطبري ١: ١٠٢ محققة.

وروي مثل ذلك عن ابن عباس قال: وسمّيت السبع الطوال، لطولها على سائر القرآن[1]، وأمّا المئون، فهو كلّ سورة تكون مائة آية أو يزيد عليها شيئاً يسيراً، أو ينقص عنها شيئاً يسيراً، وأمّا المثاني فهي ما ثنت المئتين، فتلاها، فكان المئون لها أوائل، وكان المثاني لها ثوان، وقيل انّها سمّيت بذلك، لتثنية الله فيها الأمثال، والحدود، والقرآن، والفرائض وهو قول ابن عباس[2]، وقال قوم: المثاني سورة الحمد، لأنّها تثنى قراءتها في كلّ صلاة، وبه قال الحسن البصري، وهو المروي في أخبارنا قال الشاعر:

حلفت بالسبع اللواتي طُوّلت وبمئين بعده قد أمئيت
وبثمانٍ ثُنيت فكرّرت وبالطواسين التي قد ثلثت
وبالحواميم التي قد سبّعت وبالمفصّل اللواتي فصّلت[3]

وسمّيت المفصّل مفصّلاً، لكثرة الفصول بين سورها ببسم الله الرحمن الرحيم، وسمّي المفصل محكماً لما قيل أنّها لم تنسخ، وقال أكثر أهل العلم: أوّل المفصّل من سورة محمّد ﷺ إلى سورة الناس، وقال آخرون: من ق، إلى الناس، وقالت فرقة ثالثة ـ وهو المحكي عن ابن عباس ـ: انّه من سورة الضحى إلى الناس، وكان يفصل من الضحى بين كلّ سورتين بالتكبير، وهو قراءة ابن كثير.

وإن قيل: ما وجه الحكمة في تفصيل القرآن على السور؟ قيل: فيه وجوه من الجواب:

---

١.ن م ١: ١٠٣.

٢.ن م ١: ١٠٣.

٣.مجاز القرآن لأبي عبيدة ١: ٧: ط١ بتحقيق محمّد فؤاد سزكين، ونسبها إلى سليمان احتمل المحقق أنّه سليمان بن يزيد العدوي، فراجع هامش ص٦.

أحدها: أنّ القارئ إذا خرج من فن إلى فن كان أحلى في نفسه وأشهى لقراءته.

ومنها: أنّ جعل الشيء مع شكله، وما هو أولى به هو الترتيب الّذي يعمل عليه.

ومنها: أنّ الإنسان قد يضعف عن حفظ الجميع، فيحفظ سورة تامة ويقتصر عليها، وقد يكون ذلك سبباً يدعوه إلى غيرها.

ومنها: أنّ التفصيل أبين، إذ كان الاشكال مع الاختلاط والالتباس أكثر.

ومنها: أنّ كلّما ترقى إليه درجة درجة ومنزلة منزلة كانت القوّة عليه أشد، والوصول إليه أسهل، وإنّما السورة منزلة يرتفع منها إلى منزلة.

# سورة الفاتحة

## أسماؤها وسبب تسميتها بها:

روي عن النبيّ ﷺ أنّه سمّاها أم القرآن، وفاتحة الكتاب، والسبع المثاني[١]، فسمّيت فاتحة الكتاب لأنّه يفتتح بكتابتها المصاحف، وبقراءتها في الصلاة، فهي فاتحة لما يتلوها من سور القرآن في الكتابة والقراءة.

وسمّيت أم القرآن: لتقدّمها على سائر القرآن، وتسمّي العرب كلّ جامع أمراً، أو متقدّم لأمر إذا كانت له توابع تتبعه أماً، فيقولون للجلدة التي تجمع الدماغ أم الرأس، وتسمّي لواء الجيش ورايتهم التي يجتمعون تحتها أماً، ومن ذلك قول ذي الرمة:

واسمر قوام إذا نام صحبتي    خفيف الثياب لا تواري له إزرا

على رأسه أمّ لنا نقتدي بها    جماع أمور لا نعاصي له أمرا[٢]

يصف راية معقودة على قناة يجتمع تحتها هو وصحبه.

وقيل: مكة أم القرى لتقدّمها أمام جميعها، وجميعها ما سواها، وقيل: إنّما سمّيت بذلك، لأنّ الأرض دحيت منها فصارت لجميعها أماً، ومن ذلك قول حميد بن ثور الهلالي:

---

١. مسند أحمد ٢: ٤٤٨ ط مصر الأولى.

٢. ديوان ذي الرمة: ١٨٣ مع اختلاف في بعض الرواية.

إذا كانت الخمسون أمك لم يكن ... لـدائك إلاّ أن تمـوت طبيـب[١]

لأنّ الخمسين جامعة ما دونها من العدد، فسمّاها أم الّذي بلغها.

وسميت السبع، لأنّها سبع آيات ـ بلا خلاف في جملتها ـ.

وسمّيت مثاني لأنّها تثنى بها في كلّ صلاة فرض ونفل، وقيل في كلّ ركعة، وليس إذا سمّيت بأنّها مثاني، منع ذلك تسمية غيرها بالمثاني، من سور المئين على ما مضى القول فيه.

واتفق القرّاء على التلفّظ بأعوذ بالله من الشيطان الرجيم، قبل التسمية وقوله: من الشيطان، فالشيطان في اللغة كلّ متمرد من الجن والانس والدواب، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ﴾[٢] فجعل من الإنس شياطين، كما جعل من الجن، وإنّما سمّي المتمرد شيطاناً، لمفارقة أخلاقه وأفعاله، أخلاق جميع جنسه وبعده من الخير، وقيل: هو مشتق من قولهم شطنت داري أي بعدت، ومنه قول نابغة بني ذبيان:

نـأت سـعاد عنـك نـوىً شـطون ... فبانــت والفــؤاد بهــا رهــين[٣]

والشطون، البعيد فيكون شيطاناً على هذا: فيعالاً من شطن على وزن بيطار وغيداق[٤].

قال أمية بن أبي الصلت:

---

١. في نسبته البيت إلى حميد نظر، فليس هو في ديوانه، بل هو مذكور لعبد الله بن أيوب أبي محمّد التيمي مولى بني تيم، وقد نسبه الشيخ اعتماداً على ما في تفسير الطبري وهو أيضاً وهم فيه، راجع هامش (٤) من ص١٠٨ تحـ محمود محمّد شاكر.

٢. الأنعام: ١١٢.

٣. ديوان النابغة الذبياني: ٢٠٠.

٤. شاب غيداق: ناعم، والغيداق: الكريم.

أيمـا شـاطن[١] عصـاه عكـاه[٢] ثمّ يلقى في السجن والأكبال[٣]

ولو كان مشتقاً من شاط، لقال: شائط، ولما قال: شاطن، علم أنّه مشتق من شطن، والشطن الحبل.

وأما الرجيم فهو فعيل بمعنى مفعول، كقولهم كف خضيب، ولحية دهين، ورجل لعين، يراد مخضوبة، ومدهونة، وملعون، ومعنى المرجوم المشتوم فكل مشتوم بقول ردي فهو مرجوم، وأصل الرجم الرمي بقول كان أو فعل، ومنه قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ﴾[٤] ويجوز أن يكون الشيطان رجيماً، لأنّ الله طرده من سمائه ورجمه بالشهب الثاقبة.

وسورة الحمد مكية في قول قتادة، ومدنية في قول مجاهد، وليس فيها ناسخ ولا منسوخ.

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ»[٥]

الحجة: عندنا آية من الحمد ومن كلّ سورة بدلالة إثباتهم لها في المصاحف بالخط الّذي كتب به المصحف، مع تجنّبهم إثبات الأعشار والأخماس كذلك، وفي ذلك خلاف ذكرناه في خلاف الفقهاء، ولا خلاف أنّها بعض سورة النمل، وعندنا أنّ من تركها في الصلاة بطلت صلاته، لأنّ الصلاة عندنا لا تصحّ إلاّ بفاتحة الكتاب، وهي من تمامها، سواء كانت الصلاة فرضاً أو نافلة، وفيه خلاف ذكرناه في خلاف الفقهاء.

---

١. الشاطن: الخبيث. والشيطان كلّ عات متمرد من انس أو جن أو دابة.

٢. عكاه: عقده.

٣. الكبد: الشدة، الجمع أكباد، والبيت في ديوانه: ٥١.

٤. مريم: ٤٦.

٥. من هنا يبدأ المستحب من انتقاء ما وجب لاكمال المنتخب.

وعندنا أنّه يجب الجهر بها فيما يجهر فيه بالقراءة، ويستحب الجهر بها فيما لا يجهر فيه.

**قوله:** ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ﴾.

والاسم مشتق من السموّ وهو الرفعة والأصل فيه سموّ بالواو، وجمعه أسماء مثل قنو وأقناء، وحنو وأحناء، وإذا صغّرته قلت سُمّي، قال الراجز:

باسم الّذي في كلّ سورة سمه

وقيل في معنى الله قولان:

أحدهما: أنّ أصله لاه كما قال الشاعر:

كحلقة من أبي رياح　　يسمعها لاهه الكبار

فأُدخل عليه الألف واللام.

والثاني: أنّ أصله إله فأدخلت عليه الألف واللام ثمّ خففت الهمزة وأدغمت احدى اللامين في الأخرى فقيل: الله. وإله معناه يحق له العبادة، وإنّما يحق له العبادة، لأنّه قادر على خلق الأجسام وإحيائها، والانعام عليها، بما يستحق به العبادة ولذلك يوصف فيما لم يزل بأنّه إله.

**قوله:** ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

اللغة: هما اسمان مشتقان من الرحمة، وهي النعمة التي يستحق بها العبادة، وهما موضوعان للمبالغة، وفي رحمان خاصة مبالغة يختص الله بها، وقيل: انّ تلك المزية من حيث فعل النعمة التي يستحق بها العبادة، لا يشاركه في هذا المعنى سواه.

وإنّما قدّم الرحمن على الرحيم لأنّه وصفه بالرحمن بمنزلة الاسم العلم، من حيث لا يوصف به إلاّ الله تعالى، فصار بذلك كاسم العلم في أنّه يجب تقديمه على صفته، وورد الأثر بذلك.

روى أبو سعيد الخدري عن النبيّ ﷺ أنّ عيسى بن مريم قال: الرحمن رحمن الدنيا والرحيم رحيم الآخرة. وروي عن بعض التابعين أنّه قال: الرحمن بجميع الخلق والرحيم بالمؤمنين خاصة، ووجه عموم الرحمن بجميع الخلق هو انشاؤه إياهم وجعلهم أحياء قادرين، وخلقه فيهم الشهوات، وتمكينهم من المشتهيات، وتعريضهم بالتكليف لعظيم الثواب، ووجه خصوص الرحيم بالمؤمنين، ما فعل الله تعالى بهم في الدنيا من الألطاف التي لم يفعلها بالكفار، وما يفعله بهم في الآخرة من عظيم الثواب، فهذا وجه الاختصاص.

**قوله:** ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

ومعنى الحمد لله الشكر لله خالصاً دون سائر ما يعبد بما أنعم على عباده من ضروب النعم الدينية والدنياوية[1]، وقال بعضهم: الحمد لله ثناء عليه بأسمائه وصفاته، وقوله الشكر لله ثناء على نعمه وأياديه، والأول أصح في اللغة، لأنّ الحمد والشكر يوضع كلّ واحد منهما موضع صاحبه، ويقال أيضاً: الحمد لله شكراً فنصب شكراً على المصدر، ولو لم يكن في معناه لما نصبه.

ودخول الألف واللام فيه لفائدة الاستيعاب، فكأنّه قال: جميع الحمد لله، لأنّ التالي مخبر بذلك، ولو نصبه فقال: حمداً لله، أفاد أنّ القائل هو الحامد فحسب وليس ذلك المراد، ولذلك اجتمعت القرّاء على ضم الدال على ما بيّناه، والتقدير: قولوا الحمد لله، وإذا كان الحمد هو الشكر، والشكر هو الاعتراف

---

١.دنيوية والألف زائدة، لأنّ الواو قلبت عنها.

بالنعمة على ضرب من التعظيم، فالمدح ليس من الشكر في شيء، وإنّما هو القول المنبئ عن عظم حال الممدوح مع القصد إليه.

وأمّا الربّ فله معان في اللغة: فيسمى السيّد المطاع ربّاً، وقال لبيد بن ربيعة:

فـاهلكن يومـاً ربّ كنـدة وابنـه ... وربّ معد بين خبت[١] وعرعر[٢]

يعني سيّد كندة. ومنه قوله تعالى: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً﴾ يعني سيّده، ويُسمّى الرجل المصلح ربّاً، قال الفرزدق بن غالب:

كانوا كسالئة[٣] حمقاء إذ حقنت ... سلاءها فـي أديـم غيـر مربـوب

يعني غير مصلح، ومنه قيل: فلان ربّ ضيعة إذا كان يحاول اتمامها، والربانيون من هذا حيث كانوا مدبرين لهم، واشتق ربّ من التربية، يقال: ربيته وربّيته بمعنى واحد، والرّبى: الشاة ولدت حديثاً لأنّها تربى. وقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي المالك لتدبيرهم، والمالك للشيء يسمّى ربّه، ولا يطلق هذا الاسم إلاّ على الله، وأمّا في غيره فبقيد فيقال: ربّ الدار، وربّ الضيعة.

و ﴿الْعَالَمِينَ﴾ جمع عالَم، وعالَم لا واحد له من لفظه كالرهط والجيش وغير ذلك، والعالَم في عرف اللغة عبارة عن الجماعة من العقلاء لأنّهم يقولون: جاءني عالَم من الناس، ولا يقولون جاءني عالَم من البقر، وفي عرف الناس عبارة عن جميع المخلوقات، وقيل: انّه أيضاً اسم لكلّ صنف من الأصناف، وأهل كلّ زمن من كلّ صنف يسمّى عالماً ولذلك جمع، وقيل عالمون لعالَم كلّ زمان. قال العجاج:

---

١. خبت وعرعر، موضعان والبيت في شرح ديوانه: ٥٥ ط الكويت.

٢. نفس المصدر.

٣. سلأ السمن: عالجه، والبيت في ديوانه: ٢٥.

فخنــدف[1] هامــة هــذا العــالم

وهذا قول أكثر المفسّرين كابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم، واشتقاقه من العلامة لأنّه علامة ودلالة على الصانع تعالى، وقيل انّه من العلم ـ على ما روى ابن عباس ـ قال: هم صنف من الملائكة والانس والجن، لأنّه يصحّ أن يكون كلّ صنف منهم عالماً.

فإن قيل: كيف يجوز أن يقول: الحمد لله والقائل هو الله تعالى وان[2] كان يجب أن يقول الحمد لنا، قيل: العالي الرتبة إذا خاطب من دونه لا يقول كما يقول للنظير، ألا ترى أنّ السيّد يقول لعبده: الواجب أن تطيع سيدك ولا تعصيه، وكذلك يقول الأب لابنه: يلزمك أن تبرّ أباك والمنة لأبيك، والخلفاء يكتبون عن أنفسهم إنّ أمير المؤمنين رأى كيت وكيت، ليقع ذلك موقع إجلال وإكرام وإعظام، على أنّا قد بيّنا أنّ المراد بذلك: قولوا الحمد لله، وحذف لدلالة الكلام عليه.

**قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.**

آية. مخفوضان لأنّهما نعت لله، وقد مضى معناهما [3].

**قوله: ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾.**

والمالك هو القادر على التصرّف في ماله، وأن يتصرّف فيه على وجه ليس لأحدٍ منعه منه، ويوصف العاجز بأنّه مالك من جهة الحكم. والملك هو القادر الواسع القدرة الّذي له السياسة والتدبير، ويقال ملك بيّن المُلكَ ـ مضمومة الميم ـ ومالك بيّن

---

١.لقب أولاد الياس بن مضر باسم أمهم خندف.

٢.وكان يجب.

٣.في تفسير البسملة.

الملك ـ والملك بفتح الميم وكسرها، وضم الميم فيه لغة شاذّة ذكرها أبو عليّ الفارسي ـ ويقال: طالت مملَكة الأمير ومملِكته بكسر اللام وفتحها، وطال مُلكه ومَلكه إذا طال رقه، وأعطاني من ملكه وملكه، ولي في هذا الوادي ملك ومَلك ومِلك. ويقال: نحن عبيد مملكة وليس بعبيد قن أي سبياً لم يملك في الأصل، ويقال: شهدنا أملاك فلان وملكه، ولا يقال ملاكه، فأصل الملك الشدّ من قول الشاعر:

ملكت بها كفي وأنهرت فتقها[1]

أي شددت، وملكت العجين أي شددت عجنه، ويقال: هذا ملك فلان إذا كان له التصرّف فيه على ما بيّناه، فأمّا من رجح قراءة ملك من حيث أنّه وصف نفسه بأنّه ملك كلّ شيء بقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فلا فائدة في تكرير ما قد مضى، فقد أبعد، لأنّ في القرآن له نظائر تقدّمها العام وذكر بعد العام الخاص: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[2] فعمّ في الأوّل ثمّ خصّ ذكر الإنسان تنبيهاً على تأمل ما فيه من اتقان الصنعة ووجوه الحكمة، كما قال: ﴿وَفِي أنفُسِكُمْ أفَلا تُبْصِرُونَ﴾[3]؟ ولذلك نظائر كثيرة.

والدين: الحساب، والدين الجزاء أيضاً. قال كعب بن جعيل:

إذا مـــا رمونـــا رميناهُـــمُ ودِنّـاهم فـوق مـا يُقرضـونا[4]

وقال آخر:

---

١ـ قاله قيس بن الخطيم كما في ديوانه: ٨ تحـ ناصر الأسد ط١/ ١٩٨١ وتمام البيت يرى قائماً من خلفها ما وراءها .

٢ـ العلق: ١ و ٢.

٣ـ الذاريات: ٢١.

٤ـ الكامل للمبرد ١: ١٩١، وقعة صفين لنصر بن مزاحم ١: ٥٢.

واعلـم وأيقِـن إنّ ملكـك زائـل　　واعلـم بأنّـك مـا تـدين تـدان[١]

يعني: ما تجزي تجزى. ومنه قوله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ يعني بالجزاء، وقوله: ﴿فَلَوْلا إنْ كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي غير مجزيين، وبهذا قال جماعة من التابعين كسعيد بن جبير وقتادة، وروي عن ابن عباس ومجاهد وأبي جعفر: أنّه الحساب، والدين أيضاً الطاعة. وقال عمرو بن كلثوم:

وأيّـــام لنـــا غـــر طـــوال　　عصـينا المُلـكَ فيهـا أن نَـدينا[٢]

والدين الملك قال زهير:

لئـن حـللت بجـوّ فـي بـني أسـد　　في دين عمرو وحالت بيننا فدك[٣]

والدين القهر والاستعلاء، قال الأعشى:

هـو دان الرباب إذ كرهـوا الـدين　　دراكـــا بغـــزوة وصقـــال[٤]

يعني ذللهم للطاعة، والدين العادة، قال المثقب العبدي:

تقـول وقـد درأت لهـا وضـيني　　أهـــذا دينـــه أبـــداً ودينـــي[٥]

التفسير: ﴿و يَوْمِ الدّينِ﴾ عبارة عن زمان الجزاء كلّه، وليس المراد به ما بين المشرق والمغرب وطلوع الشمس إلى غروبها.

**قوله:** ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

---

١.الكامل للمبرد ١: ١٩٢ منسوباً إلى يزيد بن الصعق الكلابي، وثمة اختلاف في النسبة يراجع بشأنها هامش ٢ ص١٥٥ ج١ من تفسير الطبري تحـ شاكر.

٢.شرح القصائد السبع الطوال: ٣٨٨.

٣.شرح ديوان زهير: ١٨٣ ط دار الكتب المصرية.

٤.ديوان الأعشى الكبير: ١١ تحـ م محمّد حسين.

٥.شعر المثقب العبدي: ٤٠ تحـ الشيخ محمّد حسن آل يس.

والعبادة ضرب من الشكر، مع ضرب من الخضوع، ولا تستحق إلاّ بأصول النعم التي هي خلق الحياة والقدرة والشهوة وما يقدر من النعم لا يوازيه نعمة منعم، فلذلك اختص الله بأن يعبد، وإن استحق بعضنا على بعض الشكر.

والعبادة في اللغة الذلّة، يقال: هذا طريق معبّد إذا كان مذلّلاً بكثرة الوطء، وبعير معبد أي مذلّل بالركوب، وقيل: أصله إذا طلي بالقطران، وسمّي العبد عبداً لذلّته لمولاه، ومن العرب من يقول: هيّاك، فيبدل الألف هاء كما يقولون: هيه وايه.

ونستعين أي نطلب منك المعونة على طاعتك وعبادتك، وأصله نستعون لأنّه من المعونة، فقلبت الواو ياء لثقل الكسرة عليها، ونقلت كسرتها إلى العين قبلها وبقيت الياء ساكنة، والتقدير في أول السورة إلى هاهنا، أي قل يا محمّد هذا الحمد، وهذا كما قال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا﴾[1] أي: يقولون ربّنا، وكما قال: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾[2] أي: يقولون سلام عليكم. ومن استدلّ بهذه الآية على أنّ القدرة مع الفعل من حيث انّ القدرة لو كانت متقدمة لما كان لطلب المعونة وجه إذا كان الله قد فعلها فيه، فقد أخطأ، لأنّ الرغبة في ذلك تحتمل أمرين:

أحدهما: أن يسأل الله تعالى من ألطافه، وما يقوي دواعيه ويسهل الفعل عليه ما ليس بحاصل، ومتى لطف له بأن يعلمه أنّ له في عاقبة الثواب العظيم والمنازل الجليلة زاد ذلك في نشاطه ورغبته.

والثاني: أن يطلب بقاء كونه قادراً على طاعاته المستقبلة بأن يجدّد له القدرة حالاً بعد حال عند من لا يقول ببقائها، أو لا يفعل ما يضادها وينفيها عند من قال ببقائها.

---

١. السجدة: ١٢.

٢. الرعد: ٢٣ – ٢٤.

فإن قيل: هلاّ قدم طلب المعونة على فعل العبادة لأنّ العبادة لا تتم إلاّ بتقدم المعونة أو لا؟ قيل: في الناس من قال المراد به التقديم والتأخير، فكأنّه قال: إياك نستعين وإياك نعبد، ومنهم من قال: ليس يتغيّر بذلك المعنى، كما انّ القائل إذا قال: أحسنت إليَّ فقضيت حاجتي أو قضيت حاجتي فأحسنت إليَّ، فإنّ في الحالين المعنى واحد.

قال قوم: إنّهم سألوا المعونة على عبادة مستأنفة لا على عبادة واقعة منهم، وإنّما حسن طلب المعونة، وإن كان لابدّ منها مع التكليف على وجه الانقطاع إليه كما قال: ﴿رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾. ولأنّه قد لا يكون في إدامته التكليف اللطف، ولا في فعل المعونة به، إلاّ بعد تقدّم الدعاء من العبد، وإنّما كرّر إياك، لأنّ الكاف التي فيها هي كاف الضمير التي كانت تكون بعد الفعل في قوله نعبدك، فلما قُدّمت، زيد عليها إيّا لأنّ الاسم إذا انفرد لا يمكن أن يكون على حرف واحد فقيل: إياك، ولمّا كانت الكاف يلزم تكرارها لو كرر الفعل وجب مثل ذلك في إياك، ألا ترى أنّه لو قال: نعبدك ونستعينك ونستهديك لم يكن بد من تكرير الكاف، وكذلك لو قدم فقيل: إياك نعبد وإياك نستعين، وفيه تعليم لنا أن نجدّد ذكره عند كلّ حاجة، ومن قال انّه يجري مجرى قول عدي بن زيد العبادي:

وجاعل الشمس مصراً[1] لا خفاء به بين النهار وبين الليل قد فصلا

وكقول أعشى همدان:

بين الأشج وبين قيس باذخٌ بَخٌ بَخٌ لوالده وللمولود[2]

---

١ـ المصر الحاجز، والبيت من قصيدة في شعراء النصرانية، ونقلها عبد المتعال الصعيدي في كتابه زعامة الشعر الجاهلي بين امرئ القيس وعدي بن زيد: ١٠٦.

٢ـ ديوان الأعشيين: ٣٢٣.

فكرّر لفظ بين فقد أخطأ، لأنّ في البيتين لو لم تكرر بين لكان الفعل مستحيلاً، ألا ترى أنّه لو قال: الشمس قد فصلت بين النهار لم يكن كلاماً صحيحاً، وكذلك البيت الآخر وليس كذلك الآية، لأنّه لو قال إياك نعبد وسكت لكان مستقلاً بنفسه، ولهذا طعن به بعض المفسّرين. وعندي أنّ هذا ليس بطعن، لأنّه مغالطة لأنّه لو قال بين النهار والليل لكان كلاماً صحيحاً وإنّما كرر بين، وكذلك لو قال إياك نعبد ونستعين كان كلاماً صحيحاً وإنّما كرر ﴿إِيَّاكَ﴾ تأكيداً، والعلّة ما ذكرناه أولاً.

**قوله:** ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

ومعنى إهدنا يحتمل أمرين:

أحدهما: أرشدنا، كما قال طرفة:

للفتى عقل يعيش به حيث يهدي ساقه قدمه[1]

والثاني: وفّقنا كما قال الشاعر:

فلا تعجلني هداك المليك فإنّ لكل مقام مقالا[2]

أي وفقك.

والآية تدلّ على بطلان قول من يقول: لا يجوز الدعاء بأن يفعل الله ما يعلم أنّه يفعله لأنّه عبث، لأنّ النبيّ ﷺ كان عالماً بأنّ الله يهديه الصراط المستقيم، وأنّه قد فعل ذلك، ومع ذلك كان يدعو به، وقد تكون الهداية بمعنى أن يفعل بهم اللطف الّذي يدعوهم إلى فعل الطاعة، والهدى يكون أيضاً بمعنى

١. أشعار الشعراء الستة الجاهليين ٢: ٧٧.

٢. البيت منسوب إلى طرفة بن العبد وليس في ديوانه راجع الفاخر: ٣١٤ للمفضل بن سلمة ط سلسلة تراثنا بتحقيق عبد العليم الطحاوي، وفيه أول من قال ذلك طرفة بن العبد في شعر يعتذر فيه إلى عمرو بن هند وروايته: تصدّق عليّ فداك المليك... .

العلم لصاحبه؛ لأنّه مهتد على وجه المدح، والهدى يكون أن يهديه إلى طريق الجنة، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾، وأصل الهداية في اللغة: الدلالة على طريق الرشد.

فإن قيل: ما معنى المسألة في ذلك وقد هداهم الله الصراط المستقيم، ومعلوم أنّ الله تعالى يفعل بهم ما هو أصلح لهم في دينهم؟ قيل: يجوز أن يكون ذلك عبادة وانقطاعاً إليه تعالى كما قال: ﴿رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ وإن علمنا أنّه لا يحكم إلاّ بالحق، ويكون لنا في ذلك مصلحة كسائر العبادات، وكما تعبّدنا بأن نكرّر تسبيحه وتحميده والإقرار بتوحيده ولرسوله بالصدق، إن كنّا معتقدين لجميع ذلك.

ويجوز أن يكون المراد بذلك الزيادة في الألطاف كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً﴾[١] وقال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ﴾[٢] ويجوز أن يكون الله تعالى يعلم أنّ أشياء كثيرة تكون أصلح لنا، وأنفع لنا إذا سألناه، وإذا لم نسأله لا يكون ذلك مصلحة، وكان ذلك وجهاً في حسن المصلحة.

ويجوز أن يكون المراد استمرار التكليف والتعريض للثواب، لأنّ إدامته ليست واجبة بل هو تفضّل محض جاز أن يرغب فيه بالدعاء، ويلزم المخالف أن يقال له: إذا كان الله تعالى قد علم أنّه يفعل ذلك لا محالة، فما معنى سؤاله ما علم أنّه يفعله، فما أجابوا به فهو جوابنا.

والصراط المستقيم هو الدين الحقّ الّذي أمر الله به من توحيده، وعدله، وولاية من أوجب طاعته، قال جرير:

---

١. محمّد: ١٧.

٢. المائدة: ١٦.

أمير المؤمنين على صراط    إذا عوّج الموارد مستقيم[١]

أي على طريق واضح. وقال الشاعر:

فصد عن نهج السراط الواضح[٢]

وقيل في معنى قوله: ﴿الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ وجوه:

أحدها: إنّه كتاب الله، وروي ذلك عن النبيّ ﷺ وعن عليّ عليه السلام وابن مسعود.

والثاني: انّه الإسلام، حكي ذلك عن جابر وابن عباس.

والثالث: انّه دين الله عزّ وجلّ الّذي لا يقبل من العباد غيره.

والرابع: أنّه النبيّ ﷺ والأئمة عليهم السلام القائمون مقامه صلوات الله عليهم، وهو المروي في أخبارنا.

والأولى حمل الآية على عمومها، لأنّا إذا حملناها على العموم دخل جميع ذلك فيه، فالتخصيص لا معنى له.

## قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ آية.

معناه بيان الصراط المستقيم، إذ كان كلّ طريق من طرق الحقّ صراطاً مستقيماً، والمعنى صراط من أنعمت عليهم بطاعتك.

## قوله تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ هم اليهود عند جميع المفسّرين الخاص والعام، لأنّه تعالى قد أخبر أنّه غضب عليهم وجعل فيهم القردة والخنازير، ﴿وَلَا

١.ديوان جرير: ٥٠٧.

٢.ورد في تفسير الطبري الصراط القاصد، لكن القرطبي رواه كما في المتن.

﴿الضَّالِّينَ﴾ هم النصارى، لأنّه قال: ﴿وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾[1] وقال: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني النصارى. وروي ذلك عن النبيّ ﷺ.

وأمّا الغضب من الله فهو إرادة العقاب المستحق بهم، ولعنهم وبراءته منهم، وأصل الغضب الشدة، ومنه الغضبة الصخرة الصلبة الشديدة المركبة في الجبل المخالفة له، ورجل غضوب شديد الغضب، والغضوب الحية الخبيثة لشدّتها، والغضوب الناقة العبوس.

وأصل الضلال الهلاك، ومنه قوله: ﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ﴾ أي هلكنا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أهلكها. والضلال في الدين الذهاب عن الحقّ، والإضلال الدعاء إلى الضلال والحمل عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمْ السَّامِرِيُّ﴾[2] والإضلال الأخذ بالعاصين إلى النار، والإضلال الحكم بالضلال، والإضلال التحيير بالضلال بالتشكيك لتعدل عنه.

واليهود ـ وإن كانوا ضُلّالاً ـ والنصارى ـ وإن كانوا مغضوباً عليهم ـ فإنّما خصّ الله تعالى كلّ فريق منهم بسمة يعرف بها ويميّز بينه وبين غيره بها، وإن كانوا مشتركين في صفات كثيرة، وقيل أنّه أراد ﴿بالْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ جميع الكفّار، وإنّما ذكروا بالصفتين لاختلاف الفائدتين.

وروى جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: «قسّمت الصلاة بيني وبين عبدي فله ما سأل، فإذا قال العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قال: أثنى عليَّ عبدي، وإذا

---

١. المائدة: ٧٧.

٢. طه: ٨٥.

قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: مجدّني عبدي، ثمّ قال: هذا لي وله ما بقي»[١].

ولا يجوز عندنا أن يقول القارئ عند خاتمة الحمد: آمين، فإن قال ذلك في الصلاة متعمّداً بطلت صلاته لأنّه كلام لا يتعلّق بالصلاة، ولأنّه كلام لا يستقل بنفسه وإنّما يفيد إذا كان تأميناً على ما تقدّم، ومتى قصد بما تقدّم الدعاء لم يكن تالياً للقرآن، فتبطل صلاته، وإن قصد التلاوة لا يكون داعياً فلا يصحّ التأمين، وإن قصدهما فعند كثير من الأصوليين أنّ المعنيَين المختلفَين لا يصحّ أن يردا بلفظ واحد، ومن أجاز ذلك ـ وهو الصحيح ـ منع منه لقيام الدلالة على المنع من ذلك، فلأجل ذلك لم يجز.

---

١ـ تفسير الطبري ١: ٢٠١، وفي الدر المنثور للسيوطي ١: ٦ نسبه لابن جرير وابن أبي حاتم في تفسيريهما.

# سورة البقرة

وهي مائتان وست وثمانون آية في الكوفي، وسبع بصري، وخمس مدني، وروي أنّ قوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ ـ نزلت في حجة الوداع.

## قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾

آية (١) عند الكوفيين.

المعنى: واختلف العلماء في معنى أوائل هذه السور مثل ﴿آلم﴾ و﴿آلمص﴾ و﴿كهيعص﴾ و﴿طه﴾ و﴿ص﴾ و﴿ق﴾ و﴿حم﴾ وغير ذلك على وجوه، فقال بعضهم: انّها إسم من أسماء القرآن، ذهب إليه قتادة ومجاهد وابن جريج.

وقال بعضهم: هي فواتح يفتح بها القرآن، روي ذلك عن مجاهد أيضاً[١] واختاره البلخي.

وفائدتها أن يعلم ابتداء السورة وانقضاء ما قبلها، وذلك معروف في كلام العرب، وأنشد بعضهم:

بل وبلدة ما الأنس من آهالِها[٢]

---

١. تفسير الطبري ١: ٢٠٦ محققة.

٢.ن م ١: ٢١٠ غير منسوب.

ويقول آخر:

بل ما هيج أحزاناً وشجواً قد شجا[١]

وقوله: بل ليس من الشعر، وإنّما أراد أن يعلم أنّه قطع كلامه وأخذ في غيره، وأنّه مبتدأ الّذي أخذ فيه غير ناسق له على ما قبله.

وقال بعضهم: هي اسم للسورة، روي ذلك عن زيد بن أسلم والحسن.

وقال بعضهم: هي اسم الله الأعظم، وروي ذلك عن السدي إسماعيل وعن الشعبي.

وقال بعضهم: هي قسم أقسم الله به وهي من أسمائه، وروي ذلك عن ابن عباس وعكرمة[٢].

وقال قوم: هي حروف مقطعة من أسماء، واقعاً كلّ حرف من ذلك بمعنى غير معنى الحرف الآخر، يعرفه النبيّ ﷺ نحو قال الشاعر:

نادوهم أن ألجموا ألاتا    قالوا جميعاً كلهم ألافا

يريد ألا تركبون؟ قالوا: ألا فاركبوا، وقال آخر:

قلنا لها قفي فقالت قاف[٣]

بمعنى قالت أنا واقفة. روى ذلك أبو الضحى عن ابن عباس وعن ابن مسعود وجماعة من الصحابة.

---

١.ن م ١: ٢١٠ نسبه المحقق إلى العجاج في ديوانه: ٧.

٢.ن م ١: ٢٠٦.

٣.في تفسير الطبري ١: ٢١٢ تتمة الرجز لا تحسبي أنا نسينا الإيجاف ونسبه في الهامش للوليد بن عقبة.

وقال بعضهم: هي حروف هجاء موضوعة، روي ذلك عن مجاهد.

وقال بعضهم: هي حروف هجاء يشتمل كلّ حرف على معان مختلفة. روي ذلك عن الربيع بن أنس واختاره الطبري[١].

وقال بعضهم: هي حروف من حساب الجمل.

وقال بعضهم: لكلّ كتاب سر وسر القرآن في فواتحه. هذه أقوال المفسّرين.

فأما أهل اللغة فإنّهم اختلفوا فقال بعضهم: هي حروف المعجم استغني بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقيها التي هي تمام ثمانية وعشرين حرفاً كما يستغنى بذكر أ ب ت ث عن ذكر الباقي، وبذكر ﴿قفا نبك﴾ عن ذكر باقي القصيدة، قالوا: ولذلك رفع ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ لأنّ معناه عن الألف واللام والميم من الحروف المقطعة، وقوله: ذلك الكتاب الّذي أنزلته إليك مجموعاً لا ريب فيه، كما قالوا في أبي جاد أ ب ت ث ولم يذكروا باقي الحروف، وقال راجز بني أسد:

لما رأيت أمرها في حطي أخذت منها بقرون شمط[٢]

فأراد الخبر عن المرأة بأنّها من أبي جاد، فأقام قوله في حطي مقامه لدلالة الكلام عليه.

وقال آخرون: بل ابتدئت بذلك أوائل السور ليفتح لاستماعه أسماع المشركين إذ تواصوا بالإعراض عن القرآن حتى إذا استمعوا له، تلا عليهم آلم.

---

١.ن م ١: ٢٢٠.

٢.في تفسير الطبري ١: ٢٠٩ ورد الرجز أكثر من هنا فراجع.

وقال بعضهم: الحروف التي هي أوائل السور، حروف يفتتح الله بها كلامه.

وقال أبو مسلم: المراد بذلك، أنّ هذا القرآن الّذي عجزتم عن معارضته، ولم تقدروا على الإتيان بمثله هو من جنس هذه الحروف التي تتحاورون بها في كلامكم وخطابكم، فحيث لم تقدروا عليه فاعلموا أنّه من فعل الله، وإنّما كررت في مواضع استظهاراً في الحجة، وحكي ذلك عن قطرب.

وروي في أخبارنا: إنّ ذلك من المتشابه الّذي لا يعلم تأويله إلاّ الله، واختاره الحسين بن عليّ المغربي، وأحسن الوجوه التي قيلت قول من قال: انّها أسماء للسور خص الله تعالى بها بعض السور بتلك، كما قيل للمعوذتين: المقشقشتان ؛ أي تبرءان من النفاق، وكما سميت الحمد أم القرآن وفاتحة الكتاب. ولا يلزم أن لا تشترك سورتان أو ثلاث في إسم واحد، وذلك أنّه كما يشترك جماعة من الناس في إسم واحد، فإذا أريد التمييز زيد في صفته، وكذلك إذا أرادوا تمييز السورة قالوا: آلم ذلك، آلم الله، آلم، وغير ذلك.

وليس لأحد أن يقول: كيف تكون أسماء للسور، والاسم غير المسمّى، فكان يجب ألا تكون هذه الحروف من السورة، وذلك خلاف الإجماع؟.

قيل: لا يمتنع أن يسمّى الشيء ببعض ما فيه، ألا ترى أنّهم قالوا: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، ولا خلاف أنّها أسماء للسور وإن كانت بعضاً للسور، ومن فرّق بين الأشخاص وغيرها في هذا المعنى فأوجب في الأشخاص أن يكون الاسم غير المسمى ولم يوجب في غيرها، فقد أبعد، لأنّه لا فرق بين الموضعين على ما مضى القول فيه، ولا يلزم أن تسمّى كلّ سورة بمثل ذلك، لأنّ المصلحة في ذلك معتبرة، وقد سمّى الله كلّ سورة بتسمية تخصها وإن لم تكن

من هذا الجنس، كما أنّه لما سمّى الحمد بأسمائها لم يلزم ذلك في كلّ سورة.

وقيل: أنّها أوائل أسماء يعلم النبيّ ﷺ تمامها، والغرض بها، نحو ما رويناه عن ابن عباس، كما قال الشاعر:

سـألتها الوصـل فقالـت: قـاف

يعني: وقفت. وقال آخر:

بـالخير خيـرات وإن شـراً فـا

يريد: فشراً، وقال آخر:

ولا أريـــد الشـــر إلاّ أن تـــا

يعني: إلاّ أن تشاء. وقال آخر:

ما للظليم[1] عال[2] كيف لا يا    ينقـدّ عنـه جلـده إذا يـا

أي: إذا يفزع. فعلى هذا يحتمل أن يكون الألف: أنا، واللام: الله، والميم: اعلم، وكذلك القول في الحروف، وعلى هذا لا موضع لألف لام ميم من الإعراب، وعلى قول من قال انّها أسماء السور موضعها الرفع، كأنّه قال هذه الم، أو يكون ابتداءه ويكون خبره ذلك الكتاب.

وأجمع النحويون على أنّ هذه الحروف وجميع حروف الهجاء مبنية على الوقف لا تعرب، كما بني العدد على الوقف، ولأجل ذلك جاز أن يجمع

---

١.الظليم: ذكر النعام.

٢ـ عال: دعاء عليه من قولهم: عال عوله أي ثكلته أمه فاختصر والبيت من الشواهد، راجع شرح الشافية: ٢٦٧.

بين ساكنين كما جاز ذلك في العدد، تقول: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، فتقطع ألف اثنين وهي ألف وصل، وتذكر الهاء في ثلاثة وأربعة، فلو لم تنو الوقف لقلت ثلاث بالثاء.

**قوله تعالى:** ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾.

هذه لفظة يشار بها إلى ما قَرُب، وذلك إلى ما بَعُد، وذاك إلى ما بينهما، ويحتمل أن يكون معنى ذلك هاهنا هذا؛ على قول عكرمة وجماعة من أهل العربية كالأخفش وأبي عبيدة وغيرهما؛ قال:

أقول له والرمح يأطر متنه　　تأمل خفافاً انّني أنا ذلكا[1]

أي أنّني أنا هذا. وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾[2] وهو موجود في الحال وانّما جاز أن يستعمل هذا، وهي إشارة إلى حاضر، بمعنى ذلك وهي إشارة إلى غايب لأنّه كالحاضر عند الغايب، ألا ترى أنّ الرجل يحدّث حديثاً، فيقول السامع: هذا كما قلت، وربما قال: انّ ذلك كما قلت، وإنّما جاز ذلك لقرب جوابه من كلام المخبر، وكذلك لمّا قال تعالى ﴿آلم﴾ وذكرنا معنى ذلك، قال لنبيّه: يا محمّد هذا الّذي ذكرته وبيّنته، ذلك الكتاب، فلذلك حسن وضع ذلك في مكان هذا، لأنّه إشارة إلى ما مضى.

وقال قوم: انّ معناه ذلك الكتاب الّذي وعدوا به على لسان موسى وعيسى، كما قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ يعني: هذا ذلك الكتاب.

---

١.في تفسير الطبري ١: ٢٢٧ نسب البيت وقبله بيت آخر لخفاف بن ندبة.

٢.السجدة: ٦.

وقال قوم: إنّما أشار إلى ما كان نزل من القرآن بمكة من السور فقال ذلك، والأول أقوى لأنّه أشبه بأقوال المفسّرين، وأمّا من حمل ذلك على أنّه أشار به إلى التوراة والانجيل فقد أبطل، لأنّه وصفه بأنّه ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ وأنّه ﴿هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾، ووصف ما في أيديهم بأنّه مغيّر محرّف في قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾[١].

**قوله تعالى:** ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

ومعنى لا ريب فيه، أي لا شك فيه، والريب الشك، وهو قول ابن عباس ومجاهد وعطاء والسدي وغيرهم، وقيل: هو أشد الشك، وهو مصدر رابني الشيء يريبني. قال ساعدة بن جُؤية الهذلي:

فقالوا تركنا الحي قد حصروا به     فلا ريب ان قد كان ثَمّ لحيمِ[٢]

أي أطافوا به واللحيم القتيل، يقال: لحم إذا قتل، والهاء فيه عائدة على الكتاب، ويحتمل أن يكون لا ريب فيه خبراً، والمعنى أنّه حقّ في نفسه، ولا يكون المراد به أنّه لا يقع فيه ريب، لأنّ من المعلوم أنّ الريب واقع فيه من الكفّار وفي صحته، ويجري ذلك مجرى الخبر إذا كان مخبره على ما هو به في أنّه يكون صدقاً وإن كذّبه قوم ولم يصدّقوه.

ويحتمل أن يكون معناه الأمر، أي تيقّنوه ولا ترتابوا فيه.

**قوله تعالى:** ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ آية (٢).

---

١.النساء آية ٤٦.

٢.ديوان الهذليين ١: ٢٣٢.

المعنى: معناه نور وضياء ودلالة للمتقين من الضلالة، وإنّما خصّ المتقين بذلك وإن كان هدى لغيرهم من حيث أنّهم هم الذين اهتدوا به وانتفعوا به كما قال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ وإن كان أنذر من لم يتبع الذكر، ويقول القائل: في هذا الأمر موعظة لي أو لك وإن كان فيه موعظة لغيرهما، ويقال: هديت فلاناً الطريق إذا أرشدته ودللته عليه، أهديه هداية.

والمتقي هو الذي يتقي بصالح أعماله عذاب الله، مأخوذ من اتقاء المكروه بما يجعله حاجزاً بينه وبينه كما قال أبو حية النميري:

وألقت قناعاً دونه الشمس واتقت     بأحسن موصولين كف ومعصم[١]

وقيل: إنّ المتقين هم الذين اتقوا ما حرم عليهم وفعلوا ما وجب عليهم، وقيل: إنّ المتقين هم الذين يرجون رحمة الله ويحذرون عقابه.

وقيل: إنّ المتقين هم الذين اتقوا الشرك وبرئوا من النفاق، وهذا الوجه ضعيف لأنّه يلزم عليه وصف الفاسق المتهتك بأنّه متقٍ إذا كان بريئاً من الشرك والنفاق. وأصل الاتقاء الحجز بين الشيئين، ومنه اتقاه بالترس لأنّه جعله حاجزاً بينه وبينه، واتقاه بحق كذلك، ومنه الوقاية لأنّها تحجز بين الرأس والأذى.

ومنه التقية في إظهار خلاف الابطان، والفرق بينه وبين النفاق: انّ المنافق يظهر الخير ويبطن الشر، والمتقي يظهر القبيح ويبطن الحسن، ويقال: وقاه يقيه وقاية وتوقاه توقياً.

**قوله تعالى:** ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ آية بلا خلاف (٣).

---

١.البيت من الشواهد في مجمع البيان وتفسير ابن كثير واماليي المرتضى ٢: ١٠٠ – ١٠١ وغيرها.

والإيمان في اللغة هو التصديق، ومنه قوله: وما أنت بمؤمن لنا، أي بمصدّق لنا. وقال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾[1] وكذلك هو في الشرع عند أكثر المرجئة، والمراد بذلك التصديق بجميع ما أوجب الله أو ندبه أو أباحه، وهو المحكي عن ابن عباس في هذه الآية لأنّه قال: الذين يصدّقون بالغيب.

وحكى الربيع بن أنس أنّه قال: الذين يخشون بالغيب، وقال: معناه يطيعون الله في السر والعلانية، وقيل: إنّ الإيمان مشتق من الأمان، والمؤمن من يؤمّن نفسه من عذاب الله، والله المؤمّن لأوليائه من عذابه، وذلك مروي في أخبارنا، وقالت المعتزلة بأجمعها: الإيمان هو فعل الطاعة، ومنهم من اعتبر فرائضها ونوافلها، ومنهم من اعتبر الواجب منها لا غير، واعتبروا اجتناب الكبائر من جملتها.

وروي عن الرضا عليه السلام: إنّ الإيمان هو التصديق بالقلب والعمل بالأركان والقول باللسان[2]، وقد بيّنا الأقوى من ذلك في كتاب الأصول.

وأمّا ﴿الغيب﴾ فحكي عن ابن عباس أنّه قال: ما جاء من عند الله [3]، وقال جماعة من الصحابة كابن مسعود وغيره: إنّ الغيب ما غاب عن العباد علمه من أمر الجنة والنار والأرزاق والأعمال وغير ذلك [4] وهو الأولى لأنّه عام، ويدخل فيه ما رواه أصحابنا من زمان الغيبة، ووقت خروج المهدي عليه السلام.

---

١.النساء: ٥٠.

٢.روى الصدوق في كتاب عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٧٧ ط الحيدرية عدّة روايات عنه عليه السلام بهذا المعنى متقاربة الألفاظ.

٣.تفسير الدر المنثور ١: ٣٥ نقلاً عن ابن اسحاق وابن جرير عن ابن عباس.

٤.ن م ١: ٣٥.

وقال قوم: الغيب هو القرآن، حكي ذلك عن زر بن حبيش، وذكر البلخي: انّ الغيب كلّ ما أدرك بالدلائل والآيات ممّا تلزم معرفته، وقال الرماني: الغيب خفاء الشيء عن الحس قرب أو بعد، إلاّ أنّه قد كثرت صفة الغائب على البعيد الّذي لا يظهر للحس.

وأصل الغيب من غاب، يقولون: غاب فلان يغيب، وليس الغيب ما غاب عن الإدراك لأنّ ما هو معلوم وإن لم يكن مشاهداً، لا يسمّى غيباً، والأولى أن تحمل الآية على عمومها في جميع من يؤمن بالغيب.

وقال قوم: إنّها متناولة لمؤمني العرب خاصة دون غيرهم من مؤمني أهل الكتاب، قالوا: بدلالة قوله فيما بعد: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ قالوا: ولو لم يكن للعرب كتاب قبل الكتاب الّذي أنزله الله على نبيّه تدين بتصديقه، وإنّما الكتاب لأهل الكتابين، وهذا غير صحيح، لأنّه لا يمنع أن تكون الآية الأولى عامة في جميع المؤمنين المصدقين بالغيب وإن كانت الآية الثانية خاصة في قوم، لأنّ تخصيص الثانية لا يقتضي تخصيص الأولى.

وقال قوم: انّهما مع الآيتين اللتين بعدهما أربع آياتٍ نزلت في مؤمني أهل الكتاب، لأنّه ذكرهم في بعضها.

وقال قوم: انّ الأربع آيات من أول السورة نزلت في جميع المؤمنين، واثنتان نزلتا في نعت الكافرين، وثلاثة عشر في المنافقين، وهذا أقوى الوجوه، لأنّه حمل على عمومه، وحكي ذلك عن مجاهد.

وقوله: ﴿يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ فاقامتها أداؤها بحدودها وفرائضها وواجباتها، كما فرضت عليهم، يقال: أقام القوم سوقهم إذا لم يعطلوها من البيع والشراء، قال الشاعر:

أقمنـا لأهـل العـراقين سـوق الضراب فخاموا وولوا جميعا[١]

وقال أبو مسلم محمّد بن بحر: معنى ﴿يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ يديمون أداء فرضها، يقال للشيء الراتب: قائم ولفاعله مقيم، ومن ذلك: فلان يقيم أرزاق الجند.

وقيل: أنّه مشتق من تقويم الشيء من قولهم: قام بالأمر، إذا أحكمه وحافظ عليه، وقيل: انّه مشتق ممّا فيه من القيام، ولذلك قيل قد قامت الصلاة.

وأمّا الصلاة فهي الدعاء في اللغة، قال الشاعر:

وقابلهـا الـريح فـي دنّهـا وصـلّى علـى دنّهـا وارتـسم[٢]

أي دعا لها. وقال الأعشى:

لها حارس لا يبرح الدهر بيتها فإن ذبحت صلّى عليها وزمزما[٣]

يعني دعا لها، وأصل الاشتقاق في الصلاة من اللزوم من قوله: ﴿تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً﴾[٤] والمصدر الصلا، ومنه اصطلى بالنار إذا لزمها، والمصلي الّذي يجيئ في أثر السابق للزوم أثره، ويقال للعظم الّذي في العجز صلواً، وهما صلوان.

فأمّا في الشرع ففي الناس من قال: إنّها تخصّصت بالدعاء والذكر في موضع مخصوص، ومنهم من قال ـ وهو الصحيح ـ: إنّها في الشرع عبارة عن

---

١.لم أقف على قائله.

٢.البيت للأعشى كما في ديوانه: ٢٩.

٣.ن م: ٢٠٠.

٤.الغاشية: ٤.

الركوع والسجود على وجه مخصوص وأركان وأذكار مخصوصة، وقيل: انّها سميت صلاة لأنّ المصلّي متعرض لاستنجاح طلبته من ثواب الله ونعمه مع ما يسأل ربه فيها من حاجاته.

وأمّا الرزق، فهو ما للحي الانتفاع به على وجه لا يكون لأحد منعه منه، وهذا لا يطلق إلاّ فيما هو حلال، فأمّا الحرام فلا يكون رزقاً لأنّه ممنوع منه بالنهي، ولصاحبه أيضاً منعه منه، ولأنّه أيضاً مدحهم بالإنفاق ممّا رزقهم، والمغصوب والحرام يستحق الذم على إنفاقه، فلا يجوز أن يكون رزقاً.

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ حكي عن ابن عباس: أنّها الزكاة المفروضة يؤتيها احتساباً، وحكي عن ابن مسعود: أنّها نفقة الرجل على أهله، لأنّ الآية نزلت قبل وجوب الزكاة، وقال الضحاك: هو التطوّع بالنفقة فيما قرّب من الله، والأولى حمل الآية على عمومها فيمن أخرج الزكاة الواجبة، والنفقات الواجبة، وتطوّع بالخيرات.

وأصل الرزق الحظ لقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[١]: أي حظكم، وما جعله حظاً لهم فهو رزقهم.

والإنفاق أصله الإخراج، ومنه قيل: نفقت الدابة إذا خرجت روحها، والنافقاء، جحر اليربوع، من ذلك لأنّه يخرج منها، ومنه النفاق لأنّه يخرج إلى المؤمن بالايمان، وإلى الكافر بالكفر.

**قولـه تعـالى:** ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ آية (٤).

---

١.الواقعة: ٨٢.

قال قتادة: ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ الكتب الماضية، وقد بيّنا أنّ الأولى حمل الآية على عمومها في المؤمنين، وذكرنا الخلاف فيه، والآخرة صفة الدار، فحذف الموصوف، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ وصفت بذلك لمصيرها آخرة لأولى قبلها كما يقال: جئت مرّة بعد أخرى، ويجوز أن يكون سمّيت بذلك لتأخيرها عن الخلق، كما سمّيت الدنيا دنيا لدنوّها من الخلق؛ وإيقانهم ما جحده المشركون من البعث والنشور والحساب والعقاب، وروي ذلك عن ابن عباس، والإيقان بالشيء هو العلم به؛ وسمّي يقيناً لحصول القطع عليه وسكون النفس إليه.

**قولـــه تعـــالى:** ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ آية(٥).

أولئك بهمزتين، وفيهم من يخففهما وحمزة يمد أولئك، وأولئك اسم مبهم يصلح لكل حاضر تعرفه الإشارة كقولك ذاك في الواحد، وأولاء جمع ذاك في المعنى، ومن قصر قال أولا وأولا لك، وإذا أمددته لم يجز زيادة اللام لئلا يجتمع ثقل الهمزة وثقل الزيادة، وتقول: أولاء للقريب، وها أولئك للبعيد، وأولئك للمتوسط.

وأضيف الهدى إلى الله لأحد الأمرين:

أحدهما: لما فعل بهم من الدلالة على الهدى والإيضاح له، والدعاء إليه.

الثاني: لأنّه يثيب عليه، فعلى هذا يضاف الإيمان بأنّه هداية من الله.

وهدى في موضع خفض بعلى، ومعنى ﴿عَلَى هُدىً﴾: أي على حقّ وخير بهداية الله إياهم ودعائه إلى ما قالوا به، ومن قال: هم على نور واستقامة أو

بيان ورشد، فهو داخل تحت ما قلنا، والأولى أن يكون ذلك عاماً فيمن تقدّم ذكره في الآيتين، ومن خصّ ذلك فقد ترك الظاهر ؛ لأنّ فيهم من خصّها بالمعنيين في الآية الأولى، وفيهم من خصّها بالمذكورين في الآية الثانية، وقد بيّنا أنّ الجمع محمول على العموم وحملها على العموم في الفريقين محكي عن ابن عباس وابن مسعود.

﴿والْمُفْلِحُونَ﴾ هم المنجحون الذين أدركوا ما طلبوا من عند الله بأعمالهم وإيمانهم، والفلاح: النجاح. قال الشاعر:

اعقلي إن كنت لما تعقلي ولقد أفلح من كان عقل[١]

يعني من ظفر بحاجته وأصاب خيراً، وتقول: أفلح يفلح إفلاحاً، وتقول: فلح يفلح فَلاحاً وفِلاحاً، والفلاح البقاء أيضاً. قال لبيد:

نُحلّ بلاداً كلّها حُلّ قبلَنا ونرجو فلاحاً بعد عاد وحمير[٢]

يعني البقاء وأصل الفلح القطع، فكأنّه قطع لهم بالخير، ومنه قيل للاكار فلاحاً لأنّه يشق الأرض، والفلاح المكاري لأنّه يقطع الأرض، قال الشاعر:

إنّ الحديد بالحديد يفلح

وفي أولئك لغات، فلغة أهل الحجاز: أوليك بالياء، وأهل نجد وقيس وربيعة وأسد يقولون: أولئك بهمز، وبعض بني سعيد من بني تميم يقولون: الأّك مشدّدة، وبعضهم يقول: الالك. قال الشاعر:

ألا لك قوم لم يكونوا أشابة وهل يعظ الضليل إلاّ ألالكا[٣]

---

١.ديوان لبيد ٢: ١٢.

٢.ن م القصيدة: ١٤.

٣.الاشابة من الناس الأخلاط.

وهم دخلت للفصل.

**قوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ آية (٦).

النزول: نزلت في أبي جهل وفي خمسة من قومه من قادة الأحزاب قتلوا يوم بدر في قول الربيع بن أنس ، واختاره البلخي والمغربي، وقال ابن عباس: نزلت في قوم بأعيانهم من أحبار اليهود ذكرهم بأعيانهم ، من اليهود الذين حول المدينة، وقال قوم: نزلت في مشركي العرب ، واختار الطبري قول ابن عباس.

والّذي نقوله إنّه لابدّ أن تكون الآية مخصوصة لأنّ حملها على العموم غير ممكن ، لأنّا علمنا أنّ في الكفّار من يؤمن فلا يمكن العموم ، وأما القطع على واحد مما قالوه فلا دليل عليه ، ويجب تجويز كل واحد من هذه الأقوال ، ومن مات منهم على كفره يقطع على أنّه مراد بالآية ، فعلى هذه قادة الأحزاب مرادون على ما قال ربيع بن أنس ومن قتل يوم بدر كذلك.

ومن قال إنّ الآية مخصوصة بكفّار أهل الكتاب قال: لأنّ ما تقدّمها مختص بمؤمنيهم، فيجب أن يكون ما يعقبها مختصّاً بكفّارهم، وقد قلنا إنّ الآية الأولى حملها على عمومها أولى، ولو كانت خاصة بهم لم يجب حمل هذه الآية على الخصوص لما تقدّم فيما مضى، والذين نصب بأن، والكفر هو الجحود والستر، ولذلك سمّي الليل كافراً لظلمته، قال الشاعر:

فتذكّرا ثَقَلا رئيداً بعد ما ألقت ذكاء يمينها في كافر[1]

---

١.البيت من شعر ثعلبة بن صعير المازني كما في شرح المفضليات: ٢٥٧ والرئيد المنضّد بعضه فوق بعض، وذكاء هي الشمس.

وقال لبيد:

فـي ليلـة كفـر النجـوم غمامهـا[١]

يعني غطاها.

والكافور اكمام الكرم الّذي يكون فيه، والكفري وِعاءُ الطلعة لأنّه يستر اللب، ومنه قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ وسمّي الزارع كافراً لتغطيته البذر، ويقال فلان متكفّر بالسلاح إذا تغطى به، وفي الشرع عبارة عمّن جحد ما أوجب الله عليه معرفته من توحيده وعدله ومعرفة نبيّه والاقرار بما جاء به من أركان الشرع، فمن جحد شيئاً من ذلك كان كافراً، وربما تعلّقت به أحكام مخصوصة من منع الموارثة والمناكحة والمدافنة والصلاة عليه، وربما لم يتعلّق بحسب الدليل عليه.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ جمع بين الهمزتين أهل الكوفة وابن عامر إلاّ الحلواني، وكذلك في كلّ همزتين في كلمة واحدة إذا كانت الأولى للإستفهام إلاّ في مواضع مخصوصة نذكرها فيما بعد، والباقون بتخفيف الأولى وتليين الثانية، وفصل بينهما بالألف أهل المدينة إلاّ ورشاً وأبا عمرو والحلواني عن هشام.

ومعنى قوله: ﴿سواء﴾ أي معتدل مأخوذ من التساوي كقولك متساو، وتقول: هذان الأمران عندي سواء أي معتدلان، ومنه قوله: ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾[٢] يعني بذلك أعلمهم وآذنهم للحرب ليستوي علمك وعلمهم بما عليه كلّ فريق منكم للآخر ومعناه: أيّ الأمرين كان منك إليهم الانذار أم ترك الانذار

---

١. ديوان لبيد في معلّقته المشهورة وتتمة البيت: يعلو طريقة متنها متواترا .

٢. الأنفال: ٥٨.

فإنّهم لا يؤمنون. وقال عبد الله بن قيس الرقيات:

تغذّ بي الشهباء نحو ابن جعفر    سواء عليها ليلها ونهارها[١]

يعني بذلك عندها معتدل في السير الليل والنهار، لأنّها لا فتور فيه، ومنه قول الآخر:

وليل يقول المرء من ظلماته    سواء صحيحات العيون وعورها[٢]

لأنّ الصحيح لا يبصر فيه إلاّ بصراً ضعيفاً من ظلمته، وهذا لفظه لفظ الاستفهام ومعناه الخبر، وله نظائر في القرآن، كما تقول ما أبالي أقمت أم قعدت، وأنت مخبر لا مستفهم لأنّه وقع موقع أي، كأنّك قلت لا أبالي أيّ الأمرين كان منك، وكذلك معنى الآية: سواء عليهم أيّ هذين منك إليهم حسن في موضعه، سواء فعلت أم لم تفعل.

وقال بعض النحويين: انّ حرف الاستفهام إنّما دخل مع سواء وليس باستفهام ؛ لأنّ المستفهم إذا استفهم غيره قال: أزيد عندك أم عمرو، ويستفهم صاحبه أيّهما عنده وليس أحدهما أحق بالاستفهام من الآخر، فلمّا كان قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ بمعنى التسوية أشبه ذلك الاستفهام إذ شبهه بالتسوية، وقال جرير:

ألستم خير من ركب المطايا    وأندى العالمين بطون راح[٣]

فهذا في صورة الاستفهام وهو خبر، لأنّه لو أراد الاستفهام لما كان مدحاً، وقال آخر:

---

١.ديوانه: ١٦٣ يمدح عبد الله بن جعفر الطيار.

٢.الشعر لمضرّ بن ربعي الفقعسي حماسة ابن الشجري: ٢٠٤.

٣.ديوان جرير: ٩٨.

ســواء عليــه أي حــين أتــيته     أسـاعة نحـس تتقـى أم بأسـعد[١]

ولا يجوز أن تقع أو في مثل هذا مكان أم لأنّ أم هي التي تعادل بها الهمزة لا أو.

والفرق بينهما أنّ أو يستفهم بها عند أحد الأمرين هل حصل أم لا وهو لا يعلمهما معاً كقول القائل: أذَّن أو أقام؟ إذ المراد تعلمهما، فإذا علم واحداً منهما ولم يعلمه بعينه قال أذّن أم أقام؟ يستفهم عن تعيين أحدهما هذا في الاستفهام، وفي الخبر تقول: لا أبالي أقمت أم قعدت، أي هما عندي سواء، ولا يجوز أن تقول: لا أبالي أقمت أو قعدت لأنّك لست بمستفهم من شيء.

وأمّا الإنذار فهو إعلام وتخويف، وكلّ منذر معلم، وليس كلّ معلم منذراً، وقد سمّى الله نفسه بذلك فقال: ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً﴾[٢] لأنّ الإعلام يجوز وصفه به، والتخويف أيضاً كذلك في قوله: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾[٣] فإذا جاز وصفه بالمعنيين جاز وصفه بلفظ يشتمل عليهما، وأنذرت فعل متعد إلى مفعولين كقوله تعالى: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾[٤] ﴿إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً﴾ وقد ورد معدّىً بالباء في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾[٥] وقيل: الإنذار هو التحذير من مخوّف يتسع زمانه الاحتراز، فإن لم يتسع زمانه للاحتراز كان إشعاراً ولم يكن انذاراً. قال الشاعر:

---

١. ديوان زهير: ٢٣٢.

٢. النبأ: ٤٠.

٣. الزمر: ١٦.

٤. فصلت: ١٣.

٥. الأنبياء: ٤٥.

أنــذرت عمـراً وهــو فــي مهــل      قبل الصباح فقد عصى عمرو[١]

**قوله تعـالى:** ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ آية (٧).

﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي شهد عليها بأنّها لا تقبل الحقّ، يقول القائل: أراك تختم على كلّ ما يقول فلان، أي تشهد به وتصدّقه، وقد ختمت عليك بأنّك لا تعلم، أي شهدت، وذلك استعارة. وقيل: إنّ ختم بمعنى طبع فيها أثراً للذنوب كالسمة والعلامة لتعرفها الملائكة فيتبرؤوا منهم، ولا يوالوهم، ولا يستغفروا لهم مع استغفارهم للمؤمنين. وقيل: المعنى في ذلك أنّه ذمّهم بأنّها كالمختوم عليها في أنّها لا يدخلها الإيمان ولا يخرج عنها الكفر، قال الشاعر:

لقــد أســمعت لــو ناديــت حيــاً      ولكــن لا حيــاة لمــن تنــادي[٢]

أي كأنّه لا حياة فيه. والختم آخر الشيء ومنه قوله تعالى: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾[٣] ومنه: خاتم النبيين أي آخرهم، ومنه: ختم الكتاب لأنّه آخر حال الفراغ منه والختم الطبع والخاتم الطابع.

وما يختم الله على القلوب من السمة والعلامة التي ذكرناها ليست بمانعة من الإيمان، كما أنّ ختم الكتاب والظرف والوعاء لا يمنع من أخذ ما فيه.

---

١.لم أقف على قائله.

٢.البيت لم أقف على قائله وورد في شواهد مجمع البيان ١: ١١١ مع أبيات أخر نقلاً عن حياة الحيوان.

٣.المطففين: ٢٦.

وحكـي عـن مجاهـد أنّـه قـال: الـرّين أيسـر مـن الطبع، والطبع أيسـر مـن الختم، ومن الإقفال، والقفل أشدّ من ذلك.

وقيـل: إنّ قولـه تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ﴾ إخبار عن تكبرهم وإعراضهم عن الاستماع لما دعوا إليه من الحقّ كما يقال: فلان أصم عن هذا الكلام إذا امتنع عن سماعه ورفع نفسه عن تفهمه.

والغشاوة: الغطاء، وفيها ثلاث لغات: فتح الغين وضمّها وكسرها وكذلك غشوة فيها ثلاث لغات، ويقال: تغشّاني السهم إذا تجلّله، وكلّ ما اشتمل على شـيء مبنـي علـى فعالـة كالعمامـة والقـلادة والعصـابة وكـذلك فـي الصـناعة: كالخياطة، والقصارة، والصباغة، والنساجة وغير ذلك، وكذلك من استولى على شيء كالخلافة، والإمارة، والإجارة وغير ذلك.

قال أبو عبيدة: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ معناه أسماعهم، ووضع الواحد موضع الجمع لأنّه اسم جنس كما قال: ﴿نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾[1] يعني أطفالاً، ويجوز أن يكون أراد موضع سمعهم فحذف لدلالة الكلام عليه، ويجوز أن يكون أراد المصدر لأنّه يدلّ على القليل والكثير ؛ فمن رفع التاء قال: الكلام الأوّل قد تم عند قوله: ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ واستأنف: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ وتقديره: وغشاوة على أبصارهم، ومن نصب قدّره، يعني: جعل على أبصارهم غشاوة، كما قال الشاعر:

علفتهـــا تبنـــاً ومـــاء بـــاردا[2]

---

١.الحج: ٥.

٢.مجهول القائل، وهو من الشواهد وتتمة البيت: حتى شتَت همّالة عيناها .

وقال الآخر: متقلّداً سيفاً ورمحاً[1] لما دلّ الكلام الأوّل عليه، فإذا لم يكن في الكلام ما يدلّ عليه، لا يجوز إضماره، ولا يجوز أن ينصب بالفعل الأوّل الّذي هو الختم، لأنّ الختم لا يطلق على البصر، كما ذكر في قوله تعالى: ﴿وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ﴾ ثمّ قال: ﴿وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾[2] فلم يدخل المنصوب في معنى الختم.

وقال قوم: إنّ ذلك على وجه الدعاء عليهم، لا للإخبار عنهم، وهذا يمكن في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ وفي قوله: ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾ فيمن نصب غشاوة، فأمّا من رفع ذلك، فلا يكون دعاء. والأقوى أنّ ذلك خبر، لأنّه خرج مخرج الذم لهم والازراء عليهم، فكيف يحمل على الدعاء؟

ويحتمل أن يكون المراد بختم أنّه سيختم، ويكون الماضي بمعنى المستقبل، كما قال: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ﴾[3] وعلى هذا يسقط سؤال المخالف.

والقلب جعل الشيء على خلاف ما كان، يقال: قلبه يقلبه قلباً، والقليب البئر لأنّ الماء ينقلب إليها، وما به قلبة: أي انقلاب عن صحّة، وفلان حوّل قلّب: إذا كان يقلّب الأمور برأيه ويحتال عليها، والقلوب الذئب لتقلبه في الحيلة على الصيد بخبثه، وسمّي القلب قلباً لتقلّبه بالخواطر. قال الشاعر:

---

١. كسابقه وأوله: ورأيت زوجك في الوغى، غير انّ المبرّد في الكامل بشرح المرصغي ٣: ٢٣٤ نسبه إلى ابن الزبعري.

٢. الجاثية: ٢٣.

٣. الأعراف: ٤٤.

مـا سُـمّي القلـب إلاّ مـن تقلّبـه والرأي يعزب والإنسان أطوار[١]

والبصر: مصدر بصر به يبصر بصراً، بمعنى أبصره ابصاراً، والبصيرة: الإبصار للحقّ بالقلب، والبصائر قطع الدم لأنّها ترى كثيرة للغسل.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ باظهار التنوين، لأنّ النون تبين عند حروف الحلق، وهي ستة أحرف: العين، والغين، والحاء، والخاء، والهمزة، والهاء، ومن هذه الأحرف ما لا يجوز فيه الاخفاء، وهي العين، كقوله: ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ و ﴿مَنْ عَلَيْهَا﴾. والهمزة، نحو قوله: ﴿غُثَاءً أَحْوَى﴾[٢] والخاء والغين يجوز إخفاؤهما عندهم على ضعفٍ فيه من قوله: ﴿وَالْمُنْخَنِقَةُ﴾ و ﴿نَاراً خَالِداً﴾ ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ و ﴿مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾[٣] ﴿مَاءً غَدَقاً﴾[٤] ﴿قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي﴾[٥] قال الفرّاء: أهل العراق يبينون وأهل الحجاز يخفون وكلّ صواب.

فإن قيل: إذا قلتم: انّ الله ختم على قلوبهم، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فكيف يكونون قادرين على الإيمان؟

قيل: يكونون قادرين عليه، لأنّ الختم والغشاوة ليسا بشيء يفعلهما الله تعالى في القلب والعين يصدّ بهما عن الإيمان، ولكن الختم شهادة على ما فسّرناه من الله عليهم بأنّهم لا يؤمنون، وعلى قلوبهم بأنّها لا تعي الذكر، ولا تعي الحقّ، وعلى أسماعهم بأنّها لا تصغي إلى الحقّ، وهذا إخبار عمّن يُعلم منه أنّه لا يؤمن،

---

١.البيت في لساب العرب (قلب) وفيه: يصرّف بالانسان أطوارا .

٢.الأعلى: ٥.

٣.النساء: ٢١ و ١٥٤.

٤.الجن: ١٦.

٥.البقرة: ٥٩.

والغشاوة هي (إلفُهم الكفر بحبهم له)[١] ولم يقل تعالى: إنّه جعل على قلوبهم بل أخبر أنّه كذلك، ومن قرأ بالنصب ـ وإن كان شاذاً ـ يحتمل أن يكون أراد معنى قوله: انّ السورة زادتهم رجساً إلى رجسهم والسورة لم تزدهم ولكنهم ازدادوا عندها، وسنوضح ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ تقديره: ولهم، بما هم عليه من خلافك عذاب عظيم، وحكي ذلك عن ابن عباس، وأصل العذاب الاستمرار بالشيء يقال: عذبه تعذيباً إذا استمر به الألم، وعذب الماء عذوبة: إذا استمر في الحلق، وحمار عاذب وعذوب: إذا استمر به العطش فلم يأكل من شدّة العطش، وفرس عذوب مثل ذلك، والعذوب الّذي ليس بينه وبين السماء ستر، وأعذبته عن الشيء بمعنى فطمته، وعذبة السوط طرفه، والعذاب استمرار الألم.

وأصل العِظَمِ عِظم الشخص، ومنه عظيم الشأن الغني بالشيء عن غيره، وعظمة الله تعالى كبرياؤه، والعظام من العِظم لأنّه من أكبر ما يركب منه البدن.

**قوله تعالى:** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ آية (٨).

التفسير ﴿وَمَنَ﴾ لفظ يخبر به عن الواحد من العقلاء واثنين وجماعة، فلما قال: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ دلّ على أنّه أراد الجمع وانّما قال: ﴿يَقُولُ﴾ بلفظ الواحد حملاً له على اللفظ، قال الشاعر:

نكن مثل مَنْ يا ذئب يصطحبان[٢]

---

١. في الأصل بياض وفي النسخة الإيرانية احتمالات استنتجنا منها العبارة الموجودة عن هامش الأصل.

٢. البيت للفرزدق ٢: ٨٧٠ – ٨٧٣ وصدره: تعشّ فإن واثقتني لا تخونني جمع الصاوي.

وقيل في معنى الناس وجهان:

أحدهما: أن يكون جمعاً لا واحد له من لفظه وأحدهم إنسان والأنثى إنسانة.

والثاني: أنّ أصله: أناس فاسقطت الهمزة منها لكثرة الاستعمال إذا دخلها الألف واللام للتعريف ثم أدغمت لام التعريف في النون كما قيل: لكنا هو الله وأصله: لكن أنا.

وقال بعضهم: انّ الناس لغة غير أناس، وإلا لقيل في التصغير: انيس رداً إلى أصله.

واشتقاقه من النوْس: وهو الحركة، ناس ينوس نوساً: إذا تحرّك، والنوس: تذبذب الشيء في الهواء، ومنه نوس القرط في الأذن لكثرة حركته.

ولا خلاف بين المفسّرين أنّ هذه الآية وما بعدها نزلت في قوم المنافقين من الأوس والخزرج وغيرهم، روي ذلك عن ابن عباس وذكر أسماءهم ولا فائدة في ذكرها[1]، وكذلك ما بعدها إلى قوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ كلها في صفة هؤلاء المنافقين، والمنافق هو الّذي يظهر الإسلام بلسانه وينكره بقلبه.

واليوم الآخر هو يوم القيامة، وانّما سمّي يوم القيامة اليوم الآخر لأنّه يوم لا يوم بعده سواه، وقيل: لأنّه بعد أيّام الدنيا وأول أيّام الآخرة، فإن قيل: كيف لا يكون بعده يوم ولا انقطاع للآخرة ولا فناء؟ قيل: اليوم في الآخرة سمّي يوماً بليلته التي قبله، فإذا لم يتقدم النهار ليل لم يسم يوماً، فيوم القيامة يوم لا ليل بعده فلذلك سمّاه اليوم الآخر.

---

١.راجع سيرة ابن هشام ق / ١ / ٥١٩ – ٥٢٨ ط تراث الإسلام بتحقيق مصطفى السقا ورفيقيه.

وانّما قال: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ مع قوله: ﴿.. مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ تكذيباً لهم فيما أخبروا عن إعتقادهم من الإيمان والإقرار بالبعث والنبوّة، فبيّن أنّ ما قالوه بلسانهم مخالف لما في قلوبهم، وذلك يدلّ على أنّ الإيمان لا يكون مجرد القول على ما قالته الكرّامية.

﴿يَقُولُ﴾ من القول، ومنه: تقوّل إذا تخرّص القول واقتال فهو مقيال: إذا أخذ نفعاً إلى نفسه بالقول أو دفع به ضرراً عنها، والمِقوَل اللسانُ يُقوّله تقويلاً إذا طالبه باظهار القول.

**قوله تعالى:** ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ آية (٩).

التفسير: وخداع المنافق إظهاره بلسانه من القول أو التصديق، خلاف ما في قلبه من الشك والتكذيب، وليس لأحد أن يقول: كيف يكون المنافق لله ولرسوله وللمؤمنين مخادعاً، وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا تقية؟ وذلك أنّ العرب تسمّي من أظهر بلسانه غير ما في قلبه لينجو مما يخافه مخادعاً لمن تخلّص منه بما أظهر له من التقية، فلذلك سمّي المنافق مخادعاً من حيث أنّه نجا من إجراء حكم الكفر عليه بما أظهره بلسانه، فهو وإن كان مخادعاً للمؤمنين فهو لنفسه مخادع، لأنّه يظهر لها بذلك أنّه يعطيها أمنيتها، وهو يوردها بذلك أليم العذاب وشديد الوبال، فلذلك قال: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إلاّ أَنْفُسَهُمْ﴾ .

وقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يدلّ على بطلان قول من قال: إنّ الله لا يعذّب إلاّ من كفر به عناداً بعد علمه بوحدانيته ضرورة، لأنّه أخبر عنهم بالنفاق وبأنّهم لا يعلمون ذلك، والمفاعلة وإن كانت تكون من اثنين، من كلّ واحد منهما لصاحبه، مثل ضاربت وقاتلت وغير ذلك، فقد ورد من هذا الوزن فاعَلَ بمعنى

فَعلَ مثل: قاتله الله، وطابقت النعل، وعافاه الله، وغير ذلك. وقد حكينا أنّ معناه: يخدعون، كما قال في البيت المقدّم [١].

وقيل: إنّه لم يخرج بذلك عن الباب ومعناه: انّ المنافق يخادع الله بكذبه بلسانه على ما تقدّم، والله يخادعه بخلافه بما فيه نجاة نفسه، كما قال: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[٢] وحكي عن الحسن أنّ معنى يخادعون الله أنّهم يخدعون نبيّه، لأنّ طاعته طاعة الله ومعصيته معصية الله، كما قال: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾[٣] وقيل معناه: أنّهم يعملون عمل المخادع كما يقال: فلان يسخر من نفسه، ومن قرأ: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ﴾ بألف طلب المشاكلة والازدواج كما قال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا﴾[٤] وكما قال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[٥] وكما قال الشاعر:

مـا سُـمّي القلـب إلاّ مـن تقلّبـه    والرأي يعزب والإنسان أطوار[٦]

ألا لا يجهلـــن أحـــد علينـــا    فنجهـل فـوق جهـل الجاهلينـا[٧]

وقال تعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾[٨] ومثله كثير، وقيل في حجة من قرأ يخادعون بألف هو أن ينزل ما يخطر بباله ويهجس في نفسه من

---

١. يشير إلى قول الشاعر:

وخادعـت المنيّـة عنـك سـراً    فـلا جـزع الاوان ولا رواعـا

وصدره في اللسان (خدع) غير منسوب.

٢. آل عمران: ١٧٨.

٣. الأنفال: ٦٢.

٤. النحل: ١٢٦.

٥. الشورى: ٤٠.

٦. البيت في لساب العرب (قلب) وفيه: يصرّف بالانسان أطوارا.

٧. البيت لعمرو بن كلثوم من معلّقته الشهيرة، راجع المعلّقات العشر للشنقيطي: ١١٣ ط الاستقامة.

٨. التوبة: ٧٩.

الخداع بمنزلة آخر يجازيه ذلك ويفاوضه فكأنّ الفعل من اثنين، كما قال الشاعر وذكر حماراً أراد الورود:

تـذكر مـن أنـى ومـن أيـن شربـه     يؤامر نفسيه كذي الهجمة الابل[1]

فجعل ما يكون منه من وروده الماء والتمثل بينهما بمنزلة نفسين، وقال الآخر:

وهـل تطيـق وداعـاً أيهـا الرجـل[2]

وعلى هذا قول من قرأ: ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[3] فوصل فخاطب نفسه، ونظائر ذلك كثيرة، وإنّما دعاهم إلى المخادعة أمور:

أحدها: التقية وخوف القتل.

والثاني: ليكرموهم إكرام المؤمنين.

الثالث: ليأنسوا إليهم في أسرارهم فينقلوها إلى أعدائهم.

والخداع مشتق من الخدع وهو اخفاء الشيء مع إيهام غيره ومنه المخدع: البيت الّذي يخفى فيه الشيء، فإن قيل: أليس الكفّار قد خدعوا المؤمنين بما أظهروا بألسنتهم حتى حقنوا بذلك دماءهم وأموالهم وإن كانوا مخدوعين في أمر آخرتهم؟

قيل: لا نقول خدعوا المؤمنين، لأنّ اطلاق ذلك يوجب حقيقة الخديعة، لكن نقول: خادعوهم وما خدعوهم بل خدعوا أنفسهم، كما قال في الآية، ولو

---

١.قائله الكميت كما في شعر الكميت ٢: ٩٧ جمع د. داود سلوم ط النعمان سنة ١٩٦٩.

٢.عجز بيت للأعشى أبي بصير وصدره (ودّع هريرة إنّ الركب مرتحل) ديوانه ص٥٥ القصيدة ٦ / ط النموذجية بمصر.

٣.البقرة: ٢٥٩.

أنّ إنساناً قاتل غيره، فقتل نفسه جاز أن يقال: انّه قاتل فلاناً، فلم يقتل إلاّ نفسه، فيوجب مقاتلة صاحبه، وينفي عنه قتله.

والنفس مأخوذة من النفاسة، لأنّها أجلّ ما في الإنسان، تقول: نَفَس ينفس نفاسة: إذا ظن به، وتنافسوا في الأمر: إذا تشاحوا، والنفس: الروح، ونفّس عنه تنفيساً: إذا روّح عن نفسه، والنّفس: الدم، ومنه النفساء، ونفست المرأة، والنفس: خاصة الشيء، وقوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يعني وما يعلمون، يقال: ما شعر فلان بهذا الأمر وهو لا يشعر به إذ لم يدر، شعراً وشعوراً ومشعوراً، قال الشاعر:

عقوا بسهم فلم يشعر به أحد ... ثم استفاءوا وقالوا حبذا الوضح

يعني: لم يعلم به أحد، وأصل الشعر: الدقة شعر به يشعر: إذا أعلمه بأمر يدق، ومنه الشعيرة والشعير، لأنّ في رأسهما كالشعر في الدقة، والمشاعر: العلامات في مناسك الحج كالموقف والطواف، وغيرهما، واشعرت البدنة، إذا أعلمتها على أنّها هدي، والشعار ما يلي الجسد، لأنّه يلي شعر البدن.

**قوله تعالى:** ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ آية (١٠).

وقال أبو عبيدة: المرض الشك والنفاق، وقيل في قوله: ﴿فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي فجور، وقال سيبويه: مرضته قمت عليه، ووليته، وأمرضته: جعلته مريضاً.

وقيل: إنّ المرض الغم والوجع من الحسد والعداوة لكم: ﴿فَزَادَهُمْ اللَّهُ مَرَضاً﴾ دعاء عليهم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[1] وأصل

---

١.التوبة: ١٢٧.

المرض: السقم في البدن فشبه ما في قلوبهم من النفاق والشك بمرض الأجساد.

والأليم بمعنى المؤلم الموجع: فعيل بمعنى مفعل مثل بديع بمعنى مبدع، ومكان حريز بمعنى محرز. قال ذو الرمة:

يصـك وجوههـا وهـج ألـيم[(١)]

فإن قيل: إذا كان معنى قوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي شك ونفاق، ثم قال: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً﴾ ثبت أنّ الله يفعل الكفر بخلاف ما تذهبون إليه.

قيل: ليس الأمر على ما ذكرتم، بل معناه: إنّ المنافقين كانوا كلّما أنزل الله آية أو سورة كفروا بها، فازدادوا بذلك كفراً إلى كفرهم، وشكاً إلى شكهم، فجاز لذلك أن يقال: فزادهم الله مرضاً لما ازدادوا هم مرضاً عند نزول الآيات، ومثل ذلك قوله حكاية عن نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَاراً﴾[(٢)] وهم الذين ازدادوا فراراً عند دعائه.

ومثل قوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ﴾[(٣)] وإنّما أراد أنّهم ازدادوا عند نزول الآية وكقوله: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي﴾[(٤)] والمؤمنون ما أنسوهم ذكر الله بل كانوا يدعونهم إليه تعالى، لكن لمّا نسوا ذكر الله عند ضحكهم من المؤمنين واتخاذهم إياهم سخرياً، جاز أن يقال: إنّ المؤمنين أنسوهم، ويقول القائل لغيره إذا وعظه فلم يقبل نصيحته: قد كنت شريراً فزادتك نصيحتي شراً، وإنّما يريد أنّه ازداد عنده، فلمّا كان المنافقون فقد

١.ديوان ذي الرمة: ٥٩٢ وصدر البيت: (ويرفع في صدور شمردلات).

٢.نوح: ٥ – ٦.

٣.التوبة: ١٢٥.

٤.المؤمنون: ١١٠.

مرضت قلوبهم بما فيها من الشك، ثم ازدادوا شكاً وكفراً عندما كان تجدد من أمر الله ونهيه، وما ينزل من آياته، جاز أن يقال: ﴿فَزَادَهُمْ اللَّهُ مَرَضاً﴾.

فإن قيل: فعلى هذا ينبغي أن يكون انزال الآيات مفسدة، لأنّهم يزدادون عند ذلك الكفر.

قلنا: ليس حد المفسدة ما وقع عنده الفساد، وإنّما المفسدة ما وقع عندها الفساد، ولولاها لم يقع، ولم يكن تمكيناً، وهذا تمكين لهم من النظر في معجزاته ودلائله، فلم يكن استفساداً، ولو كان الأمر على ما قالته المجبّرة: إنّ الله يخلق فيهم الكفر لقالت الكفار ما ذنبنا، والله تعالى يخلق فينا الكفر، ويمنعنا من الإيمان، فلم تلوموننا على ما فعله الله؟ فتكون الحجة لهم لا عليهم وذلك باطل، والتقدير في الآية في اعتقاد قلوبهم الّذي يعتقدونه في الدين والتصديق بنبيه مرض، وحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. قال الشاعر:

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك     إن كنت جاهلة بما لم تعلمي[١]

يعني أصحاب الخيل كما قال: يا خيل الله اركبي يعني يا أصحاب خيل الله، وكما قال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ الْقَرْيَةَ﴾[٢] وإنّما أراد أهلها. وروي عن ابن عباس أنّ المرض المراد به الشك والنفاق، وبه قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد.

والكذب ضد الصدق، وهو الاخبار عن الشيء لا على ما هو به، يقال: كذب يكذب كذباً وكذاباً ـ خفيف وثقيل ـ مصدران، والكذب كالضحك والكذاب كالكتاب والاكذاب: جعل الفاعل على صفة الكذب، والتكذب: التحلّي بالكذب، وجهة من ضم الياء وشدّد الذال أنّه ذهب إلى أنّهم استحقوا

---

١. البيت لعنترة العبسي من معلّقته المشهورة.

٢. يوسف: ٨٢.

العذاب بتكذيبهم النبيّ ﷺ وبما جاء به، ومن فتح الياء وخفّف الذال قدر المضاف، كأنّه قال: بكذبهم، وهو أشبه بما تقدّم، وهو قولهم: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[1]، فأخبر الله عنهم فقال: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ولذلك يحمد تكذيبهم. وادخل كان ليعلم أنّ ذلك كان فيما مضى، كقول القائل: ما أحسن ما كان زيداً، وقال بعض الكوفيين: لا يجوز ذلك، لأنّ حذف كان، إنّما أجازوه في التعجب، لأنّ الفعل قد تقدّمها فكأنّه قال حسناً كان زيد، ولا يجوز ذلك هاهنا لأنّ كان تقدمت الفعل.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ آية (١١).

وروي عن سلمان رحمه الله أنّه قال: لم يجئ هؤلاء[2]، وقال أكثر المفسّرين: إنّها نزلت في المنافقين الذين فيهم الآيات المتقدّمة، وهو الأقوى، ويجوز أن يراد بها من صورتهم صورتهم، فيحمل قول سلمان رحمه الله على أنّه أراد بعد انقراض المنافقين الذين تناولتهم الآية.

ومعنى قولهم له: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يقول: إنّ هذا الّذي عندكم فساد، هو صلاح عندنا، لأنّا إذا قابلناهم استدعيناهم إلى الحقّ في الدين.

والثاني: أن يجحدوا ذلك البلاغ.

---

١ـ البقرة: ٨.

٢ـ أخرج الخبر السيوطي في الدر المنثور ١: ٣٠ عن ابن جرير وابن أبي حاتم، وزاد الشوكاني في فتح القدير ١: ٣١ إليهما ابن إسحاق.

والافساد مأخوذ من الفساد: وهو كلّما يغير عن استقامة الحال، تقول: فسد يفسد فساداً، والافساد: إحداث الفساد، والمفاسدة: المعاملة بالفساد، والتفاسد: تعاطي الفساد بين اثنين، والاستفساد، المطاوعة على الفساد، لا تفسدوا في الأرض فيقولون إنّما نحن مصلحون، ويقال لهم: آمنوا كما آمن الناس فيقولون أنؤمن كما آمن السفهاء؟ فليس هؤلاء منافقين، بل مظهرون لكفرهم.

والآية في المنافقين قيل: المنافقون وإن كانوا يظهرون الإيمان للنبيّ ﷺ فإنّهم كانوا لا يألون المسلمين خبالاً، وكانوا يثبطون عن النبيّ ﷺ ويدعون إلى ترك نصرته من يثقون باستماعهم منهم، ومن يظنون ذلك به، فربما صادفوا من المؤمنين التقي فيجيبهم بما ذكر الله، فإذا أخبر أولئك النبيّ ﷺ ثم ذكروا له ما قالوا وعاتبهم النبيّ ﷺ عادوا إلى إظهار الإيمان والندم عليه، أو كذّبوا قائله والحاكي عنهم، وكان لا يجوز في الدين إلاّ قبول ذلك منهم بما يظهرون، وخاصة في صدر الإسلام، والحاجة إلى تألف قلوبهم ماسة، ومن قرأ الأخبار تبيّن صحّة ما قلناه.

والافساد في الأرض: العمل فيها بما نهى الله عنه، وتضييع ما أمر الله بحفظه، كما قال تعالى حاكياً عن الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [١] يعنون من يعصيك، ويخالف أمرك، وهذه صفة المنافقين.

والأرض: هي المستقر للحيوان، ويقال لقوائم البعير: أرض، وكذلك الفرس إن قوي، والأرض: الرّعدة، وقال ابن عباس: ما أدري إذاً زلزلت الأرض أم بي أرض؟ أي رعدة، والأرضة: دويبة تأكل الخشب.

---

١. البقرة: ٣٠.

والصلاح: استقامة الحال، فالاصلاح: جعل الحال على الاستقامة، والاصطلاح الاجتماع، والتصالح: التمالي على الصلاح، ومنه المصالحة والاستصلاح، والصالح: المستقيم الحال، والمصلح: المقوم للشيء على الاستقامة.

**قوله تعالى:** ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ آية (١٢).

ألا: فيها تنبيه، ومعناها لاستفتاح الكلام، ومثله: ألا ترى؟ أما تسمع؟ وأصلها (لا) دخل عليها ألف الاستفهام، والألف إذا دخل على الجحد أخرجه إلى الإيجاب، نحو قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾؟ لأنّه لا يجوز للمجيب إلاّ الإقرار ببلى.

والهاء والميم في موضع النصب بأن، و (هم) فصل عند البصريين ويسمّيه الكوفيون عماداً، وقوله: ﴿لا يَشْعُرُونَ﴾ قد فسرناه[1]، وفيها دلالة على من قال: بأنّ الكفّار معاندون عالمون بخطاياهم، وانّ المعرفة مزوّرة، ووصفهم بأنّهم ﴿هُمْ الْمُفْسِدُونَ﴾ لا يمنع من وصف غيرهم بأنه مفسد، لأنّ ذلك دليل الخطاب.

وحكي عن ابن عباس: أنّ معنى قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ إنّما يريد الاصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب[2].

وحكي عن مجاهد أنّهم إذا ركبوا معصية الله، قيل لهم: لا تفعلوا هذا، قالوا: إنّما نحن مصلحون أي: إنّما نحن على الهدى[3]، وكلا الأمرين محتمل

---

١. في قوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ...﴾ تتمة الآية.

٢. رواه الطبري في تفسيره ١: ٢٩٠ محققة، وفي الدر المنثور ١: ٣٠ نقلاً عن ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم.

٣. وفي الدر المنثور ١: ٣٠ عن ابن جرير وهو في تفسيره ١: ٢٩٠.

لأنّهما جميعاً عندهم أنّه إصلاح في الدين وإن كان ذلك إفساداً عند الله، ومن حيث أنّه خلاف لما أمرهم به، وإنّما جاز تكليف ما لا يشعر أنّه على ضلال ؛ لأنّ له طريقاً إلى العلم.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ آية (١٣).

المعني بهذه الآية هم الذين وصفهم تعالى بأنّهم يقولون: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

والمعنى إذا قيل لهم أمنوا بمحمد ﷺ وبما جاء من عند الله، كما آمن به الناس يعني المؤمنين حقاً، لأنّ الألف واللام ليسا فيه للاستغراق، بل دخلا للعهد، فكأنّه قيل: آمنوا كما آمن الناس الذين تعرفونهم باليقين والتصديق بالله ونبيه ﷺ وبما جاء به من عند الله.

والألف في قوله: ﴿أَنُؤْمِنُ﴾ ألف إنكار، وأصلها الاستفهام، ومثله ﴿أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ [١] وكقول القائل: (أأضيع ديني وأثلم مروءتي)؟ وكلّ هذا جواب، لكن قد وضع السؤال فيه وضعاً فاسداً، لوصفهم أنّ الذين دعوا إليهم سفهاء.

وموضع ﴿إذا﴾ نصب، وتقديره:قالوا إذا قيل لهم ذلك أنؤمن، فالعامل فيه قالوا.

والسفهاء جمع سفيه، مثل: علماء وعليم، وحكماء وحكيم، والسفيه: الضعيف الرأي الجاهل القليل المعرفة بمواضع المنافع والمضار، ولذلك سمّى الله

---

١. يس: ٤٧.

الصبيان سفهاء بقوله: ﴿لا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ﴾[1] فقال عامة أهل التأويل: هم النساء والصبيان لضعف آرائهم، وأصل السفه: خفة الحلم وكثرة الجهل، يقال: ثوب سفيه إذا كان رقيقاً بالياً، وسفهته الريح: إذا طيرته كلّ مطيّر، وفي أخبارنا أنّ شارب الخمر سفيه، فأمر الله تعالى أن يؤمنوا كما آمن المؤمنون المستبصرون فقالوا: أنؤمن كما آمن الجهال، ومن لا رأي له ومن لا عقل له كالصبيان والنساء، فحكم الله عليهم حينئذٍ بأنّهم السفهاء بإخباره عنهم بذلك، وهو من تقدّم ذكره من المنافقين.

والسفيه إنّما سمّي مفسداً من حيث أنّه يفسد من حيث يظن أنّه يصلح، ويضيّع من حيث يرى أنّه يحفظ، وكذلك المنافق يعصي ربه من حيث يظن أنّه يطيع، ويكفر به من حيث يظن أنّه يؤمن به، والألف واللام في السفهاء للعهد كما قلناه في الناس.

وهذه الآية أيضاً فيها دلالة على من قال: إنّ الكافر لا يكون إلاّ معانداً، لأنّه قال: ﴿وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ﴾.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ آية (١٤).

المعنى: حكي عن ابن عباس أنّه قال: هذه في صفة المنافقين فكان الواحد منهم إذا لقي أصحاب النبيّ قال: إنّا معكم ـ أي على دينكم ـ وإذا خلوا إلى شياطينهم ـ يعني أصحابهم ـ قالوا: إنّا معكم إنّما نحن مستهزئون[2] ـ يعني نسخر منهم ـ. يقال: خلوت إليه، وخلوت معه، ويقال: خلوت به على ضربين:

---

١. النساء: ٥.

٢. الدر المنثور ١: ٣١ نقلاً عن ابن جرير ١: ٢٩٧ وابن أبي حاتم.

أحدهما بمعنى خلوت معه، والآخر بمعنى سخرت منه، وخلوت إليه في قضاء الحاجة لا غير، وخلوت به له معنيان: أحدهما هذا، والآخر سخرت منه، قال الأخفش: وقد تكون (إلى) في موضع الباء، (وعلى) في موضع عن، وأنشد:

إذا رضـــيت علـــيَّ بنـــو قـــشير     لَعمـــر الله أعجبنـــي رضـــاها[١]

فعلى هذا يحتمل أن تكون الآية: (خلوا مع...) وقال الرماني: الفرق بين اللقاء والاجتماع، أنّ اللقاء لا يكون إلاّ على وجه المجاورة، والاجتماع قد يكون كاجتماع العزمين في محل، وقد بيّنا معنى الشيطان فيما مضى[٢].

((معكم)) ومعكم ـ بفتح العين وسكونها ـ لغتان.

وترك الهمزة في ﴿مستهزئون﴾ لغة قريش، وعامة غطفان، وكنانة بعضها يجعلها بمنزلة يستقصون، ويستعدون بحذفها، وبعض بني تميم وقيس يشيرون إلى الزاء بالرفع، بين الرفع والكسر، وهذيل، وكثير من تميم يخففون الهمزة.

وقال بعض الكوفيين: إنّ معنى ﴿إِذَا خَلَوْا﴾: إذا انصرفوا خالين، فلأجل ذلك قال: إِلَى شَيَاطِينِهِمْ. على المعنى، وهو مليح، وقيل: إنّ شياطينهم رؤساؤهم، وقيل: أريد بهم أصحابهم من الكفّار، وروي عن أبي جعفر عليه السلام: أنّهم كهانهم.

والاستهزاء: طلب الهزء بايهام أمر ليس له حقيقة في من يظن فيه الغفلة، والهزء: ضد الجد، يقال: هزئ به هزء، والتهزي: طلب الهزء بالشيء، وغرضهم كان بالاستهزاء مع علمهم بقبحه حقن دمائهم بإظهار الإيمان، وإذا خلوا إلى شياطينهم كشفوا ما في نفوسهم.

---

١.البيت للقحيف العقيلي كما في نوادر أبي زيد: ١٧٦، وخزانة الأدب ٤: ٢٤٧.

٢.مرّ في الاستعاذة.

**قوله تعـالى:** ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ آية (١٥).

المعنى: والله تعالى لا يجوز عليه حقيقة الاستهزاء لأنّها السخرية على ما بيّناه، ومعناها من الله هو الجزاء عليها، وقد يسمّى الشيء باسم جزائه، كما يسمّى الجزاء باسم ما يستحق به، كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾[١] وقال: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾[٢] وقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا﴾[٣] والأول ليس بعقوبة، والعرب تقول: الجزاء بالجزاء، والأول ليس بجزاء والبيت الأوّل شاهد بذلك.

وقيل: إنّ استهزاءهم لما رجع عليهم جاز أن يقول عقيب ذلك: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ يراد به أنّ استهزاءهم لم يضر سواهم وأنّه دبر [٤] عليهم وأهلكهم، يقول القائل: أراد فلان أن يخدعني فخدعته أي دبر عليَّ أمراً فرجع ضرره عليه، وحكي عن بعض من تقدّم أنّه قال: إذا تخادع لك إنسان ليخدعك فقد خدعته.

وقيل أيضاً: إنّ الاستهزاء من الله: الاملاء الّذي يظنونه إغفالاً، وقيل: إنّه لما كان ما أظهره من اجراء حكم الإسلام عليهم في الدنيا بخلاف ما أجراه عليهم في الآخرة من العقاب وكانوا فيه على اغترار به كان كالاستهزاء، وروي في الأخبار أنّه يفتح لهم باب جهنم، فيظنون أنّهم يخرجون منها، فيزدحمون

---

١.الشورى: ٤٠.

٢.آل عمران ٥٤.

٣.النحل: ١٢٦.

٤.في الطبعة الإيرانية دمر بدل دبر وما ذكر في المتن هو الصحيح بقرينة ما يأتي من قوله:... دبر عليَّ أمراً عن هامش الأصل.

للخروج، فإذا انتهوا إلى الباب، ردتهم الملائكة حتى يرجعوا، فهذا نوع من العقاب، وكان الاستهزاء كما قال الله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾[١].

وقوله: ﴿يَمُدُّهُمْ﴾ حكي عن ابن عباس وابن مسعود أنّهما قالا: معناه يملي لهم[٢] بأن يطوّل أعمارهم، وقال مجاهد: يزيدهم، وقال بعض النحويين: يمدّ لهم كما يقولون نلعب الكعاب أي بالكعاب، وحكي أنّ مدّ وأمدّ لغتان، وقيل: مددت له وأمددت له يقال مد البحر فهو ماد، وأمد الجرح فهو ممد، قال الجرمي: ما كان من الشر فهو مددت وما كان من الخير فهو أمددت، فعلى هذا، إن أراد تركهم، فهو من مددت وإذا أراد عطاءهم يقال أمدهم.

وقرئ في الشواذ: ويمدهم ـ بضم الياء ـ، وقال بعض الكوفيين: كلّ زيادة حدثت في الشيء من نفسه، فهو مددت ـ بغير ألف ـ كما يقولون مد النهر ومده نهر آخر، فصار منه إذا اتصل به، وكلّ زيادة حدثت في الشيء من غيره فهو أمددت ـ بألف ـ كما يقال: أمد الجرح لأنّ المدّة[٣] من غير الجرح، وأمددت الجيش[٤].

وأقوى الأقوال أن يكون المراد به نمدهم على وجه الاملاء والترك لهم في خيرهم، كما قال: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً﴾[٥]، وكما قال: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يعني يتركهم فيه، والطغيان: الفعلان من قولك طغى فلان

---

١. الحج: ٢٢.

٢. تفسير الطبري ١: ٣٠٦ – ٣٠٧ محققة.

٣. المدة: ما يجتمع في الجرح من القيح.

٤. تفسير الطبري ١: ٣٠٧.

٥. آل عمران: ١٧٨.

يطغى طغياناً، إذا تجاوز حده، ومنه قوله: ﴿كَلاّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى﴾[١] أي يتجاوز حدّه، والطاغية: الجبار العنيد، وقال أمية بن أبي الصلت:

ودعــا الله دعــوة لات هنــا    بعــد طغيانــه فظــل مشيــرا[٢]

يعني لا هنا، ومعناه في الآية: في كفرهم يترددون، والعمه: التحير، يقال: عمه يعمه عمهاً فهو عمه، وعامه: أي حائر عن الحقّ، قال رؤبة:

ومهمــهٍ اطرافــه فــي مهمــه    أعمى الهدى بالحائرين[٣] العُمَّه

جمع عامه.

فإن قيل: كيف يخبر الله أنّه يمدّهم في طغيانهم يعمهون، وأنتم تقولون: إنّما أبقاهم ليؤمنوا لا ليكفروا، وأنّه أراد منهم الإيمان دون الكفر؟

قيل معناه: إنّه يتركهم وما هم فيه لا يحول بينهم وبين ما يفعلونه، ولا يفعل بهم من الألطاف التي يؤتيها المؤمنين، فيكون ذلك عقوبة لهم واستصلاحاً، ونظير ذلك قول القائل لأخيه، إذا هجره أخوه متجنياً عليه، إذا استعتبه فلم يراجعه: سأمدّ لك في الهجران مداً، يريد سأتركك وما صرت إليه تركاً ينبهك على قبح فعلك، لا أنّه يريد بذلك أن يهجره أخوه، ولكن على وجه الغضب والاستصلاح والتنبيه.

---

١. العلق: ٦.

٢. في الطبعة الإيرانية فصار بدل فضل، والبيت في ديوان أمية: ٣٤ مع اختلاف في الرواية ولات هنا كلمة تدور في كلامهم يريدون بها: ليس هذا حين ذلك وهنا مفتوحة الهاء مشددة النون مثل هنا مضمومة الهاء مخففة النون عن هامش الأصل.

٣. في تفسير الطبري نقلاً عن ديوان رؤبة بالجاهلين وتفاوت في الشطر الآخر.

**قولـه تعـالى:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ آية (١٦).

وهذه الآية للإشارة بها إلى من تقدّم ذكره من المنافقين، وقال ابن عباس: اشتروا الكفر بالايمان(١).

وقال قتادة: استحبوا الضلالة على الهدى(٢).

وقال ابن مسعود: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى(٣).

وقال مجاهد: آمنوا ثم كفروا(٤)، وهذه الأقوال متقاربة المعاني.

فإن قيل: كيف اشتروا هؤلاء القوم الضلالة بالهدى، وانّما كانوا منافقين لم يتقدّم نفاقهم إيمان؟ فيقال فيهم باعوا ما كانوا عليه بضلالتهم التي استبدلوها منه، والمفهوم من الشراء اعتياض شيء ببذل شيء مكانه عوضاً منه، وهؤلاء ما كانوا قط على الهدى.

قلنا: من قال بأنّ الآية مخصوصة بمن كفر بعد إيمانه، فقد تخلّص من هذا السؤال، غير أنّ هذا لا يصحّ عندنا، من أنّ من آمن بالله لا يجوز أن يكفر، وإن حملنا على إظهار الإيمان، لم يكن في الآية توبيخ، ولا ذم، والآية تتضمّن التوبيخ على ما هم عليه ؛ لأنّها إشارة إلى ما تقدّم وتلك صفات المنافقين.

والجواب عن ذلك أن نقول: إنّ من ارتكب الضلالة وترك الهدى، جاز أن يقال ذلك فيه ويكون معناه: كان الهدى الّذي تركه هو الثمن الّذي جعله

---

١.الدر المنثور ١: ٣١ نقلاً عن ابن اسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم.

٢.ن م ١: ٣٢ نقلاً عن عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم.

٣.ن م ١: ٣٢ نقلاً عن ابن جرير.

٤.ن م ١: ٣٢ نقلاً عن عبد بن حميد وابن جرير.

عوضاً عن الضلالة التي أخذها، فيكون المشتري أخذ المشتَرى مكان الثمن المشترى به كما قال الشاعر:

أخـذت بالجمـة رأسـاً أزعـرا وبالثنايـا الواضـحات الـدردرا

وبالطويـل العمـر عمـراً جيـدرا كما اشترى المسلم إذ تـنصرا[١]

ومنهم من قال: استحبوا الضلالة على الهدى إنّما قال ذلك لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾[٢] فحمل هذه الآية عليه، ومن حملها على أنّهم اختاروا الضلالة على الهدى، فإنّ ذلك مستعمل في اللغة، يقولون: اشتريت كذا على كذا واستريته يعنون اخترته، قال أعشى بني ثعلبة:

فقد أخرج الكاعب المسترا[٣] ة من خدرها واشيع القمارا

يعني: المختارة. قال ذو الرمة في معنى الاختيار:

يـذب القصـايا عـن شـراة كأنّهـا جماهير تحت المدجنات الهواضب[٤]

وقال آخر:

إنّ الشـــراة روُقـــة الأمـــوال وحـزرة القلـب خيـار المـال[٥]

---

١.الشعر لأبي النجم العجلي، زعر الشعر فهو زعر وازعر: قلّ وتفرق. الدردر: مغارز أسنان الصبي، أو هي قبل نباتها وبعد سقوطها، الجيدر: القصير والمراد قصير العمر.

٢.حم فصلت: ١٧.

٣ـ في الطبعة الإيرانية المشتراة وكذلك في مخطوطة تفسير الطبري، أمّا في ديوانه: ٣٥ وطبقات فحول الشعراء: ٣٦ واللسان (سرا) فكما ذكرنا.

٤ـ ديوانه: ٦٢ يذب، يدفع ويطرد. والقصايا: وهي من الابل رذالتها ضعفت فتخلفت، وجماهير جمهور: وهو رملة مشرفة على ما حولها، والهواضب: التي دام مطرها، والمدجنات من سحابة داجنة أي كثيفة.

٥.اللسان في مادة (حزر) وروقة الناس: خيارهم، وحزرة نفسي: خير ما عندي.

والأول أقوى لقوله: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَرَتُهُمْ﴾ فبيّن أنّ ذلك بمعنى الشراء والبيع الّذي يتعارفه الناس، والربح ـ وإن أضافه إلى التجارة ـ فالمراد به التاجر لأنّهم يقولون: ربح بيعك وخسر بيعك، وذلك يحسن في البيع والتجارة، لأنّ الربح والخسران يكون فيهما، ومتى التبس فلا يجوز إطلاقه، لا يقال: ربح عبدك إذا أراد ربح في عبده، لأنّ العبد نفسه قد يربح ويخسر، فلما أوهم لم يطلق ذلك فيه.

وقيل: إنّ المراد، فما ربحوا في تجارتهم، كما يقال: خاب سعيك أي خبت في سعيك، وإنّما قال ذلك لأنّ المنافقين بشرائهم الضلالة خسروا ولم يربحوا، لأنّ الرابح من استبدل سلعة بما هو أرفع منها، فأمّا إذا استبدلها لما هو أدون منها فإنّما يقال خسر، فلما كان المنافق استبدل بالهدى الضلالة، وبالرشاد الخيبة عاجلاً، وفي الآخرة الثواب بالعقاب كان خاسراً غير رابح.

وإنّما قال: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾، لأنّه يخسر التاجر ولا يربح ويكون على هدى، فأراد الله تعالى أن ينفي عنهم الربح والهداية فقال: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ باستبدالهم الكفر بالايمان، واشترائهم النفاق بالتصديق، والاقرار بها.

فإن قيل: لم قال: فما ربحت تجارتهم في موضع ذهبت رؤوس أموالهم؟

قيل: لأنّه قد ذكر الضلالة بالهدى، فكأنّه قال: طلبوا الربح فما ربحوا، لما هلكوا، وفيه معنى ذهبت رؤوس أموالهم، ويحتمل أن يكون ذلك على وجه التقابل، وهو أنّ الذين اشتروا الضلالة بالهدى لم يربحوا، كما أنّ الذين اشتروا الهدى بالضلالة ربحوا.

**قوله تعالى:** ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ آية (١٧).

معنى الآية، أنّ مثل استضاءة المنافقين بما أظهروا من الاقرار بالله، وبمحمّد ﷺ، وبما جاء به قولاً ـ وهم به مكذبون اعتقاداً ـ كمثل استضاءة الموقد، ثم أسقط ذكر الاستضاءة، وأضاف المثل إليهم، كما قال الشاعر وهو نابغة جعدة:

وكيف تواصل من أصبحت    خلالته كأبي مرحب[١]

أي كخلالة أبي مرحب، وأسقط لدلالة الكلام عليه، وأما إذا أراد تشبيه الجماعة من بني آدم وأعيان ذوي الصور والأجسام بشيء فالصواب أن يشبه الجماعة بالجماعة، والواحد بالواحد ؛ لأنّ عين كلّ واحد منهم غير أعيان الآخر كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾[٢] وقال: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[٣] وأراد جنس النخل، ومثل قوله: ما أفعالكم إلاّ كفعل الكلب، ثم يحذف الفعل فيقال: ما أفعالكم إلاّ كالكلب.

وقيل: إنّ ﴿الّذي﴾ بمعنى الذين كقوله: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[٤] وقال الشاعر:

وانّ الّذي حانت بفلجٍ دماؤهم    هم القوم كلّ القوم يا أم خالد[٥]

---

١.الشعر في تفسير الطبري ١: ٣١٩ وفي اللسان (رحب) و(خلل) والخلة والخلالة الصداقة التي ليس فيها خلل. وأبو مرحب كناية عن الظل، يريد أنّها تزول كما يزول الظل لا تبقى له مودة.

٢.المنافقون: ٤.

٣.الحاقة: ٧.

٤. الزمر: ٣٣.

٥.الشعر للأشهب بن زميلة كما في هامش تفسير الطبري ١: ٣٢٠ نقلاً عن الخزانة والبيان والتبيين وكتاب سيبويه وغيرهما.

وإنّما جاز ذلك، لأنّ الذين منهم يحتمل الوجوه المختلفة، وضعف هذا الوجه من حيث أنّ في الآية الثانية وفي البيت دلالة على أنّه أريد به الجمع، وليس ذلك في الآية التي نحن فيها.

وقيل فيه وجه ثالث وهو أنّ التقدير: مثلهم كمثل اتباع الّذي استوقد ناراً وكما قال: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ [1] وإنّما أراد أهلها، وفي الآية حذف طفئت عليهم النار.

وقوله: ﴿اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾ معناه: أوقد ناراً، كما يقال: استجاب بمعنى أجاب قال الشاعر:

وداع دعا يا من يجيب إلى الندى      فلم يستجبه عند ذاك مجيب[2]

يريد: فلم يجبه.

الوقود: الحطب، والوقُود: مصدر وقدت النار وقوداً، والاستيقاد: طلب الوقود، والايقاد: ايقاد النار، والتوقّد: التوهّج، والايقاد: التهاب النار، وزند ميقاد: سريع الورْي، وقلب وقّاد: سريع الذكاء والنشاط، وكلّ شيء يتلألأ فهو يتقد، وفي الحجر نار لا تقد، لأنّها لا تقبل الاحتراق، والوقود: ظهور النار فيما يقبل الاحتراق.

وأصل النار النور، نار الشيء إذا ظهر نوره، وأنار: أظهر نوره، واستنار: طلب اظهار نوره، والمنار: العلامات، والنار: السمت، وضاءت النار: ظهر ضوؤها وكلّ ما وضح فقد أضاء، وأضاء القمر الدار: كقوله أضاءت ما حوله. قال الشاعر:

---

١. يوسف: ٨٢.

٢. البيت لكعب بن سعد الغنوي في الأصمعيات: ١٤، وأمالي القالي ٢: ١٥١.

أضاءت لهم أحسابهم ووجوههـم    دجى الليل حتى نظّم الدر ثاقبه[١]

وقوله: ﴿حوله﴾ مأخوذ من الحول وهو الانقلاب، يقال: حال الحول إذا انقلب إلى أول السنة، وأحال في كلامه إذا صرفه عن وجهه، وحوّله عن المكان أي نقله إلى مكان آخر، وتحوّل: تنقّل واحتال عليه وحاوله طالبه بالانقلاب إلى مراده، والحَول بالعين ـ بالفتح ـ والحِول ـ بالكسر ـ الانقلاب عن الأمر، ومنه قوله: ﴿لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً﴾[٢] والحوالة انقلاب الحقّ عن شخص إلى غيره، والمحالة: البكرة، والحيلة: إيهام الأمر للخديعة، وحال بينه وبينه: مانع، والحائل: الناقة التي انقطع حملها، والحائل: العير، وحوله الصبا: أي دابرته.

ذهب به وأذهبه: أي أهلكه، لا ذهابه إلى مكان يعرف، ومنه ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾. والمذهب: الطريقة في الأمر، والذّهبة: المطرة الجود. وقوله: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ﴾ أي أذهب النور بالظلمات، وتاركه متاركة وتتاركوا: تقابلوا في الترك، واترك اتراكاً: اعتمد الترك، والتركة التريكة: بيضة النعام المنفردة لتركها وحدها.

والظلمات: جمع الظلمة، وأصلها انتقاص الحقّ من قوله: ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ أي لم تنقص، وأظلم الجواد احتمل انتقاص الحقّ لكرمه، ومن أشبه أباه فما ظلم، أي ما انتقص حقّ الشبه، وظلمت الناقة: إذا نحرت من غير علّة.

والظلم: ماء الأسنان من اللون لا من الريق، والظلم: الثلج، وقوله: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾ قال ابن عباس: إنّهم يبصرون الحقّ ويقولون به حتى إذا

---

١. وفي رواية الجزع بدل الدر والبيت منسوب إلى أبي الطحان القيني كما في المصون في الدرب: ٢٢، ٥٨، وكامل المبرّد: ٣٠، وحيوان الجاحظ ٣: ٩٣ مع نسبته إلى القيط بن زرارة كما في شواهد العيني ١: ٢٦٧، وحماسة المرزوقي: ١٥٩٨.

٢. الكهف: ١٠٨.

خرجوا من ظلمة الكفر، أطفأوه بكفرهم به، فتركهم في ظلمات الكفر، فهم لا يبصرون هدى، ولا يستقيمون على حقّ.

وروي عنه أيضاً أنّه قال: هذا مثل ضربه الله تعالى للمنافقين، أنّهم كانوا يعتزون بالاسلام، فيناكحهم المسلمون ويولدونهم، ويقاسمونهم الفيء، فلمّا ماتوا، سلبهم الله ذلك العز، كما سلب صاحب النار ضوءه، وتركهم في عذاب[١]، وهو أحسن الوجوه.

وقال أبو مسلم: معناه أنّه لا نور لهم في الآخرة، وإنّ ما أظهروه في الدنيا، يضمحل سريعاً كاضمحلال هذه اللمعة، وحال من يقع في الظلمة بعد الضياء أشقى في الحيرة، فكذلك حال المنافقين في حيرتهم بعد اهتدائهم، ويزيد استضرارهم على استضرار من طفئت ناره بسوء العاقبة.

وروي عن ابن مسعود وغيره أنّ ذلك في قوم كانوا أظهروا الإسلام، ثم أظهروا النفاق، فكان النور الايمان، والظلمة نفاقهم[٢]، وقيل فيها وجوه تقارب ما قلناه.

وتقدر بعد قوله: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ انطفأت لدلالة الكلام عليها كما قال أبو ذؤيب الهذلي:

دعاني إليها القلب إنّي لأمره  مطيع فما أدري ارشد طلابها؟[٣]

وتقديره، أرشد طلابها أم غي؟

وقال الفراء: يقال ضاء القمر يضوء، وأضاء يضيء، لغتان وهو الضوء

---

١.الدر المنثور ١: ٣٢ نقلاً عن ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والصابوني.

٢.ن م ١: ٣٢ نقلاً عن ابن جرير.

٣.وفي ديوان الهذليين: ٧١ عصاني إليها القلب والروايتان صحيحتان.

والضوء ـ بفتح الضاد وضمها ـ وقد أظلم الليل، وظَلِم ـ بفتح الظاء وكسر اللام ـ وظلمات على وزن غرفات، وحجرات، وخطوات، فأهل الحجاز وبنو أسد يثقلون، وتميم وبعض قيس يخففون، والكسائي يشمّ الهاء الرفع بعد نصب اللام في قوله حوله، ونجمع عظامه في حال الوقف، الباقون لا يشمون وهو أحسن.

**قوله تعالى:** ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ آية بلا خلاف (١٨).

قال قتادة: ﴿صُمٌّ﴾ لا يسمعون الحقّ، ﴿بُكْمٌ﴾ لا ينطقون به، ﴿عُمْيٌ﴾ لا يرجعون عن ضلالتهم.

والمعنى: إنّهم صم عن الحقّ لا يعرفونه، لأنّهم كانوا يسمعون بآذانهم، وبكم عن الحقّ لا ينطقون مع أنّ ألسنتهم صحيحة، عمي لا يعرفون الحقّ وأعينهم صحيحة، كما قال: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾[١]. ﴿فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ ويحتمل أمرين:

أحدهما: ما روي عن ابن عباس، أنّه على الذم والاستبطاء.

والثاني: ما روي عن ابن مسعود، أنّهم لا يرجعون إلى الإسلام، وقال قوم: إنّهم لا يرجعون عن شراء الضلالة بالهدى، وهو أليق بما تقدّم، وهذا يدلّ على أنّ قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ وطبع الله عليها، ليس هو على وجه الحيلولة بينهم وبين الايمان، لأنّه وصفهم بالصم والبكم، والعمى مع صحّة حواسهم، وإنّما أخبر بذلك عن إلفهم الكفر واستثقالهم للحقّ والايمان، كأنّهم

---

١. الأعراف: ١٩٨.

مـا سـمعوه ولا رأوه فلـذلك قـال: ﴿طَبَـعَ اللَّـهُ عَلَـى قُلُـوبِهِمْ﴾ ﴿وَأَضَـلَّهُمْ﴾ ﴿وأصمهم﴾ ﴿وأعمى أبصارهم﴾ ﴿وجعل عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

وكان ذلك إخباراً عمّا أحدثوه عند امتحان الله إياهم وأمرهم له بالطاعة والايمان لأنّه ما فعل بهم ما منعهم من الايمان، وقد يقول الرجل: حب المال قد أعمى فلاناً وأصمّه، ولا يريد بذلك نفي حاسته، لكنّه إذا شغله عن الحقوق والقيام بما يجب عليه قيل: أصمّه وأعماه، وكما قيل في المثل: حبك للشيء يعمي ويصمّ ـ ويريدون به ما قلناه ـ وقال مسكين الدارمي:

أعمى إذا ما جارتي خرجت ... حتى يواري جارتي الخدر

ويصم عمّا كان بينهما ... سمعي وما بي غيره وقر[1]

وقال آخر: أصمّ عمّا ساءه سميع، فجمع الوصفين، وانّما جاز ﴿صُمٌّ وبُكْمٌ﴾ بعد وصف حالهم في الآخرة كما في قوله: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ﴾ لأمرين:

أحدهما: أنّ المعتمد من الكلام على ضرب المثل لهم في الدنيا في الانتفاع باظهار الايمان.

الثاني:إنّه اعتراض بين مثلين بما يحقق حالهم فيهما على سائر أمرهما،وقيل: إنّ معناه التقديم والتأخير.

---

١ـ والبيتان في معجم الأدباء، ١١: ١٣٢ وهو من الشواهد في الكشاف ومجمع البيان وروح الجنان وأمالي المرتضى.

**قوله تعالى:** ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (١٩).

الصيّب على فيعل من صاب يصوب، وأصله صَيوِبْ، لكن استقبلتها ياء ساكنة فقلبت الواو ياء وأدغمتا، كما قيل: سيد من ساد يسود، وجيد من جاد يجود، قياساً مطرداً، والصيب المطر، وكلّ نازل من علو إلى أسفل يقال فيه صاب يصوب. قال الشاعر:

كـأنّهم صـابت علـيهم سـحابة ... صـواعقها لطيرهـنّ دبـيب[١]

وقال عبيد بن الأبرص:

حتـى عفاهـا صيـّب رعـده ... دانـي النـواحي مغـدق وابـل[٢]

وهذا مثل ضربه الله للمنافقين، لأنّ المعنى: أو كأصحاب صيّب، فجعل كفر الإسلام لهم مثلاً فيما ينالهم فيه من الشدائد والخوف، وما يستضيئون به من البرق مثلاً لما يستضيئون به من الإسلام، وما ينالهم من الخوف في البرق بمنزلة ما يخافونه من القتل بدلالة قوله: ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾[٣] وقال ابن عباس: الصيّب القطر، وقال عطا: هو المطر، وبه قال ابن مسعود، وجماعة من الصحابة، وبه قال قتادة، وقال مجاهد: الصيّب الربيع.

---

١.البيت لعلقمة بن عبدة، والبيت في ديوانه وفي شرح المفضليات.

٢.ديوانه: ٩٨ وفيه صيّت وهو خطأ لم يتنبه له جامع الديوان الدكتور حسين نصّار المصري.

٣.المنافقون: ٤.

وتأويل الآية: مثل استضاءة المنافقين بضوء إقرارهم بالاسلام مع استسرارهم الكفر كمثل مُوقِد نار، يستضيئ بضوء ناره، أو كمثل مطر مظلم ودقه يجري من السماء، تحمله مزنة ظلماء في ليلة مظلمة.

فإن قيل: فإن كان المثلان للمنافقين فلِمَ قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ وأو لا تكون إلاّ للشك، وإن كان مثلهم واحداً منهما، فما وجه ذكر الآخر بـ (أو) وهي موضوعة للشك من المخبر عمّا أخبر به؟

قيل: إنّ (أو) قد تستعمل بمعنى الواو، كما تستعمل للشك بحسب ما يدلّ عليه سياق الكلام، قال توبة بن الحمير:

قد زعمت ليلى بأنّي فاجر    لنفسي تقاها أو عليها فجورها[١]

ومعلوم أنّ توبة لم يقل ذلك على وجه الشك، وإنّما وضعها موضع الواو.

وقال جرير:

نال الخلافة أو كانت له قدرا    كما أتى ربه موسى على قدر[٢]

ومثله كثير. قال الزجّاج: معنى أو في الآية التخيير، كأنّه قال: إنّكم مخيّرون بأن تمثلوا المنافقين تارة بموقد النار، وتارة بمن حصل في المطر، يقال: جالس الحسن أو ابن سيرين أي أنت مخيّر في مجالسة من شئت منهما.

والرعد قال قوم: هو ملك موكل بالسحاب يسبح، روي ذلك عن مجاهد وابن عباس، وأبي صالح، وهو المروي عن أئمتنا عليهم السلام.

---

١. من قصيدة له في أمالي المرتضى ٣: ١٤٦، وأمالي الشجري ٢: ٣١٧، وأمالي القالي ١: ٢٨٨.

٢. ديوانه: ٢٧٥ من قصيدة قالها في مدح عمر بن عبد العزيز.

وقال قوم: هو ريح يختنق تحت السماء، رواه أبو خالد عن ابن عباس.

وقال قوم: هو اصطكاك اجرام السحاب، فمن قال انّه ملك قدر فيه صوته، كأنّه قال: فيه ظلمات وصوت رعد، لأنّه روي أنّه يزعق به، كما يزعق الراعي بغنمه، والصيب إذا كان مطراً، والرعد إذا كان صوت ملك، كان يجب أن يكون الصوت في المطر، لأنّه قال فيه والهاء راجعة إليه، والمعلوم خلافه، لأنّ الصوت في السحاب والمطر في الجو إلى أن ينزل، ويمكن أن يجاب عن ذلك بأن يقال: لا يمتنع أن يحل الصوت المطرحين انفصاله من السحاب، ولا مانع يمنع منه، ويحتمل أن يكون المراد بفي مع، كأنّه قال: معه ظلمات ورعد، وقد بيّنا جوازه فيما مضى.

وأمّا البرق، فمروي عن عليّ عليه السلام أنّه قال: مخاريق الملائكة من حديد، تضرب بها السحاب، فتنقدح منها النار، وروي عن ابن عباس أنّه سوط من نور، يزجر به الملك السحاب، وقال قوم: إنّه ما رواه أبو خالد عن ابن عباس، وقال مجاهد: هو مصع الملك، والمصاع: المجالدة بالسيوف وبغيرها، قال أعشى بني ثعلبة يصف جواري لعبن بحليهنّ:

إذا هـــنّ نازلـــن أقرانهـــنّ     وكان المصاع بما في الجون[١]

يقال منه: ماصعه مصاعاً، والمعاني متقاربة، لأنّ قول عليّ عليه السلام: إنّه مخاريق، وقول ابن عباس: إنّه سياط يتقاربان، وما قال مجاهد: إنّه مصاع قريب، لأنّه لا يمتنع أنّه أراد مصاع الملك بذلك، وإزجاره به.

والصواعق جمع صاعقة، وهو الشديد من صوت الرعد، فتقع منه قطعة نار تحرق ما وقعت فيه، والصاعقة: صيحة العذاب، والصاعاق: الصوت الشديد

---

١. ديوانه: ١٥.

للثور والحمار صعق صعاقاً، والصعق: الموت من صوت الصاعقة، والصعق: الغشي من صوت الصاعقة، صعق فهو صعق، ومنه قوله: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾[١] وروى شهر ابن حوشب: انّ الملك إذا اشتد غضبه، طارت النار من فيه، فهي الصواعق، وقيل: إنّ الصواعق نار تنقدح من اصطكاك الاجرام، وقريش وغيرهم من الفصحاء يقولون: صاعقة وصواعق، والقوم يصعقون، وتميم وبعض ربيعة يقولون: صواقع، والقوم يصقعون.

وفي تأويل الآية، وتشبيه المثل أقاويل:

روي عن ابن عباس أنّه مثل للقرآن، شبه المطر المنزل من السماء بالقرآن وما فيه من الظلمات بما في القرآن من الابتلاء، وما فيه من الرعد بما في القرآن من الزجر، وما فيه من البرق بما فيه من البيان، وما فيه من الصواعق بما في القرآن من الوعيد آجلاً، والدعاء إلى الجهاد عاجلاً.

والثاني: وقيل: إنّه مثل للدنيا وما فيها من الشدّة والرخاء، والبلاء كالصيب الّذي يجمع نفعاً وضراً، فإنّ المنافق يدفع عاجل الضر، ويطلب آجل النفع.

والثالث: أنّه مثل القيمة لما يخافونه من وعيد الآخرة، لشكهم في دينهم وما فيه من البرق بما فيه من إظهار الإسلام، من حقن دمائهم، ومناكحتهم، ومواريثهم، وما فيه من الصواعق بما في الإسلام من الزواجر بالعقاب في العاجل والآجل.

والرابع: أنّه ضرب الصيّب مثلاً بضرب إيمان المنافق، ومثل ما في الظلمات بضلالته، وما فيه من البرق بنور إيمانه، وما فيه من الصواعق بهلاك نفاقه.

والوجه الأخير أشبه بالظاهر، وأليق بما تقدّم.

---

١. الأعراف: ١٤٣.

وروي عن ابن مسعود، وجماعة من الصحابة: أنّ رجلين من المنافقين من أهل المدينة هربا من رسول الله ﷺ، فأصابهما المطر الّذي ذكره الله فيه رعد شديد وصواعق وبرق، فجعلا كلّما أصابتهما الصواعق، جعلا أصابعهما في آذانهما من الفرق[1] أن تدخل الصواعق في آذانهما فتقتلهما وإذا لمع البرق مشيا في ضوئه، وإذا لم يلمع لم يبصرا، فأقاما في مكانهما لا يمشيان، فجعلا يقولان: ليتنا قد أصبحنا فنأتي محمداً، فنضع أيدينا في يده.

فأصبحا فأتياه وأسلما، وحسن إسلامهما فضرب الله شأن هذين المنافقين مثلاً لمنافقي المدينة ؛ وأنّهم إذا حضروا النبيّ ﷺ، جعلوا أصابعهم فرقاً من كلام النبيّ ﷺ أن ينزل فيهم شيء، كما قام ذانك المنافقان، يجعلان أصابعهما في آذانهما.

﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾: يعني إذا كثرت أموالهم، وأصابوا غنيمة وفتحاً، مشوا فيه، وقالوا دين محمّد ﷺ صحيح. ﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾: يعني إذا أهلكت أموالهم، وولد البنات، وأصابهم البلاء، قالوا: هذا من أجل دين محمّد ﷺ، وارتدوا كما قام ذانك المنافقان إذا أظلم البرق عليهما[2].

ويقوي عندي، أنّ هذا مثل آخر، ضربه الله بالرعد والبرق لما هم فيه من الحيرة والالتباس، يقول: لا يرجعون إلى الحقّ إلاّ خلساً كما يلمع البرق، ثم يعودون إلى ضلالهم وأصلهم الّذي هم عليه ثابتون وإليه يرجعون، والكفر كظلمة الليل والمطر الّذي يعرض في خلالهما البرق لمعاً، وهم في أثناء ذلك يحذرون الوعيد والعذاب العاجل إن أظهروا الكفر كما يحذرون الصواعق من

---

١. الفرق: الخوف.

٢. الأثر في الدر المنثور ١: ٣٢، وتفسير الطبري ١: ٢٤٧ – ٢٤٨.

الرعد، فيضعون أصابعهم في آذانهم ارتياعاً وانزعاجاً في الحال ثم يعودون إلى الحيرة والضلال.

﴿حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ نصب على التميز وتقديره من حذر الموت. ويجوز أن يكون نصباً، لأنّه مفعول له فكأنّه قال: يفعلون هذا لأجل حذر الموت، ويحتمل أن يكون نصباً على الحال.

والموت: ضد الحياة، والاماتة: فعل بعده الموت، والميتة: ما لم تدرك ذكاته، والميتة: الموت في حال مخصوص من ذلك ميتة سوء، والموتان: وقوع الموت في المواشي، وموّتت المواشي: إذا كثر فيها الموت، وموتان الأرض: التي لم تزرع.

والحذر: طلب السلامة من المضرة، وحذّره تحذيراً، وحاذره محاذرة والحذيرة: المكان الغليظ، لأنّه يتحذر منه.

قوله: ﴿مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: إنّه عالم بهم، وإن كان عالماً بغيرهم، وإنّما خصهم لما فيه من التهديد.

والثاني: إنّه المقتدر عليهم، وإن كان مقتدراً على غيرهم، لأنّه تقدّم ذكرهم، ولما فيه من الوعيد، والمحيط: القادر، قال الشاعر:

أحطنا بهم حتى إذا ما تيقنوا ... بما قدروا مالوا جميعاً إلى السلم

أي قدرنا عليهم، فأمّا الإحاطة بمعنى كون الشيء حول الشيء، ممّا يحيط به فلا يجوز على الله تعالى، لأنّه من صفات الأجسام، والّذي يجوز، الإحاطة بمعنى الاقدار والملك، كما يقال: أحاط ملكك بمال عظيم يعنون أنّه يملك مالاً عظيماً، ويقال: حاطه يحوطه حوطاً: إذا حفظه من سوء يلحقه، ومنه

الحائط لأنه يحيط بما فيه، وأحاط به: جعل عليه كالحائط الدائر، والاحتياط: الاجتهاد في حفظ الشيء.

**قوله تعالى:** ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ آية (٢٠).

المعنى: معنى ﴿يَكَادُ﴾: يقارب وفيه مبالغة في القرب، وحذفت منه أن، لأنّها للاستقبال. قال الفرزدق:

يكــاد يمســكه عرفــان راحتــه ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم[١]

﴿يَخْطَفُ﴾ فيه لغتان يقال: خطف يخطف، وخطِف يخطف، والأول أفصح، وعليه القرّاء، وروي عن الحسن يخطف ـ بكسر الخاء وكسر الطاء ـ ويروى يخطف بكسر الياء والخاء والطاء، والخطف: السلب، ومنه الحديث أنّه نهى عن الخطفة، يعني النهبة، ومنه قيل الخطاف: والّذي يخرج به الدلو من البئر خطاف، لاختطافه واستلابه، قال نابغة بني ذبيان:

خطاطيف حجن في حبال متينة تمـد بهـا أيـد إليـك نـوازع[٢]

جعل ضوء البرق، وشدّة شعاع نوره، كضوء إقرارهم بألسنتهم بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله، واليوم الآخر، ثم قال:

---

١.ديوان الفرزدق من قصيدة يمدح بها الإمام عليّ بن الحسين السجاد عليه السلام.

٢ـ خطاطيف: ج خطاف، وحجن ج أحجن: وهو المعوج، ونوازع ج نازع ونازعة من قولهم نزع الدلو من البئر ينزعها جذبها أخرجها، والبيت في ديوانه: ٤١.

﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ يعني كلّما أضاء البرق لهم، وجعل البرق مثلاً لايمانهم، وإضاءة الايمان أن يروا فيه ما يعجبهم في عاجل دنياهم، من إصابة الغنائم، والنصرة على الأعداء فلذلك أضاء لهم، لأنّهم إنّما يظهرون بألسنتهم ما يظهرونه من الإقرار ابتغاء ذلك، ومدافعة عن أنفسهم وأموالهم، كما قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾[١].

﴿وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ﴾ يعني ضوء البرق على السائرين في الصيّب الّذي ضربه مثلاً للمنافقين، وظلام المنافقين أن يروا في الإسلام ما لا يعجبهم في دنياهم، من ابتلاء الله المؤمنين بالضراء، وتمحيصه إياهم بالشدائد والبلاء من إخفاقهم في مغزاهم، أو إدالة عدوهم، أو إدبار دنياهم عنهم، أقاموا على نفاقهم، وثبتوا على ضلالهم، كما ثبت السائر في الصيب الّذي ضربه مثلاً. ﴿إِذَا أَظْلَمَ﴾ وخفت ضوء البرق، فحار في طريقه، فلم يعرف منهجه.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾، إنّما خصّ الله تعالى ذكر السمع والبصر، أنّه لو شاء لذهب بهما دون سائر أعضائهم، لما جرى من ذكرهما في الآيتين من قوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنْ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾، وفي قوله: ﴿يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ فلمّا جرى ذكرهما على وجه المثل، عقب بذكر ذلك بأنّه لو شاء، أذهبه من المنافقين عقوبة لهم على نفاقهم وكفرهم، كما توعّد في قوله: ﴿مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾. وقوله: ﴿بِسَمْعِهِمْ﴾ قد بيّنا فيما تقدّم أنّه مصدر يدلّ على الجمع، وقيل: إنّه واحد موضوع للجمع، فكأنّه أراد باسماعهم، قال الشاعر:

---

١. الحج: ١١.

كلـوا فـي نصـف بطـنكم تعفـوا فـإنّ زمـانكم زمـن خميـص[١]

أراد البطون ويقال: ذهبت به وأذهبته وحكي أذهب به، وهو ضعيف ذكره الزجّاج والمعنى: ولو شاء الله لأظهر على كفرهم فدمر عليهم وأهلكهم لأنّه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي قادر وفيه مبالغة.

**قوله تعالى:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ آية (٢١).

القراءة: أفصح اللغات فتح الهاء بـ(أيها) وبعض بني مالك من بني أسد رهط شقيق بن سلمة يقولون: يا أيه الناس ويا أيته المرأة ويا أيه الرجل، ولا يقرأ بها، ومن رفعها توهمها آخر الحروف، وقد حذفت الألف في الكتابة من ثلاثة مواضع: أيه المؤمنون، ويا أيه الساحر، وأيه الثقلان، وسنذكر خلاف القراء في التلفّظ بها.

وروي عن علقمة والحسن: أنّ كلّما في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ نزل بالمدينة، وما فيه ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ نزل بمكة.

وهذه الآية متوجّهة إلى جميع الناس مؤمنهم، وكافرهم، لحصول العموم فيها، إلاّ من ليس بشرائط التكليف من المجانين والأطفال، وروي عن ابن عباس أنّه قال: قوله ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ أي وحّدوه، وقال غيره: ينبغي أن يحمل على عمومه في كلّ ما هو عبادة الله: من معرفته ومعرفة أنبيائه، والعمل بما أوجبه عليهم وندبهم إليه وهو الأقوى، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي تتقون عذابه بفعل ما أوجبه عليكم كما قال: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

---

١. من أبيات سيبويه التي لا يعلم قائلها. سيبويه. الخزانة.

ومعنى ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ قال الشاعر:

وقلتم لنا كفوا الحروب لعلّنا نكف ووثقتم لنا كلّ موثق

فلما كففنا الحرب كانت عهودكم كلمح سراب في الملا متألق[١]

يعني قلتم لنا: كفّوا لنكف، لأنّه لو كان شاكاً لما كانوا وثقوا كلّ موثق.

**قوله تعالى:** ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ آية واحدة (٢٢).

وروى عن ابن مسعود وغيره من الصحابة، أنّ معنى الآية: لا تجعلوا لله أكفّاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله.

قال ابن عباس: إنّه خاطب بقوله: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنداداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، جميع الكفّار من عباد الأصنام، وأهل الكتابين، لأنّ معنى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنّه لا ربّ لكم يرزقكم غيره، وإنّ ما تعبدون لا يضر ولا ينفع.

وروي عن مجاهد أنّه عنى بذلك أهل الكتابين، لأنّهم كانوا يعلمون أنّه لا خالق لهم غيره، ولا منعم عليهم سواه، والعرب ما كانت تعتقد وحدانيته تعالى.

والأول أقوى لأنّ الله تعالى قد أخبر أنّ العرب قد كانت تعتقد وحدانيته تعالى، قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ

---

١. قائلهما غير معروف، رواهما ابن الشجري في أماليه ١: ١٥ وهناك رواية أخرى.

لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[١] ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾[٣]؟ فحمل الآية على عمومها أولى، ويطابق أول الآية، وقد بيّنا أنّ خطابه لجميع الخلق.

واستدلّ أبو عليّ الجبائي بهذه الآية، على أنّ الأرض بسيطة ليست كرة كما يقول المنجمون والبلخي بأن قال: جعلها فراشاً، والفراش البساط بسط الله تعالى إياها، والكرة لا تكون مبسوطة، قال: والعقل يدلّ أيضاً على بطلان قولهم، لأنّ الأرض لا يجوز أن تكون كروية مع كون البحار فيها، لأنّ الماء لا يستقر إلا فيما له جنبان يتساويان، لأنّ الماء لا يستقر فيه كاستقراره في الأواني، فلو كانت له ناحية في البحر مستعلية على الناحية الأخرى، لصار الماء من الناحية المرتفعة إلى الناحية المنخفضة، كما يصير كذلك إذا امتلأ الاناء الّذي فيه الماء، وهذا لا يدلّ على ما قاله، لأنّ قول من قال الأرض كروية، معناه إنّ لجميعها شكل الكرة.

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: إنّكم تعلمون انّه لا خالق لكم، ولا منعم بما عدّده من أنواع النعيم سوى الله، وانّ من أشركتم به لا يضر ولا ينفع.

والثاني: انّه أراد، وأنتم علماء بأمور معايشكم، وتدبير حروبكم، ومضاركم ومنافعكم، لستم بأغفال ولا جهال.

---

١. الزمر: ٣٨.

٢. الزخرف: ٨٧.

٣. يونس: ٣١.

**قولــه تعــالى:** ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ آية بلا خلاف (٢٣).

هذه الآية فيها احتجاج لله تعالى لنبيّه محمّد ﷺ على مشركي قوم من العرب والمنافقين، وجميع الكفار من أهل الكتابين، وغيرهم، لأنّه خاطب أقواماً عقلاء ألباء[١] في الذروة العليا من الفصاحة، والغاية القصوى من البلاغة وإليهم المفزع في ذلك، فجاءهم بكلام من جنس كلامهم، وجعل عجزهم من مثله حجة عليهم، ودلالة على بطلان قولهم، ووبخهم، وقرعهم وأمهلهم المدة الطويلة، وقال لهم: ﴿فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾[٢]، ثم قال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾[٣] وقال في موضع آخر: ﴿بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾. وخبّرهم أنّ عجزهم، إنّما هو عن النظير والجنس، مع أنّه ولد بين أظهرهم ونشأ معهم، ولم يفارقهم في سفر ولا حضر، وهو من لا يخفى عليهم حاله لشهرته وموضعه، وهم أهل الحمية والأنفة يأتي الرجل منهم بسبب كلمة على القبيلة، فبذلوا أموالهم ونفوسهم في إطفاء أمره، ولم يتكلّفوا معارضته بسورة ولا خطبة، فدلّ ذلك على صدقه، وذكرنا ذلك في الأصول.

وقوله: ﴿بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ قال قوم: إنّها بمعنى التبعيض، وتقديره: فأتوا ببعض ما هو مثل له وهو سورة، وقال آخرون: هي بمعنى تبيين الصفة كقوله:

---

١. ألبّاء: ج لبيب.

٢. هود: ١٣.

٣. يونس: ٣٨.

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ الأوْثَانِ﴾[١] وقال قوم: إنّ ﴿من﴾ زائدة، كما قال في موضع آخر: ﴿بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ يعني مثل هذا القرآن، وقال آخرون: أراد ذلك من مثله في كونه بشراً أمياً، طريقته مثل طريقته والأول أقوى، لأنّه تعالى قال في سورة أخرى: ﴿بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾. ومعلوم أنّ السورة ليست محمّداً ﷺ، ولا له بنظير، ولأنّ في هذا الوجه تضعيفاً لكون القرآن معجزة، ودلالة على النبوة.

وقوله: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: أراد أعوانكم على ما أنتم عليه، إن كنتم صادقين.

وقال الفراء: أراد ادعوا آلهتكم.

وقال مجاهد وابن جريج: أراد قوماً يشهدون لكم بذلك ممّن يقبل قولهم، وقول ابن عباس أقوى.

وقوله: ﴿مِثْلِهِ﴾، أراد به ما يقاربه في الفصاحة، ونظمه، وحسن ترصيفه وتأليفه، ليعلم أنّه إذا عجزوا عنه، ولم يتمكنوا منه، أنّه من فعل الله تعالى، جعله تصديقاً لنبيّه، وليس المراد أنّ القرآن له مثل عند الله، ولولاه لم يصحّ التحدي لأنّ ما قالوه لا دليل عليه، والاعجاز يصحّ، وإن لم يكن له مثل أصلاً، بل ذلك أبلغ في الاعجاز، لأنّ ذلك جار مجرى قوله: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾[٢] وانّما أراد نفي البرهان أصلاً، والدعاء أراد به الاستعانة. قال الشاعر:

وقبلك ربّ خصم قد تمالوا   عليَّ فما جزعت ولا دعوت

وقال آخر:

---

١.الحج: ٣٠.

٢.البقرة: ١١١.

فلمّـا التقـت فرسـانا ورجالـهم     دعوا يا لكعب واعتزينا لعامر[١]

يعني انتصروا بكعب واستغاثوا بهم.

وشهداء جمع شهيد، مثل شريك وشركاء وخطيب وخطباء، والشهيد: يسمّى به الشاهد على الشيء لغيره بما يحقق دعواه، وقد يسمّى به المشاهد للشيء، كما يقال: جليس فلان، يريد به مجالسه ومنادمه، فعلى هذا تفسير ابن عباس أقوى، وهو، أنّ معناه استنصروا أعوانكم على أن يأتوا بمثله، وشهداءكم الذين يشاهدونكم ويعاونونكم على تكذيب الله ورسوله، ويظاهرونكم على كفركم ونفاقكم إن كنتم محقين.

وما قاله مجاهد وابن جريج في تأويل ذلك لا وجه له، لأنّ القوم على ثلاثة أصناف: فبعضهم أهل إيمان صحيح، وبعضهم أهل كفر صحيح، وبعضهم أهل نفاق، فأهل الايمان إذا كانوا مؤمنين بالله ورسوله، فلا يجوز أن يكونوا شهداء للكفار على ما يدعونه، وأمّا أهل النفاق والكفر فلا شك أنّهم إذا دعوا إلى تحقيق الباطل وإبطال الحقّ، سارعوا إليه مع كفرهم وضلالتهم، فمن أيّ الفريقين كانت تكون شهداء، لكن يجري ذلك مجرى قوله: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[٢] وقد أجاز قوم هذا الوجه أيضاً قالوا: لأنّ العقلاء لا يجوز أن يحملوا نفوسهم على الشهادة بما يفتضحون به في كلام أنّه مثل القرآن ولا يكون مثله، كما لا يجوز أن يحملوا نفوسهم على أن يعارضوا ما ليس بمعارض في الحقيقة.

---

١. والبيت للراعي النميري، اللسان (عزا) واعتزى.

٢. الإسراء: ٨٨.

ومعنى الآية: إن كنتم في شك من صدق محمّد ﷺ فيما جاءكم به من عندي، فأتوا بسورة من مثله، فاستنصروا بعضكم بعضاً على ذلك إن كنتم صادقين في زعمكم حتى إذا عجزتم وعلمتم أنّه لا يقدر على أن يأتي به محمّد ﷺ، ولا أحد من البشر يتضح عندكم أنّه من عند الله تعالى.

**قوله تعالى:** ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ آية بلا خلاف (٢٤).

معنى ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ لم تأتوا بسورة من مثله ـ وقد تظاهرتم أنتم وشركاؤكم عليه وأعوانكم ـ وقد تبيّن لكم بامتحانكم، واختباركم عجزكم وعجز جميع الخلق عنه وعلمتم أنّه من عندي، ثم أقمتم على التكذيب به.

ومعنى ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ أي لن تأتوا بسورة من مثله أبداً، لأنّ لن تنفي على التأبيد في المستقبل، وفي قوله: ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ دلالة على صحّة نبوته، لأنّه يتضمّن الإخبار عن حالهم في المستقبل بأنّهم لا يفعلون، ولا يجوز لعاقل أن يقدم على جماعة من العقلاء يريد تهجينهم فيقول: أنتم لا تفعلون إلاّ وهو واثق بذلك، ويعلم أنّ ذلك متعذّر عندهم، وينبغي أن يكون الخطاب خاصاً لمن علم الله أنّه لا يؤمن، ولا يدخل فيه من آمن فيما بعد وإلا كان كذباً.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ الوقود ـ بفتح الواو ـ اسم لما يوقد، والوُقود ـ بضمها ـ المصدر. وقيل: إنّهما بمعنى واحد في المصدر واسم الحطب، حكاه الزجاج والبلخي، والأول أظهر.

﴿اتقوا الله﴾ ـ مشددة ـ لغة أهل الحجاز، وبنو أسد وتميم يقولون: تقوا الله خفيف بحذف الألف.

﴿الْحِجَارَةُ﴾ قيل: إنّها حجارة الكبريت لأنّها أحر شيء إذا حميت، وروي ذلك عن ابن عباس وابن مسعود، والظاهر انّ الناس والحجارة وقود النار وحطبها كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[١] تهيباً وتعظيماً بأنّها تحرق الحجارة والناس.

وقيل: إنّ أجسادهم تبقى على النار بقاء الحجارة التي توقدها النار بالقدح، وقال قوم معناه: انّهم يعذبون بالحجارة المحماة مع النار، والأول أقوى وأليق بالظاهر، وانّما جاز أن يكون قوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ جواب الشرط مع لزوم الاتقاء من النار كيف تصرفت الحال، لأنّه لا يلزمهم الاتقاء على التصديق بالنبوة إلاّ بعد قيام المعجزة، فكأنّه قال: فإن لم تفعلوا، ولن تفعلوا، فقد قامت الحجة، ووجب اتقاء النار بالمخالفة.

وقوله: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ لا يمنع من اعدادها لغير الكافرين من الفسّاق كما قال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[٢] ولم يمنع ذلك من إحاطتها بالفساق والزناة والزبانية، وقال قوم: هذه نار مخصوصة للكافرين لا يدخلها غيرهم، والفساق لهم نار أخرى.

وقد استدلّ بهذه على بطلان قول من حرّم النظر والحجاج العقلي، بأن قيل: كما احتج الله تعالى على الكافرين بما ذكره في هذه الآية، وألزمهم به تصديق النبيّ ﷺ والمعرفة بأنّ القرآن كلامه، لأنّه قال: إن كان هذا القرآن كلام محمّد فأتوا بسورة من مثله، ودلّهم بعقولهم أنّه لو كان كلام محمّد لتهيأ لهم مثل ذلك، لأنّهم الذين يؤخذ عنهم اللغة، وإذا كان لم يتهيأ لهم ذلك علموا

---

١.الأنبياء: ٩٨.

٢.التوبة: ٤٩.

بعقولهم أنّه من كلام الله، وهذا هو معنى الاحتجاج بالعقول، فيجب أن يكون ذلك صحيحاً من كلّ واحد.

**قوله تعالى:** ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ آية (٢٥).

وقال الفضل: الجنة كلّ بستان فيه نخل، وإن لم يكن شجر غيره، وإن كان فيه كرم فهو فردوس، كان فيه شجر غير الكرم أم لم يكن.

﴿مِنْ ثَمَرَةٍ﴾ من زائدة والمعنى: كلّما رزقوا ثمرة و﴿منها﴾ يعني من الجنات، والمعنى أشجارها وتقديرها كلّما رزقوا من أشجار البساتين التي أعدها الله للمؤمنين، وقال الرماني: هي بمعنى التبعيض، لأنّهم يرزقون بعض الثمرات في كلّ وقت، ويجوز أن تكون بمعنى تبيين الصفة، وهو أن يبيّن الرزق من أيّ جنس هو.

وقوله: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ روي عن ابن عباس، وابن مسعود وجماعة من الصحابة أنّه الّذي رزقنا في الدنيا، وقال مجاهد: معناه أشبهه به، وقال بعضهم: إنّ ثمار الجنة إذا جنيت من أشجارها، عاد مكانها فإذا رأوا ما عاد بعد الّذي جني، اشتبه عليهم فقالوا: هذا الّذي رزقنا من قبل، وهذا قول أبي عبيدة، ويحيى بن أبي كثير، وقال قوم: هذا الّذي رزقنا، وعدنا به في الدنيا، وقد بيّنا فيما تقدّم، أنّ الرزق عبارة عمّا يصحّ الانتفاع به على وجه لا يكون لأحد المنع منه، وقال المفضل: ذلك يخص الأقوات.

وقال قوم: هذا الّذي رزقنا من قبل لمشابهته في اللون وإن خالفه في الطعم، وأقوى الأقوال قول ابن عباس وأنّ معناه هذا الّذي رزقنا في الدنيا، لأنّه قال: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقاً قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ فعمّ ولم يخصّ، فأول ما أتوا به لا يتقدر هذا القول فيه إلاّ بأن يكون اشارة إلى ما تقدّم رزقه في الدنيا، لأنّا فرضناه أولاً وليس في الآية تخصيص، ويكون التقدير هذا الّذي رزقنا في الدنيا لأنّ ما رزقوه أولاً قد عدم وأقام المضاف إليه مقام المضاف، كما أنّ القائل إذا قال لغيره: أعددت لك طعاماً، ووصفه له، يحسن أن يقول: هذا طعام كلّ وقت يريد مثله ومن جنسه، ونوعه وقوله: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً﴾ قال الضحاك: إذا رأوه قالوا: هو الأوّل في النظر واللون، وإذا طعموا وجدوا له طعماً غير طعم الأوّل وقوله: ﴿وَأُتُوا بِهِ﴾ معناه جيئوا به، وليس معناه أعطوه.

وقال قوم: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً﴾ أي يشبه بعضه بعضاً إلاّ في المنظر والطعم، أي كلّ واحد منه له من الفضل في نحوه مثل الّذي للآخر في نحوه، ذكره الأخفش، وهذا كقول القائل: وقد جيئ بأثواب أو أشياء رآها فاضلة فاشتبهت عليه في الفضل، فقال: ما أدري ما أختار منها كلّها عندي فاضل. قال الشاعر:

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم     مثل النجوم التي يسري بها الساري[1]

يعني أنّهم تساووا في الفضل والسؤدد، وروي هذا عن الحسن وابن جريج، وقال قتادة: معناه يشبه ثمار الدنيا غير أنّها أطيب، وقال ابن زيد

---

١.البيت من الشواهد، وذكره المرزباني والقالي وأبو تمام في الحماسة والحصري في زهر الآداب وغيرهم، ونسبه أبو تمام إلى العرندس أحد بني أبي بكر بن كلاب، ونسبه في روايته عند المرزباني إلى أبي العرندس، وعند المبرّد في الكامل إلى عبيد بن العرندس.

والأشجعي: إنّ التشابه في الأسماء دون الألوان والطعوم، فلا يشبه ثمار الجنة شيء من ثمار الدنيا في لون ولا طعم، وأولى هذه الأقوال أن يكون المراد به متشابهاً في اللون والمنظر على أنّ الطعم مختلف، لما قدّمناه من أنّ هذا يقولونه في أول الحال أيضاً، وما تقدّر عليه غيره، وبعد هذا قول من قال: معناه أنّ كلّها جياد لا رذال فيه، وقال بعض المتأخّرين في قوله: ﴿هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ معناه هذا الّذي أعطينا بعبادتنا من قبل.

وقال أبو عليّ: معناه ذلك ما يؤتون به في كلّ وقت من الثواب مثل الّذي يؤتى في الوقت الّذي قبله من غير زيادة ولا نقصان، لأنّه لابدّ أن تتساوى مقادير الاستحقاق في ذلك، وقال أيضاً: يجب أن يسوي بينهم في الأوقات في مقدار ما يتفضل به عليهم في وقت، ويزدادون في وقت آخر، قال: لأنّ ذلك يؤدّي إلى أنّ التفضّل أعظم من الثواب.

وهذا الّذي ذكره غير صحيح، لأنّ العقل لا يدلّ على مقادير الثواب في الأوقات ولا يعلم ذلك غير الله، بل عندنا لا يدلّ العقل على دوام الثواب، وإنّما علم ذلك بالسمع والاجماع، وأمّا التفضّل فلا شك أنّه يجوز أن يزيد في وقت على ما يفضله في وقت آخر، ولا يؤدّي ذلك إلى مساواته للثواب، لأنّ الثواب يتميّز من التفضل لمقارنة التعظيم له والتبجيل، ولأجل ذلك يتميّز كلّ جزء من الثواب من كلّ جزء من التفضّل ولا زيادة هناك.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ قيل في الأبدان والأخلاق والأفعال ولا يحضن، ولا يلدن، ولا يذهبن إلى غائط، وهو قول جماعة المفسّرين.

وقوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي دائمون يبقون ببقاء الله لا انقطاع لذلك ولا نفاد.

**قوله تعالى:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ آيـــة واحدة (٢٦).

اختلف أهل التأويل في سبب نزول هذه الآية، فروي عن ابن مسعود وابن عباس أنّ الله تعالى، لما ضرب هذين المثلين للمنافقين وهو قوله: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾ وقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنْ السَّمَاءِ﴾ قال المنافقون: الله أجل من ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً﴾ إلى آخر الآية، وقال الربيع بن أنس: هذا مثل ضربه الله للدنيا، لأنّ البعوضة تحيا ما جاعت، فإذا سمنت ماتت، فشبّه الله تعالى هؤلاء بأنّهم إذا امتلؤوا أخذهم الله ؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ إلى آخر الآية ـ إلى أن قال ـ ﴿حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾[1].

وقال قتادة: معناه أنّ الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها أي لا يستحيي من الحقّ أن يذكر منه شيئاً ما قلّ أو كثر، إنّ الله تعالى حين ذكر في كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل الضلالة: ماذا أراد الله من ذكر هذا؟ فأنزل الله تعالى: ﴿أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ الآية، وكلّ هذه الوجوه حسنة، وأحسنها قول ابن عباس، لأنّه يليق بما تقدّم، وبعده ما قال قتادة.

---

١.الأنعام: ٤٤.

وليس لأحد أن يقول: هذا المثل لا يليق بما تقدم، من حيث لم يتقدّم للبعوضة ذكر، وقد جرى ذكر الذباب والعنكبوت في موضع آخر، في تشبيه آلهتهم بها وأن يكون المراد بذلك أولى، وذلك أنّ قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ إنّما هو خبر منه تعالى أنّه لا يستحيي تعالى أن يضرب مثلاً في الحقّ من الأمثال صغيرها وكبيرها، لأنّ صغير الأشياء عنده وكبيرها بمنزلة واحدة من حيث لا يتسهل الصغير، ولا يصعب الكبير، وإنّ في الصغير من الإحكام والإتقان ما في الكبير، فلمّا تساوى الكل في قدرته، جاز أن يضرب المثل بما شاء من ذلك، فيقر بذلك المؤمنون، ويسلمون ـ وإن ضل به الفاسقون بسوء اختيارهم ـ وهذا المعنى مروي عن مجاهد.

وروي عن الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام أنّه قال: إنّما ضرب الله بالبعوضة، لأنّ البعوضة على صغر حجمها خلق فيها جميع ما في الفيل على كبره وزيادة عضوين آخرين، فأراد الله أن ينبه بذلك المؤمنين على لطف خلقه وعجيب عظم صنعه.

والإضلال على وجوه كثيرة:

منها: ما نسبه الله تعالى إلى الشيطان، وهو الصد عن الخير والرشد والدعاء إلى الفساد والضلال، وتزيين ذلك، والحث عليه، وهذا ينزه الله تعالى عنه.

ومنها: التشديد في الإمتحان والإختبار اللذين يكون عندهما الضلال ويعقبهما، ونظير ذلك في اللغة أن يسأل الرجل غيره شيئاً نفيساً خطيراً يثقل على طباعه بذله فإذا بخل به، قيل له نشهد لقد بخل به فلان، وليس يريدون بذلك عيب السائل، وانّما يريدون عيب الباخل المسؤول، لكن لمّا كان بخل المسؤول ظهر عند مسألة السائل جاز أن يقال في اللغة: انّه بخلك.

ويقولون للرجل إذا أدخل الفضة النار ليعلم فسادها من صلاحها، وظهر فسادها: أفسدت فضتك، ولا يرون أنّه فعل فيها فساداً، وإنّما يريدون أنّ فسادها ظهر عند محنته، ويقرب من ذلك قولهم: فلان أضل ناقته، ولا يريدون أنّه أراد أن تضل، بل يكون قد بالغ في الإستتار منها، وإنّما يريدون ضلّت منه لا من غيره، ويقولون: أفسدت فلانة فلاناً، وأذهبت عقله، وهي لا تعرفه، لكنه لمّا فسد وذهب عقله من أجلها، وعند رؤيته إياها قيل: قد أفسدت، وأذهبت عقله.

ومنها: التخلية على جهة العقوبة وترك المنع بالقهر والإجبار، ومنع الألطاف التي يؤتيها المؤمنين جزاء على إيمانهم، كما يقول القائل لغيره: أفسدت سيفك، إذا ترك أن يصلحه، لا يريد أنّه أراد أن يفسد أو أراد سبب فساده، أو لم يحب صلاحه، لكنّه تركه فلم يحدث فيه الإصلاح ـ في وقت ـ بالصقل والاحداد، وكذلك قولهم: جعلت أظافيرك سلاحاً، وانّما يريدون تركت تقليمها.

ومنها التسمية بالإضلال والحكم به كافراً، يقال: أضلّه إذا سمّاه ضالاً، كما يقولون: أكفره إذا سمّاه كافراً ونسبه إليه، قال الكميت:

وطائفة قد أكفروني بحبكم وطائفة قالوا مسيئ ومذنب[1]

ومنها الاهلاك والتدمير، قال الله تعالى: ﴿أإذا ضللنا في الأرض﴾ أي هلكنا، فيجوز أن يكون أراد بالآية: حكم الله على الكافرين، وبراءته منهم ولعنه إياهم إهلاكاً لهم، ويكون إضلاله إضلالاً كما كان الضلال هلاكاً، وإذا كان الضلال ينصرف على هذه الوجوه، فلا يجوز أن ينسب إلى الله تعالى أقبحها وهو ما أضافه إلى الشيطان، بل ينبغي أن ينسب إليه أحسنها وأجلّها.

---

١.البيت للكميت بن زيد الأسدي وهو في الهاشميات: ٣٥.

وإذا ثبتت هذه الجملة، رجعنا إلى تأويل الآية، وهو قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً﴾ معناه أنّ الكافرين لمّا ضرب الله لهم الأمثال قالوا: ما الحاجة إليها؟ قال الله تعالى: فيها أعظم الفائدة لأنّها محنة واختبار، وبهما يستحق الثواب، ويوصل إلى النعيم، فسمّى المحنة إضلالاً وهداية، لأنّ المحنة إذا اشتدت على الممتحن وثقلت فضلّ عندها، جاز أن تسمّى اضلالاً، فإذا سهلت فاهتدى عندها، سميت هداية، كما أنّ الرجل يقول لصاحبه: ما يفعل فلان؟ فيقول: هو ذا، يسخي قوماً ويبخل قوماً آخرين أي يسأل قوماً فيشتد عليهم للعطاء فيبخلون، ويسأل آخرين، فيسهل عليهم فيعطون ويجودون، فسمّي سؤاله باسم ما يقع عنده ويعقبه.

فمعنى قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾ أي يمتحن به عباده، فيضل به قوم كثير، ويهتدي به قوم كثير، ولا يجب على ذلك أن يكون أراد إضلالهم، كما لا يجب ذلك في السائل الّذي لا يريد بخل المسؤول، بل يريد اعطاءه، فإن قيل: أليس الله تعالى امتحن بهذه الأمثال المؤمنين كما امتحن بها الكافرين، فيجب أن يكون مضلاً لهم؟

قلنا: إنّما سمّى المحنة الشديدة إضلالاً إذا وقع عندها الضلال، كما أنّ السؤال يسمّى تبخيلاً إذا وقع عنده البخل.

وقال قوم: معنى قوله: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً﴾ يعني يضل بالتكذيب بهذه الأمثال كثيراً ويهدي بالايمان كثيراً، لأنّه لو كان سبباً للضلال لما وصفه الله بأنّه هدى وبيان وشفاء لما في الصدور، وحذف التكذيب والاقرار اختصاراً، لأنّ في الكلام ما يدلّ عليه، كما يقول القائل: نزل السلطان فسعد به قوم وشقي به آخرون، وانّما يراد به سعد باحسانه قوم وشقي باساءته آخرون لا بنزول جيشه، لأنّه نفسه لا يقع به سعادة ولا شقاء، وكما قال: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمْ الْعِجْلَ﴾[1] وإنّما أراد حب العجل، وذلك كثير.

---

١. البقرة: ٩٣.

وقد بيّنا أنّ الاضلال والهداية يعبر بهما عن العذاب والثواب، فعلى هذا يكون تقدير الآية: يضل أي يعذب بتكذيب القرآن والأمثال كثيراً، ويهدي أي يثيب بالاقرار به كثيراً، والدليل على ما قلنا قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ فلا يخلو أن يكون أراد ما قلناه من العقوبة على التكذيب، أو أراد به الحيرة والتشكيك، وقد ذكرنا أنّه لا يفعل الحيرة المتقدمة التي بها صاروا ضلالاً فسّاقاً، لم يفعلها الله إلاّ بحيرة قبلها، وهذا يوجب ما لا نهاية له من حيرة قبل حيرة، لا إلى أول، أو اثبات إضلال لا إضلال قبله، فإن كان الله قد فعل هذا الضلال الّذي لم يقع قبله ضلال فقد أضل من لم يكن فاسقاً، وهذا خلاف قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ فثبت أنه أراد أنّه لا يعاقب إلاّ الفاسقين، كما قال: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾[١].

وحكى الفراء وجهاً آخراً مليحاً، قال: قوله ﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً﴾ حكاية عمّن قال ذلك، كأنّهم قالوا: ماذا أراد بهذا مثلاً يضل به كثيراً، أي يضل به قوم ويهدي به قوم، ثم قال الله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ فبيّن عجل الاضلال، وأنّه لا يضلّ إلاّ ضالاً فاسقاً، واقتصر على الاخبار عنهم وبيان ما بين الاضلال دون ما أراد بالمثل، وهذا وجه حسن تزول معه الشبهة.

وأصل الفسق في اللغة الخروج عن الشيء، يقال منه: فسقت الرطبة إذا أخرجت من قشرها، ومن ذلك سمّيت الفارة فويسقة، لخروجها من جحرها، ولذلك سمّي المنافق والكافر فاسقين لخروجهما عن طاعة الله، ولذلك قال الله تعالى في صفة إبليس: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنْ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[٢] يعني خرج من طاعته واتباع أمره.

---

١. إبراهيم: ٢٧.

٢. الكهف: ٥٠.

**قولــه تعــالى:** ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ آية واحدة (٢٧).

و ﴿عَهْدَ اللَّهِ﴾ قال قوم: هو ما عهد إلى جميع خلقه في توحيده وعدله، وتصديق رسوله بما وضع لهم من الأدلّة الدالة على ربوبيته، وعهد إليهم في أمره ونهيه، وما احتج به لرسله بالمعجزات التي لا يقدر على الاتيان بمثلها الشاهدة لهم على صدقه، ونقضهم ذلك: تركهم الاقرار بما قد ثبت لهم صحته بالأدلّة، وتكذيبهم الرسل والكتب.

وقال قوم: هو وصية الله إلى خلقه، وأمره على لسان رسله إياهم فيما أمرهم به من طاعته، ونهيه إياهم عمّا نهاهم عنه، ونقضهم: تركهم العمل به.

وقال قوم: هذه الآية نزلت في كفار أهل الكتاب، والمنافقين منهم، وإياهم عنى الله عز وجل بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ...﴾ الآية. وقوله: ﴿وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ وكلّ ما في هذه الآية من اللوم والتوبيخ متوجه إليهم، وعهد الله الّذي نقضوه بعد ميثاقه هو ما أخذه عليهم في التوراة من العمل بما فيها، واتباع محمّد ﷺ إذا بعث، والتصديق بما جاء به من عند ربهم، ونقضهم ذلك جحودهم بعد معرفتهم بحقيته وانكارهم ذلك، وكتمانهم ذلك عند الناس بعد إعطائهم إياه تعالى من أنفسهم الميثاق ليُبيننّه للناس ولا يكتمونه، وإيمانهم أنّهم متى جاءهم نذير آمنوا به، فلمّا جاءهم النذير ازدادوا نفوراً، ونبذوا ذلك وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً.

وهذا الوجه اختاره الطبري، ويقوي هذا قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ

بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ﴾[١] والأمر العهد أيضاً، وقال في موضع آخر: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾[٢] وقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلاّ نُفُوراً﴾[٣].

وقال قوم: إنّما عنى بذلك العهد الّذي أخذه الله حين أخرجهم من صلب آدم الّذي وصفه في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ... إلى آخر الآية﴾[٤] وهذا الوجه عندي ضعيف، لأنّ الله تعالى لا يجوز أن يحتج على عباده بعهد لا يذكرونه ولا يعرفونه، وما ذكروه غير معلوم أصلاً، والآية سنبيّن القول فيها إذا انتهينا إليها إن شاء الله.

والقطع هو الفصل بين الشيئين أحدهما من الآخر، والأصل أن يكون في الأجسام ويستعمل في الأعراض تشبيهاً به، يقال: قطع الحبل والكلام، والأمر هو قول القائل لمن دونه: افعل وهو ضد النهي، والوصل هو الجمع بين الشيئين من غير حاجز، وقال قوم: الميثاق هو التوثيق، كما قال: ﴿أَنْبَتَكُمْ مِنْ الأَرْضِ نَبَاتاً﴾[٥] كقولهم أعطيتهم عطاء، يريد إعطاء.

**قوله تعالى:** ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ آية (٢٨).

---

١. آل عمران: ٨١.

٢. الأنعام: ١٠٩.

٣. فاطر: ٤٢.

٤. الأعراف: ١٧٢.

٥. نوح: ١٧.

﴿كَيْفَ﴾ موضوعة للاستفهام عن الحال، والمعنى هاهنا التوبيخ، وقال الزجاج: هو التعجب للخلق وللمؤمنين، أي اعجبوا من هؤلاء كيف يكفرون، وقد ثبتت حجة الله عليهم.

ومعنى ﴿وَكُنتُمْ﴾ أي وقد كنتم، الواو واو الحال، واضمار (قد) جائز إذا كان في الكلام ما يدلّ عليها، كما قال: ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ أي قد حصرت صدورهم، وكما قال: ﴿إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي قد قُدّ من دبر، ومن قال هو توبيخ قال هو مثل قوله: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾. وقال قتادة: وكنتم أمواتاً فأحياكم كما كانوا أمواتاً في أصلاب آبائهم يعني نطفاً، فأحياهم الله بأن أخرجهم ثم أماتهم الله الموتة التي لابدّ منه، ثم أحياهم بعد الموت، وهما حياتان وموتان.

وعن ابن عباس وابن مسعود أنّ معناه لم تكونوا شيئاً فخلقكم، ثم يميتكم، ثم يحييكم يوم القيامة، وروى أبو الأحوص عن عبد الله في قوله: ﴿أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ﴾ قال: هي كالتي في البقرة: ﴿كُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ وهو قول مجاهد وجماعة من المفسّرين، وروي عن أبي صالح أنّه قال: كنتم أمواتاً في القبور فأحياكم فيها، ثم يميتكم، ثم يحييكم يوم القيامة، وقال قوم: كنتم أمواتاً يعني خاملي الذكر، دارسي الأثر، فأحياكم بالطهور والذكر ثم يميتكم عند تقضي آجالكم ثم يحييكم للبعث، قال أبو نخيلة السعدي:

فأحييتَ لي ذكري وما كان خاملاً ولكن بعض الذكر أنبه من بعض[1]

وهذا وجه مليح غير أنّ الأليق بما تقدّم قول ابن عباس وقتادة، وقال قوم: معناه أنّ الله تعالى أحياهم حين أخذ الميثاق منهم وهم في صلب آدم، وكساهم

---

١. ذكره أبو الفرج في الأغاني ١٨: ١٤٠، والآمدي في المؤتلف والمختلف: ١٩٣.

العقل ثم أماتهم ثم أحياهم وأخرجهم من بطون أمهاتهم، وقد بيّنا أنّ هذا الوجه ضعيف في نظائره، لأنّ الخبر الوارد بذلك ضعيف.

والأقوى في معنى الآية أن يكون المراد بذلك تعنيف الكفّار، وإقامة الحجة عليهم بكفرهم وجحودهم ما أنعم الله تعالى عليهم، وأنّهم كانوا أمواتاً قبل أن يخلقوا في بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم، يعني نطفاً والنطفة موات، ثم أحياهم فأخرجهم إلى دار الدنيا أحياء، ثم يحييهم في القبر للمساءلة، ثم يبعثهم يوم القيامة للحشر والحساب، وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ معناه ترجعون للمجازاة على الأعمال كقول القائل: طريقك عليّ ومرجعك إليّ، يريد انّي مجازيك ومقتدر عليك، وسمّى الحشر رجوعاً إلى الله، لأنّه رجوع إلى حيث لا يتولّى الحكم فيه غير الله، فيجازيكم على أعمالكم كما يقول القائل: أمر القوم إلى الأمير أو القاضي، ولا يراد به الرجوع من مكان إلى مكان، وإنّما يراد به النظر صار له خاصة دون غيره.

فإن قال قائل: لم يذكر الله أحياء في القبر فكيف تثبتون عذاب القبر؟ قلنا: قد بيّنا أنّ قوله: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ المراد به إحياؤهم في القبر للمساءلة وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ معناه إحياؤهم يوم القيامة، وحذف ثم يميتكم بعد ذلك لدلالة الكلام عليه، على أنّ قوله: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ لو كان المراد به يوم القيامة، لم يمنع ذلك من إحياء في القبر، وإماتة بعده، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾[1] ولم يذكر حياة الذين أحيوا في الدنيا بعد أن ماتوا.

وقال في قوم موسى ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ

---

١. البقرة: ٢٤٣.

مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1] ولم يذكر حياتهم في الدنيا، ولم يدلّ ذلك على أنّهم لم يحييوا في الدنيا بعد الموت، وكذلك أيضاً لا تدلّ هذه الآية على أنّ المكلّفين لا يحيون في قبورهم للثواب والعقاب على ما أخبر به الرسول عليه السلام، وقول من قال: لم يكونوا شيئاً، ذهب إلى قول العرب للشيء الدارس الخامل: إنّه ميت يريد خموله ودرسه، وفي ضد ذلك يقال: هذا أمر حيّ يراد به، كأنّه متعالم في الناس، ومن أراد الإماتة التي هي خروج الروح من الجسد، فإنّه أراد بقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً﴾ أنّه خطاب لأهل القبور بعد إحيائهم فيها وهذا بعيد، لأنّ التوبيخ هنالك إنّما هو توبيخ على ما سلف وفرط من اجرامهم، لا استعتاب واسترداع، وقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً﴾ توبيخ مستعتب، وتأنيب مسترجع من خلقه من المعاصي إلى الطاعة، ومن الضلالة إلى الانابة، ولا إنابة في القبر ولا توبة فيها بعد الوفاة، وأحسن الوجوه ممّا قدّمنا ما ذكر ابن عباس وبعده قول قتادة.

**قوله تعالى:** ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ آية بلا خلاف (٢٩).

وتلخيص معنى الآية أنّ الله تعالى هو الّذي خلق لكم الأرض وما فيها من الجبال والمياه والأشجار، وما قدّر فيها من الأقوات، ثم قضى خلق السماء بعد خلقه الأرض، ومعنى استوى أي عمد لها وقصد إلى خلقها، وسوّاها سبع سماوات فبناهنّ وركّبهنّ كذلك.

---

١. البقرة: ٥٥ – ٥٦.

ونظير ذلك قوله: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنداداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾[1] يعني يومين بعد اليومين الأولين حتى صار بذلك أربعة أيّام ثم استوى إلى السماء، فمعنى قوله: ﴿خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً﴾ هو الّذي بيّنه بقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا...﴾ الآية وجعل ذكره لذلك في الآية الأولى تأكيد الحجة على عباده لئلاّ يكفروا به، ولأن يؤمنوا به ويشكروه.

وقوله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ يدلّ على أنّه تعالى ما أراد الكفر منهم، لأنّه لو أراده منهم وخلقه فيهم لما قال ذلك، كما لا يحسن أن يقول: لم كنتم سوداً وبيضاً وطوالاً وقصاراً، وقوله: ﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ فالّذي روي في الأخبار أنّ الله تعالى لما خلق الأرض، خلقها بعد الماء فصعد منه بخار وهو الدخان، فخلق الله منه السماوات وذلك جائز لا يمنع منه مانع. وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ معناه عالم وفيه مبالغة، وإنّما أراد إعلامهم أنّه لا يخفى عليه شيء من أفعالهم الظاهرة والباطنة، والسر والعلانية.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ آية (٣٠).

المعنى: قال أبو عبيدة: ﴿إِذْ﴾ زائدة، والتقدير ﴿قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ﴾ وهي تحذف في مواضع، قال الأسود بن يعفر:

---

١. حم فصلت: ٩ و ١٠.

وإذا وذلـــك لا مهـــاه لـــذكره     والـدهر يعقـب صـالحاً بفسـاد[١]

معناه: وذلك لا مهاه لذكره، قال عبد مناف بن مربع وقيل ابن ربع الهذلي:

حتى إذا أسلكوهم في قتائـدةٍ     شَلاً كما تطرد الجمّالة الشّردا[٢]

ومعناه حتى أسلكوهم، والقتائد: الموضع الّذي فيه قتاد [٣] كثير، والشل الطرد، والجمالة: الجمالون، والشرّد الابل التي تشرد عن مواضعها، وتقصد غيرها وتطرد عنها.

وهذا الّذي ذكره ليس بصحيح، لأنّ إذ حرف يأتي بمعنى الجزاء ويدلّ على مجهول من الوقت، ولا يجوز إبطال حرف كان دليلاً على معنى في الكلام إلاّ لضرورة، وليس المعنى في البيتين على ما ظن، بل لو حمل إذا في البيتين على البطلان بطل معنى الكلام الّذي أراد الشاعر، لأنّ الأسود أراد بقوله: وإذا الّذي نحن فيه وما مضى من عيشنا. وأراد بقوله: ذلك الاشارة إلى ما تقدّم وصفه من عيشه الّذي كان فيه لا مهاه لذكره، يعني لا طعم له، ولا فضل لأعقاب الدهر ذلك بفساد، ومعنى قول عبد مناف بن مربع: حتى إذا أسلكوهم في قتائدة، إنّ قوله: اسلكوهم مثلاً يدل على معنى محذوف، واستغنى عن ذكره بدلالة إذا عليه فحذف، كما قال النمر بن تولب:

---

١. في المطبوعة لا مهاة والصحيح ما ذكرنا كما عن المفضليات يقال: ليس لعيشنا مهه ومهاه أي ليس له حسن أو نضارة.

٢. في المطبوعة يطرد والبيت في ديوان الهذليين ٢: ٤٢، والخزانة ٣: ١٧٠ – ١٧٤ وأمالي ابن الشجري ١: ٣٥٨ و ٢: ٢٨٩ اسلك الرجل غيره الطريق وسلّكه فيه اضطره إليه، والقتائدة: جبل في طريق مكة والمدينة، وجواب إذا في البيت فعل محذوف دل عليه المصدر.

٣. القتاد نبات ذو شوك.

فإنّ المنية من يخشها فسوف تصادفه أينما[1]

يريد أينما ذهب، وكما يقول القائل: من قبل ومن بعد، يريد من قبل ذلك، ومن بعد ذلك، ويقول القائل: إذا أكرمك أخوك فأكرمه وإذا لا، فلا يريد وإذا لم يكرمك فلا تكرمه، ومن ذلك قول الشاعر:

فإذا وذلك لا يضرك ضرة في يوم أسأل نائلاً أو أنكد

وكذلك لو حذف إذا في الآية لاستحالت عن معناها الّذي تفيده إذ، لأنّ تقديره: ابتدأ خلقكم إذ قال ربّك للملائكة، قال الزجاج والرماني: أخطأ أبو عبيدة، لأنّ كلام الله لا يجوز أن يحمل على اللغو مع إمكان حمله على زيادة فائدة، قال: ومعنى إذ: الوقت وهي اسم كيف يكون لغواً؟ قال: والتقدير الوقت، والحجة في إذ أنّ الله ﷻ ذكر خلق الناس وغيرهم، فكأنّه قال: ابتدأ خلقك إذ قال ربّك للملائكة، وقال الفضل: لما امتنّ الله بخلق السماوات والأرض، ثم قال: وإذ قلنا للملائكة ما قلناه فهو لعلمه عليكم وتعظيم لأبيكم، واختار ذلك الحسن بن عليّ المغربي. وقال الرماني والزهري: اذكر إذ قال ربّك.

والملائكة جمع غير أنّ واحدهم بغير همز أكثر فيحذفون الهمزة ويحركون اللام التي كانت ساكنة لو همّز الاسم إلى اللام، فإذا أجمعوا ردوه إلى الأصل وهمزوا، كما يقولون: رأى، ثم يقولون يرى بلا همز، وذلك كثير، وقد جاء مهموزاً في واحدة، قال الشاعر:

---

١ـ مختارات ابن الشجري ١: ١٦، والخزانة ٤: ٤٣٨، وشرح شواهد المغني: ٦٥ من قصيدة محكمة وبعد البيت:

وإن تتخطاك أسبابها فإنّ قصاراك أن تهرما

فلســـت بأنســـي ولكـــن ملأكـــا تنزّل من جو السماء يصـوب[١]

وقد يقال في واحدهم مألك، مثل قولهم: جبذ وجذب فيقلبونه، وشأمل وشمأل، ومن قال: مألك يجمعه ملائك بلا هاء مثل أشعث وأشاعث، قال أمية ابن أبي الصلت:

وفيهـــا مـــن عبـــاد الله قـــوم ملائـك ذللـوا وهـم صعـاب[٢]

واصل الملأك الرسالة، قال عدي بن زيد العبادي:

أبلـــغ النعمـــان عـــنّي مـــلأكاً أنّه قد طال حبسي وانتظاري[٣]

وقد ينشد ملأكا ومألكا على اللغة الأخرى، فمن قال: ملأكا فهو مفعل من لاك إليه يليك إذا أرسل إليه رسالة، ومن قال مألكا فهو مفعل من ألكت إليه الإلاكة إذا أرسلت إليه مألكة وألوكا، وكما قال لبيد بن ربيعة:

وغـــلام أرسلتـــه أمـــه بـــألوك فبـــذلنا مـــا ســـأل

وهذا من ألكت ويقال: لاك يلأك وألك يألك إذا أرسل، قال عبد بني الحسحاس:

ألكنـي إليهـا عمـرك الله يـا فتـى بآيـة مـا جـاءت إلينـا تهاديـا[٤]

---

١.البيت منسوب لعلقمة بن عبدة وليس في ديوانه وهو من أبيات سيبويه، وفي اللسان (ألك).

٢.ديوانه: ١٩ ذللوا: من الذل.

٣.الأغاني والعقد الفريد بعد البيت وهو متمم له:

و بغيـــر المـــاء حلقـــي شـــرق كنت كالغصّان بالماء اعتصاري

٤.الكني إليها: أبلغها رسالة منّي. ديوان سحيم عبد بني الحسحاس: ١٩.

يعني أبلغها رسالتي، فسمّيت الملائكة ملائكة بالرسالة، لأنّها رسل الله بينه وبين أنبيائه، ومن أرسل من عباده، هذا عند من يقول: إنّ جميع الملائكة رسل فأمّا ما يذهب إليه أصحابنا أنّ فيهم رسلاً وفيهم من ليس برسل، فلا يكون الاسم مشتقاً، بل يكون علماً أو اسم جنس، إنّ جميعهم ليسوا رسل الله لقوله تعالى: ﴿يَصْطَفِي مِنْ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً﴾[1] فلو كانوا جميعاً رسلاً، لكانوا جميعاً مصطفين، لأنّ الرسول لا يكون إلاّ مختاراً مصطفى، وكما قال: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[2].

وقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ أي فاعل وخالق، وهما يتقاربان، قال الرماني: حقيقة الجعل: تصيير الشيء على صفة، والإحداث حقيقة: إيجاد الشيء بعد أن لم يكن موجوداً، والخليفة: الفعيلة من قولهم: خلف فلان فلاناً في هذا الأمر: إذا قام مقامه فيه بعده، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[3] يعني بذلك: أبدلكم في الأرض منهم، فجعلكم خلفاً في الأرض من بعدهم، وسمّي الخليفة خليفة من ذلك، لأنّه خلف مَن كان قبله، فقام مقامه. الخلَف ـ بتحريك اللام ـ يقال: فيمن كان صالحاً ـ وبتسكين اللام ـ إذا كان طالحاً، قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ﴾.

وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «ينقل هذا العلم من كلّ خلف عدوله»، وقال قوم: سمّى الله تعالى آدم خليفة، لأنّه جعل آدم وذريته خلفاء الملائكة، لأنّ الملائكة كانوا سكان الأرض.

---

١.الحج: ٧٥.

٢.الدخان: ٣٢.

٣.يونس: ١٤.

وقال ابن عباس: إنّه كان في الأرض الجن، فأفسدوا فيها، وسفكوا الدماء فأُهلكوا، فجعل الله آدم وذريته بدلهم.

وقال الحسن البصري: إنّما أراد بذلك قوماً يخلف بعضهم بعضاً من ولد آدم الذين يخلفون أباهم آدم في إقامة الحقّ وعمارة الأرض.

وقال ابن مسعود: أراد إنّي جاعل في الأرض خليفة يخلفني في الحكم بين الخلق، وهو آدم، ومن قام مقامه من ولده، وقيل إنّه يخلفني في إنبات الزرع وإخراج الثمار، وشق الأنهار.

وقيل: إنّ الأرض أراد بها مكة، روي ذلك عن ابن سارط، أنّ النبيّ ﷺ قال: «دحيت الأرض من مكة ولذلك سمّيت أم القرى». قال: دفن نوح وهود وصالح وشعيب بين زمزم والمقام، وقال قوم: انّها الأرض المعروفة، وهو الظاهر.

وقوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ وروي أنّ خلقاً يقال لهم الجانّ كانوا في الأرض فأفسدوا وسفكوا الدماء، فبعث الله تعالى ملائكة أجلتهم من الأرض، وقيل: إنّ هؤلاء الملائكة كانوا سكان الأرض بعد الجان فقالوا: يا ربّنا أتجعل في الأرض من يفسد فيها ويسفك الدماء، على وجه الاستخبار منهم والاستعلام عن وجه المصلحة والحكمة لا على وجه الإنكار، كأنّهم قالوا: إن كان هذا كما ظننا فعرّفنا وجه الحكمة فيه.

وقال قوم: المعنى فيه إنّ الله أعلم الملائكة إنّه جاعل في الأرض خليفة، وإنّ الخليفة فرقة تسفك الدماء وهي فرقة من بني آدم، فأذن الله للملائكة أن يسألوه عن ذلك، وكان إعلامه إيّاهم هذا زيادة على التثبيت في نفوسهم انّه يعلم الغيب، فكأنّهم قالوا: أتخلق فيها قوماً يسفكون الدماء، ويعصونك، وإنّما ينبغي أنّهم إذا عرفوا أنّك خلقتهم أن يسبّحوا بحمدك كما نسبّح ويقدّسوا كما نقدّس؟

ولم يقولوا هذا إلاّ وقد أذن لهم، لأنّهم لا يجوز أن يسألوا ما لا يؤذن لهم ما فيه، ويؤمرون به، لقوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1].

فإن قيل: من أين لكم أنّهم كانوا علموا ذلك؟ قيل: ذلك محذوف لدلالة الكلام عليه، لأنّا علمنا أنّهم لا يعلمون الغيب، وليس إذا فسد الجن في الأرض، وجب أن يفسد الإنس، وقوّة السؤال تدلّ على أنّهم كانوا عالمين، وجرى ذلك مجرى قول الشاعر:

فلا تدفنوني إنّ دفني محرّم     عليكم ولكن خامري أم عامر[2]

فحذف قوله: دعوني للتي يقال لها إذا أريد صيدها خامري أم عامر، فكأنّه قال: إنّي جاعل في الأرض خليفة يكون من ولده إفساد في الأرض وسفك الدماء، وقال أبو عبيدة والزجاج: انّهم قالوا ذلك على وجه الايجاب وإن خرج مخرج الاستفهام، كما قال جرير:

ألستم خير من ركب المطايا     وأندى العالمين بطون راح؟

فعلى هذا الوجه قال قوم: إنّما أخبروا بذلك عن ظنهم وتوهمهم، لأنّهم رأوا الجن من قبلهم قد أفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء، فتصوّروا أنّه إن استخلف غيرهم، كانوا مثلهم، فقال تعالى منكراً لذلك: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ وهذا قول قتادة وابن عباس وابن مسعود. وقال آخرون: إنّهم قالوه يقيناً لأنّ الله كان أخبرهم أنّه يستخلف في الأرض من يفسد فيها ويسفك الدماء، فأجابوه بعد علمهم بذلك بأن قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾

---

١.النحل: ٥٠.

٢.الشعر للشنفري شرح الحماسة ٢: ٢٤ – ٢٦، الأغاني ٢١: ٨٩ ويروي فلا تقبروني انّ قبري ولكن ابشري خامري: استتري. أم عامر: كنية الضبع.

وإنّما قالوه استعظاماً لفعلهم أي كيف يفسدون فيها ويسفكون الدماء، وقد أنعمتَ عليهم واستخلفتهم فيها، فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ وقال قوم: إنّهم قالوا ذلك متعجبين من استخلافه لهم أي كيف يستخلفهم وقد علم أنّهم يفسدون فيها ويسفكون الدماء؟ فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾.

والسفك: صب الدماء خاصة دون غيره من الماء، وجميع المايعات، والسفح مثله لأنّه مستعمل في جميع المايعات على وجه التضييع، ولذلك قالوا في الزنا إنّه سفاح لتضييع مائه فيه.

والملائكة المذكورون في الآية، قال قوم: هم جميع الملائكة، وقال آخرون ـ وهو المروي عن ابن عباس والضحاك ـ إنّه خطاب لمن أسكنه من الملائكة الأرض بعد الجان، وقبل خلق آدم، وهم الذين أجلوا الجان عن الأرض، وقال قتادة في قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ وقد علمت الملائكة من علم الله أنّه لا شيء عند الله أكبر من سفك الدماء والإفساد في الأرض، قال الله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ من أنّه سيكون الخليفة رسل وأنبياء، وقوم صالحون وساكنون الجنة.

وأقوى هذه الوجوه قول من قال: إنّ الملائكة إنّما قالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ على وجه التعجب من هذا التدبير، لا إنكاراً له ولكن على وجه التألّم والتوجّع والاغتمام والاستعلام لوجه التدبير فيه، فقال: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ من وجه المصلحة في خلقهم، وما يكون منهم من الخير والرشد والعلم، وحسن التدبير والحفظ، والطاعة ما لا تعلمون.

فإن قيل: الملائكة بم عرفت ذلك، إذ لم يمكنها أن تستدرك ذلك بالنظر والفكر، قلنا: قد يجوز أن لا يكون خَطَرَ ببالها ذلك إلاّ عندما أعلمهم الله،

فلما علموا ذلك، فزعوا إلى المسألة عنه، لأنّ المسألة لمن يتوقّع سرعة جوابه أو يوثق بعلمه وخبره يقوم مقام النظر والفكر، وقوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ يريدون من ولد آدم الذين ليسوا أنبياء، ولا أئمّة معصومين، فكأنّه قال تعالى: إنّي جاعل في الأرض خليفة يكون له ولد ونسل يفعلون كيت وكيت، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ يريدون الولد، وقد بيّنا أنّ الخليفة من يخلف من تقدّمه، جماعة كانوا أو واحداً، فلمّا أخبر الله تعالى الملائكة أنّه يخلق في الأرض عباداً هم آدم وولده، ويكون خليفة لمن تقدّمهم من الجن أو غيرهم، قالوا ما قالوا. ويحتمل أن يكون قوله: ﴿مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ يريدون البعض لا الكلّ، كما يقال: بنو شيبان يقطعون الطريق، ويراد بعضهم دون جميعهم.

وقوله: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ والتسبيح هو التنزيه من السوء على وجه التعظيم، وكلّ من عمل خيراً قصد به الله فقد سبّح، يقال: فرغت من سبحتي أي من صلاتي، وقال سيبويه: معنى سبحان الله: براءة الله وتنزيه الله من السوء، قال أعشى بني تغلب:

أقول ـ لما جاءني فخره ـ: سبحان من علقمة الفاخر [(١)]

أي براءة من علقمة الفاخر، وهو مشتق من السبح الّذي هو الذهاب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾ [(٢)] ولا يجوز أن يُسبّح غير الله وإن كان منزّهاً، لأنّه صار علماً في الدين على أعلى مراتب التعظيم التي لا يستحقها سواه، كما أنّ العبادة غاية في الشكر لا يستحقها سواه، وقال ابن عباس وابن مسعود: ﴿نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ بمعنى نصلّي لك كما قال: ﴿فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنْ

---

١. ديوانه: ١٠٦، الأغاني. علقمة في البيت هو علقمة بن علاثة هجاه الشاعر.

٢. المزمل: ٧.

﴿الْمُسَبِّحِينَ﴾[1] أي من المصلّين، وقال مجاهد: معناه نعظّمك بالحمد والشكر على نعمك، وقال قتادة: هو التسبيح المعروف، وقال المفضل: هو رفع الصوت بذكر الله، قال جرير:

قَبّح الإلـهُ وجـوهَ تغلـب كلّمـا سبّح الحجيج وهلّلوا إهـلالا[2]

وأصل التقديس: التطهير، ومنه قوله: الأرض المقدسة أي المطهرة، قال الشاعر:

فـأدركنـه يأخـذن بالسـاق والنسـا كما شبرق الولدان ثوب المقدس[3]

أي المطهر، وقال قوم: معنى نقدّس لك: نصلّي لك، وقال آخرون: نقدّس أنفسنا من الخطايا والمعاصي، وقال قوم: نطهّرك من الأدناس أي لا نضيف إليك القبائح، والقَدَس: السطل الّذي يتطهر منه أي يقدس، ويوصف تعالى بأنّه قدّوس سبّوح أي سبحانه أن يكون شريكاً لغيره طاهر من كلّ عيب، وقوله: ﴿إِنّـي أَعْلَـمُ مَـا لا تَعْلَمُـونَ﴾ قال قوم: أراد ما أظهره إبليس من الكبر والعجب والمعصية لما أمر الله تعالى لآدم، ذهب إليه ابن مسعود، وابن عباس، وقال قتادة: أراد من في ذرية آدم من الأنبياء والصالحين، وقال قوم: أراد به ما اختص بعلمه من تدبير المصالح.

وقد روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّ الملائكة سألت الله أن يجعل الخليفة منهم، وقالوا: نحن نقدّسك ونطيعك ولا نعصيك كغيرنا، فقال أبو عبد الله عليه السلام: فلمّا أجيبوا بما ذكر الله في القرآن، علموا أنّهم قد تجاوزوا ما ليس لهم فلاذوا بالعرش استغفاراً، فأمر الله آدم بعد هبوطه أن يبني لهم في الأرض بيتاً يلوذ به

---

١.الصافات: ١٤٣.

٢.ديوان جرير.

٣.شبرق: مزق.

المخطئون كما لاذ بالعرش الملائكة المقرّبون، فقال الله تعالى: إنّي أعرف بالمصلحة منكم، وهو معنى قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾.

**قوله تعالى:** ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ آية واحدة بلا خلاف (٣١).

روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «خلق الله آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ـ وقيل: قبضها ملك الموت ـ فجاء بنو آدم على قدر ذلك: منهم الأسود والأحمر، والأبيض، والسهل، والحزن، والخبيث، والطيب».

وقوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ معناه أنّه علّمه معاني الأسماء، من قبل أنّ الأسماء بلا معان لا فائدة فيها، ولا وجه لإيثاره الفضيلة بها، وقد نبّه الله الملائكة على ما فيه من لطيف الحكمة، فأقروا عندما سئلوا عن ذكرها والإخبار عنها أنّهم لا علم لهم بها، فقال: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾. وقول قتادة، وظاهر العموم يقتضي أنّه علّمه الأسماء، وبه قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة، وأكثر المتأخرين: كالبلخي والجبائي وابن الاخشيد والرماني.

وقال الطبري بما يحكى عن الربيع وابن زيد أنّهما قالا: علّمه الله أسماء ذريته وأسماء الملائكة وقال هو الاختيار دون قول ابن عباس، وقال: إنّ قولهم: ﴿عَرَضَهُمْ﴾ إنّما يكون لمن يعقل في الأظهر من كلام العرب، وهذا غلط لما بيّناه من التغليب وحسنه، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ﴾[١]

---

١. النور: ٤٥.

وهذا يبطل ما قاله، ويبقى اللفظ على عموم، وظاهر الآية وعمومها يدلّ أنّه علّمه جميع اللغات وبه قال الجبائي والرماني فأخذ عنه وُلدُه اللغات فلما تفرّقوا، تكلّم كلّ قوم منهم بلسان ألفوه واعتادوه، وتطاول الزمان على ما خالف ذلك فنسوه.

ويجوز أن يكونوا عالمين بجميع تلك اللغات إلى زمن نوح، فلما أهلك جميع الخلائق إلاّ نوحاً ومن معه، كانوا هم العارفين بتلك اللغات، فلمّا كثروا وتفرّقوا اختار كلّ قوم منهم لغة تكلّموا بها، وتركوا ما سواها، وانقرض ونسوه، والخبر الّذي يروي أنّ الناس أمسوا ولغتهم واحدة ثم أصبحوا وقد تغيّرت ألسنتهم، وكان لا يعرف كلّ فريق منهم إلاّ كلام من كان على لغتهم خبر ضعيف، وأيضاً فلا يجوز أن ينسى العاقل ما كان في أمسه من جلائل الأمور مع سلامة عقله.

قالوا: واللغات جميعاً إنّما سمعت من آدم، وعنه أخذت، وقال ابن الأخشيد: إنّ الله فتق لسان إسماعيل بالعربية ولذلك صار أصلاً للعرب من ولده، لأنّه تكلّم بها على خلاف النشوء والعادة، بل على أنّه ابتدأه بها وألهمه إياها.

فإن قيل: ما معنى قوله: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ما الّذي ادعي حتى قيل هذا؟

قيل عن ذلك أجوبة كثيرة للعلماء:

أحدها: انّ الملائكة لمّا أخبرهم الله ﷻ أنّه جاعل في الأرض خليفة، هجس في نفوسها أنّه لو كان الخليفة منهم بدلاً من آدم وذريته، لم يكن فساد ولا سفك دماء، كما يكون من ولد آدم، وإنّ ذلك أصلح لهم وإن كان الله ﷻ لا يفعل إلاّ ما هو أصلح في التدبير، والأصوب في الحكمة، فقال الله تعالى: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيما ظننتم في هذا المعنى ليدلّهم على

أنّهم إذا لم يعلموا باطن ما شاهدوا، كانوا من أن يعلموا باطن ما غاب عنهم أبعد.

والثاني: أنّه وقع في نفوسهم أنّه لم يخلق الله خلقاً إلاّ كانوا أفضل منهم في سائر أبواب العلم، فقيل: إن كنتم صادقين في هذا الظن فأخبروا بهذه الأسماء.

والثالث: قال ابن عباس: إن كنتم تعلمون لم أجعل في الأرض خليفة فـ ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاء إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ لأنّ كلّ واحد من الأمرين من علم الغيب، فكما لا تعلمون ذا لا تعلمون الآخر.

والرابع: ما ذكره الأخفش والجبائي وابن الأخشيد: إن كنتم صادقين فيما تخبرون به من أسمائهم، كقول القائل للرجل: أخبرني بما في يدي إن كنت صادقاً، أي إن كنت تعلم فاخبر به، لأنّه لا يمكن أن يصدق في مثل ذلك إلاّ إذا أخبر عن علم منه، ولا يصحّ أن يكلّف ذلك إلاّ مع العلم به، ولابدّ إذا استدعوا إلى الإخبار عمّا لا يعلمون من أن يشرط بهذا الشرط، ووجه ذلك التنبيه، كما يقول العالم للمتعلم: ما تقول في كذا، ويعلم أنّه لا يحسن الجواب لينبهه عليه، ويحثّه على طلبه، والبحث عنه، فلو قال له: اخبر بذلك إن كنت تعلم، أو قال له: إن كنت صادقاً، لكان حسناً، فإذا نبهه على أنه لا يمكنه الجواب أجابه، حينئذٍ فيكون جوابه بهذا التدريج أثبت في قلبه، وأوقع في نفسه.

وقوله: ﴿أَنْبِئُونِي﴾ قال قوم: هو أمر مشروط، كأنّه قيل: إن أمكنكم أن تخبروا بالصدق فيه فافعلوا، وقيل: إنّ لفظه لفظ الأمر ومعناه التنبيه على ما بيّناه في سؤال العالم للمتعلم، ولا يجوز أن يكون ذلك تكليفاً، لأنّه لو كان تكليفاً، لم يكن تنبيهاً لهم على أنّ آدم لم يعرف من أسماء هذه الأشياء بتعريف الله إياه ذلك ما لا يعرفون، فلما أراد تعريفهم ما خصّ به آدم، من ذلك علمنا أنّه ليس بتكليف.

ومعنى قوله: ﴿إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ شرط، كأنّه قيل: إن كنتم صادقين في الإخبار بذلك، وليس ﴿إِنْ﴾ بمعنى إذ على ما حكاه الكسائي عن بعض المفسّرين، لأنّها لو كانت كذلك، لكانت أن ـ بفتح الهمزة ـ وتقديره: ان كنتم محققين ايمانكم، فافعلوا كذا وكذا، لأنّ إذ إذا تقدّمها فعل مستقبل صارت علّة للفعل وسبباً له، كقولك: إذ قمت أي من أجل ان قمت، فلو كانت إن في الآية بمعنى إذ، كان التقدير: أنبئوني بأسماء هؤلاء من أجل انّكم صادقين، وإذا وضعت إن مكان ذلك، وجب أن تفتح الألف، وذلك خلاف ما عليه القرّاء.

والإنباء، قال قوم: أصله الإعلام، كقولهم: أنبأت عمراً زيداً أخاك، بمعنى أعلمت، ولا يصلح ها هنا أخبرت إلاّ أنّه يتناول أنبئوني ها هنا بمعنى أخبروني على وجه المجاز والتوسع لتقارب المعنى في الإخبار والإنباء، لأنّ الله تعالى عالم بالأشياء فيما لم يزل، فلا يجوز أن يقول: علّموني لما هو عالم به ومن قال: أصله الإخبار، تعلّق بظاهر القرآن، وفي كيفية عرضهم قولان:

أحدهما: أنّه عرضهم بعد أن خلقهم.

والثاني: أنّه عرضهم بأن صوّرهم لقلوب الملائكة، وفي هذه الآية دليل على شرف العلم من حيث أنّ الله تعالى لما أراد تشريف آدم اختصّه بعلم أبانه به من غيره، وجعل له الفضيلة فيه، وفي كيفية تعليم الله آدم الاسماء، قال البلخي: ويجوز أن يكون أخبره بذلك فوعاه في وقت قصير بما أعطاه الله من الفهم والحفظ أو بأن دلّه ومكّنه، ورسم به رسماً فابتدع هو لكلّ شيء اسماً يشاكله، ولابدّ أن يكون إعلامه له بلغة قد تقدّمت المواضعة عليها حتى يفهم بالخطاب المراد به، وقال: المواضعة لابدّ أن تستند إلى سمع عند قوم، وعند أبي هاشم وأصحابه لا يصحّ ذلك.

فأمّا الّذي عرض على الملائكة قال قوم: عرضت الأسماء دون المسمّيات، وقال قوم آخرون: عرضت المسمّيات بها، وهو الأقوى لقوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ وفي قراءة ابن مسعود: ثم عرضهنّ، وفي قراءة أبي: عرضها، وقال قوم: إنّه عرضهم بعد أن خلق المسمّيات وأحضرها لقوله: أسماء هؤلاء، وذلك إشارة إلى الحاضر، وقال آخرون: إنّه صوّرهم لقلوب الملائكة ثم عرضهم قبل خلقهم، وقيل: إنّ قوله إشارة إلى الأسماء التي علّمها آدم ﴿وأَنْبِئُوني﴾ أكثر القرّاء بهمز، وروي عن الأعمش ترك الهمز فيه، وهي لغة قريش.

**قوله تعالى:** ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ آية (٣٢).

هذه الآية فيها إخبار من الله تعالى عن ملائكته بالرجوع إليه، والأوبة، والتسليم أنّهم لا يعلمون إلاّ ما علّمهم الله.

وقوله: ﴿الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ معنى عليم أنّه عالم وفيه مبالغة ومن صفات ذاته، وإذا كانت كذلك أفادت أنّه عالم بجميع المعلومات ويوصف به في ما لم يزل، لأنّ ذلك واجب في العالم نفسه، وقوله: ﴿الْحَكِيمُ﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: أنّه عالم، لأنّ العالم بالشيء يسمّى بأنّه حكيم، فعلى هذا يكون من صفات الذات مثل العالم وقد بيّناه.

والثاني: أن يكون من صفات الأفعال، ومعنى ذلك أنّ أفعاله محكمة متقنة وصواب ليس فيها وجه من وجوه القبح ولا التفاوت ولا يوصف بذلك في ما لم يزل، وروي عن ابن عباس أنّه قال: العليم الّذي كمل علمه، والحكيم: الّذي كمل في حكمته، وقد قيل في معنى حكيم: انّه المانع من الفساد، ومنه

سمّيت حكمة اللجام لأنّها تمنع الفرس من الجري الشديد، قال جرير:

أبنـي حنيفـة أحكمـوا سـفهاءكم كما شبرق الولدان ثوب المقدس[١]

إنّـي أخـاف علـيكم أن أغضبـا

أي امنعوهم.

ومعنى قول الملائكة: ﴿سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إلاّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: ما قدّمنا، وهو قول ابن عباس قال: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ تنزيهاً لله من أن يكون أحد يعلم الغيب سواه.

والثاني: أنّهم أرادوا أن يخرجوا مخرج التعظيم لله، فكأنّهم قالوا: تنزيهاً لك عن القبائح، فعلى هذا الوجه يحسن ـ وإن لم يعلّقه بعلم الغيب كما علّق في الأوّل ـ .

وفي الناس من استدلّ بهذه الآية على بطلان الأحكام في النجوم، وهذا يمكن أن يكون دلالة على من يقول إنّها موجبات لا دلالات، فأمّا من يقول: إنّها دلالات على الأحكام نصبها الله، فإنّه يقول: نحن ما علمنا إلاّ ما علّمنا الله، إنّه الّذي جعل النجوم أدلّة لنا، كما أنّ ما علمناه استدلال غير ضرورة مضاف إليه أيضاً من حيث نصب الدلالة عليه.

واستدلّ جماعة من المفسّرين بهذه الآية، والآيتين قبلها على صدق النبيّ ﷺ وجعلوها من جملة معجزاته إذ كان إخباراً بما لا تعلمه العرب ولا

---

١. شبرق: مزق.

يوصل إليه إلاّ بقراءة الكتب، والنبيّ عليه السلام لم يعرف بشيء من ذلك مع العلم بمنشئه ومبتدء أمره ومنتهاه.

وهذا يمكن أن يذكر على وجه التأكيد والتقوية، لآياته ومعجزاته من غير أن يكون لو انفرد لكفى في باب الدلالة، لأنّ لقائل أن يقول: إنّه قرأ الكتب سراً، وأخذ عمّن قرأها خفياً فلا طريق للقطع على ذلك، وإنّما تغلب في الظن، فإن قيل: ما الفائدة في الجواب بقولهم: ﴿لا عِلْمَ لَنَا إلاّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾؟ قلنا: لو اقتصروا على قولهم: ﴿لا عِلْمَ﴾، لكان كافياً، لكن أرادوا أن يضيفوا إلى ذلك التعظيم والاعتراف بأنّ جميع ما يعلمونه من تعليمه، وإنّ هذا ليس من جملة ذلك، واختصار ذلك أدلّ على الشكر لنعمه. وقيل في معنى (عَلِيمُ) أمران:

أحدهما: أنّه عليم بغير تعليم بدلالة أنّهم أثبتوا لله ما نفوه عن أنفسهم بقولهم: ﴿لا عِلْمَ لَنَا إلاّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ أي نحن معلّمون وأنت العليم غير المعلّم.

والثاني: انّه العليم الحكيم، وكلاهما حسن، والأوّل أحسن، لأنّه أكثر فائدة، وأولى في تقابل البلاغة، وقد تضمّنت الآية الدلالة عليه أنّه لا علم له إلاّ ما علمه الله، إمّا بالضرورة وإمّا بالدلالة.

**قوله تعالى:** ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ آية بلا خلاف (٣٣).

ومعنى ﴿أَنۢبِئۡهُم﴾ خطاب لآدم، يعني أخبر الملائكة، لأنّ الهاء كناية عنهم وموضعهم النصب.

﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ يعني بأسماء الذين عرضهم على الملائكة، والهاء والميم في أسمائهم كناية عن المرادين بقوله: ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ﴾ وقد مضى بيانه.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فالابداء والاعلان والاظهار بمعنى واحد.

فإن قيل: ما الفائدة في انباء آدم عليه السلام الملائكة بذلك دون إعلامه إياهم بذلك؟

قلنا: أراد الله بذلك تكرمة آدم عليه السلام وتشريفه، وإجلال المنة عليه، وتعظيم النعمة لديه وجميع قصة آدم تؤذن بذلك، فإن قيل: ما معنى ﴿غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ والله لا يغيب عنه شيء؟

قيل في معناه: إنّه يعلم ما غاب عنهم فلم يشاهدوه كما يعلم ما حضرهم فشاهدوه، وقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ قيل في معناه أقوال:

أحدها: أنّه يعلم سرّهم وعلانيتهم، وذكر ذلك تنبيهاً لهم على ما يجبلهم عليه من الاستدلال، لأنّ الأصول الأول لم يستدلّ بها، إنّما تذكر على وجه التنبيه يستخرج بها غيرها، فيستدلّ بعلم الغيب أنّه خلق عباده ـ على ما خلقهم عليه ـ للاستصلاح وما توجبه الحكمة.

والثاني: ما يسرّون بمعنى ما أضمره إبليس من المعصية والمخالفة، وما يعلنون قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾.

قال الرماني: وهذا الوجه غلط، لأنّ إبليس ليس من الملائكة، ولأنّ القول على العموم لا يجوز أن يصرف إلى الخصوص بغير دلالة، وهذا الوجه اختاره الطبري، وقال: هو بمنزلة قولهم: قُتل الجيش وهزموا، وإنّما قتل البعض.

قال الرماني: إنّما يقال ذلك إذا حلّ قتل الواحد محل قتل الجميع، مثل قتل الرئيس أو من يقوم مقامه، ولا يقال أيضاً إلاّ والدلالة عليه ظاهرة، وليس كذلك في الآية، وقد روي روايات في هذا المعنى، والوجه في هذا أنّ إبليس لما دخل معهم في الأمر بالسجود، جاز أن يستثنى من جملتهم.

والثالث: قيل إنّ الله تعالى لمّا خلق آدم، مرّت به الملائكة قبل أن ينفخ فيه الروح، ولم تكن رأت مثله قبل، فقالت: لن يخلق الله خلقاً إلاّ كنّا أكرم منه وأفضل عنده، فزعم أنّ هذا الّذي أخفوه في نفوسهم وإنّ الّذي أبدوه قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ روي ذلك عن الحسن، والوجه الأوّل أقوى، لأنّه أعم، ويدخل فيه هذا الوجه، ولا دلالة يقطع بها على تخصيص الآية.

فإن قيل: ما وجه ذكره تعالى لهم الإسرار من علم الغيب؟

قلنا: على وجه الجواب فيما سألوا عنه من خلق من يفسد ويسفك الدماء، وذلك على وجه التعريض بالجواب دون التصريح، لأنّه لو صرح به لقال: خلقت من يفسد ويسفك الدماء لما أعلم في ذلك من المصلحة لجملة عبادي فيما كلّفتهم إياه وأمرتهم به، فدلّ في الإحالة في الجواب على العلم بباطن الأمور، وظاهرها أنّه خلقهم لأجل علمه بالمصلحة في ذلك، ودلّهم بذلك على أنّ عليهم الرضا والتسليم لقضاء الله، لأنّ الله يعلم من الغيب ما لا يعلمونه، ويعلم من مصالحهم ما لا يعلمونه في دينهم ودنياهم.

فإن قيل: وأيّ شيء في تعلّم آدم الأسماء كلّها ممّا يدلّ على علم الغيب؟

قلنا: لأنّه علّمه الأسماء كلّها بما فيها من المعاني التي تدلّ عليها على جهة فتق لسانه بذلك وإلهامه إياه، وهي معجزة أقامها الله تعالى للملائكة تدلّ

على جلالته وارتفاع قدره بما اختصّه به من العلم العظيم الّذي لا يصل إليه إلاّ بتعليم الله إياه، فبان بذلك الإعجاز بالاطلاع على ما لا سبيل إلى علمه إلاّ من علاّم الغيوب، ففيه من المعجزة أنّه فتق لسانه بها على خلاف مجرى العادة، وأنّه علّمه من لطائف الحكمة فيه ما لا تعلمه الملائكة مع كثرة علومها، وانّها أعرف الخلق بربها، فعرفوا ما دلّهم على علم الغيب بالمعجزة مؤكداً لما يعلمونه من ذلك بالأدلّة العقلية، ولذلك نبّههم فقال: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي قد دللتكم على ذلك من قبل، وهذه دلالة بعد، وقيل: افتتح الله الدلالة على الاعجاز بالكلام في آدم، ثم ختم به في محمّد ﷺ.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ آية واحدة (٣٤).

واختلفوا في أمر الملائكة والسجود لآدم على وجهين:

قال قوم: إنّه أمرهم بالسجود له تكرمة وتعظيماً لشأنه ـ وهو المروي في تفسيرنا وأخبارنا ـ وهو قول قتادة وجماعة من أهل العلم، واختاره ابن الأخشيد والرماني، وجرى ذلك مجرى قوله: ﴿وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾[١] في أولاد يعقوب، ولأجل ذلك جعل أصحابنا هذه الآية دلالة على أنّ الأنبياء أفضل من الملائكة من حيث أمرهم بالسجود له والتعظيم على وجه لم يثبت ذلك لهم، بدلالة امتناع إبليس من السجود له وأنفته من ذلك، وقوله: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاّ قَلِيلاً﴾[٢] ولو كان ذلك

---

١. يوسف: ١٠٠.

٢. الإسراء: ٦٢.

على وجه كونه قبلة لما كان لذلك وجه، ولا فيه أنفة ولا يحسن أن يؤمر الفاضل بتعظيم المفضول على نفسه، لأنّ ذلك سفه به، وسنبيّن قول من خالف فيه وشبههم.

وقال الجبائي والبلخي وجماعة: انّه جعله قبلة لهم فأمرهم بالسجود إلى قبلتهم، وفيه ضرب من التعظيم له وهذا ضعيف، لأنّه لو كان على وجه القبلة لما امتنع إبليس من السجود، ولما استعظمته الملائكة، ولكن لما أراد ذلك تعظيماً له على وجه ليس بثابت لهم، امتنع إبليس وتكبّر.

واختلفوا في إبليس هل كان من الملائكة أم لا؟ فقال ابن عباس وابن مسعود وابن المسيب وقتادة وابن جريج والطبري: إنّه كان منهم بدلالة استثنائه من جملتهم ها هنا في قوله: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ﴾ وقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ مع قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام والظاهر في تفاسيرنا، ثم اختلف من قال إنّه كان منهم، فمنهم من قال: إنّه كان خازناً على الجنان، ومنهم من قال: كان له سلطان سماء الدنيا وسلطان الأرض، ومنهم من قال: إنّه كان يسوس ما بين السماء إلى الأرض.

وقال الحسن البصري وقتادة في رواية ابن زيد والبلخي والرماني وغيره من المتأخّرين: انّه لم يكن من الملائكة، وإنّ الاستثناء في الآية استثناء منقطع كقوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾[1] وقوله: ﴿فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ * إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا﴾[2] وكقوله: ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَنْ

---

١. النساء: ١٥٧.

٢. يس: ٤٣ و ٤٤.

رَحِمَ﴾[١] وكقول الشاعر ـ وهو النابغة ـ :

وقفت فيها أصيلاً كي اسائلها أعيت جواباً وما بالربع من أحد
إلاّ الأواري لأيـاً مـا أبينـهـا والؤي كالحوض بالمظلومة الجلد

وأنشد سيبويه:

والحـرب لا يبقـى لجاحمـها التخيـل والمـراح
إلاّ الفتى الصبار في النجدات والفرس الـوقـاح[٢]

وقال آخر:

وبلـــدة لـــيس بـــها أنيـــس إلاّ اليعـــافير وإلا العـــيس[٣]

واستدلّ الرماني على أنّه لم يكن من الملائكة بأشياء:

منها قوله: ﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فنفى عنهم المعصية نفياً عاماً.

والثاني أنّه قال: ﴿إلاّ إبْلِيسَ كَانَ مِنْ الْجِنِّ﴾ ومتى أطلق لفظ الجن لم يجز أن يعنى به إلاّ الجنس المعروف المباين لجنس الإنس والملائكة.

والثالث انّ إبليس له نسل وذرية، قال الحسن: إبليس أبو الجن، كما أنّ آدم أبو الانس، وإبليس مخلوق من النار، والملائكة روحانيون خلقوا من الريح ـ

---

١. هود: ٤٣.

٢ـ جحم ـ من الحرب ـ معظمها، وشدّة القتل في معركتها ـ القاموس ـ الوقاح: الحافر. الصلب ـ القاموس ـ.

٣. اليعافير: ج يعفور وهو الظبي.العيس: الابل البيض يخالط بياضها شقرة وهو أعيس وهي عيساء.

في قول أبي عليّ ـ وقال الحسن: خلقوا من النار لا يتناسلون ولا يطعمون ولا يشربون. وقال الله في إبليس وولده: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾.

والرابع ـ وهو أقوى ما عنده ـ قوله تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ﴾ فعمّها بالوصف بالرسالة، ولا يجوز على رسل الله أن يكفروا أو يفسقوا كالرسل من البشر.

والجواب عمّا ذكره أوّلاً: إنّ قوله: ﴿لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ﴾ صفة لخزنة النيران، لا جميع الملائكة، يدلّ على ذلك قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[١]، وليس إذا كان هؤلاء معصومين وجب ذلك في جميعهم.

والجواب عمّا ذكره ثانياً: انّ قوله: ﴿كَانَ مِنْ الْجِنِّ﴾ معناه صار، ذكر ذلك الأخفش وجماعة من أهل اللغة، وقيل أيضاً: إنّ إبليس كان من طائفة من الملائكة يسمّون جناً من حيث كانوا خزنة الجنة، وقيل: سمّوا بذلك لاختفائهم عن العيون، كما قال أعشى قيس بني ثعلبة:

ولو كان شيء خالداً أو معمراً ... لكان سليمان البريء من الدهر
براه إلهي واصطفاه عباده ... وملّكه ما بين ثريا إلى مصر
وسخّر من جن الملائك تسعة ... قياماً لديه يعملون بلا أجر[٢]

---

١.التحريم: ٦.

٢.ملحق ديوان الأعشى: ٢٤٣، والأضداد لابن الأنباري: ٢٩٣. الدهر هنا. نكباته وفي المطبوعة، تريا بدل ثريا ولم أعرف مكانه.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً﴾[١]، لأنّ قريشاً قالت: الملائكة بنات الله.

والجواب عمّا ذكره ثالثاً من أنّ إبليس له نسل، طريقه الآحاد، ولو كان صحيحاً، لم يمنع أن يكون الله ركب فيه شهوة النكاح تغليظاً عليه في التكليف وإن لم يكن ذلك في باقي الملائكة، فلا وجه لاستبعاده.

والجواب عمّا ذكره رابعاً قوله: ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾[٢] فمعارض بقوله: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً﴾[٣] فإن كان ظاهر تلك يقتضي العموم فظاهر هذه يقتضي التخصيص، لأنّ من للتبعيض، ولو لم يكن كذلك، لجاز لنا أن نخص هذا العموم بقوله: ﴿إلاّ إِبْلِيسَ﴾ لأنّ حمل الاستثناء على أنه منقطع حمل له على المجاز، كما أنّ تخصيص العموم مجاز، وإذا تعارضا سقطا.

فأمّا ما روي عن ابن عباس أنّ الملائكة كانت تقاتل الجن، فسبي إبليس، وكان صغيراً مع الملائكة، فتعبد معها، فلما أمروا بالسجود لآدم، سجدوا إلاّ إبليس أبى، فلذلك قال الله تعالى: ﴿إلاّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنْ الْجِنِّ﴾ فإنّه خبر واحد لا يصحّ، والمعروف عن ابن عباس ما قلناه أنّه كان من الملائكة فأبى واستكبر وكان من الكافرين، ومن قال إنّ إبليس خلق من نار ومن مارج، والملائكة لم يخلقها من ذلك فقوله ضعيف، لأنّه لا يمنع أن يكون الله تعالى خلق الملائكة أصنافاً: صنفاً من نار، وصنفاً من نور، وصنفاً من غير ذلك، وصنفاً آخر لا من شيء، فاستبعاد ذلك ضعف معرفة.

---

١. الصافات: ١٥٨.

٢ فاطر: ١.

٣. الحج: ٧٥.

وإبليس قال الزجاج والرماني وغيرهما من النحويين انّه ليس بمأخوذ من الابلاس كقوله مبلسون أي: آيسون من الخير، قالوا: لأنّه أعجمي معرّب بدلالة أنّه لا ينصرف للعجمة والتعريف، وقال الطبري: هو مشتق من الإبلاس ووزنه افعيل. وأنشد للعجاج:

يا صاح هل تعرف رسماً مُكرَسَا    قـال نعـم أعرفـه وأبلَـسا[١]

وقال رؤبة:

وحضرتْ يومَ الخميس الأخماسْ    وفـي الوجـوه صفـرة وإبـلاس[٢]

يعني اكتئاباً وكسوفاً. وقال: إنّما لم يجر استثقالاً، من حيث كان اسماً لا نظير له من أسماء العرب فشبه بأسماء العجم التي لا تنصرف، وزعم انّ إسحاق لا ينصرف وهو من أسحقه الله إسحاقاً، وأنّ أيوب من أبّ يئوب على زنة فعول كقيوم من قام يقوم، قال الرماني: غلط في جميع ذلك، لأنّها ألفاظ أعربت من العجميّة ووافقت ألفاظ العربية، وكان ابن السراج يمثل ذلك ـ على جهة التبعيد ـ بمن زعم أنّ الطير ولد الحوت، وغلط أيضاً في قوله أنّه لا نظير له في أسماء العرب، لأنّهم يقولون: إزميل للشفرة، قال الشاعر:

هم منعوا الشيخ المناجي بعد ما    رأى حمة الازميل فوق البراجم

والاعريض: الطلع، واحريض: صبغ أحمر، وقالوا: هو العصفر، وسيف اصليت: ماض كثير الماء، وثوب اضريج: مشبع الصبغ، وقالوا: هو من الصفرة خاصة، وسبيل إبليس انجيل في انّه معرّب غير مشتق.

---

١.ديوانه ١: ٣١ ولسان العرب (بلس) (كرس).

٢.ديوان رؤبة: ٦٧ وفيه: وعرفت يوم الخميس الأخماس.

وقد لزت بين التراقى الأنفاس    وفـي الوجـوه صفـرة وإبـلاس

وحد الاستكبار الرفع للنفس إلى منزلة لا تستحق، وقوله: ﴿وَكَانَ مِنْ الْكَافِرِينَ﴾ قال قوم: يدلّ على أنّه كان قبله قوم كفّار من الجن.

وقال آخرون: لا يدلّ، ويجري ذلك مجرى قول القائل: كان آدم من الانس، ولم يكن قبله انسي وكان إبليس من الجن ولم يكن قبله جني، ومعناه: صار من الكافرين، ومن قال انّ إبليس كان من جملة الملائكة، قال: كان من جملة المأمورين بالسجود لآدم بدلالة قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ ألاّ تَسْجُدَ إذْ أمَرْتُكَ﴾؟ ولأنّه استثناه من جملتهم ولم يكن منهم، علمنا أنّه كان من جملة المأمورين كقول القائل: أمر أهل البصرة بدخول الجامع فدخلوا إلاّ رجلاً من أهل الكوفة، فإنّه يعلم بهذا انّ غير أهل البصرة كان مأموراً بدخول الجامع غير أنّ أهل البصرة كانوا أكثر فلذلك خصّوا بالذكر، وكذلك القول في الآية.

ومن استدلّ بهذه الآية على أنّ أفعال الجوارح من الايمان، من حيث لو لم يكن كذلك، لوجب أن يكون إبليس مؤمناً بما معه من المعرفة بالله وإن فسق بإبائه، فقد أبعد، لأنّ المخالف يقول: إذا علمت كفره بالإجماع علمت أنّه لم يكن معه إيمان أصلاً، كما إذا رأيت أنّه يصلّي للشمس علمت أنّ معه كفراً، وإن كانت صلاته للشمس ليست كفراً، فإن قيل: إذا كانت إذ لما مضى، فما معنى قوله: ﴿وَإذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أأنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؟ وكيف قال: ﴿وَإذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾.

قيل: معنى ذلك كلّه على تقدير الاستقبال لأنّ ما تحقق بمنزلة ما قد كان، كما قال: ﴿وَنَادَى أصْحَابُ النَّارِ أصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾.

**قوله تعالى:** ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ آية بلا خلاف (٣٥).

ومعنى ﴿اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾: اجعله مأوى تأوي فيه وتسكن إليه، وقد أعظم الله النعمة على آدم بما اختصه من علمه، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، وتلك نعمة على ولده، فألزمهم الشكر عليها، والقيام بحقها.

والجنة التي أسكن فيها آدم، قال قوم: هي بستان من بساتين الدنيا، لأنّ جنة الخلد لا يصل إليها إبليس ووسوسته، واستدل البلخي على أنّها لم تكن جنة الخلد بقوله تعالى حكاية عن إبليس لما اغوى آدم، قال له: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ فلو كانت جنة الخلد لكان عالماً بها، فلم يحتج إلى دلالة.

وقال الحسن البصري، وعمرو بن عبيد، وواصل بن عطاء، وأكثر المعتزلة كأبي عليّ والرماني، وأبي بكر بن الأخشيد، وعليه أكثر المفسّرين: انّها كانت جنة الخلد ؛ لأنّ الألف واللام للتعريف وصار كالعلم عليها، قالوا: ويجوز أن يكون وسوسة إبليس من خارج الجنة، فيسمعان خطابه ويفهمان كلامه، قالوا: وقول من يقول: إنّ جنة الخلد من يدخلها لا يخرج منها لا يصحّ، لأنّ معنى ذلك إذا استقر أهل الجنة في الجنة للثواب، وأهل النار فيها للعقاب لا يخرجون منها، وأمّا قبل ذلك فإنّها تفنى لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاّ وَجْهَهُ﴾.

﴿وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ الزوج: بطرح الهاء قال الأصمعي: هو أكثر كلام العرب، وقال الكسائي: أكثر كلام العرب بالهاء، وطرح الهاء لغة لأزد شنوءة، ولفظ القرآن لم يجئ إلاّ بطرح الهاء، وقال المبرد: الوجه طرح الهاء من الزوجة وأنشد:

وأراكم لدى المحاماة عندي مثل صوت الرجال للازواج

جمع زوج، ولا يجوز أن يكون جمع زوجة، وقال الرماني: قول الأصمعي أجود، لأنّ لفظ القرآن عليه، والعلّة في ذلك أنّه لما كانت الاضافة

تلزم الاسم في أكثر الكلام كانت مشبهة له، وكانت بطرح الهاء أفصح وأخف مع الاستغناء بدلالة الإضافة عن دلالة هاء التأنيث.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلا﴾ فالأكل والمضغ واللقم متقاربة، وضد الأكل الأزم، وسأل عمر بن الخطاب الحارث بن كلدة طبيب العرب، فقال له: يا حار ما الدواء؟ فقال: الأزم، أي ترك الأكل. والأكلة مرة.

والرغد النفع الواسع الكثير الّذي ليس فيه عناء، وقال صاحب العين: عيش رغد ورغيد: رفيه، وقوم رغد ونساء رغد قال امرؤ القيس بن حجر:

بينمـــا المـــرء تـــراه ناعـــماً    يأمن الأحداث في عيش رغد

والمشيئة والارادة بمعنى واحد وكذلك المحبة والاختيار، وإن كان لها شروط ذكرناها في الأصول.

﴿وَلا تَقْرَبَا﴾ القرب والدنوّ والمجاورة متقاربة المعنى وضد البعد.

والشجرة: كلّ ما قام على ساق من النبات، وهو اسم يعم النخلة والكرمة وغيرهما، وما لم يقم على ساق لا يسمّى شجراً كالبقل والحشيش، وأمّا اليقطين كالقرع والبطيخ فقد سمّي شجراً، قال الله تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ﴾.

واختلفوا في الشجرة التي نهى الله آدم عنها، فقال ابن عباس: هي السنبلة.

وقال ابن مسعود والسدي وجعفر بن زهير: هي الكرمة.

وقال ابن جريج: هي التينة.

وروي عن عليّ عليه السلام أنّه قال: شجرة الكافور.

وقال الكلبي: شجرة العلم على الخير والشر.

وقال ابن جدعان: هي شجرة الخلد التي كان يأكل منها الملائكة، والأقاويل الثلاثة الأولة أقرب.

﴿فَتَكُونَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ الظلم والجور والعدوان متقاربة، وضد الظلم الانصاف وضد الجور العدل، وأصل الظلم انتقاص الحقّ لقوله تعالى: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ أي لم تنقص، وقيل: أصله وضع الشيء في غير موضعه من قولهم: من يشبه أباه ما ظلم أي فما وضع الشبه في غير موضعه، وكلاهما مطرد وعلى الوجهين فالظلم اسم ذم، ولا يجوز أن يطلق إلاّ على مستحق اللعن لقوله: ﴿أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ ولا يجوز اطلاقه على أنبياء الله تعالى ولا الأئمّة المعصومين، وظالم ومسيئ وجائر: أسماء ذم وهو فاعل لما يستحق به الذم من الضرر وضدها عادل ومنصف ومحسن وهي من صفات المدح.

ويقول المعتزلة لصاحب الصغيرة: ظالم لنفسه.

ومن نفى الصغيرة عن الأنبياء من الإمامية قال: يجوز أن يقال: ظالم لنفسه إذا بخسها الثواب، كقوله: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ وقوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ حكاية عن يونس من حيث بخس نفسه الثواب بترك المندوب إليه، وروي أنّ الله تعالى ألقى على آدم النوم، وأخذ منه ضلعاً فخلق منه حواء، وليس يمتنع أن يخلق الله حواء من جملة جسد آدم بعد أن لا يكون جزء، أو ممّا لا يتم كون الحي حياً إلاّ معه، لأنّ ما هذه صفته لا يجوز أن ينقل إلى غيره، أو يخلق منه حي آخر من حيث يؤدّي إلى أن لا يصل الثواب إلى مستحقه، لأنّ المستحق لتلك الجملة بأجمعها، وهذا قول الرماني وغيره من المفسّرين، ولذلك قيل للمرأة: ضلع أعوج، وقيل: سمّيت امرأة لأنّها خلقت من المرء.

فأمّا تسميتها حواء: لما أدخل آدم الجنة وأخرج منها إبليس ولعن وطرد فاستوحش، فخلقت ليسكن إليها، فقالت له الملائكة تجربة لعلمه: ما اسمها؟ قال: حواء، قالوا: لم سمّيت حواء؟ قال: لأنّها خلقت من شيء حي.

وقال ابن إسحاق: خلقت من ضلعه قبل دخوله الجنة، ثم دخلا جميعاً الجنة لقوله تعالى: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ التي كان فيها آدم في السماء، لأنّه أهبطهما منها.

وقال أبو مسلم محمّد بن يحيى: هي في الأرض، لأنّه امتحنهما فيها بالنهي عن الشجرة التي نهاهما عنها دون غيرها من الثمار.

و ﴿حَيْثُ﴾ مبنية على الضم كما تبنى الغاية، نحو من قبلُ ومن بعدُ، لأنّه منع من الاضافة إلى المفرد كما منعت الغاية من الاضافة إلى مفرد.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ صيغته صيغة النهي، والمراد به الندب عندنا لأنّه دلّ الدليل على أنّ النهي لا يكون نهياً إلاّ بكراهته للمنهي عنه، والله تعالى لا يكره إلاّ القبيح، والأنبياء لا يجوز عليهم القبائح صغيرها ولا كبيرها، وقالت المعتزلة: إنّ تلك كانت صغيرة من آدم ـ على اختلافهم في أنّه كان منه عمداً أو سهواً أو تأويلاً ـ وإنّما قلنا لا يجوز عليهم القبائح، لأنّها لو جازت عليهم لوجب أن يستحقوا بها ذماً، وعقاباً وبراءة ولعنة، لأنّ المعاصي كلّها كبائر عندنا، والإحباط باطل ولو جاز ذلك لنفر عن قبول قولهم، وذلك لا يجوز عليهم كما لا يجوز كلّ منفّر عنهم من الكبائر والخلق المشوّهة والاخلاق المنفّرة، ولا خلاف أنّ النهي يتناول الأكل دون القرب كأنّه قال: لا تقربا بالأكل لأنّه لا خلاف أنّ المخالفة وقعت بالأكل لا بالدنوّ منها: ولذلك قال: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾.

وقوله: ﴿فَتَكُونَا﴾ يحتمل أن يكون جواباً للنهي فيكون موضعه نصباً، وهو الأقوى، ويحتمل أن يكون عطفاً على النهي فيكون موضعه جزماً وكلاهما جيد محتمل، ومتى كان جواباً كان تقديره: إن قربتما كنتما من الظالمين، لأنّه يتضمّن معنى الجواب، وإذا كان عطفاً على النهي فكأنّه قال: لا تكونا من الظالمين، وأجاز البصريون من أهل العدل أن يبتدئ الله الخلق في الجنة فينعمهم فيها تفضّلاً منه لا على وجه الثواب، لأنّ ذلك نعمة منه تعالى، كما أنّ خلقهم وتكليفهم وتعريضهم للثواب نعمة منه، وله أن يفعل ما يشاء من ذلك.

وقال أبو القاسم البلخي: لا يجوز خلقهم في الجنة ابتداء، لأنّه لو جاز ذلك، لما خلقهم في دار المحنة، ولما ابتلى من يعلم أنّه يكفر ويصير إلى عذابه، وإنّما لم يجز أن يخلقهم ابتداء في الجنة، لأنّه لو خلقهم فيها، لم يخل: إما أن يكونوا متعبدين بالمعرفة لله والشكر، أو لا يكونوا كذلك فلو كانوا غير متعبدين، كانوا مهملين ولذلك لا يجوز، ولو كانوا متعبدين لم يكن بد من ترغيب وترهيب ووعد ووعيد، ولو كانوا كذلك كانوا على ما هم عليه في دار الدنيا، وكان لابد من دار أخرى يجازون فيها ويخلدون.

وأجاب عن ذلك الأولون بأن قالوا: لو ابتدأ خلقهم في الجنة لاضطرهم إلى معرفته، والجأهم إلى فعل الحسن وترك القبيح ومتى راموا القبيح منعوا منه، فلا يؤدي ذلك إلى ما قاله: كالحور العين والأطفال والبهائم إذا حشرهم يوم القيامة.

**قوله تعالى:** ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ آية بلا خلاف (٣٦).

ومعنى ﴿أَزَلَّهُمَا﴾ نحّاهما، من قولك: زلت عن المكان إذا تنحّيت منه، والوجه ما عليه القرّاء لأنّ هذا يؤدّي إلى التكرار، لأنّه قال بعد ذلك: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا﴾ فيصير تقدير الكلام: فأخرجهما الشيطان عنها فأخرجهما، وذلك لا يجوز، ويحسن أن يقول: استزلّهما فأخرجهما، ومن قرأ: أزالهما، أراد المقابلة بين قوله: ﴿أَزَلَّهُمَا﴾ وبين قوله: ﴿اسْكُنْ﴾، لأنّ معناه: اسكن واثبت أنت وزوجك، وتقديره: اثبتا، فأراد أن يقابل ذلك فقال: فأزالهما فقابل الزوال بالثبات.

وإنّما نسب الازلال والاخراج إلى الشيطان لما وقع ذلك بدعائه ووسوسته وإغوائه، ولم يكن إخراجهما من الجنة على وجه العقوبة، لأنّا قد بيّنا أنّ الأنبياء لا يجوز عليهم القبائح على حال ومن أجاز عليهم العقاب، فقد أعظم الفرية وقبح الذّكر على الأنبياء، وإنّما أخرجهم من الجنة، لأنّه تغيّرت المصلحة لما تناول من الشجرة، واقتضى التدبير والحكمة تكليفه في الأرض وسلبه ما ألبسه الله (تعالى) من لباس الجنة.

وقال قوم: إنّ إلباس الله له ثياب الجنة كان تفضّلاً، وللمتفضّل أن يمنع ذلك تشديداً للمحنة، كما يفقر بعد الغنى، ويميت بعد الاحياء، ويسقم بعد الصحة.

فإن قيل: كيف وصل إبليس إلى آدم حتى أغواه ووسوس إليه، وآدم كان في الجنة، وابليس قد أخرج منها حين تأبّى من السجود؟

قيل عن ذلك أجوبة:

(أحدها): إنّ آدم كان يخرج إلى باب الجنة، وابليس لم يكن ممنوعاً من الدنو منه، وكان يكلّمه ويغويه.

(الثاني): وقال آخرون: انّه كلّمهما من الأرض بكلام فهماه منه وعرفاه.

(والثالث): قال قوم: إنّه دخل في فقم الحية، وخاطبها من فقمها، والفقم: جانب الشدق.

(والرابع): قال قوم: راسلهما بالخطاب، وظاهر الكلام يدلّ على أنّه شافههما بالخطاب.

(والخامس): وقال قوم: يجوز أن يكون قرب من السماء فكلّمهما.

فأمّا ما روي عن سعيد بن المسيب: ـ انّه كان يحلف ولا يستثني، أنّ آدم ما أكل من الشجرة وهو يعقل، ولكن حواء سقته الخمر حتى إذا سكر، قادته إليها فأكل ـ فإنّه خبر ضعيف.

وعند أصحابنا، أنّ الخمرة كانت محرمة في سائر الشرائع، ومن لم يقل ذلك يقول: لو كان كذلك لما توجّه العتب على آدم، ولا كان عاصياً بذلك، والأمر بخلاف ذلك.

وإنّما قلنا ذلك لأنّ النائم غير مكلّف في حال نومه، لزوال عقله، وكذلك المغمى عليه، وكذلك السكران، وإنّما يؤاخذ السكران بما يفعله في شرعنا، لما ثبت تحريم ما يتناوله اسم المسكر، وإلاّ فحكمه حكم النائم عقلاً.

وقد قلنا: إنّ منع أكلهما من الشجرة كان على وجه الندب، دون أن يكون ذلك محظوراً عليهما، لكن لما خالفا في ترك المندوب إليه تغيّرت المصلحة، واقتضت إخراجهما من الجنة، وقد دللنا على ذلك في ما مضى.

(والسادس): وقال قوم: تعمّد ذلك.

(والسابع): وقال قوم آخرون: نُهي عن جنس الشجرة، وأخطأ.

(والثامن): وقال قوم: إنّه تأوّل النهي الحقيقي، فحمله على الندب وأخطأ. وقد قدمنا ما عندنا فيه.

فإن قيل: كيف يكون ذلك ترك الندب مع قوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾؟

قلنا التوبة: ـ قيل ـ الرجوع، ويجوز أن يرجع تارك الندب عن ذلك والعزم على ألاّ يعود مثله، فيكون تائباً، ومن قال: وقعت معصيته محبطة يقول: أنّه توبة صحيحة لأنّ بها يخرج عن الإصرار، كما تجدّد التوبة بعد التوبة وإن كانت الأولى أسقطت العقاب.

فإن قيل: كيف يكون ذلك ندباً أو صغيرة وإبليس يقول لهما: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إلاّ أنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنْ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنّي لَكُمَا لَمِنْ النَّاصِحِينَ﴾.

قيل: ما قبلا ذلك من إبليس، ولو قبلاه لكانت المعصية أعظم، فلما لم يعاتبهما الله على ترك ذلك، دلّ على أنّهما لم يقبلا.

وهذا جواب من يقول: انّه كان صغيراً[1] أو كان ناسياً، وعلى ما قلناه ـ إنّ ذلك كان ندباً ـ لا يحتاج إلى ذلك، بل دليل العقل أمّننا من وقوع قبيح من آدم والأنبياء، فلو كان صريحاً، لتركنا ظاهره لقيام الدليل على خلافه، على أنّه لا يمنع أن يقاسمهما: إنّه لمن الناصحين في ترك الندب، وإنّما ظاهر النهي تركه يوجب أن يصيرا من الخالدين.

وقوله: ﴿مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ يحتمل أن يكون أراد من لباسهما حتى بدت لهما سوآتهما، ويحتمل أن يكون من الجنة حتى أهبطا، ويحتمل أن يكون أراد من الطاعة إلى المعصية.

---

١. في المخطوطة صغيراً وكان، وفي المطبوعة صغيراً ولو كان.

وقوله: ﴿اهْبِطُوا﴾ إنّما قال بالجمع، لأنّه يحتمل أشياء:

أحدها: أنّه خاطب آدم وحواء وابليس، فيصلح ذلك، وإن كان إبليس أهبط من قبلهم، يقال: أخرج جمع من الجيش ـ وإن خرجوا متفرقين ـ اختار هذا الزجاج.

والثاني: أنّه أراد آدم وحواء والحية.

والثالث: آدم وحواء وذريتهما.

والرابع: قال الحسن: إنّه أراد آدم وحواء والوسوسة، وظاهر القول وإن كان أمراً فالمراد به التهديد، كما قال: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾.

وقوله: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ قرار، لقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ قَرَاراً﴾. وقيل: مستقر في القبور، والأول أقوى وأحسن.

وقيل: الـ ﴿حِينٍ﴾ في الآية يعني الموت، وقيل: إلى يوم القيامة، وقيل: إلى أجل.

وقال ابن سراج: إذا قيل: ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ﴾ لظنّ أنّه غير منقطع، فقال: ﴿إِلَى حِينٍ﴾ انقطاعه.

والفرق بين قول القائل: هذا لك حيناً، وبين قوله: إلى حين، أنّ ﴿إلى﴾ تدلّ على الانتهاء، ولابدّ أن يكون له ابتداء وليس كذلك الوجه الآخر.

معنى قوله: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قال الحسن: يعني بني آدم، وبني إبليس وليس ذلك بأمرٍ على الحقيقة، بل هو تحذير، لأنّ الله لا يأمر بالعداوة، وفي الآية دلالةٌ على أنّ الله تعالى لا يريد المعصية، ولا يصدُّ أحداً عن طاعته، ولا يخرجه عنها، ولا تنسب المعصية إليه، لأن نسب ذلك إلى الشيطان، وهو يتعالى عمّا عاب به الأبالسة والشياطين.

**قوله تعالى:** ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ آية (٣٧).

قرأ إبن كثير ﴿آدم﴾ بنصب الميم ﴿كلمات﴾ برفع التاء.

ومعنى: ﴿تَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ تعلّمها، يقال: تلقّيت هذا من فلان أي قبله فهمي من لفظه، قال أبو عبيدة: قال أبو مهدية: وتلا عليه آيات[1] من القرآن قال: تلقيتها من عمّي تلقاها من أبي هريرة، تلقاها من رسول الله ﷺ، وأصل الملاقاة الملاصقة، لكنّه كثر حتى قيل: لاقى فلان فلاناً إذا قاربه، وإن لم يلاصقه، وكذلك تلاقى الجيشان، وتلاقى الفرسان، ويقال: تلاقى الخطان أي تماسا، وتقول: تلقّيت الرجل بمعنى استقبلته، وتلقّاني: استقبلني، فعلى هذا يجوز في العربية رفع آدم، ونصبه، مع رفع الكلمات، والاختيار قراءة الأكثر.

والكلمات التي تلقّاها آدم قال الحسن، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أنفسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾[2] فإنّ في ذلك اعترافاً بالخطيئة، ولذلك وقعت موقع الندم، وحقيقته الإنابة.

وحكي عن مجاهد أنّه قال: هي قول آدم: «اللّهمّ لا إله إلاّ أنت، سبحانك وبحمدك، ربِّ إنّي ظلمت نفسي فاغفر لي إنّك خير الغافرين، اللّهمّ لا إله إلاّ أنت سبحانك وبحمدك، ربِّ إنّي ظلمت نفسي فارحمني، إنّك أنت خير[3] الراحمين، اللّهمّ[4] لا إله إلاّ أنت سبحانك وبحمدك، ربِّ إنّي ظلمت نفسي، فتب عليَّ إنّك أنت التواب الرحيم» وروي مثل ذلك عن أبي جعفر عليه السلام.

---

١. في المخطوطة الآية.

٢. الأعراف: ٢٣ و ١٤٨.

٣. في المخطوطة أرحم.

٤. في المخطوطة اللّهمّ ساقطة.

وحكـي عـن ابـن عبـاس أنّ آدم قـال لربّـه إذ عصـاه: أرأيـت إن تبـتُ وأصلحتُ؟ فقال له تعالى: إنّي راجعك إلى الجنّة وكانت هذه الكلمات.

وروي في أخبارنا: أنّ الكلمات هي توسّله بالنبيّ عليه السلام وأهل بيته. وكلّ ذلك جائز[١].

وقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ يعني قبل توبته، لأنّه لما عرضه للتوبة، بما ألقاه من الكلمات فعل التوبة، وقبلها الله تعالى منه (وقيل: تاب عليه أي وفق للتوبة وهداه إليها)[٢] فقال اللّهمّ تب عليَّ أي وفقني للتوبة (فلقنه الكلمات حتى قالها فلمّا قالها قبل توبته)[٣].

---

١.ومن طرق غيرنا ففي تفسير الدر المنثور للسيوطي ١: ٦٠، وكفاية الطالب للكنجي الشافعي: ١٢١ ط الغري، وكنـز العمـال ٢: ٢٣٢ ومنتخبـه بهـامش مسـند أحمـد ١: ٤١٩ ط مصـر الأولـى مـن حـديث عليّ عليه السلام أنّه قال: «سألت النبيّ صلى الله عليه وآله عن قول الله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ فقال: إنّ الله أهبط آدم بالهند وحوّاء بجدّة، وإبليس بميسان، والحية باصبهان ـ وكان للحية قوائم كقوائم البعير ـ ومكث آدم بالهند باكياً على خطيئته حتى بعث الله إليه جبرئيل وقال: يا آدم ألم أخلقك بيدي؟ ألم أنفخ فيك من روحي؟ ألم أسجد لك ملائكتي؟ ألم أزوّجك حواء أمتي؟ قال: بلى، قال: فما هذا البكاء؟ قال: وما يمنعني من البكاء وقد أخرجت من جوار الرحمان، قال: فعليك بهؤلاء الكلمات فإنّ الله قابل توبتك وغافر ذنبك قل: (اللّهمّ انّي أسألك بحق محمّد وآل محمّد سبحانك لا إله إلاّ أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب عليَّ إنّك أنت التواب الرحيم، اللّهمّ إنّي أسألك بحق محمّد وآل محمّد عملت سوءاً وظلمت نفسي فتب عليَّ إنّك أنت التواب الرحيم)، فهؤلاء الكلمات التي تلقى آدم». وفي المناقب لابن المغازلي: ٦٣ عن ابن عباس قال: سئل النبيّ صلى الله عليه وآله عن الكلمات التي تلقّاها آدم من ربّه فتاب عليه، قال: سأله بحق محمّد وعليّ وفاطمة والحسن والحسين إلاّ تبت عليَّ فتاب عليه، ونقله عنه في ينابيع المودة للقندوزي الحنفي: ٩٧، ورواه السيوطي في الدر المنثور ١: ٦٠ نقلاً عن ابن النجار.

٢.زدنا ما بين القوسين وهو موجود في مجمع البيان: ٨٩ م١ تفسير نفس الآية، والسياق هنا يقتضي ذلك.

٣.زدنا ما بين القوسين وهو موجود في مجمع البيان: ٨٩ م١ تفسير نفس الآية، والسياق هنا يقتضي ذلك.

وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ إنّما ذكر الرحيم، ليدلّ بذلك على أنّه متفضّل بقبول التوبة، ومنعم به، وأنّ ذلك ليس هو على وجه الوجوب، على ما يقوله المخالف، ومن خالف في ذلك يقول: لما ذكر التواب بمعنى الغفار باسقاط العقوبة، وصل ذلك بذكر النعمة، ليدلّ على أنّه مع إسقاط العقوبة، لا يخلي العبد من النعمة الحاصلة ترغيباً له، وفي الإنابة والرجوع إليه بالتوبة (وتوّاب) بمعنى أنّه قابل التوبة، لا يطلق إلاّ عليه تعالى، ولا يطلق في الواحد منّا.

وإنّما قال: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ ولم يقل فتاب عليهما، لأنّه اختصر، كما قال: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾[١] ومعناه أن يرضوهما، كذلك معنى الآية فتاب عليهما، ومثل ذلك قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾[٢] وقال الشاعر:

رماني بأمر كنت منه ووالدي ... بريئاً ومن جول الطّوي رماني[٣]

وقال آخر

نحن بما عندنا وأنت بما ... عندك راض والرأي مختلف[٤]

---

١.التوبة: ٦٢.

٢.الجمعة: ١١.

٣.قال ابن بري: البيت لابن أحمر قال: وقيل هو للأزرق بن طرفة بن العمرد بفتح العين وفتح الميم وتشديده الفراصي، الجول: جانب البئر. الطوي: البئر، لأنّها تطوى بالحجارة. ومعنى البيت: رماني بأمر عاد عليه قبحه، لأنّ الّذي يرمي من جول البئر يعود ما رمى به عليه ويروى: ومن أجل الطوي قال وهو الصحيح ـ لسان العرب.

٤.البيت لقيس بن الخطيم، شاعر جاهلي، قتل أبوه وهو صغير فلما بلغ قتل قاتل أبيه ونشأت بسبب ذلك حروب بين قومه وبين الخزرج وله ولد اسمه ثابت وهو من الصحابة، شهد مع عليّ عليه السلام صفين والجمل والنهروان.

وحكي عن الحسن، أنّه قال: لم يخلق الله آدم إلاّ للأرض، ولو لم يعص لخرج على غير تلك الحال.

وقال غيره: يجوز أن يكون خلقه للأرض إن عصى ولغيرها إن لم يعص، وهو الأقوى لأنّ ما قاله لا دليل عليه.

وروي عن قتادة: أنّ اليوم الّذي قبل الله توبة آدم فيه يوم عاشوراء ورواه أيضاً أصحابنا.

**قوله تعالى:** ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ آية بلا خلاف (٣٨).

قد بيّنا معنى الهبوط فيما مضى[١] بما فيه كفاية.

وقال الجبائي: الهبوط الأوّل هو الهبوط من الجنّة إلى السماء، وهذا الهبوط من السماء إلى الأرض، وقد يستعمل في غير النزول من مكان عالٍ إلى أسفل، يقال: هبط فلانٌ إلى أرض كذا، إذا أتاها، وإن لم يرد به النزول الّذي فيه، إلاّ أنّ فيه إيماءً إلى هبوط المنزل، قال لبيد:

كــلُّ بنــي حــرةٍ مصيرهــم     قــلٌّ وإن أكثــروا مــن العــدد

إن يغبطـــوا يهبطـــوا وإن     أمـروا يومـاً فهـم للفناء والفند[٢]

---

١.في آية ٣٦ البقرة.

٢ـديوان لبيد ١: ١٩، والأغاني ١٥: ١٣٣ عن هامش مجاز القرآن ١: ٣٧٣ وبين المتن والمصادر تفاوت في بعض الألفاظ.

الفند: الهرب، والاتيان، والمجيئ، والاقبال، نظائر ونقيضه الذهاب والانصراف، ويقال: أتى اتياناً، وأتى أُتياً، وتأتى تأتياً وأتى تأتية، وآتيت فلاناً على أمره مؤاتاةً، ولا يقال أتية إلاّ في لغة قبيحة لتيم.

والهدى المذكور في الآية يحتمل أمرين:

أحدهما: البيان والدلالة.

والآخر: الأنبياء والرُّسل، وعلى القول الأخير يكون قوله: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا﴾ لآدم وحواء وذرّيتهما كما قال: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[١] أي أتينا بما فينا من الخلق طائعين.

وقوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ فالاتباع، والاقتداء، والاحتذاء، نظائر.

قوله: ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾. فالخوف والجزع، والفزع، نظائر، ونقيض الخوف: الأمن.

عمومه يقضي أنّه لا يلحقهم خوف أهوال القيامة، وهو قول الجبائي، وقال ابن أخشيد: لا يدلّ على ذلك، لأنّ الله تعالى وصف القيامة بعظم الخوف، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾... إلى قوله: ﴿شَدِيدٌ﴾[٢]. ولأنّه روي أنّه يلجم الناس العرق، وغير ذلك من الشدائد، وهذا ليس بمعتمد، لأنّه لا يمتنع أن يكون هؤلاء خارجين من ذلك الغم، وأمّا الحزن، فلا خلاف أنّه لا يلحقهم.

ومن أجاز الخوف، فرق بينه وبين الحزن، لأنّ الحزن إنّما يقع على ما يغلظ ويعظم من الغم والهم، فلذلك لم يوصفوا بذلك، ولذلك قال تعالى: ﴿لا

---

١. فصلت: ١١.

٢. الحج: ١.

يَحْزُنُهُمْ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾[١] لأنّ ما يلحقهم لا يثبت، ويزول وشيكاً، قالوا: ويدلّك على أنّ الحزن ما ذكرنا، أنّه مأخوذ من الحَزَن؛ وهو ما غلظ من الأرض، فكان ما غلظ من الهم، فأمّا لحوق الحزن والخوف في دار الدنيا، فلا خلاف أنّه يجوز أن يلحقهم، لأنّ من المعلوم أنّ المؤمنين لا ينفكون منه.

و ﴿هداي﴾ بتحريك الياء، وروي عن الأعرج ﴿هداي﴾ بسكون الياء، وهي غلط، إلاّ أن ينوى الوقف.

وإنّما كرر ﴿اهْبِطُوا﴾ لأنّ أحدهما كان من الجنّة إلى السماء، والثاني من السماء إلى الأرض عند أبي عليّ، وقيل: المعنى واحد، وكرر تأكيداً، وقيل: هو على تقدير اختلاف حال المعنى، لا اختلاف الأحوال، كما يقول: اذهب مصاحباً، إذهب سالماً معافىً، وكأنّه على تقدير ذهاب يجامع ذهاباً وإن كانت حقيقته واحدة.

وإنّما كرر ﴿إمّا﴾ في قوله: ﴿إمّا شَاكِراً وَإمّا كَفُوراً﴾[٢] ولم يكرر هاهنا، لأنّها هناك للعطف، وهاهنا للجزاء، وإنّما هي إن ضم إليها ما كقوله: ﴿وَإمّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾[٣] وهداي: مثل هواي، وهي لغة قريش وعامة العرب، وبعض بني سليم يقولون: هويّ، مثل: عليَّ، ولديَّ، قال أبو ذؤيب:[٤]

سبقوا هويّ واعنقوا لهواهم     فتخرموا ولكل جنب مصرع[٥]

---

١ـ الأنبياء: ١٠٣.

٢ـ الدهر: ٣.

٣ـ الأنفال: ٥٨.

٤ـ الهذلي اسمه خويلد بن خالد بن محرث بن زبيد بن مخزوم ينتهي نسبه لنزار، وهو أحد المخضرمين ممن أدرك الجاهلية والإسلام.

٥ـ لسان العرب. العنق: ضرب من السير السريع. تخرموا: استأصلوا. والبيت من قصيدة يرثى بها أبناءه الخمسة الذين هلكوا في عام واحد.

وروي هـدي[١] في الآيـة عـن الجحـدي، وابـن أبـي إسـحاق، وعيسـى، والصـواب مـا عليـه القـرّاء، والفـرق بيـن هـوي ولـدي وعلـي، وهـو أنّ إلـيّ وعليّ ولديّ ممّا يلزمها الإضافة، وليست بمتمكنة، ففصّلوا بينها وبين الأسماء المتمكنة، كما فصّلوا بين ضمير الفاعل وضمير المفعول، حين قالوا: ضربت فسكنوا لأجل التاء، ولم يسكنوا في ضربك، إذ الفاعل يلزم الفعل.

**قوله تعالى:** ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ آية (٣٩).

قد بيّنا فيما مضى معنى الكفر والتكذيب، فلا وجه لاعادته.

والاستدلال بهذه الآية ـ على أنّ من مات مصرّاً على الكفر، غير تائب منه، فكذب بآيات ربه، فهو مخلّد في نار جهنم ـ صحيح، لأنّ الظاهر يفيد ذلك، والاستدلال بهـا على أنّ عمـل الجـوارح مـن الكفـر، مـن حيث قـال: ﴿وَكَـذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فبعيد، لأنّ التكذيب نفسه ـ وإن لم يكن كفراً، وهو لا يقع إلاّ من كافر ـ فهو دلالة عليه كالسجود للشمس وغيره.

وقوله: ﴿أَصْحَابُ﴾ فالاصطحاب، والاجتماع، والاقتران، نظائر وكذلك الصاحب والقرين.

و (آيـات الله) دلائلـه، وكتبـه التـي أنزلهـا علـى أنبيائـه، والآيـة: الحجـة، والدلالـة، والبيـان، والبرهـان واحـد في أكثـر المواضـع ـ وإن كـان بينهـا فـرق في الأصل ـ لأنّك تقول: دلالة هذا الكلام كذا ولا تقول: آيته ولا علامته، وكذلك تقول: دلالة هذا الاسم، ولا تقول: برهانه.

---

١.في المطبوعة والمخطوطة هوي.

و ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ هم الملازمون لها، كما تقول: أصحاب الصحراء يعني القاطنين فيها، الملازمين لها.

والخلود معرب من العرف، يدلّ على الدوام لأنّهم يقولون: ليست الدنيا دار خلود، وأهل الجنة مخلدون، يريدون الدوام فأما في أصل الوضع، فإنّه موضوع لطول الحبس.

فإن قيل: لم دخلت الفاء في قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ في سورة الحجّ ولم يقل هاهنا في قوله: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾؟

قيل: لأنّ ما دخلت فيه الفاء من خبر الّذي وأخواته مشبه بالجزاء، وما لم يكن فيه فاء، فهو على أصل الخبر، وإذا قلت: ما لي، فهو لك، جاز على وجه، ولم يجز على وجه، فإن أردت أنّ معنى ما الّذي، فهو جائز، وإن أردت أنّ مالي تريد به المال، ثم تضيفه إليك، كقولك: غلامي لك، لم يجز، كما لم يجز غلامي فهو لك.

**قولـه تعـالى:** ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ آية بلا خلاف (٤٠).

وقال أكثر المفسّرين: إنّ المعنى، يا بني إسرائيل، أحبار اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجر رسول الله ﷺ، وهو المحكي عن ابن عباس، وقال الجبائي: المعني به بنو إسرائيل من اليهود والنصارى، ونسبهم إلى الأب الأعلى، كما قال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[١].

---

١.الأعراف: ٣١.

ومعنى قوله: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ قال ابن عباس: أوفوا بما أمرتكم من طاعتي، ونهيتكم عن معصيتي في النبيّ ﷺ وغيره ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أي أرضى عنكم، وأدخلكم الجنة، وسمّي ذلك عهداً، لأنّه تقدّم بذلك إليهم في الكتب السابقة كما قال: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[١].

والعهد: هو العقد عليهم في الكتاب السابق بما أمروا به ونهوا عنه، قال بعضهم: إنّما جعله عهداً، لتأكيده بمنزلة العهد الّذي هو اليمين، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ﴾[٢] وقال الحسن: العهد الّذي عاهدهم عليه حيث قال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي بجد ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي ما في الكتاب في قوله ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي...﴾[٣] إلى آخر الآية، وقال الجبائي: جعل تعريفه إياهم نعمه عهداً عليهم وميثاقاً لأنّه يلزمهم القيام بما يأمرهم به من شكر هذه النعمة، كما يلزمهم الوفاء بالعهد، والميثاق الّذي يأخذ عليهم، والقول الأوّل أقوى، لأنّ عليه أكثر المفسّرين، وبه يشهد القرآن.

**قولــه تعــالى:** ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ آية واحدة بلا خلاف (٤١).

---

١.البقرة: ١٤٦.

٢.آل عمران: ١٨٧.

٣.المائدة: ١٢.

﴿آمِنُوا﴾ معناه صدّقوا، لأنّا قد بيّنا أنّ الإيمان هو التصديق.

﴿بِمَا أنزَلْتُ﴾ يعني بما أنزلت على محمّد ﷺ من القرآن.

وقوله: ﴿مُصَدِّقاً﴾ يعني أنّ القرآن مصدّق لما مع اليهود من بني إسرائيل من التوراة، وأمرهم بالتصديق بالقرآن، وأخبرهم أنّ فيه تصديقهم بالتوراة، لأنّ الّذي في القرآن من الأمر بالإقرار بنبوّة محمّد ﷺ، وتصديقه نظير الّذي في التوراة والانجيل، وموافق لما تقدّم من الإخبار به، فهو مصداق ذلك الخبر.

وقال قوم: معناه أنّه مصدّق بالتوراة والانجيل الّذي فيه الدلالة على أنّه حقّ، والأوّل الوجه، لأنّ على ذلك الوجه حجة عليهم، دون هذا الوجه.

ومعنى قوله: ﴿وَلا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾.

قال قوم: يعني بالقرآن من أهل الكتاب لأنّ قريشاً كفرت به قبلهم بمكة.

وقيل: معناه لا تكونوا أوّل كافر به أي لا تكونوا أول السابقين بالكفر فيه فيتبعكم الناس أي لا تكونوا أئمّة في الكفر به.

وقيل: لا تكونوا أوّل كافر به أي أوّل جاحدٍ به إن صفته في كتابكم.

وقوله: ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾ فأدخل الباء في الآيات دون الثمن، وفي سورة يوسف في الثمن في قوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾[1] قال الفرّاء: إنّما كان كذلك، لأنّ العوض كلّها، أنت مخير فيها في إدخال الباء، إن شئت قلت: اشتريت الثوب بكساءٍ، وإن شئت قلت: اشتريت بالثوب كساءً، أيهما جعلته ثمناً لصاحبه جاز، فإذا جئت إلى الدراهم والدنانير، وضعت الباء في الثمن كقوله: ﴿بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾، لأنّ الدراهم ثمن أبداً.

---

١ يوسف: ٢٠.

وروي عن أبي جعفرعليه السلام في قوله: ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾ قال عليه السلام: «كان ليحيى بن أخطب وكعب بن أشرف، وآخرين منهم مأكلة على يهود في كلّ سنة، وكرهوا بطلانها بأمر النبيّ صلى الله عليه وآله، فحرّفوا لذلك آيات من التوراة فيها صفته وذكره، فذلك الثمن القليل الّذي أريد به في الآية».

وتقييده بـ ﴿لا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً﴾ لا يدلّ على أنّه إذا كان كثيراً يجوز مشترىً به، لأنّ المقصود من الكلام أنّ أيّ شيء باعوا به آيات الله كان قليلاً، وأنّه لا يجوز أن يكون له ثمنٌ يساويه، كقوله: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾[1] إنّما أراد بذلك نفي البرهان عنه على كلّ حال، وأنّه لا يجوز أن يكون عليه برهان، ومثله قوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾[2] وإنّما أراد أنّ قتلهم لا يكون إلاّ بغير الحقّ، نظائر ذلك كثيرة. ومثله قول الشاعر:

على لاحبٍ لا يهتدى بمناره

وإنّما أراد: لا منار هناك فيهتدى به، ولذلك نظائر نذكرها إذا انتهينا إليه إن شاء الله.

## قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ آية واحدة بلا خلاف (٤٢).

ومعنى لبسهم الحقّ بالباطل: أنّهم آمنوا ببعض الكتاب، وكفروا ببعض، فخلطوا الحقّ بالباطل، لأنّهم جحدوا صفة محمّد صلى الله عليه وآله فذلك الباطل، وأقروا بغيره ممّا في الكتاب على ما هو به، وذلك حقّ، وقال ابن عباس: لا تخلطوا الصدق

---

١. المؤمنون: ١١٧.

٢. آل عمران: ٢١.

بالكذب، وقال الحسن: كتموا صفة محمّد ﷺ ودينه وهو الحقّ، وأظهروا دين اليهودية والنصرانية، وقال ابن زيد: الحقّ التوراة التي أنزلها الله على موسى والباطل ما لبّسوه بأيديهم، واللبس في الآية قيل معناه: التعمية، وقيل: خلط الحقّ بالباطل، عن ابن عباس، ومنه قوله: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ أي لخلطنا عليهم ما يخلطون. قال العجاج:

لمـا لبسـن الحـقّ بالتـجنّي عيـن واسـتبدلن زيـداً منّـي[1]

وقال بعضهم: الحقّ إقرارهم بأنّ محمّداً ﷺ مبعوث إلى غيرهم، والباطل إنكارهم أن يكون بعث إليهم، وهذا ضعيف، لأنّه إن جاز ذلك على نفر يسير، لم يجز على الخلق الكثير، مع إظهار النبيّ ﷺ وتكذيبهم فيه، وإقامة الحجة عليهم.

قال قوم: هو متوجه إلى رؤساء أهل الكتاب، ولذلك وصفهم بأنّهم يحرّفون الكلم عن مواضعه للتلبيس على أتباعهم ـ قالوا ـ وهذا تقبيح لما يفعلونه، وكذلك قوله: ﴿وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ أي تتركون الاعتراف به، وأنتم تعرفونه أي تجحدون ما تعلمون، وجحد المعاند أعظم من جحد الجاهل، ومن قال هذا، لا يلزمه ما يتعلّق به أهل التعارف من هذه الآية، من قولهم: إنّ الله أخبر أنّهم يكتمون الحقّ وهم يعلمون، لأنّه إذا خص الخطاب بالرؤساء ـ وهم نفر قليل ـ فقد جوّز على مثلهم العناد والاجتماع على الكتمان، وإنّما يمنع مع ذلك في الجماعة الكثيرة، لما يرجع إلى العادات، واختلاف الدواعي، كما قيل في الفرق بين التواطي والاتفاق في العدد الكثير، وقال بعضهم: وأنتم تعلمون البعث والجزاء.

---

١. ديوانه :

فإن قيل: كيف يصحّ ذلك على أصلكم الّذي تقولون: إنّ من عرف الله لا يجوز أن يكفر؟ وهؤلاء إذا كانوا كفاراً، وماتوا على كفرهم، كيف يجوز أن يكونوا عارفين بصفة محمّد، وأنّه حقّ، بما معهم من التوراة، وذلك مبني على معرفة الله، وعندكم ما عرفوا الله؟

قيل: إنّ الّذي يمنع أن يكفر من عرف الله، إذا كان معرفته على وجه يستحق بها الثواب، فلا يجوز أن يكفر، لأنّه يؤدّي إلى اجتماع الثواب الدائم على إيمانه، والعقاب الدائم على كفره، والإحباط باطل، وذلك خلاف الإجماع، ولا يمتنع أن يكونوا عرفوا الله على وجه لا يستحقون به الثواب لأنّ الثواب إنّما يستحق بأن يكونوا نظروا من الوجه الّذي وجب عليهم، فأمّا إذا نظروا بغير ذلك، فلا يستحقون الثواب، فيكونوا على هذا عارفين بالله وبالكتاب الّذي أنزله على موسى، وعارفين بصفات النبيّ ﷺ، لكن لا يؤمنون مستحقين الثواب، وعلى هذا يجوز أن يكفروا.

وفي الناس من قال: استحقاقهم الثواب على إيمانهم مشروط بالموافاة، فإذا لم يوافوا به، لم يستحقوا الثواب، فعلى هذا أيضاً يجوز أن يكونوا عارفين، وإن لم يكونوا مستحقين لثواب يبطل بالكفر، والمعتمد الأوّل.

وقال قوم: الآية متوجهة إلى المنافقين منهم، وكان خلطهم الحقّ بالباطل ما أظهروا بلسانهم من الاقرار بالنبيّ ﷺ بما يستبطنونه من الكفر، وهذا يمكننا الاعتماد عليه، ويكون قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ معناه أنّكم تعلمون أنّكم تظهرون خلاف ما تبطنونه، وهذا أسلم من كلّ وجه على أصلنا.

ويمكن أن يقال: معنى قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي عند أنفسكم، لأنّهم إذا كانوا يعتقدون أنّهم عالمون بالتوراة، وبأنّه من عند الله، وفيها ذكر النبيّ، فهم عالمون عند أنفسهم بنبوته، ولكن يكابرون.

**قولــه تعــالى:** ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ آية بلا خلاف (٤٣).

وكان معنى الصلاة، ملازمة العبادة على الحد الّذي أمر الله ﷻ، وقيل: أصلها الصلا وهو عظم العجز لرفعه في الركوع والسجود من قول الشاعر:

فــآب مصــلوه بغيــر جليــة     وغـودر بـالجولان حـزم ونائـل[١]

أي الذين جاؤوا في صلا السابق، والقول الأوّل أقرب إلى معنى الصلاة في الشرع، وقد بيّنا معنى إقامة الصلاة فيما مضى، فلا وجه لإعادته.

وقولـه: ﴿وَآتُـوا الزَّكَـاةَ﴾ فالزكـاة، والنمـاء، والزيـادة، نظـائر فـي اللغـة، ونقيض الزيادة: النقصان.

وقولـه: ﴿وَارْكَعُـوا﴾ فـالركوع، والانحنـاء، والانخفـاض نظـائر فـي اللغـة، يقال: ركع ورفع. قال الشاعر:

لا تهـــين الفقيـــر علّـــك أن     تركـع يومـاً والـدهر قـد رفعـه[٢]

وقوله: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ إنّما خصّ الركوع بالذكر من أفعال الصلاة، لما قال بعض المفسّرين: إنّ المأمورين هم أهل الكتاب، ولا ركوع في صلاتهم، وكان الأحسن ذكر المختص دون المشترك، لأنّه أبعد عن اللبس، وقيل: لأنّه يعبر بالركوع عن الصلاة، يقول القائل: فرغت من ركوعي أي من

---

١. في التفسير الكبير وآب مضلوه، من أضل القوم ميتهم: إذا واروه في قبره، وفيه بدل بغير جلية بعين جلية، والشعر للنابغة.

٢. قائل هذا البيت الأضبط بن قريع الأسدي.

صلاتي، وإنّما فعل ذلك، لأنّه أوّل ما يشاهد ممّا يدلّ على أنّ الإنسان في الصلاة، لأنّا بيّنا أنّ أصل الركوع الإنحناء.

فإن قيل: كيف أمروا بالصلاة والزكاة وهم لا يعرفون حقيقة ما في الشريعة؟

قيل: إنّما أمروا بذلك، لأنّهم أحيلوا فيه على بيان الرسول إذ قال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[١] ولذلك جاز أن يأمرهم بالصلاة على طريق الجملة، ويحيلهم في التفصيل إلى بيان الرسول ﷺ.

وقد بيّنا تفصيل ما ورد الشرع به، من الصلاة والزكاة، وفرائضها وسننها في كتاب النهاية [٢] والمبسوط [٣] وغيرهما من كتبنا في الفقه، فلا نطول بذكره في هذا الكتاب.

وقد ورد في القرآن على طريق الجملة آي كثير نحو قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾. وقوله ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾[٤] وقوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾[٥] وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[٦] ويمكن الاستدلال بهذه الآيات على وجوب الصلوات، وعلى صلاة الجنائز، وصلاة العيدين، وعلى وجوب الصلاة على النبيّ وآله في التشهد، لأنّه عام في جميع ذلك.

---

١. الحشر: ٧.

٢. النهاية: ٥٦ – ١٩١ ط: ٢ دار الكتاب العربي بيروت.

٣. المبسوط ١: ٧٠ – ٢٣٤ ط المكتبة المرتضوية.

٤. النساء: ١٠٣.

٥. البقرة: ٢٣٨.

٦. المؤمنون: ١.

فإن قيل: قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ قد ثبت أنّ هذا خطاب لأهل الكتاب وليس في صلاتهم ركوع، فكأنّه أمرهم بالصلاة على ما يرون، وأمرهم بضم الركوع إليها، وعلى معنى قوله: ﴿ارْكَعُوا﴾ أي صلّوا.

نقول: إنّ ذلك تأكيد، ويمكن أن يقال: فيه فائدة، وهو أن يقال: إنّ قوله: ﴿أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ إنّما يفيد وجوب إقامتها، ويحتمل أن يكونْ إشارة إلى صلاتهم التي يعرفونها، ويمكن أن يكون إشارة إلى الصلاة الشرعية، فلمّا قال: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ يعني مع هؤلاء المسلمين الراكعين، تخصّصت بالصلاة في الشرع، ولا يكون تكراراً بل يكون بياناً، وقيل: قوله: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ حث على صلاة الجماعة، لتقدّم ذكر الصلاة المنفردة في أوّل الآية.

**قوله تعالى:** ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ آية (٤٤).

كلّ طاعة لله تعالى، فلا خلاف أنّها تسمّى براً.

واختلفوا في المراد بهذه الآية فقال ابن عباس: المراد به التمسّك بكتابهم، فكانوا يأمرون أتباعهم، ويتركون هم التمسّك به، لأنّ جحدهم النبيّ ﷺ هو تركهم التمسّك به.

وقال قتادة: كانوا يأمرون الناس بطاعة النبيّ ﷺ ويخالفون ذلك.

وقال قوم: إنّ معناه أنّهم كانوا يأمرون ببذل الصدقة، ويضنّون بها.

وقال بعضهم: البر الصدق من قولهم: صدق، وبر، ومعناه: أنّهم يأمرون بالصدق ولا يصدقون.

ومعنى قوله: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ أي تتركونها، وليس المراد بذلك ما يضاد الذكر، لأنّ ذلك من فعل الله لا ينهاهم عنه.

فإن قيل: إذا كان الواجب عليهم مع ترك الطاعة والإقامة على المعصية، الأمر بالطاعة، والنهي عن المعصية، فكيف قيل لهم هذا القول؟

قلنا: في أمرهم بالطاعة، ونهيهم عن المعصية تعظيم لما يرتكبونه من معصية الله تعالى، لأنّ الزواجر كلّها كلّما كانت أكثر، كانت المعصية أعظم ففي نهيهم لغيرهم زواجر، فهو توبيخ على عظيم ما ارتكبوا من ذلك.

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾.

والكتاب الّذي كانوا يتلونه التوراة على قول ابن عباس وغيره، وقال أبو مسلم: كانوا يأمرون العرب باتباع الكتاب الّذي في أيديهم، فلمّا جاءهم كتاب مثله، لم يتبعوه.

وقوله: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾.

فالعقل، والفهم، واللب، والمعرفة، نظائر يقال: فلانٌ عاقلٌ فهيم أديب ذو معرفة، وضد العقل: الحمق.

**قوله تعالى:** ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ آية واحدة (٤٥).

قال الجبائي: هذا خطاب للمؤمنين دون أهل الكتاب، وقال الطبري، والرماني: هو خطاب لأهل الكتاب، ويتناول المؤمنين على وجه التأديب.

والأقوى أن يكون خطاباً لجميع مَن هو بشرائط التكليف، لفقد الدلالة على التخصيص، واقتضاء العموم ذلك، فمن قال: إنّه خطاب لأهل الكتاب، قال:

لأنّه قال: واستعينوا على الوفاء بعهدي الذي عاهدتكم في كتابكم عليه من طاعتي، واتباع أمري واتباع رسولي، وترك ما نهيتكم عنه، والتسليم لأمري ولمحمّد ﷺ بالصبر والصلاة.

والصبر خلق محمود، أمر الله تعالى به ودلّ عليه، فقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾[١] وقال: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾[٢] وقال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾[٣] وقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[٤] وفي الحديث: اقتلوا القاتل، واصبروا الصابر، وذلك فيمن أمسكه حتى قتله آخر فأمر بقتل القاتل، وحبس الممسك.

والصبر المأمور به في الآية، قيل فيه قولان: أحدهما الصبر على طاعته واجتناب معصيته، والثاني أنّه الصوم، وفي الصلاة هاهنا قولان: أحدهما الدعاء، والثاني أنّها الصلاة الشرعية ذات الركوع والسجود، وكان النبيّ ﷺ إذا أحزنه أمر، استعان بالصلاة والصوم، ووجه الاستعانة بالصلاة، لمكان ما فيها من تلاوة القرآن والدعاء والخضوع لله تعالى، والإخبات، فإنّ في ذلك معونة على ما تنازع إليه النفس من حب الرياسة والأنفة من الانقياد إلى الطاعة.

والضمير في قوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ عائد على الصلاة عند أكثر المفسّرين، وقال قوم: عائد إلى الإجابة للنبيعليه السلام وهذا ضعيف، لأنّه لم يجر للاجابة ذكر ولا هي معلومة، إلاّ بدليل غامض، وليس ذلك كقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾ لأنّ ذلك معلوم.

---

١.النحل: ١٢٧.

٢.آل عمران: ٢٠٠.

٣.البقرة: ١٥٥.

٤.لقمان: ١٧.

وردّ الضمير على واحد، وقد تقدّم ذكر شيئين فيه قولان:

أحدهما: أنّها راجعة إلى الصلاة دون غيرها على ظاهر الكلام، لقربها منه ولأنّها الأهم والأفضل، ولتأكيد حالها وتفخيم شأنها وعموم فرضها.

والآخر: أن يكون المراد الاثنين وإن كان اللفظ واحداً كقوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ﴾[1] قال الشاعر:

اما الوسامة أو حسن النساء فقد     أوتيت منه أوانّ العقل محتنك[2]

وقال البرجمي:

فمن يك أمسى بالمدينة رحله     فـانّي وقـيار بهـا لغريـب[3]

وقال ابن أحمد:

رماني بأمر كنت منه ووالدي     بريأ ومن طول الطويّ رماني

وقال آخر:

نحـن بمـا عندنـا وأنـت     بما عندك راضٍ والرأي مختلف

وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾.

قال قوم: اللفظ واحد والمراد به اثنان.

وقال الفرّاء: راجع إلى التجارة لأنّ تجارةً جاءت فضربوا بالطبل فانصرف الناس إليها.

---

١. التوبة: ٦٣.

٢. احتنك الشيء: استولى عليه.

٣. وروى وقياراً.

والاستعانة في الآية المأمور بها على ما تنازع إليه نفوسهم من حب الرياسة، وغاية الشهوة للذة العاجلة والاستعانة بالصبر على المشقة بطاعة الله، ومعنى الكبيرة هاهنا أي ثقيلة ـ عند الحسن والضحاك، وأصل ذلك ما يكبر ويثقل على الإنسان حمله، كالأحمال الجافية التي يشق حملها، فقيل لما يصعب على النفس، وإن لم يكن من جهة الحمل ـ يكبر عليها، تشبيهاً بذلك.

وقوله: ﴿إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾.

فالخشوع، والخضوع، والتذلل، والإخبات، نظائر.

**قوله تعالى:** ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ آية بلا خلاف (٤٦).

إن قيل: كيف أخبر الله عمّن وصفه بالخشوع بالطاعة، ومدحهم بذلك بأنّهم يظنون بأنّهم ملاقوا ربّهم، وذلك مناف لصفة المدح؟

قلنا: الظن المذكور في الآية المراد به العلم واليقين. قال دريد بن الصمة:

فقلت لهم ظنوا بألفي مدجّج     سراتهم في الفارسيّ المسرّد

وقال عمير بن طارق:

بأن تغتزوا قومي واقعد فيكم     واجعل مني الظن غيباً مرجماً [١]

وقال أبو دؤاد:

ربّ هم فرّجته بعزيم     وغيوب كشفتها بظنون

---

١. البيت في نقائض جرير والفرزدق وروايته: و(أجلس فيكم) و (وأجعل علمي ظن غيب مرجماً).

وقال المبرد: ليس من كلام العرب: أظن عند زيد مالاً، يريد: أعلم لأنّ العلم المشاهد لا يناسب باب الظن، وقد أفصح في ذلك أوس بن حجر في قوله:

الألمعي الّذي يظن بك الظن     كأن قد رأى وقد سمعا

وقال آخر:

فإلاّ يأتكم خبر يقين     فإنّ الظن ينقص أو يزيد

وقال بعض الشيوخ: أصل الظن ما يجول في النفس من الخاطر الّذي يغلب على القلب، كأنّه حديث النفس بالشيء، وتأوّل جميع ما في القرآن من معنى العلم على هذا.

وقال الحسن وابو العالية ومجاهد وابن جريج: يظنون، أي يوقنون، ومثله: ﴿ظَنَنتُ أَنّي مُلاقٍ حِسَابِيه﴾ [١] أي علمت، ومثله: ﴿وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ﴾[٢] ومعناه استيقنوا، وقوله: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾[٣]، يعني: علموا، وقد جاء في القرآن الظن بمعنى الشك كقوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلاّ يَظُنُّونَ﴾[٤] وقوله: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنْ الْحَقِّ شَيْئاً﴾[٥].

وقال قوم: يحتمل قوله ﴿يَظُنُّونَ﴾ وجهاً آخراً، وهو أنّهم يظنون أنّهم ملاقوا ربّهم بذنوبهم لشدة إشفاقهم من الإقامة على معصية الله، وهذا وجه مليح، وقد استبعده الرماني وقال: لأنّ فيه حذوفاً كثيرة، وليس بمنكر إذا كان الكلام محتملاً له.

---

١.الحاقة: ٢٠.

٢.التوبة: ١١٨.

٣.الكهف: ٥٣.

٤.الجاثية: ٢٤.

٥. يونس: ٣٦.

وقيل أيضاً: الذين يظنون إنقضاء أجلهم وسرعة موتهم فيكونون أبداً على حذر ووجل، كما يقال لمن مات: لقي الله.

والظن والشك والتجويز نظائر، إلاّ أنّ الظن فيه قوة على أحد الأمرين دون الآخر، وحدّه ما قوي عند الظان كون المظنون على ما ظنّه مع تجويزه أن يكون خلافه، فبالتجويز ينفصل من العلم، وبالقوة ينفصل من الشك والتقليد وغير ذلك، وضد الظن اليقين، ويقال: ظن ظناً وتظنّن تظنّناً، وقال: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ﴾[1] وقوله: ﴿وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ﴾[2] والظنين المتهم، ومصدره الظنة، والظنون الرجل السيء الظن بكلّ أحد، والظنون القليل الخير.

ومعنى قوله: ﴿أَنَّهُمْ مُلاقُو رَبِّهِمْ﴾ أي ملاقوا جزاء ربّهم، فجعل ملاقاة الجزاء ملاقاة له تفخيماً وتعظيماً لشأن الجزاء، وأصل الملاقاة الملاصقة، من قولك: التقى الحدان أي تلاصقا، ثم كثر حتى قالوا التقى الفارسان إذا تحاذيا ولم يتلاصقا، ومثل ما قلنا في قوله: ﴿مُلاقُو رَبِّهِمْ﴾ قوله تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾[3] معناه يوم يلقون جزاءه، لأنّ المنافقين لا يرون الله عند أحد من أهل الصلاة، وكذلك قوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾[4] معناه إذ وقفوا على جزاء ربّهم، لأنّ الكفار لا يرون الله عند أحد من الأمة.

فإن قيل: ما معنى الرجوع هاهنا وهم ما كانوا قط في الآخرة فيعودوا إليها؟ قيل: راجعون بالإعادة في الآخرة ـ في قول أبي العالية ـ وقيل: يرجعون

---

١. القصص: ٣٩.

٢. الفتح: ١٢.

٣. التوبة: ٧٧.

٤. الأنعام: ٣٠.

بالموت كما كانوا في الحال المتقدمة، لأنّهم كانوا أمواتاً، ثم أحيوا، ثم يموتون، فيرجعون أمواتاً كما كانوا، والأوّل أظهر وأقوى، وقيل: إنّ معناه أنّهم راجعون إلى أن لا يملك أحدهم ضراً ولا نفعاً غيره تعالى كما كانوا في بدو الخلق، لأنّهم في أيّام حياتهم قد يملك الحكم عليهم غيرهم، والتدبير لنفعهم وضرهم بيّن ذلك قوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدّينِ﴾ ومعنى ذلك أنّهم يقرّون بالنشأة الآخرة، فجعل رجوعهم بعد الموت إلى المحشر رجوعاً إليه.

**قوله تعالى:** ﴿يَـٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ آية (٤٧).

قد مضى تفسير مثل هذا في ما تقدّم فلا وجه لإعادته، وأمّا قوله: ﴿وَأَنّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ذكّرهم الله تعالى من الآية ونعمه عندهم بقوله: ﴿وَأَنّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فضّلت أسلافكم، فنسب النعمة إلى آبائهم وأسلافهم، لأنّها نعمة عليهم منه، لأنّ مآثر الآباء مآثر الأبناء، والنعم عند الآباء نعم عند الأبناء لكون الأبناء من الآباء.

فإن قيل: لم كرّر قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؟ قلنا: لأنّه لما كانت نعم الله هي الأصل فيما يجب فيه شكره وعبادته، احتيج إلى تأكيدها، كما يقول القائل: اذهب اذهب اعجل اعجل وغير ذلك في الأمر المهم، وأيضاً فإنّ التذكير الأوّل ورد مجملاً، وجاء الثاني مفصّلاً، كأنّه قال: اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم فيما أنتم عليه من المنافع التي تنصرفون فيها وتتمتعون بها، وأنّي فضلتكم على العالمين.

ودلّ هذا على قوله: ﴿وَأَنّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ لأنّها احدى الخصال التي ذكروا بها وجاءت عاطفة، فدلّت على خصلة قبلها: إمّا مذكورة أو

مقدّرة، وإنّما فضّلوا بما أرسل الله فيهم من كثرة الرسل وأنزل عليهم من الكتب، وقيل: لكثرة من جعل فيهم من الأنبياء، وما أنزل الله عليهم من المنّ والسلوى إلى غير ذلك من النعمة العظيمة من تغريق فرعون عدوّهم، ونجاتهم من عذابه، وتكثير الآيات التي يخف معها الاستدلال، ويسهل بها كثرة المشاق، وهو قول أكثر أهل العلم كأبي العالية، وغيره.

ونظير هذه الآية قوله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

وقوله: ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

قال أكثر المفسّرين: إنّه أراد الخصوص ومعناه عالمي زمانهم، ذهب إليه قتادة والحسن وأبو العالية ومجاهد وغيرهم.

وقال بعضهم: إذا قلت فضل زيد على عمرو في الشجاعة لم يدلّ على أنّه أفضل منه على الإطلاق، ولا في جميع الخصال، فعلى هذا يكون التخصيص في التفضيل لا في العالمين.

وأمة نبيّنا محمّد ﷺ أفضل من أولئك بقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [١] وعليه إجماع الأمة، لأنّهم أجمعوا على أنّ أمة محمّد ﷺ أفضل من سائر الأمم، كما أنّ محمّداً ﷺ أفضل الأنبياء من ولد آدم عليه السلام.

**قوله تعالى:** ﴿وَاتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ آية واحدة بلا خلاف (٤٨).

---

١. آل عمران: ١١٠.

قرأ ابن كثير وأهل البصرة لا يقبل منها بالياء، الباقون بالتاء.

ومعنى قوله: ﴿لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾[١] أي لا تقابل مكروهها بشيء يدرأه عنها، قال الله تعالى: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إلاّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٢] وقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[٣] والفرق بين المقابلة والمجازاة أنّ المقابلة قد تكون للمساواة فقط كمقابلة الكتاب بالكتاب، والمجازاة تكون في الشر بالشر والخير بالخير، ومعنى قوله: ﴿لا تَجْزِي﴾ أي لا تغني وهو قول السدي كما تقول: البقرة تجزي عن سبعة وهي لغة أهل الحجاز، وبنو تميم تجزئ بالهمزة من أجزأه، والأوّل من جزت، وقال الأخفش: لا تجزي منها أي لا يكون مكانها بدلاً منها، وأنكر عليهم ذلك لقوله: ﴿شَيْئاً﴾.

وجعل الأخفش لا تجزي منها ﴿شَيْئاً﴾ في موضع المصدر كأنّه يقول لا تجزي جزاء ولا تغني غناء، قال الرماني: والأقرب أن تكون ﴿شَيْئاً﴾ في موضع حقاً، كأنّه قيل: لا يؤدي عنها حقاً وجب عليها، وقال بعضهم: ﴿لا تَجْزِي﴾ بمعنى لا تقضي.

وقبول الشيء تلقيه والأخذ به، وضده الإعراض عنه ومن ثم قيل لتجاه القبلة قبالة، وقالوا: أقبلت المكواة الداء أي جعلتها قبالته، ويجوز أن يكون المخاطبون بذلك اليهود، لأنّهم زعموا أنّ آباءهم الأنبياء وتشفع لهم وأُويسوا بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ وبقوله: ﴿لا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ والقبول والانقياد والطاعة والإجابة نظائر.

---

١. البقرة: ٤٨.

٢. النمل: ٩٠.

٣. المؤمن: ١٧.

وأمّا الشفاعة فهي مأخوذة من الشفع الّذي هو خلاف الوتر، فكأنّه سؤال من الشفيع، شفع: سؤال المشفوع له، والشفاعة والوسيلة والقربة والوصلة نظائر.

وقوله: ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ﴾ مخصوص عندنا بالكفّار؛ لأنّ حقيقة الشفاعة عندنا أن يكون في اسقاط المضارّ دون زيادة المنافع، والمؤمنون عندنا يشفع لهم النبيّ ﷺ فيشفّعه الله تعالى، ويسقط بها العقاب عن المستحقين من أهل الصلاة لما روي من قوله عليه السلام: «ادّخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي» وإنّما قلنا لا تكون في زيادة المنافع، لأنّها لو استعملت في ذلك، لكان أحدنا شافعاً في النبيّ ﷺ إذا سأل الله أن يزيده في كراماته، وذلك خلاف الإجماع، فعلم بذلك أنّ الشفاعة مختصة بما قلناه، وعلم بثبوت الشفاعة أنّ النفي في الآية يختص بالكفار دون أهل القبلة، والآيات الباقيات [1] نتكلم عليها إذا انتهينا إليها إن شاء الله.

والشفاعة ثبت عندنا للنبي ﷺ وكثير من أصحابه ولجميع الأئمة المعصومين وكثير من المؤمنين الصالحين.

وقيل: إنّ نفي الشفاعة في هذه الآية يختص باليهود من بني اسرائيل، لأنّهم ادعوا أنّهم أبناء الله وأحبّاؤه وأولاد أنبيائه، وأنّ آباءهم يشفعون إليه فآيسهم الله من ذلك، فأخرج الكلام مخرج العموم، والمراد به الخصوص، ولابدّ من تخصيص الآية لكلّ أحد، لأنّ المعتزلة والقائلين بالوعيد يثبتون شفاعة مقبولة ـ وإن قالوا أنّها في زيادة المنافع ـ.

والعدل، والحق، والإنصاف نظائر. والعدل: نقيض الجور.

قوله: ﴿وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

---

١. في المخطوطة الباقية.

والنصر والمعونة والتقوية نظائر، وضد النصر الخذلان.

وأصل الباب المعونة والنصرة، قد تكون بالحجة، وقد تكون بالغلبة، فالله عَجَلَّ ينصر جميع المؤمنين بالحجة التي تؤيّدهم، وأمّا النصر بالغلبة فبحسب المصلحة، ولا يدل وقع الغلبة لبعض المؤمنين على أنّه مسخوط عليه، كما أنّه ليس في تخلية الله بين الكفار وبين الأنبياء دلالة على حال منكرة، وقد قتل الكفّار كثيراً من الأنبياء ونالوا منهم بضروب من الأذى، قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[١] وقوله: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ معناه بالغلبة.

وأمّا ما يأخذ له بالحق من الباغي عليه، لينصر به من الله للمبغي عليه واقعة لا محالة، والخذلان لا يكون إلاّ للظالمين، لأنّ الله تعالى لا يخذل أولياءه وأهل طاعته، وقوله: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ﴾[٢] أي بالمعونة التي توجب الغلبة، لأنّ الله تعالى يقدر على إعطائهم ما يغلبون به كلّ من نازعهم، ويستعلون على كلّ من ناوأهم.

وحدّ النصرة: المعونة على كلّ من ظهرت منه عداوة، وقد تكون المعونة بالطاعة فلا تكون نصرة، والفرق بين النصرة والتقوية أنّ التقوية قد تكون على صناعة، والنصرة لا تكون إلاّ مع منازعة، فأمّا قولهم: لا قبل الله منهم صرفاً ولا عدلاً، فقال الحسن البصري: الصرف العمل، والعدل: الفدية، وقال الكلبي: الصرف الفدية، والعدل الفريضة، وقال أبو عبيدة: الصرف الحيلة، والعدل الفدية، وقال أبو مسلم: الصرف التوبة، والعدل الفداء.

---

١. البقرة: ٦١.

٢. آل عمران: ١٦٠.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ آية بلا خلاف (٤٩).

هذه الآية عطف على ما تقدم من قوله: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وإذ هاهنا متعلّقة بذلك، كأنّه قال: اذكروا نعمتي عليكم إذ نجيناكم من آل فرعون ونظيره: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً﴾ [١] لما تقدم ما يدلّ على ﴿أَرْسَلْنَا﴾ وهو قوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ﴾ [٢] فكأنّه قال: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً، والخطاب وإن كان متوجهاً إلى الحاضرين في الحال، فالمراد به من سلف لهم من الآباء، كما يقول القائل: هزمناكم يوم ذي قار، وقتلناكم يوم الفجار وإنّما يعني الأسلاف. قال الأخطل يهجو جريراً:

ولقد سما لكم الهذيل قتالكم ... بآراب حيث يقسّم الانفالا[٣]

وجرير لم يلحق هذيلاً ولا ادرك آراب، وقد بيّنا أنّ النعمة على الآباء نعمة على الأولاد، فلا وجه لإعادته.

ومعنى ﴿نَجَّيْنَاكُمْ﴾ فالنجاة، والسلامة، والاسعاد، والتخلص نظائر وضد النجاة الهلاك.

---

١.الأعراف: ٧٢.

٢.الأعراف: ٥٩.

٣.ديوانه،ونقائض جرير والأخطل، والهذيل هذا هو ابن بهرة التغلبي غزا بني يربوع باراب وهو ماء لبني رياح بن يربوع وبني تيم تفزع أولادها باسمه. والأنفال: الغنائم. وفي المطبوعة والمخطوطة نقيّم بدل يقسم.

قوله: ﴿مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ فالآل، والأهل، والقرابة، نظائر.

وفرعون اسم لملوك العمالقة كما قيل: قيصر لملك الروم، وكسرى لملك الفرس، وخاقان لملك الترك، والإخشاد لملك الفراعنة، وتبّع لملك التابعة، فهو على هذا بمعنى الصفة، لأنّه يفيد فيه أنّه ملك العمالقة بنفس الصفة الجارية عليه وعلى غيره، وقيل: انّ اسم فرعون مصعب بن الريان، وقال محمّد بن اسحاق: هو الوليد بن مصعب.

ومعنى قوله: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي يولونكم سوء العذاب، يقال: سامه خطة خسفاً: إذا أولاه ذلك. قال الشاعر:

إن سيم خسفاً وجهه تربدا[1]

وقيل: يجشمونكم سوء العذاب، والسوم، والتجشم، والتجمل، نظائر.

وقوله: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ﴾.

فالذبح، والنحر، والشنق: نظائر، والذبح: فري الأوداج.

قوله: ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ البلاء، والاحسان، والنعمة، نظائر في اللغة.

وإنّما كان في استحياء النساء محنة عليهم، وبلوى لهم، لأنّهم كثيراً يستعبدون، وينكحن على الاسترقاق، فهو على رجالهنّ أعظم من قتلهنّ، وقيل: إنّهنّ كنّ يستبقين للإذلال، والاستبقاء محنة، كما أنّ من أحيي للتعذيب فحياته نقمة، ومن أحيي للتلذيذ فحياته نعمة.

---

١.الخسف: الظلم والهوان. تربّد وجهه: تلوّن من الغضب كأنّما تسود منه مواضع.

والأبناء جمع ابن، والمحذوف من الابن عند الأخفش الواو، لأنّها أثقل وهي بالحذف أولى، وقال الزجاج: يجوز أن يكون المحذوف ياء وواو هما سيان ولا حجة في البنوة كما لا حجة في الفتوة، لقولهم فتيان قال: وقد جاء حذف الياء كما في يد، كقولهم: يديت إليهم يداً، وفي دم قال الشاعر:

فلــو أنّــا علــى حجــر ذبحنــا     جــرى الــدميان بــالخبر اليقــين

والقتل الّذي هو فري الأوداج، أو نقض بنية الحياة يقدر الواحد منّا عليه، وأما الموت بتسكين الحركة الحيوانية، أو فعل ضد الحياة عند من قال: لها ضد، فلا يقدر عليه غير الله.

و ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ كان بذبح الأبناء واستحياء النساء، وقيل: باستعمالهم في الأعمال الشاقة، واستحياء النساء كان بأن يستبقين، وقيل: انّه كان يفتش أحياء النساء عما يلدن، وقيل: إنّهم كانوا يستحيون أن يلجوا على النساء في بيوتهنّ إذا انفردن عن الرجال صيانة لهم، فعلى هذا يكون إنعاماً عليهنّ، وهذا بعيد من أقوال المفسّرين.

والسبب في أنّ فرعون كان يذبح الأبناء ويستحيي النساء ما ذكره السدي وغيره، أنّ فرعون رأى في منامه ناراً أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر، فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، وأخربت مصر، فدعى السحرة والكهنة والقافة، فسألهم عن رؤياه فقالوا: يخرج من هذا البلد الّذي جاء بنو إسرائيل منه ـ يعنون بيت المقدس ـ رجل يكون على يده هلاك مصر، فأمر بني إسرائيل ألاّ يولد لهم غلام إلاّ ذبحوه، ولا جارية إلاّ تركت.

وليس في الآية دلالة على سقوط القود عمّن قتل غيره مكرهاً، ولا القود على المكره ولا أن كان مختاراً غير مكره، فالقود عليه لأنّه لم يجر لذلك ذكر.

فإن قيل: إذا كانوا نجوهم والله أنجاهم، ما المنكر أن يكون العاصي هو الّذي عصى الله والله خلق معصيته؟

قيل: لا يجب ذلك، ألا ترى أنّه يقال قد ينجيني زيد فأنجو، وإن لم يكن فعل بلا خلاف، وكذلك إذا استنقذنا النبيّ ﷺ من الضلالة فخلّصنا لا يجب أن يكون من فعل فعلنا.

واخبار الله اليهود بهذه القصة على لسان رسوله من دلائل نبوته، لأنّ منشأه معروف وبعده عن مخالطة الكتابيين معلوم.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾ آية (٥٠).

ومعنى فرقنا بكم البحر أي فرقنا بين الماءين حتى مررتم فيه وكنتم فرقاً بينهما، والفرق والفصل والقطع نظائر.

ومعنى قوله: ﴿فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ﴾ أي جعلناكم بين فرقيه تمرون في طريق يبس، كما قال تعالى: ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً﴾[١] وقال: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[٢] وقال بعضهم في معنى فرقنا يعني بين الماء وبينكم، أي فصلنا بينكم وبينه حجزنا حيث مررتم فيه، وهذا خلاف الظاهر، وخلاف ما بيّنه في الآيات الأخر التي وردت مفسّرة لذلك، ومبيّنة لما ليس فيه اختلاف.

وقوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾.

---

١. طه: ٧٧.

٢. الشعراء: ٦٣.

قال صاحب العين: الغرق الرسوب في الماء ويشبه به الدين والبلوى، والتغريق والتغويص والتغييب نظائر، والنجاة ضد الغرق كما أنّها ضد الهلاك.

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ قال المفسّرون: وأنتم ترون ذلك وتعاينونه.

فإذا ثبت هذا، فالأولى أن نقول: إنّ تأويل الآية ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ وأنتم مقبلون عليهم متوقعون له، وقال الفرّاء: قد كانوا في شغل من أن ينظروا مستورين بما اكتنفهم من البحر من أن يروا فرعون وغرقه ولكنّه كقولك: قد ضربت وأهلك ينظرون فما أتوك ولا أعانوك، ومعناه وهم قريب بمرأى ومسمع، ومثله قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾[1] وليس هاهنا رؤية، وإنّما هو علم، لأنّ الرؤية تستعمل في مثل ذلك، يقول القائل: رأيت فرعون أعتى الخلق وأخبثه، وهذا الّذي ذكره الفرّاء محتمل مليح، غير أنّه مخالف لقول المفسّرين كلّهم، فإنّهم لا يختلفون أنّ أصحاب موسى رأوا انفراق البحر والتطام أمواجه بآل فرعون حتى غرقوا فلا وجه للعدول عن الظاهر مع احتماله، ولأنّهم إذا عاينوا ذلك، كانوا أشد في قيام الحجة، وأعظم في ظهور الآية، وذكر الزجاج وجهاً آخراً قال: معناه وأنتم بأزائهم، كما يقول القائل: دور آل فلان إلى دور آل فلان أي هي بازائها، لأنّها لا تبصر.

## قصة موسى عليه السلام:

وقصة فرعون مع بني إسرائيل في البحر، ولا نعلم جملة ما قال ابن عباس: أنّ الله أوحى إلى موسى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾[2] فسرى موسى

---

١. الفرقان: ٤٥.

٢. الشعراء: ٥٢.

بني إسرائيل ليلاً فاتبعه فرعون في ألف ألف حصان سوى الاناث، وكان موسى في ستمائة ألف، فلمّا عاينهم قال: ﴿إِنَّ هَـٰؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾[١].

فسرى موسى بني إسرائيل حتى هجموا على البحر، فالتفتوا فإذا هم برهج دواب فرعون ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾[٢] هذا البحر أمامنا وهذا فرعون قد رهقنا بمن معه ﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[٣] قال: فأوحى الله إلى موسى ﴿أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ وأوحى إلى البحر أن اسمع لموسى وأطع إذا ضربك، قال: فبات البحر له أفكل أي له رعدة لا يدري من أي جوانبه يضربه.

قال: فقال يوشع لموسى عليه السلام: بماذا أمرت؟ قال: أمرت أن أضرب البحر، قال: فاضربه، فضرب موسى البحر بعصاه، فانفلق، فكان اثنا عشر طريقاً كالطود العظيم، فكان لكلّ سبط منهم طريق يأخذون فيه فلما أخذوا في الطريق، قال بعضهم لبعض: ما لنا لا نرى أصحابنا، قالوا لموسى: أصحابنا لا نراهم، فقال لهم: سيروا فإنّهم على طريق مثل طريقكم، فقالوا: لا نرضى حتى نراهم، فيقال: انّ موسى قال لله تعالى: اللّهمّ أعنّي على أخلاقهم السيئة، فأوحى الله إليه أن قل بعصاك هكذا يميناً وشمالاً، فصار فيها كوى ينظر بعضهم إلى بعض.

قال ابن عباس: فساروا حتى خرجوا من البحر، فلمّا جاز آخر قوم موسى هجم فرعون هو وأصحابه، وكان فرعون على فرس أدهم ذنوب[٤]

---

١. الشعراء: ٥٤ – ٥٦.

٢. الأعراف: ١٢٩.

٣. الأعراف: ١٢٩.

٤. طويل الذنب، في المطبوعة والمخطوطة دبوب.

حصان، فلمّا هجم على البحر هاب الحصان أن يتقحم على البحر، فتمثل له جبرائيل على فرس انثى وديق [١] فلما رآها الحصان تقحم خلفها، وقيل لموسى أترك البحر رهواً أي طرقاً على حاله، ودخل فرعون وقومه البحر فلما دخل آخر قوم آل فرعون وجاز آخر قوم موسى، انطبق البحر على فرعون وقومه فاغرقوا، ويقال: نادى فرعون حين رأى من سلطان الله وقدرته ما رأى، وعرف ذله وخذلة نفسه: لا إله إلاّ الّذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين.

فإن قيل: كيف لم يسو الله بين الخلق في هذه الآيات الباهرات التي أعطاها بني اسرائيل لتكون الحجة أظهر والشبهة أبعد؟

قيل: الآيات يظهرها الله على حسب ما يعلم من المصلحة في ذلك، وعلى حد لا ينتهي إلى الإلجاء والإضطرار، وخولف بين الآيات لهم على قدر حدة أذهان غيره ؛ وكلالة أذهانهم يدلّ على ذلك أنّ بعد مشاهدة هذه الآيات قالوا: يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، ولما كانت العرب من أحدّ الناس أذهاناً وأجودهم أوهاماً جاءت الآيات مشاكلة لطباعهم ومجانسة لدقة أذهانهم، وفي الجميع الحجة الباهرة، والآية القاهرة، وليس يمكن أن يقال انّه لو ظهر لهم مثل تلك الآيات، لآمنوا لا محالة، على وجه لا يكونون ملجئين إليه، لأنّ ذلك لو كان معلوماً، لأظهره الله تعالى، فلمّا لم يظهرها الله علمنا أنّه لم يكن ذلك معلوماً، وموسى عليه السلام لم يكن مجتلباً إلى المعارف، لمشاهدته هذه الآيات، لأنّه كان يقدم له الإيمان بالله ومعرفته.

وقوله: ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ وإن لم يكن في ظاهره أنّه أغرق فرعون فهو دال عليه، وكأنّه قال: وأغرقنا فرعون معهم، ـ وأنتم تنظرون ـ فاختصر لدلالة

١. وديق: تشتهي الفحل.

الكلام عليه، لأنّ الغرض مبني على اهلاك فرعون وقومه، ونظيره قول القائل: دخل جيش الأمير البادية، قال: الظاهر من ذلك أنّ الأمير معهم.

**قولــه تعــالى:** ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ (٥١).

وموسى اسم مركّب من اسمين بالقبطية فـ(مو) هو الماء و (سى) شجر، وسمّي به لأنّ التابوت الّذي كان فيه موسى وجد عند الماء، والشجر وجدته جواري آسية امرأة فرعون وقد خرجن ليغتسلن، فسمّي بالمكان الّذي وجد فيه وهو موسى بن عمران بن يصمر بن فاهت بن لاوي بن يعقوب اسرائيل الله.

وقال: ﴿أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ ولم يقل يوماً على عادة العرب في التاريخ بالليالي، لأنّ الأهلة تطلع فيها، واعتمادهم على الأهلة، وقال الأخفش: وعد باتمام أربعين ليلة، أو انقضاء أربعين ليلة كقولك: اليوم أربعون يوماً مذ خرج فلان، واليوم يومان أي تمام يومين، وقال غيره: الأربعون كلّها داخلة في الميعاد.

قال أبو العالية: واعدنا موسى أربعين ليلة يعني ذا القعدة وعشراً من ذي الحجة، وقال غيره: ذا الحجة وعشراً من المحرم، وذلك حين خلّف موسى أصحابه واستخلف عليهم هارون، فمكث على الطور أربعين ليلة وأنزلت عليه التوراة في الألواح، وعن الربيع نحوه.

وقال الطبري: لا يجوز ما قاله الأخفش، لأنّه خلاف ظاهر التلاوة وما جاءت به الرواية.

قال الرماني: في هذا غلط ظاهر، انّ الوعد لا يتصل وقوعه في الأربعين كلّها إذا كان الوعد هو الاخبار الموعود بما فيه النفع، فلم يكن ذلك الخبر في

طول تلك المدّة، فلابدّ على ذلك أن يكون التقدير على ما قاله الأخفش أو على واعدناه اقامة اربعين ليلة للمناجاة، أو غيبته أربعين ليلة عن قومه للمناجاة، وما أشبه ذلك من التقدير.

ومعنى قوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي اتخذتموه إلهاً لأنّ بنفس فعلهم لصورة العجل لا يكونون ظالمين، لأنّ فعل ذلك ليس بمحظور وإنّما هو مكروه.

وما روي عن النبيّ ﷺ أنّه لعن المصوّرين معناه: من شبّه الله بخلقه أو اعتقد فيه أنّه صورة، فلذلك قدّر الحذف في الآية، كأنّه قال: اتخذتموه الهاً، وذلك أنّهم عبدوا العجل بعد موسى لمّا قال لهم السامري: هذا إلهكم وإله موسى، فنسي أي ترك الههم ومضى ناسياً، وقيل: بل معنى فنسي أي فترك ما يجب عليه من عبادة الله.

## قصة السامري:

وكان سبب عبادتهم العجل ما ذكره ابن عباس، انّ السامري كان رجلاً من أهل باكرم[1]، وكان من قوم يعبدون البقر، وكان حب عبادة البقر في نفسه، وكان قد أظهر الإسلام في بني إسرائيل، فلمّا قصد موسى إلى ربه خلّف هارون في بني إسرائيل، قال لهم هارون: انّكم تحمّلتم أوزاراً من زينة آل فرعون، وامتعة وحلي، فتطهّروا منها، فإنّها نجس، وأوقد لهم ناراً، وقال لهم: اقذفوا ما كان معكم فيها، فجعلوا يأتون بما كان معهم من تلك الأمتعة وذلك الحلي، فيقذفون به فيها، حتى إذا انكسر الحلي ورأى السامري أثر فرس جبرئيل، فأخذ

١. هكذا في المطبوعة والمخطوطة وفي مجمع البيان با جرمي.

تراباً من أثر حافره، ثم أقبل إلى النار، فقال لهارون: يا نبيّ الله ألقي ما في يدي؟ قال: نعم، ولم يظن هارون إلاّ أنّه كبعض ما جاء به غيره من الحلي والأمتعة، فقذف فيها وقال كن عجلاً جسداً له خوار، وكان البلاء والفتنة، وقال: هذا الهكم وإله موسى، فعكفوا عليه وأحبّوه حبّاً لم ير مثله قطاً.

**قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ آية بلا خلاف (٥٢).

قيل في معنى ما وقع العفو عنهم بقوله: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ قولان:

أحدهما: انّا تركنا معاجلتكم بالعقوبة من بعد اتخاذكم العجل إلهاً.

والآخر: عفونا عنكم بقبول التوبة من عبادة العجل.

والعفو، والصفح، والمغفرة، والتجاوز، نظائر، فالمغفرة نقيض العقوبة.

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ ـ وإن كان إشارة إلى الواحد ـ فمعناه الجمع، وإنّما كان كذلك، لأنّ ذا اسم مبهم فمرة يأتي على الأصل، ومرّة يأتي على مشاكلة اللفظ، إذا كان لفظ المبهم على الواحد وإن كان معناه الجمع على أنّه قد يخاطب بلفظ الواحد ويراد به الجمع كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ ثم قال: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾.

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى اتخاذهم العجل إلهاً.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

فالشكر: هو الاعتراف بالنعمة مع ضرب من التعظيم، وقال الرماني: الشكر هو الإظهار للنعمة، والصحيح هو الأوّل لأنّه قد يظهر النعمة من لا يكون شاكراً لها، والفرق بين الشكر والمكافأة أنّ المكافأة من التكافؤ وهو التساوي،

وليس كذلك الشكر ففي مكافأة النعمة دلالة على أنّه قد استوفى حقها، وقد يكون الشكر مقصراً عنها، وإن كان ليس على المنعم عليه أكثر منه، إلاّ أنّه كلّما ازداد من الشكر، حسن له الازدياد وإن لم يكن واجباً لأنّ الواجب لا يكون إلاّ متناهياً، وذلك كالشكر لنعمة الله لو استكثرته غاية الاستكثار لم يكن لينتهي إلى حد لا يجوز له الازدياد، لعظم نعم الله ﷻ وصغر شكر العبد.

والشكر متعلّق في الآية بعفو الله عنهم، ونعمه عليهم كأنّه قال: لتشكروا الله على عفوه عنكم وسائر نعمه عليكم.

**قولـه تعـالى:** ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ آية (٥٣).

وقوله: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ معناه أعطيناه، والكتاب يريد به التوراة، وأمّا الفرقان فقال الفراء وقطرب وثعلب: يحتمل أن يكون أتى موسى كتاب التوراة ومحمد الفرقان، كما قال الشاعر:

متقلّـــــداً ســـــيفاً ورمحـــــا[١]

وضعّف قوم هذا الوجه، لأنّ فيه حمل القرآن على المجاز من غير ضرورة، مع أنّه تعالى أخبر أنّه أتى موسى الفرقان في قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً﴾[٢].

---

١ـ وهو عجز بيت صدره: ورأيت زوجك في الوغى كما في الكشاف ومعاني القرآن غير أنّ في أمالي المرتضى يا ليت بعلك قد غدا. والبيت منسوب في كامل المبرد بشرح المرصفي ٣: ٢٣٤ إلى ابن الزبعرى.

٢ـ الأنبياء: ٤٨.

وقال الفرّاء: هو كلام مثنى يراد به التوراة، وكرّر لاختلاف اللفظين، كقولهم: بعداً وسحقاً، وهما بمعنى واحد، قال الرماني: هذا المثال لا يشبه الآية، لأنّه جمع الصفتين لموصوف واحد على معنيين متفقين، والاولى أن يمثل بقولهم: هو العالم الكريم، فجمعت الصفتان لموصوف واحد على معنيين مختلفين، وقال عدي بن زيد:

وقـــدّدت الأديـــم لراهشـــيه    وألفـــى قولهـــا كـــذباً ومينـــا[1]

وقال قوم: الكتاب التوراة، والفرقان انفراق البحر لبني اسرائيل، والفرج الّذي أتاهم كما قال: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾ أي مخرجاً.

وقال بعضهم: الفرقان الحلال والحرام الّذي ذكره في التوراة.

وروي عن ابن عباس وأبي العالية ومجاهد: انّ الفرقان الّذي ذكره هو الكتاب الّذي أتاه يفرق فيه بين الحقّ والباطل.

وقال ابن زيد: الفرقان النصر الّذي فرّق الله به بين موسى وفرعون، كما فرق بين محمّد ﷺ وبين المشركين، كما قال: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾[2].

وقال أبو مسلم: هو ما اوتي موسى من الآيات والحجج التي فيها التفرقة بين الحقّ والباطل.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي لكي تهتدوا، وقد بيّناه فيما مضى، وفيه دلالة على أنّه تعالى أراد أن يهتدوا لأنّ هذه اللام لام الغرض، وذلك يفسد قول المجبّرة إنّه أراد منهم الكفر.

---

١.من شعر عدي بن زيد كما في ديوانه: ١٨٣ وهو من شواهد المغني وغيره.

٢.الأنفال: ٤١.

فإن قيل: كيف يهتدون بما أوتي موسى من البيان، وما أوتي من التوراة من البرهان مع انقطاع النقل الّذي تقوم به الحجة.

قيل: الجواب عنه من وجهين:

أحدهما: انّ الخطاب لأسلافهم، كما قال: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ﴾.

والثاني: انّ أخبار الرسول لهم ما تقوم به الحجة عليهم، فيمكنهم أن يستدلّوا بذلك على ما أنعم الله به على أسلافهم، ولأنّهم مقرّون بأنّ موسى عليه السلام أوتي التوراة بما فيها من الهدى والبينات، فتقوم الحجة عليهم بإقرارهم.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ آية بلا خلاف (٥٤).

وأمّا قوله: ﴿إِلَى بَارِئِكُمْ﴾.

فالبارئ هو الخالق الصانع، يقال: برأه واستبرأ استبراء، وتبرأ تبرياً، وباراه مباراة، وبرأه براءة، وتبرئة، قال صاحب العين: البرأ مهموز وهو الخلق، تقول: برأ الله الخلق وهو يبرؤهم وهو البارئ، وقال أمية:

الخالق البارئ المصور في ... الأرحام ماء حتى يصير دما

وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا﴾.

فالقتـل والـذبح والمـوت نظـائر وبينهـا فـرق، فالقتـل نقـض بنيـة الحيـاة، والذبح فري الأوداج، والموت عند من أثبته معنى عرض يضاد الحياة.

وقوله: ﴿فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾.

قيل في معناه قولان:

أحـدهما: يقتـل بعضـكم بعضـاً، ذهـب إليـه ابـن عبـاس وسـعيد بـن جبير ومجاهد والحسن وغيرهم من أهل العلم، كما يقول القائل: قتل آل فلان إذا قتل بعضهم بعضاً.

والثاني: ذكره ابن عباس واسحاق واختاره أبو عليّ، وهو أن يستسلموا للقتل فجعل استسلامهم للقتل قتلاً منهم لأنفسهم على وجه التوسّع.

وقيل: انّ السبعين الذين اختارهم موسى للميقات أمروا بالقتل لمن سأل الرؤية من بني اسرائيل.

وقيل: إنّهم قتلوا أنفسهم كما أمروا، عمدوا إلى الخناجر وجعل بعضهم يطعن بعضاً.

قال ابن عباس وغيره من أهل العلم: ويقال غشتهم ظلمة شديدة فجعل بعضهم يقتل بعضاً، ثم انجلت الظلمة، فأجلوا عن سبعين ألف قتيل.

والسبب الّذي لأجله أمروا بقتل أنفسهم ذكره ابن جريج: انّ الله علم أنّ ناساً منهم علموا أنّ العجل باطلاً فلم يمنعهم أن ينكروا إلاّ خوف القتل، فلذلك بلاهم الله أن يقتل بعضهم بعضاً.

وقال الرماني: ولابدّ أن يكون الأمر بالقتل لطف لهم ولغيرهم، كما يكون في استسلام القاتل لطف له ولغيره.

فإن قيل: كيف يكون في قتلهم نفوسهم لطف لهم، وبعد القتل لا تكليف عليهم، واللطف لا يكون لطفاً فيما مضى ولا فيما يقاربه.

قلنا: إذا كان القوم كلّفوا أن يقتل بعضهم بعضاً وكلّ واحد منهم يقصد قتل غيره، ويجوز أن يبقى بعده فيكون القتل لطفاً له فيما بعد، ولو كان بمقدار زمان يفعل فيه واجباً واحداً ويمتنع فيه من قبيح، وذلك كما نقول في عبادتنا في قتال المشركين، فإنّ الله تعالى تعبّدنا أن نقاتل حتى نَقتل ونُقتل ومدح على ذلك.

فلذلك روى أهل السير انّ الذين عبدوا العجل تعبّدوا أن يقاتلوا من لم يعبد ويصبروا على ذلك حتى يقتل بعضهم بعضاً، وكان القتل شهادة لمن قتل ؛ وتوبة لمن بقي، وإنّما كانت تكون شبهة، لو أمروا بأن يقتلوا نفوسهم بأيديهم، ولو صح ذلك لكان لا يمتنع بأن يكونوا أمروا بأن يفعلوا بنفوسهم الجراح التي تفضي إلى الموت ـ وإن لم يزل معها العقل فينا في التكليف ـ.

وأمّا على القول الآخر وهو أنّهم أمروا بالاستسلام والقتل والصبر عليه فلا مسألة، لأنّهم أمروا بقتل نفوسهم، وعلى هذا يكون قتلهم حسناً، لأنّه لو كان قبيحاً لما جاز أن يؤمروا بالاستسلام، وكذلك نقول: لا يجوز أن يتعبد نبيّ أو إمام بأن يستسلم للقتل مع قدرته على الدفع عن نفسه، فلا يدفعه، لأنّ في ذلك استسلاماً للقبيح مع القدرة على الدفع منه، وذلك لا يجوز وإنّما يقع قتل الأنبياء والأئمّة على وجه الظلم، وارتفاع التمكن من الدفع مع الحرص على الدفع، غير أنّه لا يمتنع أن يتعبّد بالصبر على الدفاع، وتحمل المشقة في ذلك وإن قتله غيره ظلماً، والقتل ـ وإن كان قبيحاً بحكم العقل ـ فهو ما يجوز تغيره بأن يصير حسناً، لأنّه جار مجرى سائر الآلام، وليس يجري ذلك مجرى الجهل والكذب الّذي ليس يصير قط حسناً.

ووجه الحسن في القتل أنّه لطف على ما قلناه، وكما يجوز من الله أن يميت الحي، كذلك يجوز أن يأمرنا بإماتته ويعوّضه على ما يدخل عليه من الآلام ويكون فيه لطف على ما قدّمناه.

وقوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى التوبة مع القتل لأنفسهم على ما أمرهم الله تعالى به بدلالة قوله: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ فقوله: ﴿تُوبُوا﴾ دال على التوبة، فكأنّها مذكورة.

وقوله: ﴿خَيْرٌ﴾ فالخير، والنفع، والفضل، والحظ نظائر، وضد الخير: الشر، وضد النفع: الضرر، تقول: خار الله له الخير خيرة.

قوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ فالفاء متعلّق بمحذوف كأنّه قال: ففعلتم أو قتلتم أنفسكم فتاب عليكم، وكان فيما بقي دلالة عليه.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ آية بلا خلاف (٥٥).

وهذه الآية أيضاً عطف على ما تقدّم، كأنّه قال: واذكروا إذ قلتم يا موسى لن نصدق حتى نرى الله جهرة، فالرؤيا والنظر والابصار نظائر في اللغة.

وأصل الباب: الرؤية بالعين وشبه الرؤية بالقلب به بمعنى العلم، والرأي يرى حال صلاح ويظن خلافها، والمرية لأنّها بمنزلة الآلة للقلب يرى بها.

والجهرة، والعلانية، والمعاينة نظائر.

ومعنى قوله: ﴿حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ قال ابن عباس: علانية وقال قتادة: عياناً، وقد تكون الرؤية غير جهرة كالرؤية في النوم والرؤية بالقلب، فإذا قال جهرة لم يكن إلاّ رؤية العين على التحقيق، دون التخيل وسؤالهم الرؤية.

قال قوم: هو كفر لأنّ اجازة الرؤية كفر.

وقال آخرون: ليس بكفر وإنّما اجازة الرؤية التي تقتضي التشبيه كفر.

فأما هذا القول منهم فكفر إجماعاً، لأنّه ردّ على الرسول وكلّ من يلقى قول الرسول بالرد من المكلّفين كان كافراً.

وأمّا الصاعقة فإنّها تكون على ثلاثة أوجه:

أولها: الموت، كقوله: ﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾[١] ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾[٢].

الثاني: العذاب، كقوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾[٣].

والثالث: نار تسقط من السماء كقوله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾[٤] وأكثرهم على أنّ موسى لم يمت بالصاعقة كما مات من سأل الرؤية، وقال شاذ منهم: انّه مات بالصاعقة.

وقوله: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً﴾ أي مغشياً عليه عند أكثر المفسّرين بدلالة قوله: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ والافاقة لا تكون إلاّ من الغشية دون الموت، وإلا لكان قد قال فلما حيي.

وقال الزجاج في هذه الآية دلالة على مشركي العرب الذين كانوا ينكرون البعث، لأنّ لأهل الكتاب مع مخالفتهم الرسول يقرون بأنّ الله أمات قوماً

---

١. الزمر: ٦٨.

٢. البقرة: ٥٥.

٣. حم فصلت: ١٣.

٤. الرعد: ١٣.

في الدنيا ثم أحياهم، وعندنا انّ نقل أهل الكتاب لمثل هذا ليس بحجة، وإنّما الحجة في أخبار الله على لسان نبيه وحده إذ كان كلّما يخبر به فهو حقّ وصدق.

واستدلّ البلخي بهذه الآية على أنّ الرؤية لا تجوز على الله تعالى، قال: لأنّها انكارهم أمرين: ردهم على نبيّهم، وتجويزهم الرؤية على ربّهم، وبيّن ذلك قوله تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ فدلّ ذلك على أنّ المراد إنكار الأمرين، وهذه الآية تدلّ على قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُر إِلَيْكَ﴾ كان سؤالاً لقومه، لأنّه لا خلاف بين أهل التوراة انّ موسى ما سأل الرؤية إلاّ دفعة واحدة، وهي التي سألها لقومه.

وقوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ﴾ تعلّق بما يخبرهم به من صفات الله ﷻ؛ لأنّهم قالوا: لن نؤمن لك بما تخبرنا به من صفاته وما يجوز عليه حتى نراه.

وقيل: انّه لمّا جاءهم بالألواح وفيها التوراة قالوا: لن نؤمن بأنّ هذا من عند الله حتى نراه جهرة.

وإنّما دعاهم إلى أن قالوا لن نؤمن لك حتى نرى الله شكهم، وحيرتهم فيما دعاهم إليه موسى عليه السلام من توحيد الله ﷻ، ولو كانوا عارفين، لكان دعاهم إليه العناد لموسى ومعلوم أنّهم لم يكونوا معاندين له عليه السلام.

وفي الناس من قال: إنّ قولهم جهرة من صفة السؤال على التقديم والتأخير، كأنّه قال: وإذا قلتم جهرة لن نؤمن لك حتى نرى الله.

وقال الأكثر: إنّها من صفة الرؤية، وهو الأقوى، لأنّ ما قالوه ترك الظاهر، وتقدير التقديم والتأخير ليس هنا إلى ذلك حاجة.

وقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ يعني ما نزل بكم من الصاعقة والموت.

**قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ آية بلا خلاف (٥٦).

قولـه: ﴿بَعَثْنَـٰكُمْ﴾ أحيينـاكم عنـد أكثـر المفسّـرين كالحسـن، وقتـادة، وغيرهما.

وقال السدي: بعثناكم أنبياء، والأوّل أصح لأنّه ظاهر الكلام، فلا يجوز العدول عنه وأصل البعث إثارة الشيء من محله، ومنه قيل: بعث فلان راحلته إذا أثارها من مبركها للسير، ومنه قولهم: بعثت فلاناً لحاجتي إذا أقمته من مكانه الّذي هو فيه للتوجه فيها، ومن ذلك قيل ليوم القيامة يوم البعث لأنّه يوم تثار فيه الناس من قبورهم لموقف الحساب.

والبعث والارسال وكلّ الاطلاق نظائر.

وأصل الباب: البعث وهو الارسال، وكلّ باعث فاعل، وأمّا المبعوث فقد يكون فاعلاً، وقد لا يكون، يقال: بعث الله عليهم ريحاً فاقتلعتهم والريح مبعوثة، ويقال: الشهوة للشيء تبعث على الطلب له.

فإن قيل: هل يجوز أن يرد الله أحداً إلى التكليف بعد أن مات، وعاين ما يضطره إلى معرفته بالله؟ قيل: في ذلك خلاف، قال أبو عليّ: لا يجوز ذلك إلاّ على من لم يضطره الله إلى معرفته، وقال بعضهم: يجوز التكليف في الحكمة، وإن اضطر إلى المعرفة وقول أبي عليّ أقوى، واعلّ الرماني قول أبي عليّ.

فإن قيل: لما كانت المعرفة لأجل الطاعات التي كلّفها العبد كانت هي الغرض الّذي يتبعه سائر الطاعات فلو ارتفع الغرض، ارتفع التابع له، كما أنّ الغرض في الشرائع الاستصلاح في الأصول التي تجب بالعقل فلو ارتفع ذلك

الغرض، ارتفع وجوب العمل بالشرع، وكما أنّه لا يجوز تكليف الطاعة مع رفع التمكن مع المعرفة من غير ضرورة إليها، قال: ووجه القول الثاني أنّه لما كان الشكر على النعمة يجب في المشاهد مع الضرورة إلى معرفة النعم، كان الشكر للنعمة التي هي أجل من نعمة كلّ منعم في الشاهد أولى أن تجب مع الاضطرار إلى المعرفة.

ولأبي عليّ أن يقول: لا نمنع من الوجوب، لكن لا يجوز التكليف، لأنّ الغرض المعرفة، أي هي أصل ما وقع التكليف به للعباد.

والّذي أقوله: إنّ الّذي يحيي بعد الإماتة، إن كان لم يخلق له المعرفة الضرورية لم يضطر إليها، فإنّه يمتنع تكليفه، لأنّ العلم بانّ الإحياء بعد الإماتة، لا يقدر عليه غير الله طريقه الدليل وغوامض الاستدلال، فليس إحياؤه بعد الإماتة ما يوجب أن يكون مضطراً إلى معرفته، فلذلك يصحّ تكليفه، وليس الإحياء بعد الإماتة إلاّ كالانتباه من النوم والإفاقة بعد الغشية، فإنّ ذلك لا يوجب علم الاضطرار، وإن فرضنا انّه خلق فيه المعارضة ضرورة، فلا يحسن تكليفه، لأنّ حسن التكليف موقوف على ازاحة علة المكلف من فعل اللطف، والاقدار وغير ذلك.

ومن جملة الالطاف تكليفه للمعرفة، والضرورية لا تقوم مقامها على ما بيّناه في الأصول، وإذاً لا يحسن تكليفه، لأنّه يصير مكلفاً ولم يفعل به ما هو لطف منه، وذلك لا يجوز.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ معناه لكي تشكروا، وهذه لام الغرض، وفيه دليل على فساد قول المجبرة إنّ الله تعالى ما أراد من الكفار الشكر، لأنّه لو أراد كفرهم، لقال: لتكفروا وذلك خلاف القرآن.

ومن استدلّ بها على جوازها كان صحيحاً، لأنّ من منع منه وأحاله، فالقرآن يكذبه، وإن استدلّ به على وجوب الرجعة وحصولها فلا يصحّ لأنّ إحياء قوم في وقت، ليس بدلالة على إحياء آخرين في وقت آخر، ذلك يحتاج إلى دلالة أخرى.

وقول من قال: لا تجوز الرجعة، لأنّ ذلك معجزة ودلالة على نبوة نبيّ، وذلك لا يجوز إلاّ في زمن نبيّ، غير صحيح، لأنّ عندنا يجوز إظهار المعجزات على يد الأئمّة والصالحين، وقد بيّنّاه في الأصول.

ومن ادّعى قيام الحجة بأنّ الخلق لا يردّون إلى الدنيا، كما علمنا أن لا نبيّ بعد نبيّنا مقترح مبتدع، لما لا دليل على صحته، فانّا لا نخالف في ذلك.

وقال البلخي: لا تجوز الرجعة مع الإعلام بها، لأنّ فيها اغراء بالمعاصي من جهة الاتكال على التوبة في الكرة الثانية.

قال الرماني: هذا ليس بصحيح من قبل أنّه لو كان فيها اغراء بالمعصية، لكان في إعلام التبقية إلى مدة، إغراء بالمعصية، وقد أعلم الله تعالى نبيّه وغيره إبليس أنّه يبقيه إلى يوم يبعثون ولم يكن في ذلك إغراء بالمعصية.

وعندي أنّ الّذي قاله البلخي ليس بصحيح، لأنّ من يقول بالرجعة، لا يقطع على أنّ الناس كلّهم يرجعون، فيكون في ذلك اتكال على التوبة في الرجعة، فيصير اغراء، فلا أحد من المكلّفين إلاّ ويجوز أن لا يرجع، وإن قطع على الرجعة في الجملة ويجوز أن لا يرجع، فكفى في باب الزجر.

وأما قول الرماني: إنّ الله تعالى أعلم أقواماً مدّة مقامهم، فإنّ ذلك لا يجوز إلاّ فيمن هو معصوم يؤمن من جهة الخطأ كالأنبياء ومن يجري مجراهم في كونهم معصومين، فأمّا من ليس بمعصوم، فلا يجوز ذلك، لأنّه يصير مغرى بالقبح.

وأمّا تبقية إبليس مع إعلامه أن يستبقيه إلى يوم القيامة ففيه جوابان:

أحدهما: أنّه إنّما وعده قطعاً بالتبقية بشرط ألا يفعل القبيح ومن فعل القبيح حقّ اخترته عقبه، ولا يكون مغرى.

والثاني: انّ الله قد علم أنّه لا يريد بهذا الاعلام فعلاً قبيحاً، وإلا لما كان يفعله، وفي ذلك اخراجه من باب الاغراء.

وقد قيل: إنّ إبليس قد زال عنه التكليف، وإنّما أمكنه الله من وسوسة الخلق تغليظاً للتكليف، وزيادة في مشاقهم، ويجري ذلك مجرى زيادة الشهوات أنّه يحسن فعلها إذا كان في خلقها تعريض للثواب الكثير الزائد.

**قولــه تعــالى:** ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ آية بلا خلاف (٥٧).

قوله: ﴿وَظَلَّلْنَا﴾ عطف على قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ وكأنّ التقدير ثم بعثناكم من بعد موتكم وظلّلنا عليكم الغمام.

والظلمة والغمامة والسترة نظائر في اللغة.

يوم الغمام الّذي ظلّل على بني اسرائيل، قال ابن عباس ومجاهد: لم يكن بالسحاب، ولكنه الّذي عنى في قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إلاّ أنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنْ الْغَمَامِ﴾[١] وهو الغمام الّذي أتت فيه الملائكة يوم بدر، ولم يكن لغيرهم، قال ابن عباس: كان معهم في التيه، وقيل: هو ما ابيضّ من السحاب.

---

١.البقرة: ٢١٠.

وأمّا المنّ قال ابن عباس: هو المن الّذي يعرفه الناس يسقط على الشجر، وقال قتادة: كان المنّ ينزل عليهم مثل الثلج، وقيل: هو عسل، وقيل: خبز مرقق، وقيل: هو الزنجبيل، وقيل: هو شيء كالصمغ كان يقع على الأشجار وطعمه كالشهد والعسل، عن مجاهد.

وقال الزجاج: جملة المنّ ما منّ الله تعالى على عباده ممّا لا تعب فيه ولا نصب، وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين»[١].

قال بعض أهل العلم: يعني بمائها الوسمي الّذي يكون منها الكمأ وهو أول مطر يجيئ في الخريف، وقيل: هو الّذي يسقط على الثمام.

والمنّ حلوٌ كالعسل، وإياه عنى الأعشى في قوله:

لو أطعموا المنّ والسلوى مكانهم ما أبصر الناس طعماً فيهم نجعا[٢]

وجعله أمية بن أبي الصلت في شعره عسلاً فقال:

ورأى الله أنّهم بمضيع لا بذي مزرع ولا معمورا[٣]
فنساها عليهم غاديات ومرى مزنهم خلايا وخورا[٤]

---

١. رواه أحمد والشيخان والترمذي من حديث سعيد بن زيد، ورواه أحمد والشيخان وابن ماجة من حديث أبي سعيد وجابر.

٢. ديوانه. ومن قصيدة طويلة يمدح بها ذا التاج هوذة بن عليّ الحنفي صاحب اليمامة. الطعم: مأكل من الطعام. ونجع الطعام في الإنسان: استمرأه آكله وصلح عليه.

٣. ديوانه، يقال: هو بدار مضيعة كأنّه فيها ضائع. مزرع مصدر ميمي من زرع يعني ليس بذي زرع. معمور آهل ونصب معموراً عطفاً على بذي مزرع.

٤. فنساها من نسأها، ونسأ الدابة زجرها وساقها. غاديات جمع غادية وهي السحابة التي تنشأ غدوة. ومرى الناقة مرأ مسح ضرعها لتدر. والمزن جمع مزنة وهي السحابة ذات الماء. وخلايا جمع خلية وهي الناقة التي خليت للحلب لغزارة لبنها. الخور: ابل حمر تميل إلى الغبرة.

عســـلاً ناطفـــاً ومـــاء فراتـــا　　وحليبـــاً ذا بهجـــة مثمـــورا[1]

الناطف: القاطر والصافي من اللبن.

يسقط على بني اسرائيل ممّا منّ الله عليهم أي أحسن به إليهم.

وأما السلوى فقال ابن عباس: هو السماني، وقيل: هو طائر كالسماني وواحده سلوى.

## سبب نزول المنّ والسلوى:

وكان سبب إنزال المنّ والسلوى عليهم أنّه لما ابتلاهم الله تعالى بالتيه، حين قالوا لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[2] فأمرهم بالمسير إلى بيت المقدس، فلما ساروا تاهوا في قدر خمس فراسخ أو ستة، فلمّا أصبحوا ساروا عادين فأمسوا، فإذا هم في مكانهم الّذي ارتحلوا منه فلم يزالوا كذلك، حتى تمت أربعين سنة، تفضل عليهم في تلك الحال، وأحسن إليهم، وأنزل عليهم المنّ والسلوى، وكانت ريح الجنوب تحشره عليهم، قال ابن جريج: كان الرجل إذا أخذ من المنّ والسلوى زيادة على طعام يوم واحد، فسد إلاّ يوم الجمعة فإنّهم إذا أخذوا طعام يومين لم يفسد.

وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: المنّ كان ينزل على بني اسرائيل من بعد طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس فمن نام في ذلك الوقت، لم ينزل عليه نصيبه، فلذلك يكره النوم في هذا الوقت إلى بعد طلوع الشمس.

---

١.ناطف قطر والفرات: أشد الماء عذوبة.

٢.المائدة: ٢٤.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ آية بلا خلاف (٥٨).

وقوله: ﴿هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ إشارة إلى بيت المقدس على قول قتادة، والربيع بن أنس، وقال السدي: هي قرية بيت المقدس، وقال ابن زيد: إنّها أريحا قريب من بيت المقدس.

وقوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ﴾ أي الباب الّذي أمروا بدخولها، وقال مجاهد والسدي: هو باب حطة من بيت المقدس، وهو الباب الثامن، وقيل: باب القبّة التي كان يصلّي إليها موسى، وقال قوم: باب القرية التي أمروا بدخولها، قال أبو عليّ: قول من قال انّه باب القبّة أقوى من قول من قال: إنّه باب القرية، لأنّه لم يدخلوا القرية في حياة موسى، لأنّه قال: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ والعطف بالفاء يدلّ على أنّ هذا التبديل منهم كان في أثر الأمر، فدلّ ذلك على أنّه كان في حياة موسى.

ومعنى قوله: ﴿سُجَّداً﴾ قال ابن عباس: ركّعاً، وهو شدة الانحناء، ومنه السجد من النساء: الفاترات الأعين. وقال الأعشى:

ولهوي إلى حور المدامع سُجّدِ

وقال الآخر:

ترى الأكم منه سجداً للحوافر[١]

وقال غيره: ادخلوا خاضعين متواضعين. قال أعشى قيس:

---

١.البيت لزيد الخيل كما في الأغاني ١٦: ١٤٦ أحد أبيات ثلاثة.

يـــراوح مـــن صلـــوات المليـــ ـــك طوراً سجوداً وطوراً جؤارا[1]

وقوله: ﴿حِطَّةٌ﴾.

قال الحسن، وقتادة وأكثر أهل العلم: معناه حُط عنّا خطايانا، وروي عن ابن عباس أنّه قال: أمروا أن يستغفروا، وروي عنه أيضاً أنّه قال: أمروا أن يقولوا هذا الأمر حقّ كما قيل لكم، وقال عكرمة: أمروا أن يقولوا لا إله إلاّ الله، وكلّ هذه الأقوال محط الذنوب فيرحم بحطّه عنها.

وقوله: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ﴾.

والغفران والعفو، والصفح نظائر، يقال: غفر الله غفراناً، واستغفر استغفاراً واغتفر اغتفاراً، قال أبو العباس: غفر الله لزيد بمعنى ستر غطى له على ذنوبه، والغفران إنّما هو التغطية.

وقوله: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

فالزيادة التي وعدها الله المحسنين، هي تفضّل يعطيه الله المحسنين، يستحقونها بوعده إياهم، وهي زيادة على الثواب الّذي يستحقونه بطاعته تعالى.

وقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً﴾ يعني من هذه القرية، حيث شئتم رغداً أي واسعاً بغير حساب، وقد بيّنا معناه فيما مضى واختلاف الناس فيه.

**قوله تعالى:** ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ آية بلا خلاف (٥٩).

---

١ـ ديوانه: ٤١ من قصيدة تبلغ ٧٠ بيتاً مدح بها قيس بن معد يكرب. راوح: عمل عملين في عمل. والجؤار: رفع الصوت بالدعاء.

معنى قوله: فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا غيروا.

وقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ معناه الذين فعلوا ما لم يكن لهم فعله.

وقوله: ﴿غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني بذلك بدّلوا قولاً غير الّذي أمروا أن يقولوه فقالوا بخلافه، فذلك هو التبديل والتغيير، وكان تبديلهم بالقول أنّهم أمروا أن يقولوا: حطّة، وأن يدخلوا الباب سجداً، وطؤطئ لهم الباب ليدخلوه فدخلوه يزحفون على أستائهم فقالوا: حنطة في شعيرة مستهزئين.

وقوله: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يعني: الذين فعلوا ما لم يكن لهم فعله في تبديلهم بالقول والفعل.

﴿رِجْزاً﴾ والرجز في لغة أهل الحجاز: العذاب، وفي لغة غيرهم: الرجس، لأنّ الرجس الشر، ومنه قوله عليه السلام في الطاعون: إنّه رجس عذّب به بعض الأمم، وهو قول ابن عباس وقتادة، وقال أبو عبيدة: الرجز والرجس لغتان مثل الردع، والسدع والبزاق والبساق، وقال أبو العالية: هو الغضب، وقال أبو زيد: هو الطاعون، فقيل: أنّه مات منهم في ساعة واحدة أربعة وعشرون ألفاً من كبرائهم وشيوخهم وبقي الأبناء وانتقل العلم والعبادة إليهم.

وقوله: ﴿مِنْ السَّمَاءِ﴾ قال قوم: يعني ما قضاه الله عليهم من السماء، وقال آخرون: أراد بذلك المبالغة في علوه بالقهر.

وقوله: ﴿يَفْسُقُونَ﴾ مضمومة السين عليه جميع القرّاء وهو أشهر اللغات، وقد حكي في بعض اللغات بكسر السين.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ

أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ آية واحدة بلا خلاف (٦٠).

قوله: ﴿وَإِذْ﴾ متعلّق بكلام محذوف، ويجوز أن يكون ذلك ما تقدّم ذكره في الآيات المتقدّمة من ضروب نعم الله على بني اسرائيل فكأنّه قال: واذكروا إذ استسقى موسى لقومه أي سأله أن يسقي قومه ماء.

تقول: سقيته من سقى السقة، وأسقيته دللته على الماء، فنزّل منزلة سؤال ذلك، والمعنى الّذي سأل موسى إذا كان فيما ذكر من الكلام الظاهر دلالة على معنى ما ترك، وكذلك قوله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾ من ماء، فاستغنى بدلالة الظاهر على المنزول منه، لأنّ معنى الكلام: قلنا اضرب بعصاك الحجر فضربه فانفجرت منه، فترك ذكر الخبر غير ضرب موسى الحجر إذ كان فيما ذكره دلالة على المراد، وكذلك قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ فترك ذكر منهم لدلالة الكلام عليه.

والانفجار والانشقاق والانبجاس أضيق منه فيكون أولاً انبجاساً، ثم يصير انفجاراً، والعين من الأسماء المشتركة، العين من الماء مشبهة بالعين من الحيوان بخروج الماء منها، كخروج الدمع من عين الحيوان، وقد بيّنا أنّ أناساً لا واحد له من لفظه فيما مضى، وأنّ الإنسان لو جمع على لفظه لقيل أناسين وأناسيه، وقوم موسى هم بنو إسرائيل الّذين قص الله ﷻ قصصهم في هذه الآيات، وإنّما استسقى لهم ربّهم الماء في الحال التي تاهوا فيها في التيه شكوا إليه الظمأ فأمروا بحجر طوراني من الطور، فضربه موسى بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً لكل سبط عين معلومة ماؤها لهم.

وروي عن ابن عباس أنّه قال: ظلّل عليهم الغمام في التيه وأنزل عليهم المنّ والسلوى، وجعل لهم ثياباً لا تبلى ولا تتسخ وجعل بين ظهرانيهم حجر مربع، وروي أنّه كان مثل شكل الرأس، وأمر موسى فضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً في كلّ ناحية منه ثلاثة عيون، ولا يرتحلون مرحلة إلاّ وجدوا ذلك الحجر بينهم في ذلك المكان الّذي كان بينهم في المنزل الأوّل، وقيل: إنّهم كانوا ينقلونه معهم في الجوالق إذا احتاجوا إلى الماء، ضربه موسى بالعصى فيه ففجر منه الماء، وقال قوم: بأنّه أمر بأن يضرب أيّ حجر شاء لا حجراً بعينه، والأوّل أظهر لأنّ فيه لام التعريف.

وقوله: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾.

يعني من النعم التي عدّدها عليهم من المنّ والسلوى وغير ذلك.

وقوله: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

أي لا تطغوا ولا تسعوا في الأرض فساداً، وأصل العثا: شدة الفساد، يقال منه: عثا فلان في الأرض إلى عاثية يعثا، والجماعة يعثون، وفيه لغتان أخريتان:

أحدهما يعثو عثواً، ومن قرأ بهذه اللغة ينبغي أن يضم الثاء، ولم يقرأ به أحد، واللغة الأولى: لغة أهل الحجاز، وقال بنو تميم: عاث يعيث عيثاً وعيوثاً وعيثاناً، بمعنى واحد، قال رؤبة بن العجاج:

عــاث فينـــا مســـتحل عائـــث   مصـــدقٌ أو تـــاجر مقـــاعث[1]

يعني بقوله: عاث فينا أفسد فينا، وقيل: يعثو أصله العيث، فقدّموا بعض الحروف، وأخّروا بعضها، يقال: عثا يعثو، وعاث يعيث وهو الفساد، قال ابن أذينة

---

١. ديوانه. مستحل: استباح الأموال. مصدّق: هو العامل الّذي يجبي الحقوق من المسلمين.

الثقفي: وإنّما قال: ﴿لا تَعْثَوْا فِي الأرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ وإن كان العيث لا يكون إلاّ فساداً، لأنّه يجوز أن يكون فعلاً ظاهره الفساد، وباطنه المصلحة كخرق موسى السفينة، فبين ذلك العيث الّذي هو الفساد ظاهراً وباطناً.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ آية بلا خلاف (٦١).

فإذا ثبت ذلك فكأنّه قال: واذكروا إذ قلتم يا معشر بني إسرائيل، لن نطيق حبس أنفسنا على طعام واحد، وذلك الطعام هو ما أخبر الله عزّ وجلّ إذ أطعمهم في تيههم وهو السلوى في قول أهل التفسير، وفي قول ابن منبه: الخبز النقي مع اللحم، قيل: ادع لنا ربك يخرج لنا ممّا تنبت الأرض من البقل والقثاء، وما سمّاه الله مع ذلك وذكر أنّه سألوه لموسى، وكان سبب مسألتهم ذلك ما رواه قتادة قال: كان القوم في البرية، وقد ظلّل عليهم الغمام، وأنزل عليهم المن والسلوى، فملّوا ذلك وذكروا عيناً كانت لهم بمصر فسألوا ذلك موسى، فقال الله تعالى: اهبطوا مصراً فإنّ لكم ما سألتم.

وإنّما قال ممّا تنبت الأرض، لأنّ من تدخل للتبعيض، ولو لم تدخل ها هنا لكانت المسألة تدخل على جميع ما تنبته الأرض، فأتوا بمن التي نابت مناب البعض حيث قامت مقامه، وفي الناس من قال: إنّ من ها هنا زائدة وأنّها تجري مجرى قولهم: ما جاءني من أحد والصحيح الأوّل، لأنّ من لا تزاد في الايجاب، وإنّما تزاد في النفي، ولأنّ من المعلوم أنّهم ما أرادوا جميع ما تنبته الأرض، وجرى ذلك مجرى قول القائل: أصبت اليوم من الطعام عند فلان، يريد أصبت شيئاً منه.

وقوله: ﴿يُخْرِجْ﴾ جزم جواب الأمر.

وقوله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾. قيل فيه قولان:

أحدهما: الّذي هو أدنى الطعامين بدلاً من أجودهما.

والثاني: الّذي تتبدلون في زراعته وصناعته بما أعطاكم الله عفواً من المنّ والسلوى.

وقرأ بعضهم: أدنى مهموزاً، وقال بعض المفسّرين: لولا الرواية لكان هو الوجه، لأنّه من قولك: رجل دنيء من الدناءة، وما كنت دنيئاً ولكنك دنئت أي خسست، وإذا قرئ بلا همز فمعناه القرب، وليس هذا موضعه، ولكنه موضع الخساسة، ولو كان ما سألوه أقرب إليهم لما سألوه ولا التمسوه، ويجوز أن يجعل أدنى وأقرب بمعنى أدون، كما تقول: هذا شيء مقارب أي دون، وحكى الأزهري عن أبي زيد الداني بلا همز: الخسيس. والدنيء بالهمز: الماجن.

وقوله: ﴿اهْبِطُوا مِصْراً﴾ تقديره: فدعى موسى فاستجبنا له، فقلنا لهم: اهبطوا مصراً، وقد تم الكلام، لأنّ الله أجابهم بقوله: ﴿فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ...﴾ ثم استأنف حكم الذين اعتدوا في السبت، ومن قتل الأنبياء فقال: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾.

وقوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾ استئناف كلام بما فعل الله بهم، يعني بالذين اعتدوا في السبت وقتلوا الأنبياء.

ومعنى ﴿ضربت﴾ أي فرضت ووضعت عليهم الذلّة، والزموها من قول القائل: ضرب الإمام الجزية على أهل الذمة، وضرب فلان على عبده الخراج، وضرب الأمير على الجيش البعث، يريد بجميع ذلك ألزم ذلك، وبه قال الحسن وقتادة، وقيل: معنى ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي حلّوا بمنزلة الذلّ والمسكنة، مأخوذ من ضرب القباب، قال الفرزدق في جرير:

ضربت عليك العنكبوت بنسجها وقضى عليك به الكتاب المنزل[1]

وأمّا ﴿الذِّلَّةُ﴾ فقال الحسن وقتادة وغيره: ﴿يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ ﴿والذلة﴾ مشتق من قولهم: ذلّ فلان يذلّ ذلاً وذلّة.

وأمّا المسكنة: فهي مصدر التسكين، يقال: ما فيهم أسكن من فلان، وما كان سكيناً، ولكن تمسكن تمسكناً.

وقال ابن زيد: المعني يهود بني إسرائيل، أبدلهم الله تعالى بالعز ذلاً، وبالنعمة بؤساً، وبالرضا عنهم غضباً، جزاء منه بما كفروا بآياته، وقتلهم أنبياءه ورسله اعتداءً وظلماً.

وقوله: ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي انصرفوا ورجعوا، ولا يقال: باء إلاّ موصولاً إمّا بخير وامّا بشر، وأكثر ما يستعمل في الشر، كذا قال الكسائي، ويقال: باء بدينه يبوء به بوءاً، ومنه قوله تعالى: ﴿أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ يعني ترجع، بما قد صار عليك دوني، فمعنى الكلام: ارجعوا منصرفين متحملين غضب الله.

---

١. ديوانه ٢: ٧١٤ ط صادر، وانظر الموشح للمرزباني: ١٠٢.

وروي أنّ رجلاً جاء برجل إلى النبيّ ﷺ فقال: هذا قاتل أخي، وهو بواء به أي مقتول به، ومنه قول ليلى الأخيلية:

فـإن تكـن القتلـى بـواء فإنّكـم    فتى ما قتلتم آل عوف بن عامر[١]

وقال الزجاج: أصل ذلك التسوية، ومعنى ذلك أنّهم تساووا بغضب من الله، ومنه ما روي عن عبادة بن الصامت، قال: جعل الله تعالى الأنفال إلى نبيه، فقسمها بينهم على بواء أي على سواء بينهم في القسم، ومنه قول الشاعر:

فيقتـل صبراً بـامرئ لـم يكـن بـه    بـواء ولكـن لا تكايـل بالـدم[٢]

والأصل: الرجوع على ما ذكرناه، وقال قوم: هو الاعتراف، ومعناه أنّهم اعترفوا بما يوجب عليهم غضب الله، ومنه قول الشاعر:

إنّــي أبــوء بعثرتــي وخطيئتــي    ربّـي وهـل إلاّ إليـك المهـرب[٣]

وأمّا الغضب قال قوم: ما حلّ بهم من البلاء والنقمة في دار الدنيا بدلاً من الرخاء والنعمة، وقال آخرون: هو ما بيّنا لهم في الآخرة من العقاب على معاصيهم.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ إشارة إلى ما تقدّم ذكره من ضرب الذلّة والمسكنة، وإحلال غضبه بهم، لأنّه يشتمل على جميع ذلك.

ومعنى ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أي لأجل أنّهم كانوا يكفرون بآيات الله، فعلنا بهم ما فعلنا من أنواع العذاب.

---

١.الأغاني ١٠: ٧١ من قصيدة في رثاء توبة بن حمير ولها مصادر أخرى.

٢.نسب في تاج العروس ٨: ١٨٠ (كيل) إلى امرأة من طيء.

٣.منسوب إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام من قصيدة وعظية في الديوان المنسوب إليه: ٦ – ٧ وشرحه للميبدي: ١٥٩.

وقوله: ﴿يَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ لا يدلّ على أنّه قد يصحّ أن يقتلوهم بحق، لأنّ هذا خرج مخرج الصفة لقتلهم، وأنّه لا يكون إلاّ ظلماً بغير حقّ كما قال: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾[١] وكما قال: ﴿رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾[٢] وكما قال الشاعر:

علـى لاحـب لا يهتـدي بمنـاره

ومعناه ليس هناك منار يهتدى به، ومثله كثير.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ إشارة إلى ما أنزل الله من الذلّة والمسكنة بما عصوا من قتلهم الأنبياء وعدوهم في السبت وغير ذلك، وقيل: معناه نقض العهد، وكانوا يعتقدون في قتل الأنبياء أنّه روي أنّهم كانوا إذا قتلوا النبيّ في أوّل النهار قامت سوق بقتلهم في آخره، وإنّما خلى الله بين الكافرين وقتل الأنبياء، لينالوا من رفيع المنازل ما لم ينالوه بغيره وليس ذلك بخذلان لهم كما فعل بالمؤمن من أهل طاعته.

وقال الحسن: إنّ الله تعالى ما أمر نبياً بالحرب إلاّ نصره، فلم يقتل وإنّما خلى بينه وبين قتل من لم يؤمر بالقتال من الأنبياء، والّذي نقوله: إنّ النبيّ إن كان لم يؤد الشرع، لا يجوز أن يمكّن الله من قتله، لأنّه لو مكّن فقتل لأدّى إلى أن تزاح علل المكلّفين فيما لهم من الألطاف والمصالح، فإذا أدّوا الشرع جاز حينئذٍ أن يخلّي بينهم وبين من قتلهم، لأنّه لا يجب المنع منه، وروى أبو هريرة عن النبيّ ﷺ أنّه قال: اختلف بنو إسرائيل بعد موسى بخمسمائة سنة، حتى كثر منهم أولاد السبايا واختلفوا بعد موسى بمائتي سنة.

---

١.المؤمنون: ١١٧.

٢الأنبياء: ١١٢.

والاعتداء تجاوز الحد الّذي حدّه الله لعباده إلى غيره، وكلّ متجاوز حد شيء إلى غيره فقد تعدّاه إلى ما تجاوز إليه، فمعنى الكلام فعلت بهم من ذلك بما عصوا أمري وتجاوزوا حده إلى ما نهيتم عنه.

**قولـه تعـالى:** ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ آيـــة واحدة (٦٢).

وقوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

تقول: من صدّق بالله وأقرّ بالبعث بعد الممات يوم القيامة وعمل صالحاً وأطاع الله، فلهم أجرهم عند ربّهم يعني ثواب عملهم الصالح، فإن قيل: فأين تمام قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ قيل: تمامه جملة قوله تعالى: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ لأنّ معناه: من آمن منهم بالله واليوم الآخر، وترك ذكر منهم لدلالة الكلام عليه.

ومعنى الكلام: انّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من يؤمن منهم بالله واليوم الآخر، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم.

وقوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾.

وقوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ فوحّد الفعل ثم قال: فلهم أجرهم لأنّ لفظة من وإن كانت واحدة، فمعناها يكون للواحد والجمع والأنثى والذكر، فإن ذهب إلى

اللفظ وحّد، وإن ذهب إلى المعنى جمع، كما قال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ﴾[١] فجمع مرة مع الفعل لمعناه ووحّد أخرى على اللفظ. قال الشاعر:

ألمّا بسلمى عنكما إن عرضتما   وقولا لها عوجي على من تخلفوا[٢]

فجمع الفعل لأنّه جعل من بمنزلة الذين، وربما كان لاثنين وهو أبعد وما جاء فيه قال الفرزدق:

تعال فإن عاهدتني لا تخونني   نكن مثل مَن يا ذئب يصطحبان[٣]

قوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾.

قال السدي: نزلت في سلمان الفارسي، وأصحابه النصارى الذين كان قد تنصر على أيديهم قبل مبعث رسول الله ﷺ، وكانوا قد أخبروه بأنّه سيبعث، وانّهم يؤمنون به إن أدركوه.

وروي عن ابن عباس أنّها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[٤] وهذا بعيد، لأنّ النسخ لا يجوز أن يدخل في الخبر الّذي يتضمّن الوعيد، وإنّما يجوز دخوله فيما طريقه الأحكام الشرعية التي يجوز تغييرها، وقال قوم: إنّ حكمها ثابت، والمراد بها: إنّ الذين آمنوا بأفواههم، ولم تؤمن قلوبهم من المنافقين هم واليهود، والنصارى، والصابئين إذا آمنوا بعد

---

١. يونس: ٤٣.

٢. ديوان امرئ القيس. ومنهم من نسبه لرجل من كندة.

٣. ديوانه من قصيدة قالها عندما استضافه الذئب فأقراه.

٤. آل عمران: ٨٥.

النفاق، وأسلموا عند العناد، كان لهم أجرهم عند ربهم، كما آمن في أوّل الإسلام من غير نفاق ولا عناد، لأنّ قوماً من المسلمين قالوا: إنّ من أسلم بعد نفاقه وعناده كان أجره أقلّ وثوابه أنقص، وأخبر الله بهذه الآية أنّهم سواء في الأجر والثواب.

وأولى الأقاويل ما قدّمنا ذكره، وهو المحكي عن مجاهد والسدي: انّ الذين آمنوا من هذه الأمة، والذين هادوا، والنصارى، والصابئين من آمن من اليهود، والنصارى، والصابئين بالله واليوم الآخر، فلهم أجرهم عند ربّهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، لأنّ هذا أشبه بعموم اللفظ، والتخصيص ليس عليه دليل.

وقد استدلّت المرجئة بهذه الآية على أنّ العمل الصالح ليس من الإيمان، لأنّ الله تعالى أخبرهم عنهم بأنّهم آمنوا، ثم عطف على كونهم مؤمنين أنّهم إذا عملوا الصالحات ما حكمها، قالوا: ومن حمل ذلك على التأكيد أو الفضل، فقد ترك الظاهر، وكلّ شيء يذكرونه ممّا ذكر بعد دخوله في الأوّل ممّا ورد به القرآن نحو قوله: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[1] ونحو قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ ﴾[2] ونحو قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[3] قالوا: جميع ذلك مجاز، ولو خلّينا والظاهر لقلنا إنّه ليس بداخل في الأوّل.

فإن قالوا: أليس الإقرار والتصديق من العمل الصالح؟ فلابدّ لكم من مثل ما قلناه، قلنا عنه جوابان:

---

١.الرحمن: ٦٨.

٢.الأحزاب: ٧.

٣.محمّد: ١.

أحدهما: أنّ العمل لا يطلق إلاّ على أفعال الجوارح، لأنّهم لا يقولون: عملت بقلبي، وإنّما يقولون: عملت بيدي أو برجلي.

والثاني: انّ ذلك مجاز، وتحمل عليه الضرورة، وكلامنا مع الإطلاق.

وقوله: ﴿وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يعني لا خوف عليهم ممّا قدموا عليه من أهوال القيامة، ولا هم يحزنون على ما خلّفوا وراءهم من الدنيا عند معاينتهم ما أعدّ لهم من الثواب، والنعيم المقيم عنده، وقيل: إنّه لا يحزنون من الموت.

**قولـه تعـالى:** ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ آيـة بـلا خلاف (٦٣).

تقديره: واذكروا إذ أخذنا ميثاقكم.

الميثاق: المفعال من الوثيقة امّا بيمين، وامّا بعهد وغير ذلك من الوثائق، والميثاق الّذي أخذه الله هو الّذي ذكره في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾[١] في الآيات التي ذكر بعدها.

ويحتمل أن يكون أراد الميثاق الّذي أخذ الله على الرسل في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾[٢] وقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾[٣] وقد بيّنا أنّ أخذ العهد هو ما نصب لهم

---

١. البقرة: ٨٣.

٢. الأحزاب: ٧.

٣. آل عمران: ٨١.

من الحجج الواضحة، والبراهين الصحيحة الدالة على توحيده وعدله، وصدق أنبيائه ورسله، وأفسدنا ما يقوله أهل الحشو من استخراج الذرية من ظهر آدم، وأخذ العهد عليهم بما لا يحتاج إلى إعادته.

وقوله: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾ قال مجاهد: الطور هو الجبل، وكذلك هو في اللغة. وقال العجاج:

دانى جناحيه من الطور فمرّ   تَقضِّي البازي إذا البازي كسر[١]

وقيل: إنّه اسم جبل بعينه، ناجى الله عليه موسى بن عمران، ذهب إليه ابن عباس وابن جريج، وقيل: إنّه من الجبال التي تنبت دون ما لا تنبت[٢]، رواه الضحاك عن ابن عباس، وقال قتادة: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ﴾ قال: الطور الجبل اقتلعه فرفعه فوقهم، فقال: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ وقال مجاهد: الطور اسم جبل بالسريانية، وقال قتادة: بالعربية.

وقال قوم من النحويين: معنى خذوا تقديره ورفعنا فوقكم الطور وقلنا لكم خذوا ما آتيناكم يعني التوراة بقوة أي بجد ويقين، لا شك فيه وإلا قذفناه عليكم كما تقول: أوجبت عليه قم أي أوجبت عليه فقلت قم، وقال الفرّاء: أخذ الميثاق قول بلا حاجة بالكلام إلى اضمار قول فيكون من كلامين، غير أنّه ينبغي لكلّ ما خالف القول من الكلام الّذي هو بمعنى القول، أن تكون معه أنّ كما قال تعالى: ﴿إنَّا أرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أنْ أنذِرْ قَوْمَكَ﴾[٣] قال: ويجوز حذف أن.

---

١. ديوانه: ١٧ دانى جناحيه: ضم جناحيه. تقضى: أصلها تقضض، وتقضض الطائر: هوى في طيرانه. والبازي: ضرب من الصقور: كسر الطائر جناحيه ضمهما قليلاً يريد النزول.

٢. وهذا معنى اصطلاحي منقول عن ابن عباس كما ترى لا كما توهمه الأستاذ محمود محمّد شاكر في حاشيته على تفسير الطبري ٢، ١٥٧، وهذا نص حاشيته هذا قول لم أجده في كتب اللغة في مادته.

٣. نوح: ١.

ومعنى ﴿مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ أي أعطيناكم لأنّ الإيتاء هو الإعطاء، يعني ما أمرناكم به في التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي بجد ويقين على ما بيّناه، وهو قول ابن عباس وقتادة والسدي، وقال أبو العالية والربيع بن أنس: بطاعة الله، وقال مجاهد: إنّه العمل بما فيه وحكي عن ابن الجران معناه القبول، وقال أبو عليّ: ﴿بِقُوَّةٍ﴾ معناه بالقدرة التي جعلنا فيكم، وذلك دلالة على أنّ القدرة قبل الفعل، ومعنى اذكروا ما فيه قال قوم: احفظوه لا تنسوه، وقال آخرون: اعملوا بما فيه ولا تتركوه، والمعنى في ذلك أنّ ما آتيناكم فيه من وعد ووعيد، وترغيب وترهيب اعتبروا به، واقبلوه وتدبّروه، كي إذا فعلتم ذلك تتقوني وتخافوا عذابي بالإصرار على ضلالتكم، فتنتهوا إلى طاعتي فتنزعوا عما أنتم عليه من المعصية.

**قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ آية (٦٤).

قوله: ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ أعرضتم ووزنه تفعلتم من قولهم ولاني فلان دبره إذا استدبر عنه وجعله خلف ظهره، ثم يستعمل ذلك في كلّ تارك طاعة آمر ومعرض بوجهه، يقال: فلان تولّى عن طاعة فلان، ويتولّى عن مواصلته وصداقته، ومنه قوله: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [١] يعني خالفوا ما وعدوا الله من قوله: ﴿لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنْ الصَّالِحِينَ﴾ [٢].

ونبذوا ذلك وراء ظهورهم فصار معنى الآية أنّكم نبذتم العهد الّذي أخذناه عليكم بعد اعطائكم المواثيق، وكنّى بذلك عن جميع ما تقدّم ذكره في

---

١. التوبة: ٧٦.

٢. التوبة: ٧٥.

الآية، ثم قال: ﴿فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ يعني فلولا أنّ فضل الله عليكم بالتوبة بعد نكثكم الميثاق الّذي واثقتموه إذ رفع فوقكم الطور فاجتهدتم في طاعته، وأداء فرائضه، وأنعم عليكم بالإسلام، وبرحمته التي رحمكم بها، فتجاوز عن خطيئتكم بمراجعتكم طاعة ربكم لكنتم من الخاسرين.

وهذا وإن كان خطاباً لمن كان بين ظهراني مهاجر رسول الله ﷺ فانّما هو خبر عن أسلافهم، فأخرج الخبر مخرج الخبر عنهم، على نحو ما مضى ذكره، وقال قوم: الخطاب في هذه الآية إنّما أخرج باضافة الفعل إلى المخاطبين والفعل لغيرهم لأنّ المخاطبين إنّما كانوا يتولّون من كان فعل ذلك من أوائل بني اسرائيل، فصيّرهم الله منهم، من أجل ولايتهم لهم، وقال بعضهم: إنّما قال لهم ذلك، لأنّ سامعيه كانوا عالمين، وانّ الخطاب خرج مخرج الخطاب للأحياء من بني إسرائيل، وأهل الكتاب ـ وإن كان المعنى في ذلك إنّما هو خبر عمّا مضى من أسلافهم ـ ومثل ذلك قول الشاعر:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة ولم تجدي من أن تقري به بدّا[1]

فقال: إذا ما انتسبنا، وإذا تقتضي من الفعل مستقبلاً، ثم قال: لم تلدني فأخبر عن ماض، لأنّ الولادة قد مضت لأنّ السامع فهم معناه ـ والأوّل أقوى ـ وقال أبو العالية: فضل الله الإسلام ورحمته القرآن.

وقوله: ﴿فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُمْ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾.

لا يدلّ على أنّ الذين خسروا، لم يكن عليهم فضل الله، لأنّ فضل الله شامل لجميع الخلائق، لأنّ ذلك دليل الخطاب، وليس ذلك بصحيح عند الأكثر،

---

١.في معاني القرآن للفرّاء: قائله زائدة بن صعصعة الفقعسي.

والّذي يكشف عن ذلك، أنّ الواحد منّا قد يعطي أولاده وعبيده ويتفضّل على جميعهم ثم يبذّره بعضهم ويبقى فقيراً، ويحفظه آخر فيصير غنياً، ويحسن أن يقول للغني منهم لولا فضلي عليك لكنت فقيراً، ولا يدلّ على أنّه لم يتفضّل على الّذي هو فقير، وإذا كان كذلك كان تأويل الآية أنّه لولا إقداري لكم على الإيمان وازاحة علّتكم فيه حتى فعلتم ايمانكم، لكنتم من الخاسرين، وإنّما جعل الايمان فضلاً فيؤتيه الذين به ينجون ولم يكونوا خاسرين من حيث كان هو الداعي إليه والمقدر عليه، والمرغب إليه.

ويحتمل أن يكون المعنى: ولولا فضل الله عليكم بإمهاله إياكم بعد توليكم عن طاعته حتى تاب عليكم برجوع بعضكم عن ذلك وتوبته لكنتم من الخاسرين.

ويحتمل أن يكون أراد بهذا الفضل في وقت رفع الجبل فوقهم باللطف والتوفيق الّذي تابوا عنده حتى زال عنهم العذاب وسقوط الجبل، ولولا فضل الله لسقط الجبل.

**قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ آية (٦٥).

علمتم أي عرفتم ها هنا، فقوله: علمت أخاك ولم أكن أعلمه: أي عرفته ولم أكن أعرفه كقوله تعالى: ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[1].

يعني لا تعرفونهم الله يعرفهم، والذين نصب لأنّه مفعول به، اعتدوا أي ظلموا وجاوزوا ما حدّ لهم، وكانوا أمروا ألا يعدوا في السبت، وكانت الحيتان

---

١. الأنفال: ٦٠.

تجتمع، لأمنها في السبت فحبسوها في السبت وأخذوها في الأحد، واعتدوا في السبت، لأنّ صيدها هو حبسها، وقال قوم: بل اعتدوا فصادوا يوم السبت، وسمّي السبت سبتاً، لأنّ السبت هو القطعة من الدهر فسمّي بذلك اليوم، هذا قول الزجاج، وقال أبو عبيدة: سمّي بذلك لأنّه يوم سبت خلق فيه كلّ شيء أي قطع وفرغ، وقال قوم: سمّي بذلك لأنّ اليهود يسبتون فيه أي يقطعون الأعمال، وقال آخرون: سمّي بذلك لما لهم فيه من الراحة، لأنّ أصل السبت هو السكون والراحة، ومن ذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً﴾[١]، وقيل للنائم مسبوت لاستراحته وسكون جسده، فسمّي به اليوم لاستراحة اليهود فيه.

وقوله: ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ إخبار عن سرعة فعله ومسخه إياهم، لا أنّ هناك أمراً كما قال للسموات والأرض ﴿اِئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[٢]. ولم يكن هناك قول، وإنّما أخبر عن تسهل الفعل عليه وتكوينه له بلا مشقة بلفظ الأمر.

ومعنى الآية على ما قاله أكثر المفسّرين: انّه مسخهم قردة في صورة القردة سواء، وحكي عن ابن عباس أنّه قال: لم يعش مسخ قط أكثر من ثلاثة أيّام، ولم يأكل ولم يشرب.

وقال مجاهد: إنّ ذلك مثل ضربه الله، كما قال: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾[٣] ولم يمسخهم قردة، وحكي عنه أيضاً أنّه قال: مسخت قلوبهم فجعلت كقلوب القردة لا تقبل وعظاً ولا تقي زجراً، وهذان القولان منافيان لظاهر التأويل لما عليه أكثر المفسّرين من غير ضرورة داعية إليه.

---

١.عم: ٩.

٢.حم – فصلت: ١١.

٣.الجمعة: ٥.

وقوله: ﴿خَاسِئِينَ﴾ أي مبعدون، لأنّ الخاسئ هو المبعد المطرود كما يخسأ الكلب، تقول منه خسأه اخسؤه خسء وخسياً وهو يخسو خسواً، يقال: خسأته فخسأ وانخسأ. قال الراجز:

كالكلب إن قلت له اخسأ انخسأ[١]

أي إن طردته انطرد، وقال مجاهد: معناه اذلاّء صاغرين، والمعنى قريب، وفي هذه الآيات احتجاج من الله تعالى بنعمه المترادفة، واخباراً للرسول عن عناد أسلافهم وكفرهم مرة بعد أخرى مع ظهور الآيات والعلامات، تعزية له ﷺ وتسلية عندما رأى من جحودهم وكفرهم، وليكون وقوفه على ما وقف عليه من اخبارهم حجة عليهم وتنبيهاً لهم، وتحذيراً أن يحلّ بهم ممّا حلّ بمن تقدّمهم من آبائهم وأسلافهم.

**قولـه تعـالى:** ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ آية بلا خلاف (٦٦).

الضمير في قوله: ﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ يحتمل أن يكون راجعاً إلى العقوبة أو القردة فكأنّه قال: جعلنا القردة، أي ما حلّ بها من التشويه وتغيير الخلقة، دلالة على أنّ من تقدّمهم أو تأخّر عنهم، فمن فعل مثل فعلهم يستحق من العقاب مثل الّذي نزل بهم نكالاً لهم جميعاً وموعظة للمتقين أي تحذيراً وتنبيهاً، لكيلا يواقعوا من المعاصي ما واقع أولئك فيستحقوا ما استحقوا ـ نعوذ بالله من سخطه ـ.

ويحتمل أن تكون الهاء راجعة إلى الحيتان، ويحتمل أن تكون راجعة إلى القرية التي أعتدوا أهلها فيها، ويحتمل أن تكون الهاء راجعة إلى الأمة الذين اعتدوا وهم أهل ايلة قرية على شاطئ البحر، وروي ذلك عن أبي جعفر عليه السلام.

---

١.لسان العرب: خسأ. وروايته: ان قيل له.

وقوله: ﴿نَكَالاً﴾ قال ابن عباس: عقوبة، وقال غيره: ينكل بها من يراها، وقيل: انّها شهرة، لأنّ النكال الاشتهار بالفضيحة، ذكر ذلك الجبائي وليس بمعروف.

والنكال الارهاب للغير وأصله المنع، لأنّه مأخوذ من النكل وهو القيد، وهو أيضاً اللجام وكلاهما مانع.

وقوله: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ روي عن عكرمة عن ابن عباس: أنّه أراد ما بين يديها وما خلفها من القرى، وروي عن الضحاك عن ابن عباس أنّه أراد ما بين يديها يعني من بعدهم من الأمم، وما خلفها الذين كانوا معهم باقين، وقال السدي: ﴿مَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ من ذنوبها ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ يعني عبرة لمن يأتي بعدهم من الأمم، وقال قتادة: لما بين يديها ذنوب القوم وما خلفها الحيتان التي أصابوها، وقال مجاهد: ما بين يديها ما مضى من خطاياهم، وما خلفها من خطاياهم التي أهلكوا بها ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ خصّ المتقين بها وإن كانت موعظة لغيرهم، لانتفاع المتقين بها دون الكافرين، كما قلناه في غيره، كقوله: ﴿هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾ وأصل النكال العقوبة، تقول: نكل فلان بفلان ينكل تنكلاً ونكالاً. قال عدي بن زيد:

لا يسخط المليك ما يصنع العبـ ـد ولا في نكاله تنكير[1]

وأقوى التأويلات ما رواه الضحاك عن ابن عباس: من انّها كناية عن العقوبة والمسخة التي مسخها القوم، لأنّ في ذلك إشارة إلى العقوبة التي حلّت بالقوم وإن كانت باقي الأقوال أيضاً جائزة.

---

١. يقول: لا يغضب الملك ما يسع عبده من العفو والصفح، وإن عاقب فما في عقوبته ما يستنكر.

**قولـــه تعـــالى:** ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةًۖ قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًاۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ آية بلا خلاف (٦٧).

وهذه الآية فيها توبيخ للمخاطبين من بني اسرائيل في نقض أوائلهم الميثاق، والّذي أخذه الله عليهم بالطاعة لأنبيائه، فقال: واذكروا أيضاً من نكثهم ميثاقي إذ قال موسى لقومه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً﴾.

والهزء والسخرية واللعب نظائر. قال الراجز:

قـــد هـــزئت مـــنّي أم طيلســـة　　قالـت أراه معـدماً لا شـيء لـه[1]

أي سخرت ولعبت، ولا يجوز أن يقع من أنبياء الله ﷻ فيما يؤدونه هزو ولا لعب، وظنوا في أمره إياهم عن الله بذبح البقرة ـ عند تدارئهم في القتيل ـ أنّه هازئ لاعب ولم يكن لهم ذلك.

وحذفت الفاء من قوله: أتتخذنا هزواً ـ وهو جواب ـ لاستغناء ما قبله من الكلام عنه وحسن السكوت على قوله: إنّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، فجاز لذلك اسقاط الفاء من قوله، فقالوا كما حسن اسقاطها في قوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا﴾[2] ولم يقل فقالوا، ولو قيل بالفاء لكان حسناً.

---

١ـ قائله صخير بن عمير التميمي، ومنهم من نسب القصيدة كلّها للأصمعي. أمالي القالي ٢: ٢٨٤. وروايته: تهزأ مني أخت آل طيسلة.

٢ـ الذاريات: ٣١ – ٣٢.

ولو كان ذلك على كلمة واحدة لم تسقط منه الفاء، ألا ترى أنّك إذا قلت: قمت ففعلت، لم يجز اسقاط الفاء لأنّها عطف لا استفهام يوقف عليه.

فقال موسى حينئذٍ: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، يعني السفهاء الذين يردّون على الله الكذب والباطل.

وكان السبب في أمر موسى لقومه بذبح البقرة ما ذكره المفسّرون أنّ رجلاً من بني إسرائيل كان غنياً، ولم يكن له ولد وكان له قريب يرثه، قيل انّه أخوه، وقيل أنّه ابن أخيه، وقيل ابن عمه، واستبطأ موته فقتله سراً وألقاه في موضع بعض الاسباط وادّعى قتله على أحدهم، فاحتكموا إلى موسى فسأل من عنده من ذلك علم؟ فقال: أنت نبيّ الله وأنت أعلم منّا، فقال: انّ الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، فلمّا سمعوا ذلك منه وليس في ظاهره جواب عمّا سألوا عنه، قالوا: اتتخذنا هزواً؟ قال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، لأنّ الخروج عن جواب السائل المسترشد إلى الهزء جهل.

وقال بعضهم: وإنّما امروا بذبح البقرة دون غيرها لأنّها من جنس ما عبدوه من العجل ليهون عليهم ما كانوا يرونه من تعظيمهم، وليعلم باجابتهم زوال ما كان في نفوسهم من عبادته، والبقرة اسم الأنثى والثور للذكرمثل ناقة وجمل، وامرأة ورجل، فيكون تأنيثه بغير لفظه.

والبقرة مشتق من الشق، يقولون: بقر بطنه إذا شقه، لأنّها تشق الأرض في الحرث.

**قوله تعالى:**﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُواْ مَا تُؤْمَرُونَ﴾ آية (٦٨).

الفـارض: الكبيـرة المسـنة، وبـه قـال الجمهـور، يقـال منـه: فرضـت البقـرة تفرض فروضاً، وفرضت تفرض فراضة: إذا أسنت. قال الشاعر:

لعمري لقد أعطيت جارك فارضا　　تساق إليه ما تقوم على رجـل[١]

وقيل: إنّ الفارض التي قد ولدت بطوناً كثيرة، فيتسع لذلك جوفها، لأنّ معنـى الفـارض فـي اللغـة الواسـع، وهـو قـول بعـض المتـأخرين، واستشـهد بقـول الراجز:

يـا رُبّ ذي ضِغنٍ علـيّ فـارض　　لــه قــروءٌ كقــروء الحائــض[٢]

والبكر: الصغيرة التي لم تحمل، والبكر من اناث البهائم وبني آدم ما لـم يفتحله الفحل ـ مكسورة الباء ـ والبكر ـ بفتح الباء ـ الفتي من الإبل.

والعـوان: النصـف التـي قـد ولـدت بطنـاً أو بطنين، قـال الفـرّاء: يقـال مـن العوان عوّنت المرأة تعويناً ـ بالفتح والتشديد ـ وعونت إذا بلغت ثلاثين سنة.

وقال أبو عبيدة: إنّما قال: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ ولم يقل بينهما، لأنّه أخرجه على لفظة واحدة، على معنى هذا الكلام الّذي ذكرناه. قال رؤبة في صفة العير:

فيـه خطـوط مـن سـواد وبلـق　　كأنّهـا فـي الجلـد توليع البهـق[٣]

قال أبو عبيدة: إن أردت الخطوط فقل: كأنّها، وإن أردت السواد والبلق فقل: كأنّهما، فقال: كان ذلك وذاك، قال الفرّاء: إنّما يصحّ أن يكنى عن الاثنين

---

١. قائله علقمة بن عوف. اللسان (فرض) وروايته: ضيفك بدل جارك ونجر بدل تساق. وفي شواهد الكشاف: ٢١٧ نسبه لخفاف بن ندبة.

٢. اللسان: (فرض). وروايته: يا رب مولى حاسد مباغض.

٣. اللسان: (بهق) وروايته الجسم بدل الجلد.

بقولهم ذاك في الفعلين خاصة، ولا يجوز في الاسمين، ألا ترى أنّهم يقولون: إقبالك وإدبارك يشق عليَّ، لأنّهما مشتقان من فعل، ولم يقولوا: أخوك وأبوك يزوروني حتى تقول يزوراني، وقال الزجاج تقول: ظننت زيداً قائماً فيقول القائل ظننت ذلك وذاك. قال الشاعر في صفة العوان:

خـرجن عليـه بـين بكـر عـويرة     وبـين عـوان بالعمامـة ناصـف

بين ذلك يعني بين الكبيرة والصغيرة، هو أقوى ما يكون من البقر وأحسنه، قال الأخطل:

ومـا بمكـة مـن شـمطٍ محفّلـة     ومـا بيثـرب مـن عـون وابكـار[1]

**قولـه تعـالى:** ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ آيـة بـلا خلاف (٦٩).

ومعنى الآية: انّ قوم موسى قالوا: يا موسى أدع لنا ربك يبيّن لنا ما لون البقرة التي أمرنا بذبحها.

وأما قوله: ﴿صَفۡرَآءُ﴾ قال الحسن: المراد به سوداء شديدة السواد، تقول العرب: ناقة صفراء أي سوداء، قال الشاعر:

---

١. ديوانه: ١٩. وروايته وما بزمزم من شمط محلّقة... يقصد حالقين رؤوسهم وقد تحللوا من احرامهم: أي قضوا حجهم، الشمط ج اشمط: وهو الّذي خالط سواد شعره بياض الشيب وشمط محفله يقال منه: رجل ذو حفيل، وذو حفلة: ذو جد واجتهاد. فعلى ما اثبته الشيخ ﷺ المعنى: أنّهم جادون في العبادة.

تلـك خيلـي منـه وتلـك ركـابي     هـنّ صـفر ألوانهـا كالزبـيب[١]

يعني ركابي هنّ سود، غير أنّ هذا وإن وصفت به الابل، فليس ممّا توصف به البقر مع أنّ العربَ لا تصف السواد بالفقوع، وإنّما تصفه بالشدة وبالحلوكة ونحوها تقول: أسود حالك وحائك وحنكوك وغربيب ودجوجي، ولا تقول: فاقع، وقال أكثر المفسّرين: إنّها صفراء اللون من الصفرة المعروفة وهذا الصحيح، لأنّه الظاهر، ولأنّه قال: ﴿فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ وهو الصافي ولا يوصف السواد بذلك ـ على ما بيّناه ـ فأمّا ما ابيض فيؤكدونه بأنّه ناصع، واخضر ناضر وأصفر فاقع.

وقال سعيد بن جبير: المعنى في الآية بقرة صفراء القرن والظلف.

وقال مجاهد: صفراء اللون كلّه، وهو الظاهر لأنّه قال: فاقع لونها، فوصف جميع اللون بذلك، وقال ابن عباس: أراد بذلك صفراء شديدة الصفرة، وقال غيره: خالص.

وقال أبو العالية وقتادة: الصافي.

وقوله: ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ فالسرور: ما يسرّ به القلب، والفرح ما فرحت به العين، وقيل: معناه تعجب الناظرين، ومن القرّاء من اختار الوقف على قوله: ﴿صَفْرَاءُ﴾ والصحيح أنّ الوقف إنّما يجوز عند تمام النعت كلّه، وقال قوم: التمام عند قوله: ﴿فَاقِعٌ﴾ ويقال فقع لونها يفقع ـ بالتشديد وضم الياء ـ ويفقع ـ بالتخفيف وفتح الياء ـ فقوعاً إذا خلصت صفرته.

---

١. للأعشى الكبير، ديوانه: ٢١٩، اللسان: (صفر) وروايته أولادها بدل ألوانها. الركاب: الابل التي يسار عليها، والزبيب من العنب معروف.

**قولـه تعـالى:** ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ آية واحدة (٧٠).

والبقر، والباقر، والجامل، والجمال بمعنى واحد، وقرأ بعضهم إنّ الباقر تشابه علينا وهو شاذ. قال الشاعر:

وما ذنبه إن عافت الماء باقر     وما إن تعاف الماء إلاّ لتضربا[١]

وقال آخر:

ما لي رأيتك بعد أهلك موحشا     خلقا كحوض الباقر المتهدم

وقال آخر:

لهم جامل لا يهدأ الليل سامره[٢]

يريد الجمال.

والّذي ذهب إليه ابن جريج وقتادة، ورووه عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ أنّهم أمروا بأدنى بقرة لكنّهم لمّا شدّدوا على أنفسهم، شدّد الله عليهم، وأيم الله لو أنّهم لم يستثنوا ما تبينت لهم إلى آخر الدّهر يعني أنّهم لو لم يقولوا وإنّا إن شاء الله لمهتدون بتعريف الله إيانا، وبما شاء له الله من اللطف والزيادة في البيان، وكلّ من اختار تأخير بيان المجمل عن حال الخطاب استدلّ بهذه الآية على جواز ذلك، وسنبيّن ذلك فيما بعد إن شاء الله.

١. هو لميمون بن قيس ـ الأعشى الكبير ـ كما في ديوانه: ٩٠.

٢. اللسان: (جمل) قائله الحطيئة. وصدر البيت: فإن تك ذا مال كثير فإنّهم. وفي ديوانه ذا شاءٍ كثير.

**قولـه تعـالى:** ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُواْ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ آية بلا خلاف (٧١).

المعنى أنّ البقرة التي أمرتكم بذبحها، لا ذلول أي لم يذلّلها العمل باثارة الأرض باظلافها، ولا تسقي الحرث، معناه: ولا يستقى عليها الماء فيسقى الزرع، كما يقال للدابة التي قد ذلّلها الركوب والعمل، تقول: دابة ذلول بيّن الذل ـ بكسر الذال ـ وفي مثله من بني آدم رجل ذليل بيّن الذل والمذلّة، قال الزجاج: يحتمل أن يكون أراد ليست بذلول ولا هي تثير الأرض، ويحتمل أنّها ليست ذلولة ولا مثيرة الأرض، قيل: إنّها كانت وحشية في قول الحسن مسلمة، معناه من السلامة، يقال منها سلمت تسلم، فهي مسلمة من الشية.

لا شية فيها: لا بياض فيها ولا سواد، وقال قتادة: مسلمة من العيوب، وبه قال الربيع.

وقال ابن جريج: لا عوان فيها، قال المؤرج: لا شية فيها أي لا وضح فيها بلغة ازدشنوه، والّذي قال أهل اللغة ﴿لا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي لا لون يخالف لون جلدها وأصله: وشى الثوب.

ومعنى قوله: ﴿الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: الآن بيّنت الحقّ، وهو قول قتادة، وهذا يدلّ على أنّه كان فيهم من يشك في أنّ موسى عليه السلام ما بيّن الحقّ.

وقال عبد الرحمان: يريد أنّه حين بيّنها لهم، قالوا هذه بقرة فلان، الآن جئت بالحقّ، وهو قول من جوّز انّه قبل ذلك لم يجئ بالحقّ على التفصيل ـ وإن أتى به على وجه الجملة ـ وقوله: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: كادوا لا يفعلون أصلاً لغلاء ثمنها، لأنّه حكي عن ابن عباس ومحمد بن كعب أنّهم اشتروها بملء جلدها ذهباً من مال المقتول، وقيل: بوزنها عشر مرات.

والثاني: ما قال عكرمة ووهب: كادوا ألاّ يفعلوا خوفاً من الفضيحة على أنفسهم في معرفة القاتل منهم، قال عكرمة: ما كان ثمنها إلاّ ثلاثة دنانير.

قد استدلّ أصحابنا بهذه الآيات على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب إلى وقت الحاجة.

فإن قالوا: إنّ الله أمرهم بذبح بقرة هذه الصفات كلّها لها، ولم يبيّن ذلك في أوّل الخطاب حتى سألوا عنه وراجعوا فيه، فبيّن حينئذٍ المراد لهم شيئاً بعد شيء، وهذا يدلّ على جواز تأخير البيان.

فإن قيل: ولم زعمتم أنّ الصفات المذكورة في البقرة الأولى التي أمروا بذبحها، وما الّذي تنكرون أنّهم امروا بذبح البقرة أيّ بقرة كانت، فلما راجعوا تغيّرت المصلحة فأمروا بذبح بقرة أخرى هي لا فارض ولا بكر، فلما راجعوا تغيّرت المصلحة، فأمروا بذبح بقرة صفراء فاقع لونها، فلمّا راجعوا تغيّرت المصلحة فأمروا بذبح بقرة لا ذلول تثير الأرض ولا تسقي الحرث مسلّمة لا شية فيها، وإنّما يصحّ لكم لو كانت الصفات المذكورة كلّها مرادة في البقرة الأولى.

قلنا: هذا باطل، لأنّ الكناية في قوله: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ﴾ لا يجوز أن تكون كناية إلاّ عن البقرة التي تقدّم ذكرها وأمروا بذبحها، لأنّه لم يجر في الكلام ما يجوز أن تكون هذه الكناية عنه إلاّ البقرة، ويجري ذلك مجرى أن يقول واحد لغلامه: أعطني تفاحة، فيقول الغلام: ما هي بيّنها؟ فلا يصرف واحد من العقلاء هذه الكناية إلاّ إلى التفاحة المأمور بإعطائه إياها.

ثم يقال بعد ذلك: انّها بقرة لا فارض ولا بكر، وقد علمنا أنّ الهاء في قوله: انّه يقول كناية عنه تعالى، لأنّه لم يتقدّم ما يجوز أن يكون كناية عنه إلاّ اسمه تعالى، وكذا يجب أن يكون قوله انّها كناية عن البقرة المتقدّم ذكرها وإلاّ فما الفرق بين الأمرين؟ وكذلك الكلام في الكناية الثانية والثالثة سواء، ولا خلاف بين المفسّرين انّ الكناية في الآية من أولها إلى آخرها كناية عن البقرة المأمور بها في الأوّل.

وقالت المعتزلة: إنّها كناية عن البقرة التي تعلّق التكليف المستقبل بها.

ولا خلاف بين المفسّرين أنّ جميع الصفات المذكورات للبقرة أعوز اجتماعها للقوم حتى توصلوا إلى اجتماع بقرة لها هذه الصفات كلّها بملء جلدها ذهباً.

وروي أكثر من ذلك، ولو كان الأمر على ما قاله المخالف لوجب أن لا يعتبروا فيما يبتاعونه إلاّ الصفات الأخيرة دون ما تقدّمها، وتلغى الصفات المتقدّمة، اجماعهم على أنّ الصفات كلّها معتبرة، دليل على أنّ الله تعالى أخّر البيان.

فإن قيل: لم عنّفوا على تأخيرهم امتثال الأمر الأوّل مع أنّ المراد بالأمر الأوّل تأخر؟ ولم قال: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾؟

قلنا: ما عنّفوا بتأخير امتثال الأمر الأوّل: وليس في الظاهر ما يدلّ عليه، بل كان البيان يأتي شيئاً بعد شيء كما طلبوه من غير تعنيف، فلا قول يدلّ على أنّهم بذلك عصاة.

فأمّا قوله في آخر القصة: ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾.

فإنّما يدلّ على أنّهم كادوا يفرّطون في آخر القصة، وعند تكامل البيان، ولا يدلّ على أنّهم فرطوا في أوّل القصة.

ويقوي ذلك قوله تعالى بعد جمع الأوصاف: ﴿الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أي جئت به على جهة التفصيل، وإن كان جاءهم بالحقّ مجملاً، وهذا واضح بحمد الله، وقد استوفينا الكلام في هذه الآية وغيرها في العدّة في أصول الفقه ما لا مزيد عليه.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ آية (٧٢).

تقدير الآية: واذكروا إذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها، وهو عطف على قوله: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ وهو متقدّم على قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ لأنّهم إنّما أمروا بذبح البقرة بعد تدارئهم في أمر المقتول.

ومعنى ادارأتم: اختلفتم وأصله تدارأتم، فادغمت التاء في الدال بعد أن سكنت، وجعلوا قبلها ألفاً لتمكن النطق بها، قال أبو عبيدة: ادارأتم بمعنى اختلفتم فيها، من التدارؤ، ومن الدرء، وقيل الدراء: العوج أي اعوججتم عن الاستقامة، ومنه قول الشاعر:

فنكّب عنهم درء الأعادي وداووا بالجنون من الجنون[١]

أي اعوجاج الأعادي، وقال قوم: الدرء المدافعة، ومعناه تدافعتم في القتل، ومنه قوله: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾. وقال رؤبة بن العجاج:

أدركتها قدام كلّ مدره بالدفع عنّي درء كلّ عنجه[٢]

١. شرح الحماسة للمرزوقي ١: ٣٩ من أبيات سبعة منسوبة إلى أبي الغول الطهوي.

٢. أمالي القالي ٢: ٩٤ – ٩٥. المدره: هو المدافع. العنجه: ذو الكبر والعظم. ومنه العنجهية.

ويقـال: فـلان لا يـداري ولا يمـاري أي لا يخـالف، ومنـه قولـه: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ أي مظهر ما كنتم تسرون من القتل.

**قـولــــه تعــــالى:** ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ آية بلا خلاف (٧٣).

روي ابن سيرين عن أبي عبيدة السلماني قال: كان رجل من بني اسرائيل عقيماً وله مال كثير، فقتله وارثه وجرّه، فقدّمه على باب أناس آخرين، ثم أصبح يدّعيه عليهم حتى تسلح هؤلاء وهؤلاء، وأرادوا أن يقتتلوا، فقـال ذووا النهى: أتقتتلون وفيكم نبيّ الله؟ فأمسكوا حتى أتوه، فأمرهم أن يذبحوا بقرة، فيضربوه ببعضها، فقالوا: أتتخذنا هزواً؟ قال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، قال: فوجدوها عند رجل فقال: لا أبيعها إلاّ بملء جلدها ذهباً، وكان باراً بأبيه، فعوّضه الله عن ذلك وجازاه عن برّه بأبيه، إذ باع البقرة بملء جلدها ذهباً فضربوه ببعضها فتكلم فقال: قتلني فلان، ثم عاد ميتاً فلم يورّث قاتل بعده.

واختلفوا (في البعض من البقرة المضروب به القتيل) فقال الفرّاء: ضرب بذنبها، وقال البعض: أقلّ من النصف، وقال ابن زيد: ضرب ببعض ارابها، وقال أبو العالية: ضرب بعظم من عظامها، وقال السدي: ضرب بالبضعة التي بين الكتفين.

وقال مجاهد وعكرمة وقتادة: ضرب بفخذ البقرة، والهاء في قوله فاضربوه كناية عن القتيل، والهاء في قوله: ببعضها كناية عن البقرة. وهذه الأقاويل كلّها محتملة الظاهر.

والمعلوم أنّ الله تعالى أمر أن يضرب القتيل ببعض البقرة، ولا يضرّ الجهل بذلك البعض بعينه، وإنّما أمرهم بذلك لأنّهم إذا فعلوه احيي الميت،

فيقول: فلان قتلني فيزول الخلف والتدارؤ بين القوم، والقديم تعالى وإن كان قادراً على الإحياء من دون ذلك فإنّ هذا أظهر، والاخبار به أعجب لأنّه معجز خارق للعادة.

والتقدير في الآية: فقلنا اضربوه ببعضها فضربوه فحيي، كما قال: ﴿اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ﴾ تقديره فضرب فانفلق، وكذلك قوله: ﴿يُحْيِ الْمَوْتَى﴾ فيه اضمار كأنّه قال: فقلنا اضربوه ببعضها فحيي كذلك يحيي الله الموتى، أي اعلموا أنّ ما عاينتموه أنّ الله قادر على أن يحيي الموتى للجزاء، والحساب الّذي أوعدكم به، ولما ضربوه ببعض البقرة أحياه الله تعالى، فقال: قتلني ابن أخي ثم قبض. وكان اسمه عاميل، فقال بنو أخيه: والله ما قتلناه وكذبوا الحقّ بعد معاينته، وإنّما جعل سبب احيائه الضرب بموات لا حياة فيه، لئلا يلتبس على ذي شبهة أنّ الحياة انتقلت إليه ممّا ضرب به لتزول الشبهة، وتتأكد الحجة.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ يحتمل أن يكون حكاية عن قول موسى لقومه، ويحتمل أن يكون خطاباً من الله تعالى لمشركي قريش.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لتعقلوا، وقد كانوا عقالاً قبل ذلك، لأنّ من لا عقل له لا تلزمه الحجة، لكنه أراد تنبيههم، وأن يقبلوا ما يدعون إليه، ويطيعوه ويعرفوه حقّ معرفته.

**قوله تعالى:** ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ آية واحدة بلا خلاف (٧٤).

قرأ ابن كثير وحده ها هنا عما يعملون بالياء والباقون بالتاء.

الخطاب بقوله: ﴿قُلُوبُكُمْ﴾ قيل فيمن يتوجه إليه قولان:

أحدهما: أنّه أريد بنو أخي المقتول حين أنكروا قتله بعد أن سمعوه منه عند احياء الله تعالى له أنّه قتله فلان، هذا قول ابن عباس.

والثاني: قول غيره أنّه متوجه إلى بني اسرائيل كلهم، قال: وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد آيات الله كلّها التي أظهرها على يد موسى، وعلى الوجه الأوّل يكون ذلك إشارة إلى الاحياء.

ومعنى ﴿قَسَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي غلظت ويبست وعتت.

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي من بعد احياء الميت لكم ببعض من أعضاء البقرة بعد أن تدارأوا فيه وأخبرهم بقاتله، والسبب الّذي من أجله قتله، وهذه آية عظيمة كان يجب على من شاهد هذا أن يخضع ويلين قلبه.

ويحتمل أن يكون من بعد احياء الميت، والآيات الأخرى التي تقدّمت كمسخ القردة والخنازير ورفع الجبل فوقهم وانبجاس الماء من الحجر وانفراق البحر وغير ذلك، وإنّما جاز ذلك وإن كانوا جماعة، ولم يقل ذلكم لأنّ الجماعة في معنى الجمع والفريق، فالخطاب في لفظ الواحد ومعناه جماعة.

قوله: ﴿فهي كالحجارة﴾ يعني قلوبهم، فشبّهها بالحجارة في الصلابة واليبس والغلظ والشدة أي أشد صلابة، لامتناعهم بالاقرار اللازم من حقه الواجب من طاعته بعد مشاهدة الآيات، ومعنى ﴿أوْ﴾ في الآية يحتمل أمور:

أحدها: ذكره الزجاج فقال: هي بمعنى التخيير كقولك: جالس الحسن أو ابن سيرين أيهما جالست جائز، فكأنّه قال: إن شبّهت قلوبهم بالحجارة جاز، وإن شبّهتها بما هو أصلب كان جائزاً.

والثاني: أن تكون ﴿أو﴾ بمعنى الواو، وتقديره فهي كالحجارة وأشدّ قسوة، كما قال: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾[١] ومثله قول جرير:

نـال الخلافـة أو كانـت لـه قـدراً    كما أتى ربه موسى عـلى قـدر[٢]

وقال توبة ابن الحمير:

وقـد زعمـت ليـلى بـأنّي فاجـر    لنفسـي تقاها أو عليها فجورها[٣]

أي وعليها، ومثله قوله تعالى: ﴿وَلا يُبْدِيـنَ زِينَتَـهُنَّ إِلاَّ لِبُعُـولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ...﴾ الآية[٤].

والثالث: أن يكون المراد الابهام على المخاطبين كما قال أبو الأسود الدؤلي:

أحـب محمـّداً حبـاً شـديـداً    وعباسـاً وحمـزة والوصيـا

فـإن يـك حبهم رشـداً أصِبه    ولست بمخطئ إن كان غيا[٥]

وأبو الأسود لم يكن شاكاً في حبهم ولكن أبهم على من خاطبه.

وقيل لأبي الأسود حين قال ذلك: شككت؟ قال كلاّ، ثم استشهد بقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[٦] أفتراه كان شاكاً حين أخبر بذلك.

---

١.الصافات: ١٤٧.

٢.ديوانه ١: ١٢٤ والممدوح هو عمر بن عبد العزيز. وروايته إذ كانت.

٣.الأغاني ١٠: ٦٥ وغيرها.

٤.النور: ٣١.

٥.ديوانه: ٣٢، والأغاني ١: ١١٣ ورواية الديوان وفيهم أسوة ان كان غياً.

٦.سبأ: ٢٤.

والرابع: أن يكون أراد بل أشد قسوة، ومثله ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ أي بل يزيدون، ولا تكون بل للاضراب عن الأوّل بل مجرد العطف.

والخامس: أنّها كالحجارة، أو أشد قسوة عندكم.

والسادس: أن يكون أراد مثل قول القائل أطعمتك حلواً وحامضاً وقد أطعمه النوعين جميعاً، وهو أنّه لم يشك أنه أطعمه الطعمين معاً، فكأنّه قال: فهي كالحجارة أو أشد قسوة، ومعناه أنّ قلوبهم لا تخرج من أحد هذين المثلين امّا أن تكون مثلاً للحجارة القسوة وامّا أن تكون أشد منها، ويكون معناه على هذا بعضها كالحجارة قسوة وبعضها أشد قسوة من الحجارة، وكلّ هذه الأوجه محتملة وأحسنها الابهام على المخاطبين.

ولا يجوز أن يكون المعنى الشك، لأنّ الله تعالى عالم لنفسه لا يخفى عليه خافية، وكذلك في أمثال ذلك نحو قوله: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ وغير ذلك وأنشدوا في معنى (أو) يراد به (بل) قول الشاعر:

بدت مثل قرن الشمس في رونق الضحى ... فصورتها أو أنت في العين أملح

وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ﴾.

معناه أنّ من الحجارة ما هو أنفع من قلوبهم القاسية، يتفجر منها أنهار، وانّ منها لما يهبط من خشية الله، والتقدير أنّ من الحجارة حجارة يتفجر منها أنهار الماء فاستغنى بذكر الأنهار عن ذكر الماء، وكرّر قوله (منه) للفظ (ما).

وقوله: ﴿فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء﴾.

يعني فيخرج منه الماء فيكون عيناً نابعة لا أنّها جارية حتى يكون مخالفاً للأوّل، وقال الحسين بن عليّ المغربي: الحجارة الأولى حجارة الجبال تخرج منها الأنهار، والثانية حجر موسى الّذي ضربه فانفجر منه عيون، فلا يكون تكراراً.

وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾.

قال أبو عليّ والمغربي: معناه بخشية الله، كما قال: يحفظونه من أمر الله أي بأمر الله، قال: وهي حجارة الصواعق والبرد، والكناية في قوله منها قيل فيها قولان:

أحدهما: أنّها ترجع إلى الحجارة، لأنّها أقرب مذكور.

وقال قوم: إنّها ترجع إلى القلوب لا إلى الحجارة، فيكون معنى الكلام وانّ من القلوب لما يخضع من خشية الله، ذكره ابن بحر وهو أحسن من الأوّل.

ومن قال بالأوّل اختلفوا فيه، فمنهم من قال: إنّ المراد بالحجارة الهابطة البرد النازل من السحاب وهذا شاذ، لم يذكره غير أبي عليّ الجبائي.

وقال الأكثر: إنّ المراد بذلك الحجارة الصلبة، لأنّها أشد صلابة، وقالوا في هبوطها وجوهاً:

أحدها : انّ هبوط ما يهبط من خشية الله تفيئ ظلاله.

وثانيها : أنّه الجبل الّذي صار دكاً لما تجلّى له ربّه.

وثالثها : قاله مجاهد: إنّ كلّ حجر تردى من رأس جبل فهو من خشية الله.

ورابعها: أنّ الله تعالى أعطى بعض الجبال المعرفة، فعقل طاعة الله تعالى، فأطاعه كالذي روي في حنين الجذع.

وما روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: إنّ حجراً كان يسلّم عليّ في الجاهلية إنّي لأعرفه الآن.

وهذا الوجه فيه ضعف، لأنّ الجبال إن كان جماداً، فمحال أن يكون فيه معرفة الله، وإن كان عارفاً بالله وبنيته بنية الحي فإنّه لا يكون جبلاً، وأمّا الخبر عن

النبيّ عليه السلام فهو خبر واحد، ولو صح لكان معناه أنّ الله تعالى أحيا الحجر فسلّم على النبيّ صلى الله عليه وآله، ويكون ذلك معجزاً له عليه السلام، وأمّا حنين الجذع فإنّ الله تعالى خلق فيه الحنين، فكان بذلك خارقاً للعادة، لأنّه إذا استند إليه النبيّ صلى الله عليه وآله سكن وإذا تنحى عنه حنّ.

وقال قوم: يجوز أن يكون الله تعالى بنى داخله بنية حي، فصح منه الحنين.

وقال قوم: معنى ﴿يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ إنّه يوجب الخشية لغيره بدلالته على صانعه، كما قيل: ناقة ناجرة إذا كانت من نجابتها وفراهتها، تدعو الناس إلى الرغبة فيها، كما قال جرير بن عطية:

وأعور من نبهان أمّا نهاره ... فأعمى وأمّا ليله فبصير[١]

فجعل الصفة لليل والنهار، وهو يريد صاحبه النبهاني الّذي يهجوه بذلك من أجل أنّه كان فيهما على ما وصفه به.

والّذي يقوى في نفسي أنّ معنى الآية الابانة عن قساوة قلوب الكفّار، وانّ الحجارة ألين منها، لو كانت تلين لشيء للانت وتفجّرت منها الأنهار، وتشقّقت منها المياه، وهبطت من خشية الله، وهذه القلوب لا تلين مع مشاهدتها الآيات التي شاهدتها بنو إسرائيل، وجرى ذلك مجرى ما يقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[٢] ومعناه لو أنزلنا هذا القرآن على جبل، وكانت الجبال ممّا تخشع لشيء ما، لرأيته خاشعاً

---

١. ديوانه: ٢٠٦.

٢. الحشر: ٢١.

متصدعاً، وكقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ﴾[١] إلى آخرها سواء، وادخلت هذه اللامات فيها تأكيداً للخبر.

والمعنى في الآية: أنّه تعالى لمّا أخبر عن بني إسرائيل وما أنعم عليهم به، وأراهم من الآيات وغير ذلك، فقال مخبراً عن عصيانهم وطغيانهم: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ ثم أخبر تعالى أنّه لا امتناع عند الحجارة ممّا يحدث فيها من أمره، وإن كانت قاسية، بل هي متصرّفة على مراده لا يعدم شيء ممّا قدر فيها، وبنو إسرائيل مع كثرة نعمه عليهم، وكثرة ما أراهم من الآيات، يمتنعون من طاعته، ولا تلين قلوبهم لمعرفة حقه، بل تقسو وتمتنع من ذلك.

وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ أي عند ما يحدث فيها من الآية الهائلة كالزلازل وغيرها، وأضاف الخشية إلى الحجارة وإن كانت جماداً على مجاز اللغة والتشبيه، والمعنى في خشوع الحجارة أنّه يظهر فيها ما لو ظهر في حي مختار قادر، لكان بذلك خاشعاً، وهو ما يرى من حالها، وأنّها منصرفة لامتناع عندها ممّا يراد بها، وهو كقوله: ﴿جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ﴾[٢] لأنّ ما ظهر فيه من الميلان، لو ظهر من حي لدل على أنّه يريد أن ينقض، ليس أنّ الجدار يريد شيئاً في الحقيقة، ومثله ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾[٣] وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ﴾[٤] وقوله: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[٥] وقال زيد الخيل:

---

١.الرعد: ٣١.

٢.الكهف: ٧٧.

٣.الاسراء: ٤٤.

٤.الحجّ: ١٨.

٥.الرحمن: ٦.

بجمع تظل البلق في حجراته ترى الأكم فيه سجداً للحوافر[١]

فجعل ما ظهر في الاكم من آثار الحوافر، وقلّة امتناعها عليها، ومدافعتها لها كما يدافع الحجر الصلب الحديد الصلب سجوداً لها، ولو أنّ الاكم كانت في صلابة الحديد حتى يمتنع من الحوافر، ولا تؤثر فيها، ولا تذهب يميناً ولا شمالاً، ولا تظاهر بكثرة تزداد الحوافر عليها، ما جاز أن يقال أنّها تسجد للحوافر. وقال ابن حمزة:

وعرفت من شرفات مسجدها حجرين طال عليهما القصر

ركب الخلاء فقلت إذ بكيا ما بعد مثل بكاهما صبر

وقال جرير:

لمّا أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشع

فصيّرها متواضعة، والعرب يفهم بعضها مراد بعض بهذه الأشياء، فمن تعلّق بشيء من هذا ليطعن به، فإنّما يطعن على لغة العرب بل على لغة نفسه من أهل أي لغة كان، فإنّ هذا موجود متعارف في كلّ لغة، وعند كلّ جيل.

وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من قرأ بالتاء قال: الخطاب متوجه إلى بني إسرائيل فكأنّه قال: وما الله بغافل يا معشر المكذبين بآياته والجاحدين بنبوة محمّد ﷺ عمّا تعملون، ومن قرأ بالتاء فكان الخطاب لغيرهم والكناية

---

١ـ زيد الخيل بن مهلهل الطائي الفارس المشهور. والبلق جمع ابلق وبلقاء: الفرس المحجلة. والحجرات جمع حجرة: الناحية، والباء بجمع متعلّقة ببيت سابق، هو:

بني عامر هل تعرفون إذا غدا أبو مكنف قد شد عقد الدوابر

راجع الأغاني ١٦: ٥٠.

عنهم، والغفلة عن الشيء تركه على وجه السهو والنسيان، فأخبرهم الله تعالى أنّه غير غافل عن أعمالهم السيئة ولا ساه عنها.

**قولـه تعـالى:** ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ آية بلا خلاف (٧٥).

وهذا خطاب لأمة النبيّ ﷺ فكأنّه قال: أفتطمعون أيها المؤمنون أن يؤمنوا لكم من طريق النظر والاعتبار، ونفي التشبيه، والانقياد للحقّ وقد كان فريق منهم أي ممّن هو في مثل حالهم من أسلافهم يسمعون كلام الله ثم يعلمون أنّه الحقّ، ويعاندون فيحرّفونه ويتأوّلونه على غير تأويله.

وقوله: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ والفريق جمع كالطائفة لا واحد له من لفظه وهو فعيل من الفرق، سمّي به الجمع كما سمّيت الجماعة بالحزب من التحزّب، قال أعشى بن تغلبة:

أجـدوا فلمّـا خفـت أن يتفرّقـوا     فريقين منهم مصعد ومصوب[١]

وقوله: ﴿مِنْهُمْ﴾ يعني من بني إسرائيل، وإنّما جعل الله الذين كانوا على عهد موسى ومن بعده من بني اسرائيل من اليهود الذين قال الله تعالى لأصحاب محمّد ﷺ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم، لأنّهم كانوا آباؤهم وأسلافهم، فجعلهم منهم إذ كانوا عشائرهم وفرقهم وأسلافهم.

---

١ـ ديوانه: ١٣٧. اجد السير: انكمش فيه وأسرع. مصعد: مبتدئ في الصعود إلى نجد والحجاز. ومصوب: منحدر في رجوعه إلى العراق.

وقوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ﴾.

قال قوم منهم مجاهد والسدي: إنّهم علماء اليهود يحرّفون التوراة، فيجعلون الحلال حراماً والحرام حلالاً ابتغاء لأهوائهم واعانة لمن يرشوهم.

وقال ابن عباس والربيع وابن إسحاق والبلخي: إنّهم الذين اختارهم موسى من قومه، فسمعوا كلام الله فلم يمتثلوا أمره، وحرّفوا القول في أخبارهم لقومهم حتى رجعوا إليهم وهم يعلمون أنّهم قد حرّفوا.

وهذا أقوى التأويلين، لأنّه تعالى أخبر عنهم بأنّهم يسمعون كلام الله، والذين سمعوا كلام الله بلا واسطة هم الذين كانوا مع موسى، فأمّا هؤلاء فإنّما سمعوا ما يضاف إلى كلامه بضرب من العرف دون حقيقة الوضع، ومن قال بهذا قال: هم الذين سمعوا كلام الله الّذي أوحى الله إلى موسى.

وقال قوم: هو التوراة التي علمها علماء اليهود.

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ قيل فيه وجهان:

أحدهما: وهم يعلمون أنّهم يحرّفونه.

والثاني: من بعد ما تحقّقوه وهم يعلمون ما في تحريفه من العقاب، والّذي يليق بمذهبنا في الموافاة أن نقول: إنّ معناه وهم يعلمون أنّهم يحرّفونه.

فإن قيل: فلماذا أخبر الله عن قوم بأنّهم حرّفوا وفعلوا ما فعلوا من المعاندة يجب أن يؤيس من ايمان من هو في هذا الوقت، وأيّ علقة بين الموضوعين والحالين؟

قيل: ليس كلما يطمع فيه يؤيس منه على وجه الاستيقان بأنّه لا يكون، لأنّ الواحد من أفناء العامة[1] لا يطمع أن يصير ملكاً، ومع ذلك لا يمكن القطع

---

١.أي لا يعلم ممّن هو.

على كلّ حال انّ ذلك لا يكون أبداً، ولكن لا يطمع فيه لبعده، والله تعالى نفى عنهم الطمع ولم يؤيسهم على القطع والثبات، وإنّما لم يطمع فيهم لبعد ذلك من الوهم منهم مع أحوالهم التي كانوا عليها، وشبّههم بأسلافهم المعاندين، وقد كانوا قادرين على أن يؤمنوا وكان ذلك منه جائزاً.

وهؤلاء الذين عاندوا ـ وهم يعلمون ـ كان قليلاً عددهم، يجوز على مثلهم التواطؤ والاتفاق وكتمان الحقّ، وإنّما يمتنع ذلك في الجمع العظيم والخلق الكثير، لأمر يرجع إلى اختلاف الدواعي، فأمّا على وجه التواطؤ والعمد فلا يمتنع فيهم أيضاً، فيبطل بذلك قول من نسب فريقاً إلى المعاندة دون جميعهم وإن كانوا بأجمعهم كفاراً.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٍ قَالُوٓاْ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمۡۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ آية (٧٦).

هذه الآية فيها اخبار عمّن رفع الله الطمع في ايمانهم من يهود بني إسرائيل الذين كانوا بين أظهرهم فقال: أفتطمعون أيّها المؤمنون أن يؤمنوا لكم، وهم القوم الذين كان فريق منهم يسمعون كلام الله، ثم يحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، وهم الذين اذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنّا أي صدّقنا بمحمّد ﷺ وبما صدّقتم به وأقررنا بذلك، فأخبر الله بأنّهم تخلّقوا بأخلاق المنافقين وسلكوا منهاجهم.

﴿وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي إذا خلا بعض هؤلاء اليهود الذين وصف الله صفتهم، إلى بعض منهم فصاروا في خلاء الناس، وذلك هو الموضع

الّذي ليس فيه غيرهم، قالوا ـ يعني بعضهم لبعض ـ: أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم.

وقال ابن عباس: بما فتح الله عليكم أي بما ألزمكم الله به، فيقول له آخرون: إنّما نستهزئ بهم ونضحك.

وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس انّ معناه قالوا: لا تحدّثوا العرب بهذا، فإنّكم قد كنتم تستفتحون به عليهم، فأنزل الله هذه الآية أي تقرّون بأنّه نبيّ وقد علمتم أنّه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه وهو يخبركم بأنّه النبيّ الّذي كنّا ننتظره ونجده في كتابنا، اجحدوه ولا تقروا به لهم، فقال الله تعالى: ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[1].

وقال أبو العالية: أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم أي بما أنزله في كتابكم من بعث محمّد ﷺ، وبه قال قتادة.

وقال مجاهد: ذلك قول يهود بني قريظة حين سبّهم النبيّ ﷺ بأنّهم أخوة القردة والخنازير، قالوا: من حدّثك بهذا ـ حين أرسل إليهم علياً عليه السلام فاذوا محمداً ﷺ ـ فقال: يا أخوة القردة والخنازير، قال بعضهم لبعض: ما أخبره بهذا إلاّ منكم أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم، ليكون لهم حجة عليكم؟

وقال السدي: هؤلاء ناس آمنوا من اليهود ثم نافقوا، وكانوا يحدّثون المؤمنين من العرب بما عذّبوا به، فقال بعضهم لبعض: أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب ليحاجوكم به، ليقولوا نحن أحب إلى الله منكم وأكرم عليه منكم؟

---

١. البقرة: ٧٧.

ومثله روي عن أبي جعفرعليه السلام وأصل الباب الفتح في لغة العرب: القضاء والنصرة والحكم، يقال: اللّهمّ افتح بيني وبين فلان أي أحكم بيني وبينه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ﴾[١] يعني هذا القضاء، فقال تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾[٢] يعني يوم القضاء. وقال الشاعر:

ألا ابلغ بني عصم رسولا     فاني عن فُتاحتكم غنيّ[٣]

ويقال للقاضي الفتاح، قال الله تعالى: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[٤] يعني احكم به، ويقال: فتح بمعنى علم، فقال: افتح على هذا أي اعلمني بما عندك فيه، وإذا كان معنى الفتح ما وصف فقد بان أنّ معنى الآية: أتحدّثونهم بما حكم الله وقضاه فيكم، ومن حكمه ما أخذ به ميثاقهم من الإيمان بمحمّد صلى الله عليه وآله بما بيّنه في التوراة، ومن قضائه أنّه جعل منهم القردة والخنازير.

فإذا ثبت ذلك فإنّ أقوى التأويلات قول من قال: أتحدّثونهم بما فتح الله عليكم من بعث محمّد صلى الله عليه وآله وصفته في التوراة، وأنّه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى خلقه.

وروي عن أبي جعفرعليه السلام أنّه قال: كان قوم من اليهود ليسوا بالمعاندين المتواطئين، إذا لقوا المسلمين حدّثوهم بما في التوراة من صفة محمّد صلى الله عليه وآله فنهاهم كبراؤهم عن ذلك، وقالوا: لا تخبروهم بما في التوراة من صفة محمّد صلى الله عليه وآله فيحاجوكم به عند ربكم، فنزلت الآية.

---

١.الم السجدة: ٢٨.

٢.الم السجدة: ٢٩.

٣.ينسب للأشعري الجعفي ومحمد بن حمران بن أبي حمران. أمالي القالي: ٢٨١. اللسان: (فتح) وبنو عصم هم رهط عمرو بن معد يكرب الزبيدي.

٤.الأعراف: ٨٩.

ومعنى قوله: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أفلا تفهمون أيها القوم أنّ اخباركم محمّد ﷺ وأصحابه بما تحدّثونهم به، وإقراركم لهم بما تقرّون لهم من وجودكم بعث محمّد في كتبكم، وأنّه نبيّ مبعوث حجة عليكم عند ربّكم يحتجون بها عليكم، وقال أبو عبيدة: ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي بما منّ عليكم وأعطاكم ليحاجوكم به، وقال الحسن: في قوله ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أي في ربّكم فيكونوا أولى منكم إذا كانت حجتهم عليكم، قال الحسن: ثم رجع إلى المؤمنين فقال: ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أيها المؤمنون فلا تطمعوا في ذلك.

**قوله تعالى:** ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ آية بلا خلاف (٧٧).

معناه: أو لا يعلمون أنّ الله يعلم سرهم وعلانيتهم، فكيف يستجيزون أن يسروا إلى اخوانهم النهي عن التحدث بما هو الحقّ وليسوا كسائر المنافقين، وإن كانوا يسرون الكفر فإنّهم غير عالمين بأنّ الله يعلم سرهم وجهرهم، لأنّهم جاحدون له وهؤلاء مقرون، فهم من هذه الجهة ألوم وأعجب شأناً وأشد جزاءً، وقال قتادة في ﴿أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من كفرهم وتكذيبهم محمّداً ﷺ إذا خلا بعضهم إلى بعض ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ إذا لقوا أصحاب محمّد ﷺ قالوا آمنا يغرونهم بذلك، ومثله روي عن أبي العالية.

**قوله تعالى:** ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ آية بلا خلاف (٧٨).

قوله: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ يعني هؤلاء اليهود الذين قصّ الله قصتهم في هذه الآيات وقطع الطمع في ايمانهم.

وقال أكثر المفسّرين: سمّوا اميين لأنّهم لا يحسنون الكتابة ولا القراءة، يقال منه: رجل أمي بيّن الأمية، ومنه قوله ﷺ: «انّا أمة أميون لا نكتب ولا نحسب»، وإنّما سمّي من لا يحسن الكتابة أمياً لأحد أمور: قال قوم: هو مأخوذ من الامة أي هو على أصل ما عليه الامة من أنّه لا يكتب، لا يستفيد الكتابة بعد إذ لم يكن يكتب.

الثاني: أنّ الأمة الخلقة، فسمّي أمياً لأنّه باق على خلقته. ومنه قول الأعشى:

وانّ معاويـــــة الأكرميــــــن حسان الوجوه طوال الأمم[١]

والثالث: أنّه مأخوذ من الأم، وإنّما أخذ منه لأحد أمرين: أحدهما: لأنّه على ما ولدته امه من أنّه لا يكتب، والثاني: نسب إلى أمه، لأنّ الكتابة كانت في الرجال دون النساء، فنسب من لا يكتب من الرجال إلى أمه لجهلها دون أبيه، وقال أبو عبيدة: الاميّون هم الامم الذين لم ينزل عليهم كتاب، والنبيّ الأمي: الّذي لا يكتب، وأنشد لتبع:

لـــه أمـــة ســـميت بـــالزبو رأمّيـــة هـــي خيـــر الأمـــم

وروي عن ابن عباس: أنّ الأميّين قوم لم يصدّقوا رسولاً أرسله الله ﷻ ولا كتاباً أنزله، وكتبوا كتاباً بأيديهم، وقالوا لقوم جهال هذا من عند الله، وقال: قد أخبر أنّهم يكتبون بأيديهم، ثم سمّاهم أميّون لجحودهم كتاب الله ﷻ ورسله.

والوجه الأوّل أوضح في اللغة، وهذا الوجه مليح لقوله في الآية الثانية: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ فأثبت أنّهم يكتبون، ومن قال بالأوّل يحتاج أن يجعل هذا مستأنفاً لغير من تقدّم ذكره أو لبعضهم.

---

١. اللسان (أمم) الأمم جمع أمة يريد طوال القامات.

وقوله: ﴿لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ﴾ أي لا يعلمون ما في الكتاب الّذي أنزله الله ﷻ، ولا يدرون ما أودعه من حدوده وأحكامه وفرائضه كهيئة البهائم، وإنّما هم مقلّدة لا يعرفون ما يقولون، والكتاب المعني به التوراة، وإنّما ادخل عليه لام التعريف، لأنّه قصد به قصد كتاب معروف بعينه، ومعنى الآية فريق لا يكتبون ولا يدرون ما في الكتاب الّذي عرفتموه، والّذي هو عندكم، وهم ينتحلونه ويدّعون الاقرار به من أحكام الله ﷻ وفرائضه وما فيه من حدوده التي بينها فيه ﴿إلاّ أَمَانِيَّ﴾، قال ابن عباس ومجاهد: إلاّ قولاً يقولون بأفواههم كذباً، وقال قتادة: الأماني أنّهم يتمنّون على الله ما ليس لهم.

وقال آخرون: الأماني أحاديث، وقال الكسائي والفراء وغيرهما: معناه إلاّ تلاوة، وهو المحكي عن أبي عبيدة على ما رواه عنه عبد الملك بن هشام، وكان ثقة، وضعّف هذا الوجه الحسين بن عليّ المغربي، وقال: هذا لا يعرف في اللغة، ومن صحّحه استدلّ بقوله تعالى: ﴿إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾[(١)] قال كعب بن مالك:

تمنى كتاب الله أوّل ليلة    وآخره لاقى حمام المقادر

وقال آخر:

تمنى كتاب الله بالليل خالياً    تمني داود الزبور على رسل

وقال أبو مسلم محمّد بن بحر الاصفهاني: الأماني التقدير. قال الشاعر:

ولا تقولنّ لشيء سوف أفعله    حتى يبين ما يمني لك الماني

---

١.الحج: ٥٢.

أي ما يقدر لك المقدر «وإلاّ» ها هنا استثناء منقطع، ومعناه لكن أماني وكلّ موضوع يعلم أنّ ما بعد (إلاّ) خارج عن الأوّل فهو بمعنى لكن، كقوله: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إلاّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ﴾ وكقولهم: ما في الدار واحد إلاّ حماراً وإلاّ وتداً، قال الشاعر:

لـيس بينــي وبـين قـيس عتـاب     غير طعن الكلى وضرب الرقاب[١]

وقال آخر:

حلفــت يمينــاً غيــر ذي مثنويــة     ولا علم إلاّ حسن ظن بصاحب[٢]

معناه لكن حسن ظني بصاحبي، ومثله ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إلاّ خَطَأً﴾[٣] ومثله ﴿لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أمْرِ اللَّهِ إلاّ مَنْ رَحِمَ﴾[٤] ولولا ولوما وهلا وإلاّ الثقيلة بمعنى واحد، قال الشاعر:

تعدون عقر النيب افخر مجدكـم     بني ضوطرى لولا الكمي المقنعا[٥]

يعني هلا. وقال آخر:

أتيـت بعبـد الله فـي القيـد موثقـاً     فهـلا سـعيدا ذا الجنايـة والـعذر

ثم قال آخر:

---

١ـ قائله عمرو بن الأيهم التغلبي، وقيل اسمه: عمر، وقيل هو أعشى تغلب.

٢ـ قائله نابغة بني ذبيان. ديوانه. مثنوية: استثناء.

٣ـ النساء: ٩٢.

٤ـ هود: ٤٣.

٥ـ قائله: جرير، من قصيدة يهجو بها الفرزدق. عقر الناقة: ضرب قوائمها. النيب هكذا ورد في المطبوعة والأصح جمع ناب: الناقة المسنة. ضوطرى: الرجل الضخم اللئيم. والضوطرى: الامرأة الحمقاء. الكمي: الشجاع.

وما شيخوني غير انّي ابن غالب     وانّي من الاثرين عند الزغايف

واحدهم زغيف وهو التابع، وكلّ موضوع حسن أن يوضع فيه مكان إلاّ (لكن) فاعلم أنّه مكان استثناء منقطع، ولو قيل ها هنا: ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب لكن يتمنّون لكان صحيحاً.

والأماني واحدها أمنية مثقل ومن خفف الياء قال: لأنّ الجمع يكون على غير واحده بنقصان أو زيادة، والأماني كلهم يخففونها لكثرة الاستعمال، وكذلك الأضاحي.

وأولى التأويلات قول ابن عباس ومجاهد من انّ الأميين الذين وصفهم الله بما وصفهم به في هذه الآية، وأنّهم لا يفقهون من الكتاب الّذي أنزل إليه على موسى شيئاً لكنّهم متخرّصون الكذب ويقولون الباطل.

والتمنّي في الموضوع تخلق الكذب وتخرّصه، يقال منه تمنيت إذا افتعلته وتخلّقته، ومنه ما روي عن بعض الصحابة أنّه قال: ما تعنيت ولا تمنيت أي ما تخرصت الباطل، ولا تخلقت الكذب والافك، ويقوي ذلك قوله في آخر الآية: ﴿وَإِنْ هُمْ إلاّ يَظُنُّونَ﴾ فبيّن أنّهم يتمنّون ما يتمنّون من الكذب ظناً لا يقيناً، ولو كان المعنى أنّهم يتلونه لما كانوا ظانين وكذلك لو كانوا يتمنونه، لأنّ الّذي يتلوه تدبر علمه، ولا يقال فيمن يقرأ كتاباً لم يتدبره وتركه أنّه ظان لما يتلوه إلاّ أن يكون شاكاً فيما يتلوه ولا يدري أحق هو أم باطل، ولم يكن القوم الذين عاصروا النبيّ ﷺ من اليهود شاكين في التوراة أنّها من عند الله، وكذلك التمني. لا يجوز أن يقال: هو ظان بتمنيه، لأنّ التمني من المتمنّي إذا وجد لا يقال فيه شاك فيما هو عالم به، لأنّه ينافي العلم، والمتمنّي في حال وجود تمنيه لا يجوز أن يقال هو يظن تمنيه، وقوله: ﴿وَإِنْ هُمْ إلاّ يَظُنُّونَ﴾ قال جميع المفسّرين معناه يشكّون.

والّذي أقوله: أنّ المراد بذلك نفي العلم عنهم، وقد ينتفي العلم تارة بالشك وتارة بالظن، وأمّا في الحقيقة فالظن غير الشك، غير أنّ المعنى متفق عليه ها هنا.

**قوله تعالى:** ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ﴾ آية بلا خلاف (٧٩).

قال ابن عباس: الويل في الآية العذاب، وقال الأصمعي: هو التقبيح، ومنه قوله: ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾.

وقال المفضل: معناه الحزن، وقال قوم: هو الهوان والخزي، ومنه قول الشاعر:

يــا زبرقــان أخــا بنــي خلــف    مــا أنــت ويــل أبيـك والفخـر[1]

وقال أبو سعيد الخدري: الويل واد في جهنم، وقال عثمان بن عفان: هو جبل في النار.

وقوله: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ معناه أنّهم يقولون كتبته، ثم يضيفونه إلى الله كقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[2] ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾[3] أي نحن تولّينا ذلك ولم نكله إلى أحد من عبادنا، ومثله رأيته بعيني وسمعته بأذني ولقيته بنفسي، والمعنى

---

١. البيت للمخبل السعدي يهجو الزبرقان، اللسان: ويل وروايته ويب بدل ويل. ومعنى ويب: التصغير والتحقير.

٢. ص: ٧٥.

٣. يس: ٧١.

في جميع ذلك التأكيد ولأنّه قد يأمر غيره بالكتابة، فتضاف إليه مجازاً، فلذلك يقول الأمي: كتبت إلى آل فلان بكذا، وهذا كتابي إليك، وكما تقول: حملت إلى بلد كذا، وإنّما أمرت بحمله، فأعلمنا الله تعالى أنّهم يكتبونه بأيديهم ويقولون هو من عند الله، وقد علموا يقيناً إذا كتبوه بأيديهم أنه ليس من عند الله.

وفي الآية دلالة على إبطال قول المجبرة، لأنّه تعالى عابهم بهذا القول، إذ نسبوا ما كتبوه من التحريف إلى أنّه من عند الله، وجعل عليهم الويل، وإذا كان تحريفه من الكتاب ـ ليس من عند الله، من جهة القول والحكم ـ فليس ذلك منه من جهة القضاء والحكم ولا التقدير والمشيئة.

وقال ابن السراج: معنى ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي من تلقاء أنفسهم.

وقوله: ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾.

قال قوم: أي أنّه عرض الدنيا لأنّه قليل المدّة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [1] ذهب إليه أبو العالية، وقال آخرون: إنّه قليل لأنّه حرام.

وروي عن أبي جعفر عليه السلام، وذكره أيضاً جماعة من أهل التأويل أنّ أحبار اليهود كانت غيّرت صفة النبيّ صلى الله عليه وآله ليوقعوا الشك للمستضعفين من اليهود.

وقوله: ﴿وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ يقولون ممّا يأكلون به الناس السفلة وغيرهم، وأصل الكسب العمل الّذي يجتلب به نفع أو يدفع به ضرر، وكلّ عامل عملاً بمباشرة منه لما عمل، ومعناه ها هنا الاحتراف فهو كاسب لما عمل. قال لبيد بن ربيعة:

---

١. النساء: ٧٧.

لمعفّـرٍ قهـدٍ تنـازع شلـوه      غبسٌ كواسبٌ لا يمنّ طعامها[1]

وقيل: الكسب عبارة عن كلّ عمل بجارحة يجتلب به نفع، أو يدفع به مضرة، ومنه قيل للجوارح من الطير: كواسب.

**قوله تعالى:** ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ آية بلا خلاف (٨٠).

قوله: ﴿وَقَالُوا﴾ يعني اليهود الذين قالوا لن تمسّنا النار، ولن ندخلها إلاّ أيّاماً معدودة، وإنّما لم يبيّن عددها في التنزيل، لأنّه تعالى أخبر عنهم بذلك، وهم عارفون بعدد الأيّام التي يوقتونها في النار، فلذلك نزل تسمية عدد الأيّام، وسمّاها معدودة لما وصفنا.

وقال أبو العالية وعكرمة والسدي وقتادة: هي أربعون يوماً، ورواه الضحاك عن ابن عباس، ومنهم قال: إنّها عدد الأيّام التي عبدوا فيها العجل.

وقال ابن عباس: إنّ اليهود تزعم أنّهم وجدوا في التوراة مكتوباً أنّ ما بين طرفي جهنم مسيرة أربعين سنة، وهم يقطعون مسيرة كلّ سنة في يوم واحد، فإذا انقطع المسير، انقطع العذاب وهلكت النار.

وقال مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس: إنّها سبعة أيّام، لأنّ عمر الدنيا سبعة آلاف سنة، وأنّهم يعذّبون بعدد كلّ ألف سنة يوماً واحداً من أيّام

---

١. معلقته. اللسان: (عفر). المعفر: الّذي ألقي في العفر، وهو التراب. والقهد: ولد البقر. والشلو: العضو من اللحم. وغبس: غبر، ولا يمن طعامها: تكسب طعامها بنفسها.

الآخرة، وهو كألف سنة من أيّام الدنيا، ولمّا قالت اليهود ما قالت من قولها: لن تمسنا النار إلاّ أيّاماً معدودة على ما بيّناه، قال الله تعالى لنبيّه: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْداً﴾ بما تقولون من ذلك أو ميثاقاً، فالله لا ينقض عهده ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ من الباطل جهلاً وجرأة عليه.

**قولـــه تعـــالى:** ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ آية بلا خلاف (٨١).

قال مجاهد وابن عباس وأبو وايل وقتادة وابن جريج: السيئة ها هنا الشرك، وقال السدي: الذنوب التي وعد الله عليها النار.

والّذي يليق بمذهبنا ها هنا قول مجاهد، لأنّ ما عدا الشرك لا يستحق عندنا عليه الخلود في النار.

﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد أنّها الشرك، وقال الربيع بن خيثم: من مات عليها، وقال ابن السراج: هي التي سدت عليه مسالك النجاة، وقال جميع المعتزلة: إنّه إذا كان ثوابه أكثر من عقابه.

والّذي نقوله: الّذي يليق بمذهبنا أنّ المراد بذلك الشرك والكفر، لأنّه الّذي يستحق به الدخول مؤبداً، ولا يجوز أن يكون مراداً بالآية، وقوله: ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ يقوي ذلك، لأنّ المعنى فيه أن تكون خطاياه كلّها اشتملت عليه ولا يكون معه طاعة يستحق بها الثواب، تشبيهاً بما أحاط بالشيء من كلّ وجه، ولو كان معه شيء من الطاعات، لكان مستحقاً للثواب فلا تكون السيئة محيطة به.

لأنّ الإحباط عندنا باطل فلا يحتاج إلى تراعي كثرة العقاب وقلّة الثواب، لأنّ قليل الثواب عندنا يثبت مع كثرة العقاب، لما ثبت من بطلان التحابط بأدلّة العقل، وليس هذا موضع ذكرها، لأنّ الآية التي بعدها فيها وعد لأهل الإيمان بالثواب الدائم، فكيف يجتمع الثواب الدائم والعقاب الدائم، وذلك خلاف الإجماع؟ ومتى قالوا أحدهما يبطل صاحبه، قلنا: الاحباط باطل ليس بصحيح على ما مضى.

**قوله تعالى:** ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ آية (٨٢).

هذه الآية متناولة لمن آمن بالله وصدّق به، وصدّق النبيّ ﷺ وعمل الصالحات التي أوجبها الله تعالى عليه، فإنّه يستحق بها الجنة خالداً أبداً، وظاهرها يمنع من انّ مرتكب الكبيرة مخلّد في النار، لأنّه إذا كان مؤمناً مستحقاً للثواب الدائم، فلا يجوز أن يستحق مع ذلك عقاباً دائماً، لأنّ ذلك خلاف ما أجمع المسلمون عليه ومتى عادوا إلى الاحباط، كلموا فيه بينهم وبين بطلان قولهم.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ لَا تَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَانٗا وَذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنكُمۡ وَأَنتُم مُّعۡرِضُونَ﴾ آية بلا خلاف(٨٣).

ومعنى ذلك: أخذنا ميثاق بني إسرائيل بأن لا تعبدوا إلاّ الله وحده، دون ما سواه من الانداد، وبالوالدين إحساناً وبذي القربى أن يصلوا رحمه، ويعرفوا

حقـه، وباليتـامى أن يتعطفـوا علـيهم بالرأفـة والرحمـة، وبالمسـاكين أن يوفـوهم حقوقهم التي ألزمها الله في أموالهم.

والمسكين هـو المتخشّع المتـذلّل مـن الفاقـة والحاجـة وهـو مفعيـل مـن المسكنة وهي ذلّ الحاجة والفاقة.

وقوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ فيه عدول إلى الخطاب بعد الخبر على ما مضى القول فيه، وقد ذكرنا اختلاف القراء في حَسناً وحُسناً، واختلف أهل اللغة في الفرق بينهما، فقال بعض البصريين: هو على أحد وجهين:

أحـدهما: أن يكـون أراد بالحُسـن الحَسـن، ويكـون لمعنيين مثل البُخـل والبَخل، وامّا أن يكون جعل الحَسن هو الحُسن في التشبيه، لأنّ الحسن مصدر والحسن هو الشيء الحسن، فيكون ذلك كقول القائل: إنّما أنت أكل وشرب، قال الشاعر:

وخيـل قـد دلفـت لهـا بخيـل     تحيـة بينـهم ضـرب وجيـع[١]

فجعل التحية ضرباً، وقال آخر: بل الحسن هو الاسم العام الجامع جميع معاني الحسن، والحسن هو البعض من معاني الحَسن، ولذلك قال تعالى إذ وصى بالوالدين: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً﴾[٢] يعني بذلك أنّه وصّاه بجميع معاني الحسن، وقرئ في الشواذ: حسنى، لا يقرء بها لشذوذها حكاها الأخفش، وذلك لا يجوز لأنّ فعلى وأفعل لا يستعمل إلاّ بالألف واللام، نحو الأحسن والحسنى والأفضل والفضلى، قال الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى﴾[٣].

---

١. قائله عمرو بن معد يكرب. الخزانة ٤: ٥٤. يقال: دلفت الكتيبة إلى الكتيبة في الحرب: أي تقدّمت.

٢. العنكبوت: ٨.

٣. يونس: ٢٦.

وروي عن أبي جعفر محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام وعن عطا أنّهما قالا: وقولوا للناس حسناً للناس كلّهم.

وعن الربيع بن أنس قولوا للناس حسناً: أي معروفاً.

وعن ابن الحنفية أنّه قال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إلاّ الإِحْسَانُ﴾ وهي مسجلة للبر والفاجر، يريد بمسجلها أنّها مرسلة.

ومنهم من قال: أمروا بأن يقولوا لبني اسرائيل حسناً.

قال ابن عباس: يأمروا بألاّ إله إلاّ الله، من لم يقبلها ويرغب عنها حتى يقولها كما قالوها، فإنّ ذلك قربة لهم من الله، قال: والحسن أيضاً من لين القول ـ من الأدب الحسن الجميل ـ والخلق الكريم، وهو ممّا ارتضاه الله تعالى وأحبّه.

وقال ابن جريج: قولوا للناس حسناً أي صدقاً في شأن محمّد صلى الله عليه وآله.

وقال سفيان الثوري: مروهم بالمعروف، وانهوهم عن المنكر، وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ أدّوها بحدودها الواجبة عليكم.

﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ معناه وأعطوها أهلها كما أوجبها عليكم، والزكاة: التي فرضها الله على بني إسرائيل، قال ابن عباس: كان فرض في أموالهم قرباناً تهبط إليه نار فتحملها، وكان ذلك تقبّله، ومن لم تفعل النار به ذلك كان غير متقبل، وروي عنه أيضاً أنّ المعني به طاعة الله والاخلاص.

وقوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إلاّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ خبر من الله تعالى عن يهود بني إسرائيل أنّهم نكثوا عهده، ونقضوا ميثاقه بعد ما أخذ ميثاقهم على الوفاء له، بأن لا يعبدوا غيره، وبأن يحسنوا إلى الآباء والأمهات، ويصلوا الأرحام، ويتعطّفوا على الأيتام، ويردوا حقوق المساكين، ويأمروا عباد الله بما أمرهم به،

ويقيموا الصلاة بحدودها، ويؤتوا زكاة أموالهم، فخالفوا أمره في ذلك كلّه، وتولوا عنه معرضين إلاّ من عصمه الله منهم، فوفى لله بعهده وميثاقه، ووصف هؤلاء بأنّهم قليل بالاضافة إلى من لم يؤمن.

وقال بعضهم: أراد ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ اليهود الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، وعنى بسائر الآية أسلافهم، كأنّه ذهب إلى أنّ معنى الكلام: ثم تولّيتم إلاّ قليلاً منكم ثم تولّى سلفكم إلاّ قليلاً منهم، ثم قال: وأنتم معاشر بقاياهم معرضون أيضاً عن الميثاق الّذي أخذ عليكم.

وقال قوم: بلى قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ خطاب لمن كان بين ظهراني مهاجري رسول الله ﷺ من يهود بني إسرائيل، وذم لهم بنقضهم الميثاق الّذي أخذ عليهم في التوراة، وتبديلهم أمر الله وركوبهم معاصيه.

وروي عن ابن عباس أنّه قال: قوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً﴾ نسخ بقوله: قاتلوهم حتى يقولوا لا إله إلاّ الله أو يقروا بالجزية.

وقال آخرون: ليست منسوخة لكن امروا بأن يقولوا حسناً في الاحتجاج عليهم، إذا دعوا إلى الإيمان، وبيّن ذلك لهم.

وقال قتادة: نسختها آية السيف[1]، والصحيح أنّها ليست منسوخة، وإنّما أمر الله تعالى بالقول الحسن في الدعاء إليه والاحتجاج عليه، كما قال تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2] وبيّن في آية أخرى فقال: ﴿وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

---

١. التوبة: ٥.

٢. النحل: ١٢٥.

﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1] وليس الأمر بالقتال ناسخاً لذلك، لأنّ كلّ واحد منهما ثابت في موضعه.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ آية بلا خلاف (٨٤).

قد بيّنا فيما مضى أنّ الميثاق هو العهد، والمعنى في الآية: واذكروا إذ أخذنا ميثاق أسلافكم الذين كانوا في زمن موسى، والأنبياء الماضين عليهم السلام، وإنّما أضاف إليهم لما كانوا أخلافاً لهم على ما مضى القول فيه، وتقدير الاعراب في هذه الآية مثل الآية الأولى سواء.

وأما سفك الدم فإنّه صبه واراقته، ومعنى ﴿لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ النهي عن أن يقتل بعضهم بعضاً، وكان في قتل الرجل منهم قتل نفسه إذا كانت ملّتهما واحدة ودينهما واحد، وكان أهل الدين الواحد في ولاية بعضهم بعضاً بمنزلة رجل واحد، كما قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «إنّما المؤمنون في تعاطفهم وتراحمهم بينهم بمنزلة الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الجسد بالحمى والسهر». فهذا قول قتادة وأبي العالية.

ويحتمل أن يكون المراد لا يقتل الرجل منكم غيره فيقاد به قصاصاً، فيكون بذلك قاتلاً نفسه لأنّه كالسبب فيه، وأضيف قتل الولي إياه قصاصاً إليه بذلك، كما يقال لرجل يعاقب لجناية جناها على نفسه: أنت جنيت على نفسك.

---

١. الأنعام: ١٠٨.

وفيه قول ثالث: هو أنّ قوله: ﴿أنفُسَكُمْ﴾ أراد به اخوانكم، لأنّهم كنفس واحدة.

وقوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي أقررتم بذلك أيضاً، وبذلتموه من أنفسكم، وأنتم شاهدون على من تقدّمكم بأخذنا منهم الميثاق، وما بذلوه من أنفسهم، فذكر تعالى إقراهم وشهادتهم، لأنّ أخذ الميثاق كان على أسلافهم ـ وإن كان لازماً للجميع، لتوكيد الحجة عليهم ـ.

وقال بعض المفسّرين: نزلت هذه الآية في بني قريظة والنضير، يقول: حرّم الله في الكتاب أن تسفكوا دماءكم، أي لا تقتتلوا فيقتل بعضكم بعضاً[١]، ولا تتركوا أسيراً في يد الآسرين ليقتلوه ﴿وَلا تُخْرِجُونَ أنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ معناه لا تغلبوا أحداً على داره فتخرجوه، فقبلتم ذلك وأقررتم به، وهو أخذ الميثاق ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ بذلك.

وأمّا النفس فمأخوذة من النفاسة وهي الجلالة، فنفس الإنسان أنفس ما فيه، والدار هي المنزل الّذي فيه أبنية المقام، بخلاف[٢] منزل الارتحال.

وقال الخليل: كلّ موضع حلّ فيه قوم فهو دار لهم وإن لم يكن فيه أبنية.

وقيل أيضاً: إنّ معنى قوله: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ انّ إقرارهم هو الرضاء به، والصبر عليه كما قال الشاعر:

ألست كليبياً إذا سيم خطة ... أقرّ كاقرار الحليلة للبعل[٣]

---

١. في المخطوطة لا تقلوا. وعبارة المطبوعة هكذا: لا يقتلوا فيقتل بعضكم ولا تتركوا....

٢. في المطبوعة بجلال.

٣. الشعر نسب للبعيث يهجو بني كليب، ونسبه بعضهم للفرزدق، وهو في النقائض ١: ٦٥ – ٦٧.

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: وأنتم تشهدون على أنفسكم بالإقرار.

والثاني: وأنتم تحضرون دماءكم، وتخرجون أنفسكم من دياركم.

وحكي عن ابن عباس أنّه قال: ذلك خطاب من الله تعالى لليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجري رسول الله ﷺ أيّام هجرته إليهم موبّخاً لهم على تضييعهم أحكام ما في أيديهم من التوراة التي كانوا يقرّون بحكمها، فقال الله تعالى لهم: ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ يعني بذلك أقرّ أولكم وسلفكم وأنتم تشهدون على اقرارهم، بأخذ الميثاق عليهم بأن لا يسفكوا دماءهم، ولا يخرجوا أنفسهم من ديارهم، ويصدّقوا بأنّ ذلك حقّ من ميثاقي عليكم.

وقال أبو العالية: ذلك خبر من الله عن أوائلهم، ولكنه أخرج الخبر مخرج المخاطبة عنهم على النحو الّذي وصفناه في سائر الآيات ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ أي وأنتم شهود.

**قولـه تعـالى:** ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ آية بلا خلاف (٨٥).

أسماء جميع المخاطبين فإنّما جاز أن يؤكد بهؤلاء، وأولاء يكنى بها عن المخاطبين، كما قال خُفاف بن ندبة:

أقـول لـه والـرمح يـأطر متنـه تبـيّن خفافـا انّنـي أنـا ذلكـا[1]

يريد أنا هو، وكما قال: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[2].

والاثم قيل معناه: هو ما تنفر منه النفس ولم يطمئن إليه القلب.

ومنه قول النبيّ ﷺ لنواس بن سمعان، حين سأله عن البر والاثم، فقال ﷺ: «البر ما اطمأنت إليه نفسك والاثم ما حكّ في صدرك».

وقال قوم: معنى الاثم ما يستحق عليه الذم، وهو الأصح.

والعدوان مجاوزة الحقّ، وقال قوم: هو الافراط في الظلم، وأسرى جمع أسير واسارى جمع أسرى، كما قالوا: مريض ومرضى وجريح وجرحى وكسير وكسرى، هذا قول المفضل بن سلمة، قال أبو عمرو بن العلاء: الاسارى هم الذين في الوثاق والأسرى الذين في اليد وإن لم يكونوا في الوثاق.

ومعنى تفادوهم أو تفدوهم طلب الفدية من الأسير الّذي في أيديهم من أعدائهم، قال الشاعر:

---

١ـ الأغاني ٢: ٣٢٩، ١٣: ١٣٤، ١٣٥، ١٦: ١٣٤ قال هذا في مقتل ابن عمه معاوية بن عمرو: أخي الخنساء. أقول له: أي لمالك بن حمار.

وأطر الشيء: أن تقبض على أحد طرفي الشيء ثم تعوجه، وتعطفه وتثنيه، وأراد أنّ حر الطعنة جعله منثني من ألمها ثم ينثني ليهوي صريعاً إذ أصاب الرمح مقتله.

٢ـ يونس: ٢٢.

قفـي فـادي أسـيرك إنّ قومـي     وقومـك مـا أرى لهـم اجتماعـا

وكان هذا محرماً عليهم ـ وإن كان مباحاً لنا ـ فذكر الله تعالى توبيخاً لهم في فعل ما حرّم عليهم.

وقال آخرون: إنّه افتداء الأسير منهم إذا أسره أعداؤهم، وهذا مدح لهم ذكره من بعد ذمهم أنّهم خالفوه في سفك الدماء، وتابعوه في افتداء.

واختلفوا فيمن عنى بهذه الآية، فروى عكرمة عن ابن عباس أنّه قال: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾أي أهل الشرك، حتى يسفكوا دماءهم معهم، ويخرجوهم من ديارهم معهم قال: أنبأهم الله بذلك من فعلهم، وقد حرّم عليهم في التوراة سفك دمائهم، وافترض عليهم فيها فداء أسراهم، وكانوا فريقين: طائفة منهم بنو قينقاع وأنّهم حلفاء الخزرج، وحلفاء النضير وقريظة، وأنّهم حلفاء الاوس، وكانوا إذا كانت بين الاوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت بنو النضير وقريظة مع الأوس، يظاهر كلّ فريق حلفاءه على إخوانه، حتى يتسافكوا دماءهم بينهم وبأيديهم التوراة، يعرفون منها ما عليهم ولهم.

والاوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان ولا يعرفون جنة ولا ناراً، ولا قيامة ولا كتاباً، ولا حلالاً ولا حراماً، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقاً لما في التوراة، وأخذاً به يفتدي بنو قينقاع من كان من أسراهم في أيدي الأوس، ويفتدي بنو النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج، ويطلبون ما أصابوا من الدماء، وما قتلوا من قتلوا منهم، فيما بينهم مظاهرة لأهل الشرك عليهم.

يقول الله تعالى حين أنبأهم بذلك: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ أي تفادونهم بحكم التوراة وفي حكم التوراة أن لا يقتل ويخرج من داره، ويظاهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه ـ ابتغاء عرض الدنيا ـ ففي ذلك من فعلهم مع الاوس والخزرج نزلت هذه القصة، وذكر فيه أقوال أخر تزيد وتنقص لا فائدة في ذكرها، معناها متقارب لما أوردناه.

وقوله: ﴿يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ القصد بذلك توبيخهم وتعنيفهم على سوء أفعالهم، فقال: ثم أنتم بعد اقراركم بالميثاق الّذي أخذته عليكم: ﴿لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ تقتلون أنفسكم يعني يقتل بعضكم بعضاً، وأنتم مع قتلكم من تقتلون منكم، إذا وجدتم أسيراً منكم في أيدي غيركم من أعدائكم تفدونهم، ويخرج بعضكم بعضاً من ديارهم، وقتلكم إياهم واخراجكم إياهم من ديارهم حرام عليكم كما حرام عليكم تركهم أسرى في أيدي عدوكم، فكيف تستجيزون قتلهم ولا تستجيزون ترك فدائهم، وتستجيزون قتلهم وهما جميعاً في اللازم لكم من الحكم فيهم سواء، لأنّ الّذي حرّمت عليكم من قتلهم واخراجهم من دورهم نظير الّذي حرّمت عليكم من تركهم أسرى في أيدي عدوهم.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ الّذي فرضت عليكم فيه فرائضي، وبيّنت لكم فيه حدودي، وأخذت عليكم بالعمل بما فيه ميثاقي، فتصدّقون به فتفادون أسراكم من أيدي عدوكم، وتكفرون ببعضه فتجحدونه فتقتلون من حرمت عليكم قتله، من أهل دينكم ومن قومكم، وتخرجونهم من ديارهم وقد علمتم أنّ في الكفر منكم ببعضه نقضاً منكم في عهدي وميثاقي.

وقوله: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فالخزي الذل والصغار، يقال: خزي الرجل يخزى خزياً ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ يعني في عاجل الدنيا قبل الآخرة.

ثم اختلفوا في الخزي الّذي خزاهم الله بما سلف منهم من المعصية، فقال بعضهم: ذلك حكم الله الّذي أنزله على نبيّه ﷺ من أخذ القاتل بما قتل، والقود به قصاصاً، والانتقام من الظالم للمظلوم.

وقال آخر: بل ذلك هو الجزية منهم ـ ما أقاموا على دينهم ـ ذلّة لهم وصغاراً، وقال آخرون: الخزي الّذي خزوا به في الدنيا إخراج رسول الله ﷺ بني النضير من ديارهم لأول الحشر.

وقيل: مقاتلة بني قريظة وسبي ذراريهم، وكان ذلك خزياً في الدنيا، وفي الآخرة عذاب عظيم، ومعنى قوله: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ أي أسوء العذاب، يعني بعد الخزي الّذي يحلّ بهم في الدنيا يردّهم الله إلى أشدّ العذاب ـ الّذي أعدّه الله لأعدائه ـ.

وقال بعضهم: يردّهم يوم القيامة إلى أشدّ العذاب، يعني أشدّ من عذاب الدنيا، والأوّل أقوى: أنّه من أشد العذاب يعني أشد جنس العذاب، وذلك يقتضي العموم ولا يخص إلاّ بدليل.

وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ منهم من قرأ بالياء، ردّه إلى من أخبر عنهم، ومن قرأ بالتاء، ردّه إلى المواجهين بالخطاب، والياء أقوى، لقوله: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ﴾.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ﴾ فالرد إلى هذا أقرب من قوله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ فاتباع الأقرب أولى من إلحاقه بالأول، والكلّ حسن، والمعنى

وما الله بساهٍ عن أعمالهم الخبيثة بل هو مُحْصٍ لها وحافظ لها حتى يجازي عليها.

فإن قيل: ظاهر الآية يقتضي أن يصحّ الايمان ببعض الأشياء، وإن كفروا بالبعض الآخر، وذلك مناف لمذهبكم في الارجاء والموافاة لأنّ المعنى في ذلك إظهار التصديق بالبعض، والمنع بالتصديق بالبعض الآخر.

ويحتمل أن يكون المراد أنّ ذلك على ما يعتقدونه، لأنّكم إذا عقدتم جميع ذلك ثم عملتم ببعضه دون بعض، فكأنّكم آمنتم ببعضه دون بعض.

**قولـه تعـالى:** ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأٓخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ آية بلا خلاف (٨٦).

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الذين أخبر عنهم يؤمنون ببعض الكتاب، فيفادون أساراهم من اليهود، ويكفرون ببعض فيقتلون من حرّم الله عليهم قتله من أهل ملّتهم، ويخرجون من داره من حرّم الله اخراجه، هم الذين اشتروا رياسة الحياة الدنيا، ومعناه ابتاعوها على الضعفاء وأهل الجهل والغباء منهم، وإنّما وصفهم بأنّهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، لأنّهم رضوا بالدنيا بكفرهم بالله ﷻ فيها عوضاً من نعيم الآخرة الّذي أعدّه الله للمؤمنين، فجعل تركهم حظوظهم من نعيم الآخرة بكفرهم بالله ثمناً لما ابتاعوه من خسيس الدنيا بما أخبر الله أنّه لا حظ لهم في نعيم الآخرة، وانّ لهم في الآخرة عذاباً غير مخفف عنهم فيها العقاب، وقوله: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي لا ينصرهم أحد في الآخرة فيدفع عنهم بنصرته عذاب الله تعالى.

**قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ آية بلا خلاف (٨٧).

ومعنى قوله: ﴿آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أنزلناه إليه وأعطيناه، والكتاب المراد به التوراة، وقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ معناه وأردفنا، وأتبعنا بعضه خلف بعض، كما يقفو الرجل الرجل إذا سار في أثره من ورائه وأصله من القفا، يقال فيه: قفوت فلاناً إذا صرت خلف قفاه، كما يقال: دبرته إذا صرت في دبره، قال امرؤ القيس:

وقفى على آثارهنّ بحاصب     فمرّ العشى البارد المتحصب[1]

ومعنى قوله: ﴿بِالرُّسُلِ﴾ من بعد موسى، والمراد بالرسل الأنبياء، وهم جمع رسول يقال: رسول ورسل، كما يقال: رجل صبور وقوم صبر، ورجل شكور، وقوم شكر، والمعنى في ﴿قَفَّيْنَا﴾ أتبعنا بعضهم بعضاً على منهاج واحد، وشريعة واحدة، لأنّ كلّ من بعثه الله نبياً بعد موسى إلى زمن عيسى بن مريم عليه السلام فإنّما بعثه باقامة التوراة والعمل بما فيها والدعاء إلى ما فيها، فلذلك قال: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ يعني على منهاجه وشريعته.

وقوله: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أعطينا عيسى بن مريم الحجج والدلالات على نبوته من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من الآيات التي دلّت على صدقه وصحة نبوته.

---

١. ديوانه: ٣٨، وروايته فقفي بدل وقفى وعجزه: وغيبة شؤبوب من الشد ملهب.

وقوله: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي قوّيناه وأعنّاه، يقال منه أيدك الله، أي قوّاك الله، وهو رجل ذو أيد وذو أياد أي ذو قوة، ومنه قول العجاج:

مــن إن تبــدلت بــآدي آدا[١]

يعني بقوة شبابي قوة الشيب، قال الشاعر:

انّ القــداح إذا اجـتمعن فرامهــا     بالكسـر ذو جلـد وبطـش أيّـد[٢]

يعني بالأيّد القوي.

قال قتادة والسدي والضحاك والربيع: روح القدس هو جبرائيل عليه السلام.

قال ابن زيد: أيد الله عيسى بالانجيل روحاً كما جعل القرآن روحاً كلاهما روح الله كما قال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾.

وروى الضحاك عن ابن عباس أنّ الروح الاسم الّذي كان يحيي به الموتى، وأقوى الأقوال قول من قال: هو جبرائيل عليه السلام لأنّ الله تعالى أيد عيسى به، كما قال تعالى: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾[٣] فأخبر أنّه أيّده به فلو كان المراد به الانجيل لكان ذلك تكراراً.

وإنّما سمّي الله تعالى جبرائيل روحاً وأضافه إلى القدس، لأنّه كان بتكوين الله روحاً من عنده من غير ولادة والدٍ ولده.

---

١.اللسان (أيد) والبيت الّذي بعده: لم يك ينآد فامسى انادا. وفي المطبوعة باد آذا.

٢.مروج الذهب ٣: ١٠٤. قائله عبد الله بن عبد الأعلى.

٣.المائدة: ١١٠.

وقال قوم سمّي روحاً لأنّه كان بمنزلة الأرواح للأبدان تحيي بما يأتي به من البينات، وقال آخرون: سمّي بذلك لأنّ الغالب على جسمه الروحانية لرقته وكذلك سائر الملائكة، وإنّما خصّ به تشريفاً، والتقديس والتطهير والقدس: الطهر.

وقال السدي: القدس ها هنا البركة، يقال: قدّس عليه برك عليه، ويكون اضافته إلى نفسه كقوله: ﴿حَقُّ الْيَقِينِ﴾.

وقال الربيع: القدس الرب.

وقال ابن زيد: القدس هو الله، وأيده بروحه، واحتج بقوله: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾. وقال :القدوس والقدس واحد.

وروي عن ابن عباس أنّ القدس الطاهر، وقال الراجز:

الحمـــد لله العلـــيّ القـــادس

وقال رؤبة:

دعـــوت ربّ القـــوة القدوســـا

وقوله: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ فالخطاب بذلك متوجه إلى يهود بني إسرائيل وكأنّه قال: يا معشر يهود بني إسرائيل لقد آتينا موسى التوراة، وتابعنا من بعده الرسل اليكم، وآتينا عيسى بن مريم الحجج والبينات إذ بعثناه اليكم وأيّدناه بروح القدس، وأنتم كلّما جاءكم رسول من رسلي بغير الّذي تهواه أنفسكم استكبرتم عليهم تجبراً وبغياً، وكذّبتم منهم بعضاً وقتلتم بعضاً، وظاهر الخطاب وإن كان خرج مخرج التقدير فهو بمعنى الخبر.

**قوله تعالى:** ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ آية واحدة (٨٨).

والمعنى عندنا أنّ الله أخبر أنّ هؤلاء الكفّار ادعوا أنّ قلوبهم ممنوعة من القبول، وذهبوا إلى أنّ الله منعهم من ذلك، فقال الله رداً عليهم: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي أنّهم لما كفروا فالفوا كفرهم واشتد إعجابهم به ومحبتهم إياه، منعهم الله من الالطاف والفوائد ما يؤتيه المؤمنين ثواباً على ايمانهم وترغيباً لهم في طاعتهم، وزجر الكافرين عن كفرهم، لأنّ من سوّى بين المطيع والعاصي له، فقد أساء إليهما.

وفي الآية ردّ على المجبرة أيضاً، لأنّهم قالوا مثل ما يقول اليهود من أنّ على قلوبهم ما يمنع من الإيمان ويحول بينهم وبينه، وكذّبهم الله تعالى في ذلك بأن لعنهم وذمهم فدلّ على أنّهم كانوا مخطئين، كما هم مخطئون.

وقال أبو عليّ الفارسي: ما يدرك به المعلومات من الحواس وغيرها، إذا ذكر بأنّه لا يعلم وصف بأنّ عليه مانعاً كقوله تعالى: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[١] فإنّ القفل لما كان مانعاً من الدخول إلى المقفل عليه شبّه القلوب به، ومثله قوله: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾[٢] وقوله: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾[٣] ومثله: ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمونَ﴾[٤] وقوله: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ﴾[٥] لأنّ

---

١.محمّد: ٢٤.

٢.الحجر: ١٥.

٣.الكهف: ١٠١.

٤.النمل: ٦٦.

٥.البقرة: ١٨.

العين إذا كانت في غطاء لم ينفذ شعاعها فلا يقع بها إدراك، فكأنّ شدّة عنادهم يحملهم على رفع المعلومات، واللعن هو الاقصاء والابعاد يقال: لعن الله فلاناً يلعنه لعناً فهو ملعون، ثم يصرف مفعول إلى فعيل، فيقال: هو لعين، كما قال الشماخ بن ضرار:

دعـوت بـه القطـا ونفيـت عنـه     مقـام الـذئب كالرجـل اللعـين[١]

أي المبعد.

فصار معنى الآية قالت اليهود: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ﴾ محمّد ﷺ، فقال الله: ليس ذلك كما زعموا ولكنه تعالى أقصاهم وأبعدهم عن رحمته وطردهم عنها، لجحودهم به وبرسله.

وقوله تعالى: ﴿قَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قال قتادة: قليلاً منهم من يؤمن، وقال قوم: ﴿ قَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يؤمنون إلاّ بقليل ممّا في أيديهم.

والّذي نقوله أنّ معنى الآية أنّ هؤلاء الذين وصفهم الله تعالى قليلوا الإيمان بما أنزله الله تعالى على نبيّه محمّد ﷺ، ولذلك نصب قوله: ﴿قَلِيلاً﴾ لأنّه نصب على نعت المصدر المتروك، وتقديره لعنهم الله بكفرهم، فإيماناً قليلاً يؤمنون.

ولو كان الأمر على ما قال قتادة، لكان القليل مرفوعاً، وكان تقديره فقليل إيمانهم، وقال قوم من أهل العربية: انّ ما زائدة لا معنى لها، كقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾[٢] وتقدير الكلام قليلاً يؤمنون، وأنشد بيت مهلهل:

---

١. ديوانه: ٩٢. في المطبوعة والمخطوطة دعوت بدل ذعرت.

٢. آل عمران: ١٥٩.

لو بأبانين جاء يخطبها ضرج ما أنف خاطب بدم[١]

يعني ضرج أنف خاطب، وما زائدة.

وقال قوم: ذلك خطأ في الآية وفي البيت، وانّ ذلك من المتكلم على ابتداء الكلام بالخبر عن عموم جميع الأشياء إذا كانت ما كلمة تجمع كلّ الأشياء، ثم تخص بعض ما عمته، فإنّها تذكر بعدها.

وفي الناس من قال: ﴿فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾، لأنّه كان معهم بعض الايمان من التصديق بالله وبصفاته، وغير ذلك ممّا كان فرضاً عليهم، وذلك هو القليل بالإضافة إلى ما جحدوا به من التصديق بالنبيّ ﷺ وما جاء به.

والّذي يليق بمذهبنا أن نقول: إنّه لم يكن معهم إيمان أصلاً، وإنّما قال: ﴿فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾ كما يقول القائل: قلّ ما رأيت هذا قطّ.

وروي عنهم سماعاً ـ أعني العرب ـ: مررت ببلد قلّ ما ينبت إلاّ الكراث والبصل، يريدون ما ينبت إلاّ الكراث والبصل.

**قوله تعالى:** ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ آية بلا خلاف (٨٩).

التقدير: ولمّا جاء اليهود من بني إسرائيل الذين وصفهم الله، كتاب من عند الله يعني به القرآن الّذي أنزله على محمّد ﷺ واشتقاق الكتاب من الكتب،

---

١. الكامل ٢: ٦٨. وروايته خضب بدل ضرج ابانان: ابان الأسود وابان الأبيض.

وهو جمع كتبة وهي الخرزة، وكلّما ضممت بعضه إلى بعض فقد كتبته، والكتيبة من الجيش من هذا الانضمام بعضها إلى بعض.

وقوله: ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ من الكتب التي أنزلها الله قبل القرآن من التوراة والانجيل وغيرهما، ومعنى ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ لما في التوراة والانجيل، والأخبار التي فيها.

ويحتمل أن يكون المراد: مصدق بأنّ التوراة والانجيل من عند الله، ومصدق رفع لأنّه نعت الكتاب، ولو نصب على الحال لكان جائزاً، لكن لم يقرأ به.

وقوله: ﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال أبو عبيدة: معناه يستنصرون.

قال ابن عباس: إنّ اليهود كانوا يستنصرون على الاوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلمّا بعثه الله في العرب فقال لهم معاذ بن جبل وبشير بن معرور: يا معشر اليهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمّد ﷺ ونحن أهل الشرك، وتخبرونا بأنّه مبعوث، فقال لهم سلام بن مثكم: ما جاء بشيء، وما هو بالذي كنّا نذكر لكم، فأنزل الله ذلك.

وقال قوم: معنى ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ يستحكمون ربّهم على كفّار العرب، كما قال الشاعر:

ألا أبلغ بني عُصم رسولا    فانّي عن فُتاحتكم غنيّ[1]

أي محاكمتكم.

---

١. قائله الاسعر الجعفي. اللسان (فتح) وروايته:

ألا من مبلغ عمراً رسولا    فانّي عن فتاحتكم غني

وقال قوم: معناه يستعلمون من علمائهم صفة نبيّ يبعث من العرب، وكانوا يصفونه، فلمّا بعث أنكروه.

وأمّا جواب قوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ فقال قوم: ترك جوابه استغناء بمعرفة المخاطبين، معناه كما قال: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾[1] فترك الجواب، وكان تقديره ولو أنّ قرآناً سوى هذا القرآن سيّرت به الجبال، أو قطّعت به الأرض، أو كلّم به الموتى لسيرت بهذا، ترك ذلك لدلالة الكلام عليه، وكذلك الآية الجواب فيها محذوف لدلالة قوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾.

وقال آخرون: قوله: ﴿كَفَرُوا﴾ جواب لقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾، ولقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ ونظيره قوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2] فصار قوله: ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ جواباً لقوله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾، ولقوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾.

ومثله في الكلام قولك: ما هو إلاّ أن جاءني فلان، فلمّا أن قعد وسعت له، فصار قولك: وسعت له جواباً لقولك: ما هو إلاّ أن جاءني، ولقولك: فلمّا أن قعد، وجاء الأوّل للكتاب وجاء الثاني ـ قيل: إنّه ـ للرسول، فلذلك كرّر.

وقوله: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فقد بيّنا فيما مضى معنى اللعنة، ومعنى الكفر فلا وجه لاعادته، وقد مضى الجواب عمّن يستدلّ بمثل ذلك على

---

١. الرعد: ٣١.

٢. البقرة: ٣٨.

أنّ الكافر قد يكون عالماً ببعض الأشياء التي أوجبها الله تعالى بخلاف ما يذهب إليه أصحاب الموافاة، وأنّ من عرف الله فلا يجوز أن يكفر.

وانّ المعتمد على ذلك أن نقول: لا يمتنع أن يكونوا قد عرفوا الله وكثيراً ممّا وجب عليهم،لكن لم يكن وقع نظرهم على وجه يستحقون به الثواب،لأنّ ذلك هو الممنوع منه.

وقد بيّنا أيضاً صفة من يتعلّق بذلك من أصحاب الضرورات، لأنّ غاية ما في ذلك أنّ القوم كانوا عارفين فجحدوا ما عرفوا، وليس يمتنع أن يكونوا عارفين استدلالاً ثم جحدوا، فالضرورة لم يجر لها ذكر.

**قوله تعالى:** ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ آية (٩٠).

ومعنى قوله: ﴿اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ أي باعوا به أنفسهم ـ على وزن افتعلوا ـ من الشراء وسمّي البائع الشاري بهذا، لأنّه باع نفسه ودنياه عنده، وأكثر الكلام شريت بمعنى بعت، واشتريت بمعنى ابتعت، قال الشاعر يزيد بن مفرغ الحميري:

وشريت بُرداً ليتني ... من قبل بردٍ كنت هامة[1]

ومعنى قوله: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ باعوه، وربما استعملت اشتريت بمعنى بعت، وشريت بمعنى ابتعت، والأكثر ما قلناه.

---

١. طبقات فحول الشعراء: ٥٥٥ من قصيدة له في هجاء عباد بن زياد ـ وكان قد باع غلاماً لابن مفرغ اسمه برد ـ قوله: كنت هامة: أي كنت هالكاً.

وقوله: ﴿بَغْياً﴾ أي حسداً وتعدياً.

فإن قيل: كيف باعت اليهود أنفسها بالكفر وهل يشتري بالكفر شيء؟

قيل: معنى الشراء والبيع ـ عند العرب ـ هو إزالة ملك المالك إلى غيره بعوض يعتاضه منه، ثم يستعمل ذلك في كلّ معتاض من عمله عوضاً ـ خيراً كان أو شراً ـ يقال: نعم ما باع فلان نفسه به، وبئس ما باع به نفسه، بمعنى نعم الكسب كسبها، وبئس الكسب كسبها، وكذلك قوله: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾، لما أبقوا أنفسهم بكفرهم بمحمد ﷺ وأهلكوها، خاطبهم الله بالعرف الّذي يعرفونه فقال: بئس ما اعتاضوا من كفرهم بالله، وتكذيبهم محمداً ﷺ إذا كانوا رضوا به عوضاً من ثواب الله، وما أعدّ لهم ـ لو كانوا آمنوا بالله وما أنزل على أنبيائه ـ بالنار، وما أعدّ لهم بكفرهم بذلك، ونظير هذه الآية قوله في سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنْ الْكِتَابِ﴾ إلى قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾[١] وكان ذلك حسداً منهم لكون النبوة في غيرهم.

وقوله: ﴿بَغْياً﴾ نصب لأنّه مفعول له، والمعنى فساداً، قال الأصمعي: مأخوذ من قولهم: بغى الجرح إذا فسد، ويجوز أن يكون مأخوذاً من شدة الطلب للمطاول، وسمّيت الزانية بغيّاً لأنّها تطلب، وأصل البغي الطلب، و ﴿بَغْياً أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ﴾ أي لأن ينزّل الله، وكذلك كلّ ما في القرآن، ومثله قول الشاعر:

أتجزع أن بان الخليط المودع     وحبل الصفا من عزة المتقطع

وقوله: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ أي رجعوا.

والمراد رجعت اليهود من بني اسرائيل بعد ما كانوا عليه من الاستنصار لمحمّد ﷺ في الاستفتاح به، وبعد ما كانوا يخبرون الناس من قبل مبعثه أنّه نبيّ

---

١. النساء: ٤٤ – ٥٤.

مبعوث ـ مرتدين على أعقابهم حين بعثه الله نبيّاً ـ بغضب من الله استحقوه منه بكفرهم به وجحدهم بنبوته، وانكارهم إياه.

وقال السدي: الغضب الأوّل حين عبدوا العجل، والثاني حين كفروا بمحمّد ﷺ.

وقال عطا وغيره: الغضب الأوّل: حين غيّروا التوراة قبل مبعث محمّد ﷺ، والغضب الثاني: حين كفروا بمحمّد ﷺ، وقال عكرمة والحسن: الأوّل حين كفروا بعيسى عليه السلام، والثاني: حين كفروا بمحمّد.. وقد بيّنا أنّ الغضب من الله هو إرادة العقاب بهم.

وقوله: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ معناه للجاحدين بنبوة محمّد ﷺ عذاب مهين من الله إمّا في الدنيا، وإمّا في الآخرة، و ﴿مُهِينٌ﴾ هو المذلّ لصاحبه المخزي لملبسه هواناً وذلة.

وقيل: (المهين) هو الّذي لا ينتقل منه إلى اعتزاز وإكرام، وقد يكون غير مهين إذا كان تمحيصاً وتكفيراً ينتقل بعده إلى اعتزاز وتعظيم، فعلى هذا من ينتقل من عذاب النار إلى الجنة، لا يكون عذابه مهيناً، قال المؤرخ: ﴿فَبَاءُو﴾ استوجبوا اللعنة ـ بلغة جرهم ـ ولا يقال باء مفردة حتى يقول بكذا وكذا امّا بخير وامّا بشر، قال أبو عبيدة: ﴿فَبَاءُو بِغَضَبٍ﴾ احتملوه وأقرّوا به، وأصل البواء التقرير والاستقرار، قال الشاعر:

أصالحكم حتى تبوءوا بمثلها ... كصرخة حبلى يسرتها قبولها[1]

---

١ـ قائله الأعشى الكبير، اللسان (قبل) وروايته (أسلمتها قبيلها) أي يئست منها قابلتها التي تستقبل المولود. وديوانه ١٧٧، رقم القصيدة: ٢٣. وروايته يسرتها قبولها أي سهلت ولادتها قابلتها.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ آية بلا خلاف (٩١).

قوله: ﴿بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ يعني القرآن ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعنون التوراة، ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ يعني بما بعده، قال الشاعر:

تمني الأماني ليس شيء وراءها  كموعد عرقوب أخاه بيثرب[1]

وقال الفرّاء: معنى ﴿وَرَاءَهُ﴾ ها هنا سواه، كما يقال للرجل يتكلّم بالحسن: ما وراء هذا الكلام شيء يراد به، ليس عند المتكلّم شيء سوى ذلك الكلام.

ومعنى قوله: ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ وبما سوى التوراة وبما بعده من كتب الله ﷻ التي أنزلها الله إلى رسله.

قوله: ﴿هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً﴾ يعني القرآن مصدّقاً لما معهم ـ ونصب على الحال ـ ويسميه الكوفيون على القطع.

وقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ ضم على الغاية، وكذلك أخواتها نحو بعد وتحت وفوق إذا جعلت غاية ضمّت.

وفي ذلك خبر من الله تعالى ذكره أنّهم من التكذيب في التوراة على مثل الّذي هم عليه من التكذيب بالانجيل والقرآن عناداً وخلافاً لأمره، وبغياً على رسله.

---

١ـ لم نجد هذا البيت في مصادرنا. وفي اللسان (عرقب) بيت للأشجعي عجزه كعجز هذا إلاّ أنّ مواعيد جاءت به بدل كموعد. ويقول بيترب ـ بالتاء ـ مكان في اليمن وبيثرب ـ بالثاء ـ المدينة نفسها.

وقوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني قل يا محمّد ليهود بني اسرائيل إذا قلت لهم آمنوا ـ قالوا لك نؤمن بما أنزل علينا ـ: لم تقتلون إن كنتم مؤمنين بما أنزل الله عليكم ـ أنبياءه ـ وقد حرّم عليكم في الكتاب الّذي أنزل عليكم قتلهم، بل أمركم فيه باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم، وفي ذلك تكذيب لهم في قولهم نؤمن بما أنزل علينا، وتعيير عليهم.

وقوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ وإن كان بلفظ الاستقبال المراد به الماضي، بدلالة قوله: من قبل، وذلك لما مضى، كما قال: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾[١] أي ما تلت. قال الشاعر:

ولقد أمر على اللئيم يسبني     فمضيت عنه وقلت لا يعنيني[٢]

وفي رواية أخرى ثمت، قلت يريد بقوله ولقد أمر بدلالة قوله: فمضيت ولم يقل فأمضي، وقال آخر:

وانّي لآتيكم تشكر ما مضى     من الامر واستيجاب ما كان في غد[٣]

يعني بذلك ما يكون في غد. قال الحطيئة:

شهد الحطيئة حين يلقى ربه     انّ الوليد أحق بالعذر[٤]

يعني يشهد، وقال آخر:

---

١. البقرة: ١٠٢.

٢. قائله رجل من بني سلول. سيبويه: ٤١٦، وشرح شواهد المغني وغيرها كثير، وروايتهم جميعاً ثمت بدل عنه.

٣. قائله الطرماح بن حكيم الطائي، ديوانه: ١٤٦. واللسان (كون) وروايته الاستنجاز بدل استيجاب.

٤. ديوانه: ٨٥، وأنساب الأشراف ٥: ٣٢. من قصيدة قالها في الوليد بن عقبة بن أبي معيط ـ وكان قد حدّه عثمان بن عثمان على شرب الخمر ـ.

فمــا أضــحى ولا أمســيت إلاّ أرانــي مــنكم فــي كوفــان[١]

فقال: أضحى، ثم قال: ولا امسيت، ومثله ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾[٢] أي يستخلده، وقال بعض الكوفيين إنّما قال: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ﴾ وأراد به الماضي كما يقول القائل ـ موبخاً لغيره ـ ومكذباً له: لم تكذب، ولم تبغض نفسك إلى الناس. قال الشاعر:

إذا مـا انتسـبنا لـم تلـدني لئيمـة ولم تجدي من ان تقري به بدا[٣]

فالجزاء المستقبل، والولادة كلّها قد مضت، وجاز ذلك لأنّه معروف، وقال قوم: معناه فلم ترضون بقتل أنبياء الله إن كنتم مؤمنين، وقالت فرقة ثانية: فلم تقاتلون أنبياء الله فعبّر عن القتال بالقتل، لأنّه يؤول إليه.

**قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ آية بلا خلاف (٩٢).

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى﴾ يعني جاء اليهود موسى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالّة على صدقه وصحة نبوته، كقلب العصا حية، وانبجاس الماء من الحجر، واليد البيضاء، وفلق البحر، والجراد، والقمل، والضفادع، وغيرها من الآيات، وسمّاها بينات، لظهورها وتبينها للناظرين إليها أنّها معجزة لا يقدر على أن يأتي بمثلها بشر، وإنّما هي جمع بينة مثل طيبة وطيبات وقوله: ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ يعني بعد ﴿مُوسَى﴾ لما فارقهم ومضى إلى ميقات ربّه.

---

١.اللسان (كوف). والكوفان بتشديد الواو: الاختلاط والشدة والعناء.

٢.الهمزة: ٣.

٣.قائله زائدة بن صعصعة.

ويجوز أن تكون الهاء كناية عن مجيئ، فيكون التقدير: ثم اتخذتم العجل من بعد مجيئ موسى بالبينات ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ كما يقول القائل: جئتني فكرهتك أي كرهت مجيئك، وليس المراد بثم ها هنا النسق، وإنّما المراد بها التوبيخ، والتعجب والاستعظام لكفرهم مع ما رأوا من الآيات، وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ يعني أنّكم فعلتم ما فعلتم من عبادة العجل، وليس ذلك لكم، وعبدتم غير الله، وكان ينبغي لكم أن تعبدوا الله، لأنّ العبادة لا تكون لغير الله، فأنتم بفعل ذلك ظالمون أنفسكم.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ آية بلا خلاف (٩٣).

تقديره واذكروا إذ أخذنا ميثاقكم وعهودكم بأن تأخذوا ما آتيناكم من التوراة التي أنزلها الله على موسى بجد واجتهاد، ومعناه اقبلوا ما سمعتم، كما قيل سمع الله لمن حمده: أي قبل الله حمده، قال الراجز:

بالحمـــد والطاعـــة والتســـليم     خيـــر واعـــفى لفـــتى تميـــم[١]

فصار تقدير الآية: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ بأن ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ واعملوا بما سمعتم وأطيعوا الله ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ من أجل ذلك.

---

١.قائله رجل من ضبة من بني ضرار دعى جبير بن الضحاك. تاريخ الطبري ٤: ٢٢٣. في ذكر سنة ٥٥ وروايته السمع بدل بالحمد.

وقوله: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ كأنّ الكلام خرج مخرج الخبر عن الغائب بعد أن كان الابتداء بالخطاب، لما تقدّم ذكره من ابتداء الكلام إذ كان حكاية، والعرب تخاطب، ثم تعود بعد ذلك إلى الخبر عن الغائب، ثم تخاطب، لأنّ قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ بمعنى قلنا لكم، فأجبتمونا، وقوله: ﴿سَمِعْنَا﴾ إخبار من الله تعالى عن اليهود الذين أخذنا ميثاقهم أن يعملوا بما في التوراة، وأن يطيعوا الله بما يسمعون منها أنّهم قالوا حين قيل لهم ذلك سمعنا قولك وعصينا أمرك، ويحتمل أن يكون ما قالوه لكن فعلوا ما يدلّ على ذلك، فقام الفعل مقام القول. كما قال الشاعر:

امتلأ الحوض وقال قطني ... مهلاً رويداً قد ملأت بطني[١]

وقوله: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ فيه وجوه:

أحدهما ما قال قتادة وأبو العالية: واشربوا في قلوبهم حب العجل، يقال: أشرب قلبه حبّ كذا وكذا، قال زهير:

فصحوت عنها بعد حبّ داخل ... والحبّ يشربه فؤادك داء[٢]

وقالت أعرابية:

بأهلي من عادى ونفسي فداؤه ... به هام قلبي منذ حين ولا يدري

هوى اشربته النفس أيّام جهلها ... ولحّ عليه القلب في سالف الدهر

وقال السدي: لما رجع موسى إلى قومه أخذ العجل الّذي وجدهم عاكفين عليه، فذبحه ثم حرقه بالمبرد، ثم ذراه في اليم فلم يبق بحر يجري

١.اللسان (قطط) وروايته سلا بدل مهلا.

٢.ديوانه: ٣٣٩. وروايته تشربه بضم التاء وسكون الشين وكسر الراء.

يومئذٍ إلاّ وقع فيه شيء منه، ثم قال اشربوا فشربوا، فمن كان يحبه خرج على شاربه الذّهب، والأوّل عليه أكثر محصّلي المفسّرين وهو الصحيح، لأنّ الماء لا يقال فيه: أشرب منه فلان في قلبه، وإنّما يقال ذلك في حب الشيء على ما بيّناه، ولكن يترك ذكر الحب اكتفاء بفهم السامع لمعنى الكلام، إذ كان معلوماً أنّ العجل لا يشربه القلب وأنّ الّذي أشرب منه حبّه، كما قال: ﴿وَاسْأَل الْقَرْيَةَ﴾ وإنّما أراد أهلها. كما قال الشاعر:

حســبت بغــام راحلتــي عناقــاً     وما هـي.ويـب غيـرك بالعنـاق[١]

يريد بذلك حسبت بغام راحلتي بغام عناق. وقال طرفة بن العبد:

ألا إنّنــي ســقيت أســود حالكــا     ألا بجلي من الشراب ألا بجل[٢]

يريد بذلك سقيت سماً أسود، فاكتفى بذكر (أسود) عن ذكر السم لمعرفة السامع بمعنى ما أراد بقوله سقيت أسود. وقال آخر:

وكيــف تواصــل مــن أصــبحت     خلالتـــه كـــأبي مرحـــب؟[٣]

أي كخلالة أبي مرحب، وقال آخر:

---

١ـ اللسان (عنق) أنشده ابن الاعرابي لقريظ يصف الذئب وفي اللسان (بغم) نسبه إلى ذي الخرق. البغام: الصوت من الحيوان الصامت. والعناق: الأنثى من المعز، ويب كلمة تقولها العرب للتحقير بمعنى ويل.

٢. ديوانه: ٣٤٣ أشعار الستة الجاهلين، واللسان(سود) وروايته شربت بدل سقيت بضم السين وتشديد القاف وضم التاء. ويروى سالخاً بدل حالكا واختلف فيما أراد بقوله اسود قيل: الماء، وقيل: المنية، وقيل: السم. وبجلي حسبي.

٣. قائله النابغة الجعدي: اللسان (خلل). أبي مرحب: كنية الظل، ويقال: هو كنية عرقوب الّذي قيل عنه: «مواعيد عرقوب أخاه بيثرب».

وشـر المنايـا ميتـة وسـط أهلـه[١]

أي ميتة ميت، وقد يقول العرب: إذا سرّك أن تنظر إلى السخاء، فانظر إلى هرم[٢] أو إلى حاتم، فيجتزئون بذكر الاسم عن ذكر فعله، للعلم به.

وقوله: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ معناه قل يا محمّد ليهود بني اسرائيل: بئس الشيء يأمركم به إيمانكم إن كان يأمركم بقتل أنبياء الله ورسله والتكذيب بكتبه، وجحد ما جاء من عنده، وقال الأزهري: معنى إن كنتم أي ما كنتم مؤمنين ـ نفياً ـ والأوّل أجود، ومعنى إيمانهم: تصديقهم الّذي زعموا أنّهم مصدّقون، من كتاب الله إذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا: نؤمن بما أنزل علينا.

وقوله: ﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم مصدّقين كما زعمتم، فأخبر أنّ تصديقهم بالتوراة، أنّه كان يأمرهم بذلك، فبئس الأمر يأمرهم به، وإنّما ذلك نفي عن التوراة أن يكون يأمر بشيء بما يكرهه الله من أفعالهم، واعلاماً منه أنّ الّذي تأمرهم به أهواؤهم، وتحمل عليه عداوتهم، وهذا كما يقول الرجل: بئس الرجل أنا إن رضيت بفعلك، أو ساعدتك عليه.

والمعنى وأشربوا في قلوبهم حب العجل بكفرهم، أي لالفهم الكفر وثبوتهم فيه، والكفر يدعو بعضه إلى بعض، ويحسّن بعضه بعضاً، وليس المعنى في قوله: ﴿وَأُشْرِبُوا﴾ أنّ غيرهم فعل ذلك بهم، بل هم الفاعلون له، كما يقول القائل: أنسيت ذلك من النسيان ليس يريد إلاّ أنّك فعلت، وقولهم: لقد أوتي فلان علماً جماً وإن كان هو المكتسب له، وإنّ الجنس الذين قالوا: سمعنا وعصينا غير

---

١.وعجز البيت: كهلك الفتى قد اسلم الحي حاضره.

٢.هرم: هو ابن سنان صاحب زهير بن أبي سلمى، وحاتم: الطائي المشهور.

الذين رفع عليهم الطور بأعيانهم، لكنهم كانوا على منهاجهم وسبيلهم، فأمّا أولئك بأعيانهم، فإنّهم آمنوا إمّا طوعاً وإمّا كرهاً، والمعنى في الباء المتصلة بالكفر: أنّهم كفروا بالله بما أشربوا من محبة العجل، وليس المعنى أنّهم في ذلك أشربوا حبّ العجل جزاءً على كفرهم، لأنّ محبة العجل كفر قبيح، والله لا يفعل الكفر في العبد، لا إبتداء ولا مجازاة.

**قوله تعالى:** ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ آية واحدة بلا خلاف (٩٤).

هذه الآية ممّا احتج الله بتأويلها لنبيّه ﷺ على اليهود الذين كانوا بين ظهراني مهاجره، وفضح بها أحبارهم وعلماءهم، لأنّه دعاهم إلى قضية عادلة بينه وبينهم، كما كان من الخلف الواقع بينهم فقال لفريق من اليهود: إن كنتم صادقين انّ الجنة خالصة لكم دون الناس كلّهم، أو دون محمّد وأصحابه الذين آمنوا به فتمنّوا الموت، لأنّ من اعتقد أنّه من أهل الجنة قطعاً، كان الموت أحبّ إليه من حياة الدنيا التي فيها النغص، وأنواع الآلام، والمشاق، ومفارقتها إلى نعيم خالص يتخلّص به من أذى الدنيا.

وقوله: ﴿فَتَمَنَّوا الْمَوْتَ﴾ ـ وإن كان صورته صورة الأمر ـ المراد به التوبيخ، والزام الحجة.

وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: لو أنّ اليهود تمنّوا الموت لماتوا، ولرأوا مقاعدهم من النار، فقال الله تعالى لهم: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ تحقيقاً لكذبهم، فقطع على أنّهم لا يظهرون التمنّي وفي ذلك أعظم الدلالة على

صدقه، لأنّه أخبر بشيء قبل كونه، فكان كما أخبر، لأنّه لا خلاف أنّهم لم يتمنّوا.

وقيل: انّهم ما تمنّوا، لأنّهم علموا أنّهم لو تمنّوا الموت لماتوا ـ كما قاله ـ فلذلك لم يتمنّوه، وهذا قول ابن عباس، وقال غيره: إنّ الله صرفهم عن إظهار التمنّي، ليجعل ذلك آية لنبيّه ﷺ.

أمّا التمنّي فهو قول لما كان: ليته لم يكن، ولما لم يكن ليته كان، وقال قوم: هو معنى في القلب، غير أنّه لا خلاف أنّه ليس من قبل الشهوة، فمن قال من المفسّرين أنّه أراد فتشهوا، فقد أخطأ.

وقد روي عن ابن عباس أنّه قال: فاسألوا الموت، وهذا بعيد، لأنّ التمنّي بمعنى السؤال لا يعرف في اللغة.

فإن قيل: من أين أنّهم ما تمنّوه بقلوبهم عند من قال انّه معنى في القلب؟

قلنا: لو تمنّوه بقلوبهم لأظهروه بألسنتهم حرصاً منهم على تكذيبه في إخباره، وجهداً في إطفاء أمره.

وهذه القصة شبيهة بقصة المباهلة، وانّ النبيّ ﷺ لمّا دعا النصارى إلى المباهلة امتنعوا لقلّة ثقتهم بما هم عليه، وخوفهم من صدق النبيّ ﷺ.

ومعنى ﴿خَالِصَةً﴾: صافية، يقال خلص لي هذا الأمر أي صار لي وحدي، وصفا لي يخلص خلوصاً وخالصة، والخالصة مصدر كالعاقبة، يقال للرجل: هذا خلصاني أي خالصتي من دون أصحابي.

**قوله تعالى:** ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ آية بلا خلاف (٩٥).

أخبر الله تعالى عن هؤلاء الذين قيل لهم: ﴿تَمَنَّوا الْمَوْتَ إنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بأنّهم لا يتمنّون ذلك أبداً.

وقد بيّنا أنّ في ذلك دلالة على صدق النبيّ ﷺ من حيث تضمّنت أنّهم لا يتمنّون ذلك في المستقبل، وكان كما قال.

وقوله: ﴿أبداً﴾ نصب على الظرف أي لم يتمنّوه أبداً طول عمرهم، كقول القائل: لا أكلّمك أبداً، وإنّما يريد ما عشت.

وقوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أيْدِيهِمْ﴾ معناه بالذي قدّمت أيديهم، ويحتمل أن يكون المراد بتقدمة أيديهم، فتكون (ما) مع ما بعدها بمنزلة المصدر.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ إنّما خص الظالمين بذلك ـ وإن كان عالماً بغيرهم لأنّ الغرض بذلك الزجر ـ كأنّه قال: عليم بمجازاة الظالمين، كما يقول القائل لغيره مهدداً له: انا عالم بك بصير بما تعمله، وقيل: انّه عليم بأنّهم لا يتمنّونه أبداً حرصاً على الحياة، لأنّ كثيراً منهم يعلم أنّه مبطل، وهم المعاندون منهم الذين يكتمون الحقّ وهم يعلمون.

**قوله تعالى:** ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ آية بلا خلاف (٩٦).

قال ابن عباس، وأبو العالية، ومجاهد، والربيع: انّ المعني بقوله: (أحرص الناس على حياة) اليهود، وأحرص من الذين أشركوا وهم المجوس، وهم الذين يود أحدهم لو يعمّر ألف سنة، وما هو بمزحزحه، لأنّه إذا دعا بعضهم لبعض يقول لهم: هزار سال بده أي عشرة آلاف سنة، واليهود أحرص على الحياة منهم.

﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ﴾ أي بمباعده من العذاب أن يعمر لأنّه لو عمّر ما تمنّى لما دفعه طول العمر من عذاب الله تعالى على معاصيه، وإنّما وصف الله اليهود بأنّهم أحرص الناس على حياة لعلمهم بما قد أعدّ الله لهم في الآخرة على كفرهم، ممّا لا يقرّ به أهل الشرك الذين لا يؤمنون بالبعث ويعلمون ما هناك من العذاب، وانّ المشركين لا يصدّقون ببعث ولا عقاب، واليهود أحرص منهم على الحياة وأكره للموت.

وقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنْ الْعَذَابِ أنْ يُعَمَّرَ﴾ يعني وما التعمير وطول البقاء بمزحزحه من عذاب الله، وهو عماد لطلب (ما) الاسم أكثر من طلبها الفعل، كما قال الشاعر:

وهل هو مرفوع بما ها هنا راس[١]

وانّ في قوله: ﴿يُعَمَّرَ﴾ رفع بمزحزحه وحسنت الباء في قوله: ﴿بِمُزَحْزِحِهِ﴾ كما تقول: ما عبد الله بملازمة زيد وهي التي مع ما ذكره عماد للفعل، لاستفتاح العرب النكرة قبل المعرفة.

وقال قوم: انّ هو التي مع ما كناية عن ذكر العمر، وجعل أن يعمّر مترجماً عن هو، يريد ما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمّر أي وإن عمّر، قال الزجاج: وما هو كناية عن أحدهم كأنّه قال: وما أحدهم بمزحزحه من العذاب،

---

١. معاني القرآن للفرّاء ١: ٥٢ صدر البيت: بثوب ودينار وشاة ودرهم.

وقوله: بثوب متعلّق بقوله باع من البيت المتقدّم وهو:

بـأنّ السلامـي الّـذي بضريـة ‏‏ أمير الحمى قد باع حقي بني عبس

ومعنى (فهل هو مرفوع بما ها هنا رأس). فهل نجد ناصراً ينصرنا ويأخذ لنا حقنا، فترفع رؤسنا، وهذه كلمة يقولونها في مثل ذلك.

كأنّه قال: يودّ أحدهم أن يعمّر ألف سنة، وما ذلك العمر بمزحزحه من العذاب، وقوله: ﴿بِمُزَحْزِحِهِ﴾ أي بمبعده، قال الحطيئة:

فقالوا تزحزح لابنا فضل حاجة إليك ولا منا لو هيك رافع[١]

يعني تباعد، يقال منه: زحزحه يزحزحه زحزحة وزحزاحاً، فتأويل الآية: وما طول العمر بمبعده من عذاب الله، ولا منجيه منه، لأنّه لابدّ للعمر من الفناء فيصير إلى الله تعالى، وقال الفرّاء: (أحرص الناس على حياة، ومن الذين أشركوا) أيضاً والله أعلم كقولك هو أسخى الناس من حاتم ومن هرم، لأنّ تأويل قولك: أسخى الناس إنّما هو أسخى من الناس.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ قرئ بالتاء والياء معاً أي لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، بل هو بجميعها محيط، ولها حافظ حتى يذيقهم بها العذاب، ومعنى بصير مبصر عند أهل اللغة وسميع بمعنى مسمع، لكنّه صرف إلى فعيل في بصير وسميع، ومثله ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بمعنى مؤلم و ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ﴾ بمعنى مبدع، وعند المتكلّمين المبصر هو المدرك للمبصرات، والبصير هو الحي الّذي لا آفة به، لأنّه يجب أن يبصر المبصرات إذا وجدت، وليس أحدهما هو الآخر وكذلك سميع ومسمع.

وقوله: ﴿يَوَدُّ﴾ تقول وددت الرجل أود وداً ووداً ووداداً ووداة ومودة واود: لا يكون ماضيه إلاّ وددت.

وقال بعض المفسّرين: انّ تأويل قوله: ﴿لَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾ أي من الناس أجمع، ثم قال: وأحرص من الذين أشركوا على وجه

---

١. الأغاني ١٣: ٦ وقد نسب البيت لقيس بن الحدادية من قصيدة طويلة، نفيسة.

التخصيص، لأنّ من لا يؤمن بالبعث، والنشور، يكون حرصه على البقاء في الدنيا أكثر ممّن يعتقد الثواب والعقاب.

فإن قيل: أليس نجد كثيراً من المسلمين يحرصون على الحياة، ويكرهون الموت؟ فكيف تدلّ هذه الآية على أنّ اليهود لم يكونوا على ثقة ممّا كانوا يدّعونه من أنّهم أولى به من المسلمين ـ مع انّ المسلمين يشاركونهم في الحرص على الحياة ـ وهم على يقين من الآخرة، وما فيها من الثواب والعقاب؟

قيل: انّ المسلمين لا يدّعون أنّ الدار الآخرة لهم خالصة، ولا أنّهم أحباء الله، ولا أنّهم من أهل الجنة قطعاً، كما كانت اليهود تدّعي ذلك، بل هم مشفقون من ذنوبهم، يخافون أن يعذّبوا عليها في النار، فلهذا يشفقون من الموت، ويحبون الحياة، ليتوبوا من ذنوبهم التي يخافون أن يعذّبوا عليها في النار، فلهذا يشفقون من الموت ويحبون الحياة ليتوبوا من ذنوبهم، ويصلحوا أعمالهم، ومن كان على يقين ممّا يصير إليه، لم يؤثر الحياة على الموت.

كما روي عن عليّعليه السلام أنّه قال: «لا أبالي سقط الموت عليَّ أو سقطت على الموت»، وقال: «اللّهمّ سئمتهم وسئموني، فأبدلني بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شراً منّي». وقوله: «اللّهمّ عجل إليَّ الراحة، وعجل لهم الشقوة».

وكما روي عن عمّاررحمه الله أنّه قال يوم صفين: (ألقى الأحبة: محمّداً وصحبه) وكما قال حذيفة عند الموت: (حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم).

**قوله تعالى:** ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

آية واحدة بلا خلاف (٩٧).

أجمع أهل التأويل على أنّ هذه الآية نزلت جواباً لليهود، حين زعموا أنّ جبريل عدوّ لهم، وانّ ميكال وليّ لهم، لما أخبروا أنّ جبريل هو الّذي نزل على محمّد ﷺ، قالوا: جبريل عدوّ لنا، يأتي بالحرب والجدب، وميكائيل يأتي بالسلام والخصب، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ﴾ إذ كان هو المنزل الكتاب عليه، فإنّه إنّما أنزله على قلبه بإذن الله، لا من تلقاء نفسه، وإنّما أنزل لما هو مصدّق بين يديه من الكتب التي في أيديهم، لا مكذّباً لها، وانّه وإن كان فيما أنزل الأمر في الحرب، والشدّة على الكافرين، فإنّه هدىً وبشرى للمؤمنين.

وقوله: ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ ولم يقل على قلبي، كقولك للّذي تخاطبه: لا تقل للقوم إنّ الخبر عندك، ويجوز أن تقول: لا تقل انّ الخبر عندي، وكما تقول: قال القوم جبرائيل عدوّنا، ويجوز أن تقول: قالوا جبرائيل عدوّهم، ولا ينبغي أن يستنكر أحد أنّ اليهود يقولون: إنّ جبرائيل عدونا، لأنّ الجهل في هؤلاء أكثر من أن يحصى، وهم الذين أخبر الله عنهم بعد مشاهدة فلق البحر والمعجزات.

## سبب النزول:

وكان سبب نزول هذه الآية ما روي أنّ صوريا، وجماعة من يهود أهل فدك، لما قدم النبيّ ﷺ المدينة سألوه، فقالوا: يا محمّد كيف نومك، فقد أخبرنا عن نوم النبيّ الّذي يأتي في آخر الزمان؟ فقال: تنام عيناي وقلبي يقظان، فقالوا: صدقت يا محمّد، فأخبرنا عن الولد يكون من الرجل أو من المرأة؟ فقال: أمّا العظام والعصب والعروق، فمن الرجل، وأمّا اللحم والدم والظفر والشعر، فمن المرأة، قالوا: صدقت يا محمّد، فما بال الولد يشبه أعمامه، ليس فيه من شبه أخواله شيء، أو يشبه أخواله ليس فيه شيء من أعمامه شيء؟ فقال: أيهما علا ماؤه كان الشبه له، قالوا: صدقت يا محمّد، فأخبرنا عن ربّك ما هو؟ فأنزل الله

تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾[1]. فقال ابن صوريا: خصلة واحدة إن قلتها آمنت بك واتبعتك، أيّ ملك يأتيك بما ينزل الله لك؟ قال: جبريل، قالوا: ذلك عدوّنا ينزل بالقتال والشدة والحرب، وميكائيل ينزل باليسر والرخاء، فلو كان ميكائيل هو الّذي يأتيك آمنّا بك، فأنزل الله ﷻ هذه الآية.

المعنى:

وقوله: ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني القرآن.

ونصب مصدّقاً على الحال، والهاء في قوله: ﴿نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ﴾ يا محمّد ﴿مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني القرآن، ويعني مصدّقاً لما سلف من كتب الله أمامه التي أنزلها على رسله، وتصديقاً لها: موافقةً لمعانيها في الأمر باتباع النبيّ ﷺ، وما جاء به من عند الله، وإنّما أضافه ﴿هُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ من حيث كانوا المهتدين به، والعالمين العاملين به ـ على ما بيّناه فيما مضى ـ.

**قوله تعالى:** ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ آية (٩٨).

وقد بيّنا اختلاف القرّاء في جبريل وميكائيل ـ وإن كانا من جملة الملائكة ـ فإنّما افردا بالذكر، لأجل أمرين:

أحدهما: ذكرا لفضلهما ومنزلتهما، كما قال: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[2] ولما تقدّم من فضلهما، وأنّ الآية نزلت فيهما، وفيما جرى من ذكرهما.

---

١. الاخلاص بأجمعها.

٢. الرحمن: ٦٨.

والثاني: أنّ اليهود لمّا قالت: جبريل عدوّنا، وميكال وليّنا، خصّا بالذكر، لئلاّ يزعم اليهود أنّ جبريل وميكال مخصوصان من جملة الملائكة، وغير داخلين في جملتهم، فنصّ الله تعالى عليهما، لابطال ما يتأوّلونه من التخصيص، ثم قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ ولم يقل فإنّه، فكرر اسم الله لئلاّ يظنّ أنّ الكناية راجعة إلى جبرائيل، أو ميكائيل، ولم يقل: لهم، لأنّه يجوز أن ينتقلوا عن العداوة بالإيمان.

وفي هذه الآية دلالة على خطأ من قال من المجبرة: انّ الأمر ليس بمحدث احتجاجاً بقوله: ﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[١] قالوا: فلمّا أفرد الأمر بالذكر بعد ذكره الخلق دلّ على أنّ الأمر ليس بمخلوق.

ولو كان الأمر على ما قالوه، لوجب أن لا يكون جبريل وميكائيل من الملائكة، ونظير ذلك أيضاً قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾[٢].

**قوله تعالى:** ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ آية بلا خلاف (٩٩).

المعنى:

معنى الآيات يحتمل أمرين:

أحدهما: ذكره البلخي وجماعة من أهل العلم يعني سائر الآيات المعجزات التي أعطاها الله النبيّ ﷺ من الآيات: القرآن وما فيه، وغير ذلك من الدلالات.

---

١.الأعراف: ٥٤.

٢.الأحزاب: ٧.

وقال بعضهم: هو الإخبار عمّا غمض ممّا في كتب الله السالفة من التوراة، والانجيل، وغيرهما.

وقال ابن عباس: انّ ابن صوريا الفطراني قال لرسول الله ﷺ: يا محمّد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية بينة فنتبعك لها، فأنزل الله في ذلك: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾.

فإن قال بعض اليهود: أنتم مقرّون بآياتنا ونحن نجحد بآياتكم، فحجّتنا لازمة لكم لأنّها مردودة إلى ما تعرفونه؟ قيل لهم: فيجب على هذا ألاّ يكون لكم حجة على الدهرية والبراهمة والثنوية، لأنّهم لا يعترفون بآياتكم.

وإنّما قال: ﴿وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ﴾ ولم يقل الكافرون، وإن كان الكفر أعظم من الفسق، لأحد أمرين:

الأوّل: انّه عنى الخارجين عن أديانهم، وإن أظهروا أنّهم يتمسّكون بها، لأنّ اليهود قد خرجت بالكفر بالنبي ﷺ من شريعة موسى، والفسق هو الخروج عن أمر الله إلى ما يعظم من معصيته.

والثاني: انّه أراد الفاسقين المتمرّدين في كفرهم، لأنّ الفسق لا يكون إلاّ أعظم الكبائر فإن كان في الكفر، فهو أعظم الكفر، وإن كان فيما دون الكفر، فهو أعظم المعاصي، هذا يجيء على مذهب الحسن، لأن ذكر أنّ الفاسقين: عني به جميع من كفر بها، وقد يدخل في هذا الكلام أحد أمرين: أحدهما: لقوم يتوقعون الخبر أو لقرب الماضي من الحال، تقول: قد ركب الأمير، وجاء زيد، وقد عزم على الخروج، أي عازماً عليه، وهي ها هنا مع لام القسم على هذا تقديره قوم يتوقّعون الخبر، لأنّ الكلام إذا أُخرج ذلك المخرج كان أوكد وأبلغ، والآية هي العلامة التي فيها عبرة، وقيل: العلامة هي الحجة، والبينة الدلالة الفاصلة بين القضية

الصادقة والكاذبة مأخوذة من إبانة أحد الشيئين عن الآخر فيزول التباسه به.

**قوله تعالى:** ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ آية واحدة (١٠٠).

المراد بالعهد ها هنا: الميثاق الّذي أخذه الله ليؤمننّ بالنبي الاميّ ـ على قول ابن عباس ـ وقال أبو عليّ: المعني به العهود التي كانت اليهود أعطوها من أنفسهم في أيّام أنبيائهم، وفي أيّام نبيّنا محمّد ﷺ، لأنّهم كانوا عاهدوه أنّهم لا يعينوا عليه أحداً، فنقضوا ذلك وأعانوا عليه قريشاً يوم الخندق.

قال قتادة: معنى نبذه في الآية: نقضه، وقيل: تركه، وقيل: ألقاه، والمعنى متقارب، قال أبو الأسود الدؤلي:

نظـرت إلـى عنوانـه فنبذتـه     كنبذك نعلاً اخلقت من نعالكا[1]

وقوله: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ الهاء والميم عائدتان على المعاهدين، ولا يصلح على الفريق إذ كانوا كلّهم غير مؤمنين، وأمّا المعاهدون: فمنهم من آمن كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار وغيرهما، وإنّما دخلت بل على قوله: ﴿أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ لأمرين:

أحدهما: أنّه لما قال: ﴿نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ﴾ دلّ على أنّه كفر ذلك الفريق بالنقض، وحسن هذا التفصيل، لأنّ منهم من نقض عناداً، ومنهم من نقض جهلاً.

---

١ـ ديوانه: ١١. من أبيات كتب بها إلى صديقه الحصين بن الحر، وهو وال على ميسان، وكان كتب إليه في أمر يهمه فشغل عنه. وقبل البيت:

وخبرني من كنت أرسلت إنّما     أخذت كتابي معرضاً بشمالكا

والوجه الثاني: كفر فريق منهم بالنقض، وكفر أكثرهم بالجحد للحقّ، وهو أمر النبيّ ﷺ وما يلزم من اتباعه، والتصديق به، وقيل: بل يعني أنّ الفريق وإن كانوا هم المعاندون، والجميع كافرون، كما تقول: زيد كريم بل قومه جميع كرام.

وقوله: ﴿أَوَ كُلَّمَا﴾ نصب على الظرف، والعامل فيه نبذ، ولا يجوز أن يعمل فيه عاهدوا، لأنّه متمم (لما) امّا صلة، وامّا صفة.

**قوله تعالى:** ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ آية (١٠١).

قال السدي وأكثر المفسّرين: المعني بالرسول محمّد ﷺ، وقال بعضهم: يجوز أن يعنى به ها هنا الرسالة.

كما قال كثير:

فقد كذب الواشون ما بحت عندهم بلـيلى ولا أرسلتهـم بـرسول[١]

وهذا ضعيف لأنّه خلاف الظاهر قليل الاستعمال، والكتاب يحتمل أن يراد به التوراة، ويحتمل أن يراد به القرآن، قال السدي: نبذوا التوراة، وأخذوا بكتاب آصف، وسحر هاروت وماروت، يعني أنّهم تركوا ما تدلّ عليه التوراة من صفة النبيّ ﷺ، وقال قتادة وجماعة من أهل العلم: إنّ ذلك الفريق كانوا

---

١ـ اللسان (رسل) وقد جاء على وجهين أحدهما برسيل بدل برسول والثاني بسر بدل بليلى، وفي كليهما لقد بدل فقد.

معاندين، وقال أبو عليّ: لا يجوز على جماعتهم أن يكتموا ما علموا مع كثرة عدوّهم، واختلاف هممهم، لأنّه خلاف العادة، ولكن يجوز على الجمع الكثير أن يتواطوا على الكتمان، ولذلك قال: ﴿فَرِيقٌ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ يحتمل أمرين: أحدهما: مصدّق لما معهم، لأنّه جاء على الصفة التي تقدّمت بها البشارة، والثاني: أنّه مصدّق بالتوراة أنّها حقّ من عند الله ـ والأوّل أحسن ـ لأنّ فيه حجة عليهم وعبرة لهم، وقال الحسن: ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة والانجيل، وقال غيره: يصدّق بالتوراة، لأنّ الأخبار ها هنا عن اليهود دون النصارى، وإنّما قال: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ ولم يقل منهم إذ تقدّم ذكرهم، لأحد أمرين:

أحدهما: أنّه لما أريد علماء أهل الكتاب، أعيد ذكرهم لاختلاف المعنى ـ على قول البلخي ـ.

والثاني: أنّه للبيان، وكان يجوز النصب في مصدق، لأنّ كتاباً قد وصف، لأنّه من عند الله ـ على ما قاله الزجاج ـ.

وقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ فمعناه أنّهم يعلمون وكأنّهم لكفرهم وكتمانهم لا يعلمون.

**قوله تعالى:** ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ

بِهِۦ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَزَوۡجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنۡ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡۚ وَلَقَدۡ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشۡتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖۚ وَلَبِئۡسَ مَا شَرَوۡاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمۡۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ آية بلا خلاف (١٠٢).

واختلفوا في المعني بقوله: ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ على ثلاثة أقوال:

فقال ابن جريج وأبو اسحاق: المراد به اليهود الذين كانوا في زمن النبيّ ﷺ.

وقال الجبائي: المراد به اليهود الذين كانوا في زمن سليمان.

وقال قوم: المراد به الجميع وهو قول المتأخّرين، قال: لأنّ مبتغي السحر من اليهود لم يزالوا منذ عهد سليمان إلى أن بعث محمّد ﷺ.

وروي عن الربيع: أنّ اليهود سألوا محمداً ﷺ زماناً عن أمور من التوراة ـ لا يسألونه عن شيء من ذلك إلاّ أنزل الله عليه ما سألوا عنه ـ فيخبرهم، فلما رأوا ذلك قالوا: هذا أعلم بما أنزل علينا منّا وأنّهم سألوه عن السحر وخاصموه به، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾.

ومعنى ﴿تَتْلُو﴾ قال ابن عباس: تتبع، لأنّ التالي تابع، وقال بعضهم: يُدّعى ـ وليس بمعروف ـ.

وقال قتادة وعطا: معناه تقرأ من تلوت كتاب الله: أي قرأته. وقال تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾[1] أي تتبع، وقال حسان بن ثابت:

---

١. يونس: ٣٠.

نبيّ يرى ما لا يرى الناس حوله     ويتلو كتاب الله في كل مشهد[١]

والّذي تتلوه هو السحر ـ على قول ابن إسحاق، وغيره من أهل العلم ـ وقال بعضهم: الكذب، ومعنى قوله: ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾ على عهد سليمان، قال ابن إسحاق وابن جريج: في ملك سليمان حين كان حياً، وهو قول المبرد، وقال قوم: إنّما قال تتلو ﴿عَلَى مُلْكِ﴾ لأنّهم كذبوا عليه بعد وفاته كما قال: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾[٢] وقال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[٣] وقال الشاعر:

عـرضت نصـيحة منّـي ليحيـى     فقـال غششـتني والنصـح مـرّ
وما بـي أن أكـون أعيـب يحيـى     ويحيـى طـاهر الأخـلاق بـرّ
ولكــن قــد أتــاني أنّ يحيــى     يقــال عليــه فــي نفعــاء شــرّ

فإذا صدق قيل تلا عنه، وإذا كذب قيل تلا عليه، وإذا أبهم جاز فيه الأمران، وقوله: ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ قال قوم: هم شياطين الجن، لأنّ ذلك هو المستفاد من اطلاق هذه اللفظة، وقال بعضهم: المراد به شياطين الانس المتمرّدة في الضلالة، كما قال جرير:

أيّام يدعونني الشيطان من غزلي     وكـنّ يـهوينني إذ كنت شيطانـا

وقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ وإن لم يجر لذلك ذكر، يكون هذا تكذيباً له، فمعناه أنّ اليهود أضافوا إلى سليمان السحر، وزعموا أنّ ملكه كان به، فبرّأه الله ممّا قالوا، وهو قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة. وقال ابن إسحاق: قال

---

١. قائله حسان بن ثابت. ديوانه: ٨٨. من أبيات قالها في خبر أم معبد حين خرج رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، وروايته مسجد بدل مشهد.

٢. آل عمران: ٧٥، ٧٨.

٣. الأعراف: ٢٨، يونس: ٦٨.

بعض أحبار اليهود: ألا تعجبون من محمّد ﷺ يزعم أنّ سليمان كان نبيّاً، والله ما كان إلاّ ساحراً، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ وقيل: تقدير الكلام واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان من السحر، فتضيفه إلى سليمان، وما كفر سليمان، لأنّ السحر لما كان كفراً، نفى الله تعالى عنه ذلك على المعنى ـ وإن كانوا لم يضيفوا إليه كفراً ـ.

والسبب الّذي لأجله أضافت اليهود إلى سليمان السحر، انّ سليمان جمع كتب السحر تحت كرسيه، وقيل في خزائنه، لئلاّ يعمل به فلما مات وظهر عليه قالت الشياطين: بهذا كان يتمّ ملكه، وشاع في اليهود وقبلوه، لعداوتهم لسليمان.

وقيل: إنّهم وضعوا كتاب السحر بعد سليمان وأضافوه إليه وقالوا: بهذا كان يتمّ له مكان فيه، فكذّبهم الله تعالى في ذلك، ونفى عنه ذلك.

والسحر والكهانة والحيلة نظائر.

وقوله: ﴿لَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّهم كفروا بما نسبوه إلى سليمان من السحر، والثاني: أنّهم كفروا بما استخرجوه من السحر، والثالث: معناه ولكن الشياطين سحروا، فعبّر عن السحر بالكفر.

وقوله: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ قيل فيه قولان:

أحدهما: أنّهم ألقوا السحر إليهم فتعلّموه، (والثاني: أنّهم دلّوه على استخراجه من تحت الكرسي فتعلموه)[1].

وقوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ قال ابن عباس وقتادة وابن زيد والسدي: انّ ما بمعنى الّذي، وقال الربيع في احدى الروايتين عن ابن عباس: انّها

---

١. ما بين القوسين من مجمع البيان، لأنّ الشيخ ذكر قولين.

بمعنى الجحد، وروي عن القاسم بن محمّد: أنّها تحتمل الأمرين، وموضع ما نصب لفظها على السحر، وقيل انّها عطف على (ما) في قوله: ﴿مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ﴾ وقال بعضهم: موضعها جرّ عطف على ملك سليمان وعلى ما أنزل.

ومن قرأ بكسر اللام في الملكين قال: هما من ملوك بابل وعلوجها [١]، وهو قول أبي الأسود الدؤلي، والربيع، والضحاك، وبه قرأ الحسن البصري، ورواها عن ابن عباس، واختلف من قال بهذا فقال قوم: كانا مؤمنين، ولذلك نهيا عن الكفر، وقال قوم: انّهما كانا نبيين من أنبياء الله، ومن قرأ بالفتح قال قوم منهم: كانا ملكين، وقال آخرون: كانا شيطانين، وقال قوم: هما جبريل وميكائيل خاصة.

واختلفوا في بابل فقال قوم: هي بابل العراق، لأنّها تبلبل بها الألسن، وروي ذلك عن عائشة وابن مسعود، وقيل: بابل دماوند، ذكره السدي، وقال قتادة: هي من نصيبين إلى رأس العين.

وقال الحسن أنّ الملكين ببابل الكوفة إلى يوم القيامة، وانّ من أتاهما سمع كلامهما ولا يراهما، وبابل بلد لا ينصرف.

وقيل في معنى السحر أربعة أقوال:

أحدها: أنّه خدع ومخاريق وتمويهات لا حقيقة لها يخيل إلى المسحور أنّ لها حقيقة.

والثاني: أنّه أخذ بالعين على وجه الحيلة.

---

١.العلوج، جمع علج، ويجمع أيضاً على اعلاج ومعلوجي، ومعلوجاء وهو الرجل الشديد من كفّار العجم، ومنهم من يطلقه على عموم الكافر.

والثالث: أنّه قلب الحيوان من صورة إلى صورة، وانشاء الأجسام على وجه الاختراع ، فيمكن الساحر أن يقلب الإنسان حماراً وينشئ أجساماً.

والرابع: أنّه ضرب من خدمة الجن كالذي يمسك له التجدل فيصرع.

وأقرب الأقوال الأوّل، لأنّ كلّ شيء خرج عن العادة الخارقة، فإنّه لا يجوز أن يتأتى من الساحر، ومن جوّز للساحر شيئاً من هذا، فقد كفر لأنّه لا يمكنه مع ذلك العلم بصحة المعجزات الدالة على النبوات، لأنّه أجاز مثله من جهة الحيلة والسحر.

وقوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ يتصل قوله: ﴿فَلا تَكْفُرْ﴾ بأحد ثلاثة أشياء:

أحدها: فلا تكفر بالعمل بالسحر، والثاني: فلا تكفر بتعلّم السحر ويكون ممّا امتحن الله ﷻ به كما امتحن بالنهر في قوله: ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾[1].

وثالثها: فلا تكفر بواحد منهما للتعلم للسحر والعمل به.

فإن قيل: كيف يجوز أن يعلّم الملكان السحر؟

قيل: يعلّمان ما السحر وكيف الاحتيال به ليجتنب، ولئلاّ يتموّه على الناس أنّه من جنس المعجزات التي تظهر على يد الأنبياء فيبطل الاستدلال به.

وقال جماعة من المفسّرين منهم أبو عليّ وغيره: أنزلهما الله من السماء وجعلهما بهيئة الانس، حتى بيّنا للناس بطلان السحر.

وقال الحسن وقتادة: أخذ عليهما ألا يعلّماه ﴿حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾.

---

١.البقرة: ٢٤٩.

وقوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلا تَكْفُرْ﴾ على قول من جعل (ما) جحداً.

وقوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾.

يحتمل أن يكون ذلك من قول هاروت وماروت وليسا ملكين، كما يقول الغاوي الخليع لنا انّك في ضلال فلا تردّ ما أنا فيه، فيقرّ بالذنب وهو يأتيه.

والتقدير على هذا: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ هاروت وماروت.

فمن قرأ الملكين ـ بفتح اللام ـ وهو قراءة الجمهور اختلفوا، فمنهم من قال: انّ سحرة اليهود زعموا أنّ الله أنزل السحر على لسان جبريل، وميكايل إلى سليمان، فأكذبهم الله بذلك وفي الكلام تقديم وتأخير، فتقديره وما كفر سليمان وما أنزل على الملكين، ولكن الشياطين كفروا، يعلّمان الناس السحر، ببابل هاروت وماروت، وهما رجلان ببابل غير الملكين اسم أحدهما هاروت والآخر ماروت، ويكون هاروت وماروت بياناً عن الناس، وقال قوم: انّ هاروت وماروت ملكان من الملائكة.

واختلفوا في سبب هبوطهما على قولين:

فقال قوم: انّ الله أهبطهما ليأمرا بالدين، وينهيا عن السحر، لأنّ السحر كان كثيراً في ذلك الوقت، ثم اختلفوا فقال قوم: كانا يعلّمان الناس كيفية السحر وينهيانهم عن فعله، ليكون النهي بعد العلم به، لأنّ من لا يعرف الشيء فلا يمكنه اجتنابه، وقال قوم آخرون: لم يكن للملكين تعليم السحر ولا إظهاره، لما في تعليمه من الاغراء بفعله، والثالث هبطا لمجرد النهي ـ إذ كان السحر فاشياً ـ.

وقال قوم: كان سبب هبوطهما أنّ الملائكة تعجّبت من معاصي بني آدم مع كثرة نعم الله عليهم، فقال لهم: أمّا لو كنتم مكانهم لعملتم مثل أعمالهم، فقالوا: سبحانك ما كان ينبغي لنا، فأمرهم أن يختاروا ملكين ليهبطا إلى الأرض.

فاختاروا هاروت وماروت، فاهبطا إلى الأرض، وركّب فيهما شهوة الطعام والشراب والنكاح، وأحلّ لهما كلّ شيء بشرط ألا يشركا بالله، ولا يشربا الخمر، ولا يزنيا، ولا يقتلا النفس التي حرّم الله.

فعرضت لهما امرأة للحكومة فمالا إليها، فقالت لهما: لا أجيبكما حتى تعبدا صنماً، وتشربا الخمر، وتقتلا النفس، فعبدا الصنم وواقعاها، وقتلا سائلاً مرّ بهما خوفاً أن يشهر أمرهما في حديث طويل، لا فائدة في ذكره.

قال كعب: فوالله ما أمسيا من يومهما الّذي اهبطا فيه حتى استكملا جميع ما نهيا عنه، فتعجّبت الملائكة من ذلك ثم لم يقدر هاروت وماروت على الصّعود إلى السماء وكانا يعلمان الناس السحر، ومن قال بعصمة الملائكة، لم يجز هذا الوجه، وقال قوم من أهل التأويل: انّ ذلك على عهد إدريس.

وقوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ قال قوم: معنى تعلم واعلم واحد، كما جاء علمت، واعلمت، وفهمت، وافهمت. كما قال كعب بن زهير:

تعلـم رسـول الله إنّـك مـدركي ... وان وعيداً منك كالأخذ باليد[١]

وقال القطامي:

تعلّـم أن بعـد الـغي رشـداً ... وان لهـذه الغيـر انقشـاعا

ومنهم من قال: تعلم بمنزلة تسبب إلى ما به تعلم من النظر في الأدلّة، وليس في اعلم ذلك، لأنّه قد ينبئهم على ما يعلمه بالتأمّل له، كقوله: اعلم أنّ

---

١. شذور الذهب: ٣٦٢. وهذا بيت من قصيدة طويلة نسبها لانس بن زنيم الديلي يقولها بعد فتح مكة معتذراً لرسول الله ﷺ ممّا كان عمرو بن سالم الخزاعي يقوله فيه وفي أصحابه ومطلعها:

أنت الّذي تهدى معد بأمره ... بل الله يهديهم وقال لك اشهد

الفعل يدلّ على الفاعل، وما لم يسبق المحدث فهو محدث، والأوّل كقوله: تعلم النحو والفقه.

فإن قيل: كيف يفرّق بين المرء وزوجه؟

قلنا فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّه إذا تعلّم السحر كفر فحرمت عليه امرأته.

والثاني: أن يمشي بينهما بالنميمة حتى يفسد بينهما، فيفضي إلى الطلاق والبينونة.

والثالث: قال قتادة وغيره: يوجِد كلّ واحد منهما على صاحبه ويبغّضه إليه.

وقيل: انّه كان من شرع سليمان أنّ من تعلّم السحر بانت منه زوجته، وقوله: ﴿مِنْهُمَا﴾ الضمير ـ قيل: ـ انّه راجع إلى الملكين، وقيل: بل إلى الكفر والسحر، لأنّه تقدّم الدليل عليهما في قوله: ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ كما جاء ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الأشْقَى﴾[1] أي يتجنّب الذكرى.

ومن قال الملائكة معصومون، يقول الكناية ترجع إلى الكفر والسحر لا غير دون الملكين، فكأنّه قيل: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾ مكان ما علّماهم ﴿مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ كقول القائل: ليت لنا من كذا وكذا كذا: أي بدله. قال الشاعر:

جمعت من الخيرات وطباً وعُلبة     وصراً لأخلاف المزممة البزل

---

١.الأعلى: ١٠ – ١١.

ومن كلّ أخلاق الكرام نميمـة وسعياً على الجار المجاور بالنَّجل[١]

يريد جمعت مكان خيرات الدنيا هذه الخيرات الرديئة، والأفعال الدنيئة.

وقوله: ﴿مِنْ أَحَدٍ إلاّ بِإذْنِ اللَّهِ﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: بتخلية الله، والثاني: إلاّ بعلم الله من قوله: ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ معناه اعلموا بلا خلاف، ويقال: أنت آذن اذناً. قال الحطيئة:

ألا يـا هنـد إن جـدّدت وصـلاً وإلا فــــاذنيني بانـــــصرامي[٢]

وقال الحارث بن حلزّة:

آذنتنــــا ببينهــــا اســــماء[٣]

معناه أعلمتنا، والاذن في اللغة على ثلاثة أقسام:

أحدها: بمعنى العلم وذكرنا شاهده.

والثاني: الإباحة والإطلاق كقوله: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾[٤] وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[٥].

---

١. أمالي المرتضى ١: ٤٢١. الوطب صفاء اللبن خاصة. والعلبة: جلدة تؤخذ من جنب البعير فتسوى مستديرة كالقصعة المدورة يشرب بها الرعيان. والصر: شد ضرع النوق الحلوبات والفاعل صرار. والأخلاف: جمع خلف ـ بكسر فسكون ـ ضرع الناقة. والبزل: جمع بازل: الناقة أو البعير إذا استكمل الثامنة، وطعن في التاسعة، وبزل نابه أي انشق عن اللحم. والمزممة: هي التي علق عليها الزمام، والنجل تمزيق العرض بالغيبة. وفي الحديث «من نجل الناس نجلوه».

٢. وعجزه فيهما: وإلاّ فأذنيني عاجلاً بانصرامي.

٣. معلقته الشهيرة وهذا مطلعها. وعجزه: رب ثاو يمل منه الثواء.

٤. النساء: ٢٥.

٥. النور: ٥٨.

والثالث: بمعنى الأمر، كقوله: ﴿نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾[١].

وقد أجمعت الأمة على أنّه لم يأمر بالكفر، ولم يتجه نفي القسم الثالث، ولا يجوز أن يكون المراد ﴿إلاّ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إلاّ بإرادته ومشيئته، لأنّ الإرادة لا تسمّى إذناً، ألا ترى أنّ من أراد الشيء من غيره أن يفعله، لا يقال أذن له فيه؟ فبطل ما قالوه، وقد روي عن سفيان إلاّ بقضاء الله.

والمعنى لقد علمت اليهود أنّ من استبدل السحر بدين الله، ما له في الآخرة من خلاق وهو قول ابن زيد وقتادة.

وقال قوم من المفسّرين، كأبي عليّ، وغيره: كانوا يعطون عليه الأجرة، فذلك اشتراؤهم له، والخلاق: النصيب من الخير، وهو قول مجاهد وسفيان.

وقال قوم: ما له من جهة، وقال الحسن: ما له من دين، قال أمية بن أبي الصلت:

يدعون بالويل فيها لا خلاق لهم ... إلاّ سرابيل من قطر واغلال[٢]

يعني لا نصيب لهم في الآخرة من الخير، ومعنى ﴿شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ﴾ باعوا به أنفسهم في قول السدي وغيره .

فإن قيل: كيف قال: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وقد قال قبله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾؟ قلنا عنه ثلاثة أجوبة:

أحدها: إنّهم فريقان فريق علموا وعاندوا، وفريق علموا وضيّعوا.

والثاني: أنّهم فريق واحد إلاّ أنّهم ذُمّوا في أحد الكلامين بنفي العلم، لأنّه بمنزلة المنتفي، وأخبر عن حالهم في الآخرة، وتقديره أنّهم علموا قدر

---

١. البقرة: ٩٧.

٢. ديوانه: ٤٧. والقطر: النحاس الذائب.

السحر، ولم يعلموا أنّ هلاكهم بتصديقه واستعماله، أو لم يعلموا كنه ما أعدّ الله من العذاب على ذلك وإن علموه على وجه الجملة.

(والثالث) وقال قوم: هو مقدّم ومؤخر، وتقديره وما هم بضارين به من أحد إلاّ بإذن الله، ويتعلّمون ما يضرّهم ولا ينفعهم ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون، ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق.

وقال بعضهم: هما جميعاً خبر عن فريق واحد، وأراد بقوله: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي لو كانوا يعلمون بما علموه فعبر عن المعلوم بالعلم، كما قال كعب بن زهير المزني يصف ذئباً وغراباً تبعاه، لينالا من طعامه وزاده:

إذا حضـراني قلـت لـو تعلمانـه ألـم تعلما أنّي من الزاد مرمل[١]

فاخبر أنّه قال لهما: لو تعلمانه فنفى عنهما العلم، ثم استخبرهما، فقال: ألم تعلما، وكذلك الآية.

وقال قوم: إنّ الّذين علموا الشياطين والذين لم يعلموا الناس دون الشياطين.

وأما الروايات التي في أنّ الملكين أخطآ، وركبا الفواحش، فإنّها أخبار آحاد، من اعتقد عصمة الملائكة يقطع على كذبها، ومن لم يقطع على ذلك جوّز أن تكون صحيحة، ولا يقطع على بطلانها.

والّذي نقوله: إن كان الملكان رسولين فلا يجوز عليهما ذلك، وإن لم يكونا رسولين جاز ذلك ـ وإن لم نقطع به ـ وقد بيّنّا الكلام عليه فيما مضى.

---

١. ديوانه: ٥١، وأمالي الشريف المرتضى ١: ٢٢٤ المرمل الّذي فقد زاده، ومنه الأرمل.

فأمّا ما روي من أنّ النبيّ ﷺ سحر ـ وكان يرى أنّه يفعل ما لم يفعله ـ وأنّه لم يفعله فأخبار آحاد لا يلتفت إليها، وحاشى النبيّ ﷺ من كلّ صفة نقص، إذ تنفر من قبول قوله، لأنّه حجة الله على خلقه، وصفيه من عباده، واختاره الله على علم منه، فكيف يجوز ذلك مع ما جنّبه الله من الفظاظة والغلظة، وغير ذلك من الأخلاق الدنيئة، والخلق المشينة، ولا يجوّز ذلك على الأنبياء إلاّ من لم يعرف مقدارهم ولا يعرفهم حقيقة معرفتهم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ﴾[١] وقد أكذب الله من قال: إن يتبعوا إلاّ رجلاً مسحوراً، فقال: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إنْ تَتَّبِعُونَ إلاَّ رَجُلاً مَسْحُوراً﴾[٢] فنعوذ بالله من الخذلان، ونحمده على التوفيق لما يرضاه.

**قوله تعالى:** ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ آية بلا خلاف (١٠٣).

فإن قيل: ما معنى قول الله تعالى: ﴿لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ وهو خير علموا أو لم يعلموا؟

قيل: لو كانوا يعلمون، لظهر لهم بالعلم ذلك، أي لعلموا أنّ ثواب الله خير من السحر.

وقال أبو عليّ: المعنى في ذلك الدلالة على جهلهم، والترغيب لهم في أن يعلموا ذلك، وأن يطلبوا ما هو خير لهم من السحر، وهو ثواب الله الّذي ينال بطاعته، واتباع مرضاته.

---

١. المائدة: ٦٧.

٢. الإسراء: ٤٧، والفرقان: ٨.

وفيه دلالة على بطلان قول أصحاب المعارف، لأنّهم لو كانوا عارفين ـ على ما يقولونه ـ لما قال: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

والمثوبة: الثواب ـ في قول قتادة والسدي والربيع ـ والثواب: هو الجزاء على العمل بالاحسان وهو منافع مستحقة يقاربها تعظيم وتبجيل.

**قوله تعالى:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ آية بلا خلاف (١٠٤).

وأمّا الآية فللمفسّرين فيها ثلاثة أقوال:

قال ابن عباس ومجاهد: ﴿لا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ أي لا تقولوا: اسمع منّا ونسمع منك.

وقال عطاء: ﴿لا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ أي لا تقولوا خلافاً، وروي ذلك أيضاً عن مجاهد، وهذا لا وجه له ـ إلاّ أن يراد ﴿رَاعِنًا﴾ بالتنوين ـ.

وقيل: معناه ارقبنا. قال الأعشى:

يرعي إلى قول سادات الرجال إذا ابدوا له الحزم أو ما شاءه ابتدعا(١)

يعني يصغي. وقال الأعشى أيضاً:

فظللت أرعاها وظل يحوطها حتى دنوت إذا الظلام دنا لها(٢)

والسبب الّذي لأجله وقع النهي عن هذه الكلمة، قيل فيه خمسة أقوال:

---

١. ديوانه: ٨٦ ابتدع: أحدث ما شاء.

٢. ديوانه: ٢٧.

أحدها: ما قاله قتادة وعطية: أنّها كلمة كانت تقولها اليهود على وجه الاستهزاء.

(الثاني): وقال عطاء: هي كلمة كانت الأنصار تقولها في الجاهلية، فنهوا عنها في الإسلام.

(الثالث): وقال أبو العالية: انّ مشركي العرب كانوا إذا حدّث بعضهم بعضاً، يقول أحدهم لصاحبه ارعنا سمعاً فنهوا عن ذلك.

(الرابع): وقال السدي: كان ذلك كلام يهودي بعينه، يقال له رفاعة بن زيد، يريد بذلك الرعونة فنهي المسلمون عن ذلك.

(الخامس): وقال أبو علي: قد بيّن الله ﷻ أنّها كلمة كانت اليهود تلوي بها ألسنتهم ـ في قوله: ـ ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾[١] ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[٢] ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ﴾[٣] وهو قول ابن عباس وقتادة.

وقيل: ﴿لا تَقُولُوا رَاعِنَا﴾ من المراعاة والمكافأة، فأمروا أن يخاطبوا النبيّ ﷺ بالتوقير والتعظيم، أي لا تقولوا: راعنا سمعك، حتى نفهمك وتفهم عنّا.

وقال أبو جعفر عليه السلام: هذه الكلمة سبّ بالعبرانية ـ إليه كانوا يذهبون ـ.

قال الحسين بن عليّ المغربي: فبحثتهم عن ذلك فوجدتهم يقولون: راع رن، قال: على معنى الفساد والبلاء.

---

١ـ النساء: ٤٦، والمائدة: ١٣.

٢ـ البقرة: ٩٣.

٣ـ النساء: ٤٦.

ومعنى انظرنا يحتمل أمرين: أحدهما: انتظرنا نفهم ونتبيّن ما تعلّمنا، والثاني: قال مجاهد: معناه فقّهنا وبيّن لنا يا محمّد يقال منه: نظرت الرجل انظره نظرة، بمعنى انتظرته وارتقبته، ومنه قوله: ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ﴾[١] أي انتظرونا، وقيل معناه: اقبل علينا.

وقوله: ﴿وَاسْمَعُوا﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: قال الحسن والسدي: إنّ معناه اسمعوا ما يأتيكم به الرسول، والثاني: ما قال أبو عليّ: معناه اقبلوا ما يأمركم به الرسول من قوله: سمع الله لمن حمده، وسمع الله دعاك وقبله.

وقال علقمة والحسن والضحاك: كلّ شيء من القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فإنّه نزل بالمدينة.

**قوله تعالى:** ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ آية واحدة بلا خلاف (١٠٥).

معنى ما يود: ليس يحب، يقال منه: ودّه يودّه ودّاً ووداداً، والمودة المحبة.

﴿وَلَا الْمُشْرِكِينَ﴾ في موضع جر بالعطف على أهل الكتاب، وتقديره ولا من المشركين.

وقوله: ﴿أَنْ يُنَزَّلَ﴾ في موضع نصب بقوله: ﴿يَوَدُّ﴾.

---

١. الحديد: ١٣.

وإنّما ذموا على ذلك ـ وإن كان ذلك ميل الطباع ـ لأنّ ذلك في دلالة على أنّهم فعلوا كراهية لذلك، وتعرّضوا بذلك لعداوة المؤمنين، وكان الذم عليهم لذلك، ولو رفع ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ عطفاً على ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كان جائزاً ولكن لم يقرأ به أحد، ومثله في احتماله الأمرين قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ [1] ـ بخفض الراء وفتحها ـ وقرئ بهما.

و ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ زائدة مؤكدة، كقولك: ما جاءني من أحد، وموضعها رفع، قال أبو ذؤيب:

جزيتك ضِعف الودّ لما استبنته     وما إن جزاك الضعف من أحد قبلي [2]

وأمّا ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فلابتداء الغاية، والتي في قوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ فللتنويع، مثل التي في قوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنْ الأَوْثَانِ﴾[3].

قوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

روي عن عليّ عليه السلام وأبي جعفر الباقر عليه السلام أنّه أراد النبوة، وبه قال الحسن، وأبو عليّ والرماني، والبلخي وغيرهم من المفسّرين، وقال: (يختص بها من يشاء) من عباده، وروي عن ابن عباس أنّه أراد دين الإسلام، وهذا بعيد لأنّه تعالى وصف ذلك بالإنزال، وذلك لا يليق إلاّ بالنبوة.

---

١. المائدة: ٥٧.

٢. اللسان (ضعف ). قال الأصمعي: معناه اضعفت لك الود، وكان ينبغي أن يقول: ضعفي الود.

٣. الحج: ٣٠.

وتقدير الآية ما يحبّ الكافرون من أهل الكتاب، ولا المشركين بالله من عبدة الأوثان، أن ينزل عليكم شيئاً من الخير الّذي عنده، والخير الّذي تمنوه ألاّ ينزله الله عليهم ما أوحى إلى نبيه، وأنزله عليه من الشرائع، والقرآن بغياً منهم وحسداً.

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ خير منه تعالى ان كلّ خيرنا له عبادة في دينهم ودنياهم، فإنّه من عنده ابتداء، وتفضّلاً منه عليهم من غير استحقاق منهم ذلك عليه.

**قوله تعالى:** ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ آية بلا خلاف (١٠٦).

واختلفوا في كيفية النسخ على أربعة أوجه:

قال قوم: يجوز نسخ الحكم والتلاوة من غير افراد واحد منهما عن الآخر.

وقال آخرون: يجوز نسخ الحكم دون التلاوة.

وقال آخرون: يجوز نسخ القرآن من اللوح المحفوظ، كما ينسخ الكتاب من كتاب قبله.

وقالت فرقة رابعة: يجوز نسخ التلاوة وحدها، والحكم وحده، ونسخهما معاً ـ وهو الصحيح ـ.

وقد دللنا على ذلك، وأفسدنا سائر الأقسام في العدة في أصول الفقه، ذلك أنّ سبيل النسخ سبيل سائر ما تعبّد الله تعالى به، وشرّعه على حسب ما يعلم من المصلحة فيه، فإذا زال الوقت الّذي تكون المصلحة مقرونة به، زال بزواله، وذلك مشروط بما في المعلوم من المصلحة به، وهذا القدر كاف في إبطال قول من أبى النسخ ـ جملة ـ واستيفاؤه في الموضع الّذي ذكرناه.

وقد أنكر قوم جواز نسخ القرآن، وفيما ذكرناه دليل على بطلان قولهم، وقد جاءت أخبار متظافرة بأنّه كانت أشياء في القرآن نسخت تلاوتها.

فمنها ما روي عن أبي موسى أنّهم كانوا يقرؤون: لو أنّ لابن آدم واديين من مال لابتغى إليهما ثالث، لا يملأ جوف ابن آدم إلاّ التراب، ويتوب الله على من تاب، ثم رفع[١].

وروي عن قتادة قال: حدّثنا أنس بن مالك أنّ السبعين من الأنصار الذين قتلوا ببئر معونة: ـ قرأنا فيهم كتاباً ـ بلّغوا عنّا قومنا أنّا لقينا ربّنا، فرضي عنّا وأرضانا، ثم أنّ ذلك رفع[٢].

ومنها الشيخ والشيخة ـ وهي المشهورة ـ[٣].

ومنها ما روي عن أبي بكر أنّه قال: كنّا نقرأ: لا ترغبوا عن آبائكم فإنّه كفر[٤].

ومنها ما حكي: أنّ سورة الأحزاب كانت تعادل سورة البقرة ـ في الطول ـ[٥] وغير ذلك من الأخبار المشهورة بين أهل النقل. والخبر على ضربين:

أحدهما: يتضمّن معنى الأمر بالمعروف ـ فما هذا حكمه ـ يجوز دخول النسخ فيه، والآخر يتضمّن الإخبار عن صفة الأمر لا يجوز تغييره في نفسه، ولا

---

١. صحيح مسلم ٣: ١٠٠، وتفسير الطبري ١: ٤٧٩.

٢. تفسير الطبري ١: ٤٧٩، والدر المنثور ٢: ٣٧٣، وتفسير ابن كثير ١: ٤٣٧ وصحيح البخاري باب من تأمّر في الحرب من غير إمرة وباب غزوة الرجيع ورعل وذكوان، ومسند أحمد ٣: ١٠٩ وغيرها.

٣. صحيح البخاري ٨: ٢٦ باب رجم الحبلى، وصحيح مسلم ٥: ١١٦.

٤. الخبر مروي في صحيح البخاري ٨: ٢٦ باب رجم الحبلى، وصحيح مسلم ٥: ١١٦، ومسند أحمد ١: ٤٧ عن عمر بن الخطاب وليس عن أبي بكر.

٥. منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد ٢: ٤٣.

يجوز أن يتغير من حسن إلى قبح أو قبح إلى حسن، فإنّ ذلك لا يجوز دخول النسخ فيه، وقد بينّا شرح ذلك في العدّة[١].

والأفعال على ثلاثة أقسام:

أحدها لا يكون إلاّ حسناً، وثانيها لا يكون إلاّ قبيحاً، وثالثها يحتمل الحسن والقبح بحسب ما يقع عليه من الوجوه.

فالأوّل كإرادة الأفعال الواجبة، أو المندوبة التي لا يجوز تغيّرها، كشكر المنعم، ورد الوديعة، والإحسان الخالص وغير ذلك.

والثاني كإرادة القبيح، وفعل الجهل.

والثالث كسائر الأفعال التي تقع على وجه فتكون حسنة، وعلى آخر فتصير قبيحة.

فالأوّل والثاني لا يجوز فيه النسخ، والثالث يجوز فيه النسخ.

ومن قرأ ننسخ ـ بفتح النون ـ فمن نسخت الكتاب فأنا ناسخ، والكتاب منسوخ، ومن قرأ ـ بضم النون، وكسر السين ـ فإنّه يحتمل فيه أمرين:

أحدهما: قال أبو عبيدة: ما ننسخك يا محمّد، يقال: نسخت الكتاب، وأُنسخه غيري.

والآخر: نسخته جعلته ذا نسخ، كما قال قوم للحجاج ـ وقد قتل رجلاً ـ: أقبرنا فلاناً أي جعله ذا قبر، يقال: قبرت زيداً إذا دفنته، وأقبره الله: جعله ذا قبر، كما قال: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ﴾[٢].

---

١. العدة ٢: ٣٦ – ٣٧ ط بمبئ سنة ١٣١٨.

٢. عبس: ٢١.

وقال الحسن في قوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ أنّ نبيّكم ﷺ أقرئ قرآناً ثم نسيه، فلم يكن شيئاً، ومن القرآن ما قد نسخ وأنتم تقرأونه.

وقال ابن عباس: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ﴾ أي ما نبدّل من آية، ومن قرأ ننسأها بالهمز فإنّ معناه نؤخّرها من قولك نسأت هذا الأمر أنسؤه نساءً إذا أخّرته وبعته بنسأ أي بتأخير، وهو قول عطا وابن أبي نجيح، ومجاهد، وعطية وعبيد بن عمير.

وعلى هذا يحتمل نؤخّرها أمرين:

أحدهما: فلا ننزلها وننزل بدلاً منها ما يقوم مقامها في المصلحة، أو ما يكون أصلح للعباد منها، وهذا ضعيف لأنّه لا فائدة في تأخير ما لا يعرفه العباد، ولا علموه ولا سمعوه.

والثاني: نؤخّرها إلى وقت ثان، فنأتي بدلاً منها في الوقت المقدّم بما يقوم مقامها، فأمّا من حمل ذلك على معنى يرجع إلى النسخ، فليس يحسن لأنّه يصير تقديرها: ما ننسخ من آية أو ننسخها، وهذا لا يجوز.

ومعنى قوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ قيل فيه قولان:

أحدهما: قال ابن عباس: نأت بخير منها لكم في التسهيل والتيسير، كالأمر بالقتال الّذي سهل على المسلمين بدلالة قوله: ﴿الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ﴾[1] أو مثلها كالعبادة بالتوجه إلى الكعبة بعد ما كان إلى بيت المقدس.

والوجه الثاني بخير منها في الوقت الثاني، أي هي لكم خير من الأولى في باب المصلحة، أو مثلها في ذلك، وهو قول الحسن.

---

١. الأنفال: ٦٦.

وهذا الوجه أقوى، وتقديره كأنّ الآية الأولى في الوقت الثاني في الدعاء إلى الطاعة، والزجر عن المعصية، مثل الآية الأولى في وقتها، فيكون اللطف بالثانية كاللطف بالأولى إلاّ أنّه في الوقت الثاني يسهل بها دون الأولى ، وقال أبو عبيدة معنى ننساها أي نمضيها فلا ننسخها، قال طرفة:

أمـون كـألواح الاران نسـأتها على لاحب كأنّه ظهر برجد[1]

يعني أمضيتها ومن قرأ ﴿نُنسِهَا﴾ بضم النون، وكسر السين يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون مأخوذاً من النسيان إلاّ أنّه لا يجوز أن يكون ذلك من النبيّ ﷺ لأنّه لا يجوز ذلك من حيث ينفّر عنه، ويجوز ذلك على الأمة بأن يؤمروا بترك قراءتها، وينسونها على طول الأيّام، ويجوز أن ينسيهم الله تعالى ذلك وإن كانوا جمعاً كثيراً، ويكون ذلك معجزاً بمعنى الترك من قوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[2].

والأوّل عن قتادة، والثاني عن ابن عباس وقال: معناه نتركها لا نبدّلها، وقال الزجاج: ننسها بمعنى نتركها خطأ، إنّما يقال: نسيت بمعنى تركت، ولا يقال: أنسيت بمعنى تركت، وإنّما معنى ننساها نتركها، أي أن نأمركم بتركها.

قال الرماني: إنّما فسّر المفسّرون على ما يؤول إليه المعنى لأنّه إذا أمر بتركها، فقد تركها.

فإن قيل: إذا كان نسخ الآية رفعها وتركها، فما معنى ذلك إلاّ أن يترك، ولم جمع بينهما؟

---

١ـ معلقته المشهورة، واللسان (أرن). ومعنى الأمون التي أمنت أن تكون ضعيفة، والاران: التابوت الّذي تحمل فيه الموتى، واللاحب: الطريق الواضح، والبرجد: كساء من أكسية العرب.

٢.التوبة: ٦٧.

قيل: ليس معنى تركها إلاّ أن يترك، وقد غلط الزجاج في توهمه ذلك، وإنّما معناه اقرارها، فلا ترفع.

كما قال ابن عباس: نتركها، ولا نبدلها وإنّما قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تنبيهاً على أنّه يقدر على آيات وسور مثل القرآن ينسخ بها أمره لنا فيه بما أمرنا، فيقوم في النفع مقام المنسوخ أو أكثر.

وقال بعضهم: معنى أو في الآية الواو، كأن قال: ما ننسخ من آية وننساها نأت بخير منها، فعلى هذا زالت الشبهة.

فإن قيل: أي تعلّق بين هذه الآية وبين التي قبلها؟

قلنا: لما قال في الآية الأولى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ دلّ في هذه الآية على أنّه جلّ وعزّ، لا يخلّيهم من إنزال خير إليهم، خلاف ما يود أعداؤه لهم.

فإن قيل: هل يجوز نسخ القرآن بالسنة أم لا؟ قلنا: فيه خلاف بين الفقهاء، ذكرناه في أصول الفقه، وبين أصحابنا أيضاً فيه خلاف، إلاّ أنّه يقوى في النفس جواز ذلك.

وقد ذكرنا أدلّة الفريقين، والشبه فيها في أصول الفقه لا يحتمل ذكرها هذا المكان، وإنّما اخترنا ذلك لأنّ تلاوة القرآن والعمل بما فيه تابع للمصلحة، ولا يمتنع أن تتغيّر المصلحة، تارة في التلاوة فتنسخ، وتارة في الحكم فينسخ، وتارة فيهما فينسخان، وكذلك لا يمتنع أن تكون المصلحة في أن تنسخ، تارة بقرآن، وتارة بالسنّة المقطوع بها، فذلك موقوف على الأدلّة.

وقوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ لا يدلّ على أنّ السنّة خير من القرآن، لأنّ المراد بذلك نأت بخير منها في باب المصلحة، على أنّ قوله: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ فمن أين انّ ذلك الخبر يكون ناسخاً، فلا متعلق في الآية يمنع من ذلك.

والأولى جوازه، على أنّ هذا وإن كان جائزاً، فعندنا أنّه لم يقع، لأنّه لا شيء من ظواهر القرآن يمكن أن يدّعى أنّه منسوخ بالسنّة إجماعاً، ولا بدليل يوجب العلم، واعيان المسائل فيها خلاف، نذكر ما عندنا فيه إذا مررنا بتأويل ذلك.

وأمّا ما روي عن ابن سعيد ابن المسيب من أنّه كان يقرأ ﴿أو تنسها﴾ بالتاء المعجمة من فوق، وفتح السين، فشاذ لا نلتفت إليه، لأنّا قد بيّنا أنّ النبيّ ﷺ لايجوز عليه أن ينسى شيئاً من وحي الله.

وكذلك ما روي عن أبي رجاء العطاردي ﴿نَنسِهَا﴾ بضم النون الأولى، وفتح الأخرى، وتشديد السين ذكرها شاذة.

وفي الآية دليل على أنّ القرآن غير الله، وانّ الله هو المحدث له، والقادر عليه، لأنّ ما كان بعضه خيراً من بعض، أو شراً من بعض، فهو غير الله لا محالة.

وفيها دليل أنّ الله قادر عليه، وما كان داخلاً تحت القدرة فهو فعل، والفعل لا يكون إلاّ محدثاً، ولأنّه لو كان قديماً لما صحّ وجود النسخ فيه، لأنّه إذا كان الجميع حاصلاً فيما لم يزل، فليس بعضه بأن يكون ناسخاً، والآخر منسوخاً بأولى من العكس.

فإن قيل: لم قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ﴾ أو ما كان النبيّ ﷺ عالماً بأنّ الله على كلّ شيء قدير؟ قلنا عنه جوابان:

أحدهما: أنّ معنى قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ اما علمت؟

والثاني: أنّه خرج ذلك مخرج التقرير، كما قال: ﴿أأنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾[١].

وفيه جواب ثالث: أنّه خطاب للنبيّ ﷺ والمراد أُمته ؛ بدلالة قوله بعد ذلك: ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾.

**قوله تعالى:** ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ آية (١٠٧).

﴿الولي﴾ في الآية: هو القيم بالأمر، من وليه الشيء، ومنه ولي عهد المسلمين، ومعنى قوله: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ سوى الله، قال أمية بن أبي الصلت:

يا نفس ما لك دون الله من واقي     وما على حدثان الدهر من باقي[٢]

وفي قوله: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: التحذير من سخط الله وعقابه إذ لا أحد يمنع منه.

والثاني: التسكين لنفوسهم انّ الله ناصرهم دون غيره، إذ لا يعتد بنصر أحد مع نصره.

والثالث: التفريق بين حالهم وحال عبّاد الأوثان، مدحاً وذماً لأولئك، وبهذا قال أبو عليّ الجبائي:

وإنّما قال للنبيّ ﷺ: ﴿ألم تعلم أنّ الله له ملك السماوات والأرض﴾ وإن كان النبيّ ﷺ عالماً بانّ له الملك كلّه، لأمرين:

أحدهما: التقرير والتنبيه الّذي يؤول إلى معنى الإيجاب، كما قال جرير:

---

١.المائدة: ١١٦.

٢.ديوانه: ٤٣.

ألستم خير من ركب المطايا  واندى العالمين بطون راح؟

وأنكر الطبري أن يدخل حرف الاستفهام على حرف الجحد بمعنى الاثبات.

والبيت الّذي أنشدناه يفسد ما قاله، وأيضاً قوله: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾[١] وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[٢] وغير ذلك يفسد ما قاله.

والوجه الثاني: أنّه خطاب للنبيّ ﷺ والمراد به أمته، كما قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾[٣] وقال جميل بن معمر:

ألا انّ جيراني العشية رائح  دعتهم دواع من هوى ومنادح[٤]

وإنّما يحسن ذلك، لأنّ غرضه الخبر عن واحد فلذلك قال (رائح)، وقال أيضاً:

خليلي فيما عشتما هل رأيتما  قتيلاً بكى من حب قاتله قبلي[٥]

يريد قاتلته، فكنّى بالمذكر عن المؤنث. قال الكميت:

إلى السراج المنير أحمد لا  يعدلني رغبة ولا رَهَب[٦]

---

١.القيامة: ٤٠.

٢.الزمر: ٣٦.

٣.الطلاق: ١.

٤.لم نجده في ديوانه، منادح: البلاد الواسعة البعيدة.

٥.الأمالي ٢: ٧٤، والأغاني ١: ١٧ و ٧: ١٤٠.

٦.الهاشميات ٣٤، والحيوان للجاحظ: ١٧٠ – ١٧١.

عـنه إلـى غيـره ولـو رفـع النـ ـــاس الـيّ العيـون وارتقبـوا[١]

وقيل أفرطت بل قصدت ولو عنّفنـي القائلـون أو ثلبـوا[٢]

لجَّ بتفضيلك اللسان ولو أكثر فيه الضجاج واللجب[٣]

أنت المصفّى المحض المهذب في النـ ـسبة إن نص قومك النسب[٤]

قالوا: إنّما خرج كلامه على وجه الخطاب للنبيّ ﷺ، وأراد به أهل بيته بدلالة قوله: ولو أكثر فيك الضجاج واللجب، لأنّه لا أحد يوصف من المسلمين بتعنيف مادح النبيّ ﷺ ولا بإكثار الضجاج واللجب في إطناب القول فيه.

وإنّما قال: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ﴾ ولم يقل مِلك، لأنّه أراد ملك السلطان والملكة دون الملك، يقال من ذلك: ملك فلان على هذا الشيء يملكه مُلكاً ومَلكاً ومِلكاً. و(النصير) فعيل من قولك: نصرتك أنصرك فأنا ناصر ونصير، وهو المؤيد والمقوي.

**قوله تعالى:** ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ آية بلا خلاف (١٠٨).

---

١.عنه إلى غيره متعلّق بقوله: لا يعدلني... في البيت قبله.

٢.افرطت: جاوزت الحد. قصدت: عدلت بين الافراط والتقصير. الثلب: العيب والذم.

٣.فيك ـ هنا ـ: بسببك ومن أجلك. الضجاج: مصدر ضاجّه ـ بتشديد الجيم ـ يضاجّه مضاجّة وضجاجا: المشاغبة مع الصياح. واللجب ارتفاع الأصوات واختلاطها طلباً للغلبة.

٤.هذّب الشيء: نقاه من كلّ ما يعيب. نصّ الشيء: رفعه وأبانه. يعني أبان فضلهم على غيرهم.

اختلف المفسّرون في سبب نزول هذه الآية، فروي عن ابن عباس أنّه قال: قال رافع بن خزيمة، ووهب بن زيد لرسول الله ﷺ: إئتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرأه، وفجّر لنا أنهاراً، نتّبعك ونصدّقك، فأنزل الله في ذلك من قولهما: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ﴾.

وقال الحسن: عنى بذلك المشركين من العرب لمّا سألوه فقالوا: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً﴾[١] وقالوا: ﴿أَوْ نَرَى رَبَّنَا﴾[٢].

وقال السدي: سألت العرب محمّداً ﷺ أن يأتيهم بالله فيروه جهرة.

وقال مجاهد: سألت قريش محمداً أن يجعل لهم الصفا ذهباً، فقال: نعم هو لكم كالمائدة لبني إسرائيل، فأبوا ورجعوا.

وقال أبو عليّ: روي أنّ النبيّ ﷺ سأله قومه أن يجعل لهم ذات أنواط كما كان للمشركين ذات أنواط، وهي شجرة كانوا يعبدونها، ويعلّقون عليها التمر، وغيره من المأكولات، كما سألوا موسى: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾[٣].

ومعنى ﴿أم﴾ في قوله: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾ التوبيخ، وإن كان لفظها لفظ الاستفهام كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾[٤].

وقوله: ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ معناه قصد الطريق ـ على قول الحسن ـ وسواء بالمدّ تكون على ثلاثة أوجه بمعنى قصد وعدل، وبمعنى وسط، كقوله: ﴿خُذُوهُ

---

١. الإسراء: ٩٢.

٢. الفرقان: ٢١.

٣. الأعراف: ١٣٨.

٤. البقرة: ٢٨.

﴿فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾[١] أي وسطها، قال حسان:

يـا ويـح أنصـار النبـيّ ونسـله     بعد المغيب في سواء الملحد[٢]

وتكون بمعنى غير، كقولك للرجل: أتيت سواك أي غيرك، ومعنى ضلّ ها هنا الذهاب عن الاستقامة، قال الأخطل:

كنتَ القذى في موج أكدر مزبد     قـذف الأتـيّ بـه فـضلّ ضـلالا[٣]

أي ذهبت يميناً وشمالاً، والسبيل والطريق والمذهب نظائر، ويقال: أسبل اسبالاً وسبّله تسبيلاً والسبيل يذكّر ويؤنّث، والجمع السبل.

ووجه اتصال هذه الآية بما قبلها والتعلّق بينهما أنّه لما دلّ الله بما تقدّم من الآيات على تدبير الله لهم فيما يأتي به من الآيات وما ينسخه فكأنّه قال: أم لا ترضون بذلك فتخيّروا الآيات وتسألوا المحالات ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَى﴾ لأنّ الله تعالى إنّما يأتي بالآيات على ما يعلم فيها من المصلحة، فإذا أتى بآية تقوم بها الحجة فليس لأحد الاعتراض عليها، ولا له اقتراح غيرها، لأنّه تعنّت إذ قد صح البرهان بها.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ﴾ معناه من يستبدل الكفر يعني الجحود بالله وبآياته بالتصديّق بالله وبآياته وبالإقرار به.

وقال بعضهم: عبّر بالكفر ها هنا عن الشدّة، وبالإيمان عن الرخاء.

---

١. الدخان: ٤٧.

٢. ديوانه: ٩٨، وروايته رهطه بدل نسله. والقصيدة يرثي بها رسول الله ﷺ المغيب من غيب: وارى. اللحد: القبر.

٣. ديوانه: ٥٠، القذى: ما يكون فوق الماء من أوساخ. وقوله: اكدر: بحر كدر بعد صفاء مزبد: بحر هائج يقذف بالزبد. الأتيّ: السيل. ورواية الديوان: في لج اكدر.

وهذا غير معروف في اللغة ولا العرف، إلاّ أن يراد بذلك الثواب والعقاب اللذان يستحقان عليهما فيكون له وجه في التنزيل.

**قوله تعالى:** ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٠٩) آية واحدة.

المعنى بقوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ـ عن الحسن ـ النصارى واليهود.

وقال الزهري وقتادة: كعب بن الأشرف، وعن ابن عباس حيّ بن أخطب، وأبو ياسر بن أخطب.

وقوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ قال الحارث بن هشام:

وصفحت عنهم والأحبة فيهم  طمعاً لهم بعقاب يوم سرمد

أي لم أحاربهم لأقبض صفاحهم، أو أريهم ذلك في نفسي، ويقال: نظر إليهم صفحاً بقدر ما أبدى صفحته لم يتجاوز.

وقوله: ﴿مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ﴾ قال الزجاج: متعلّق بـ ﴿وَدَّ كَثِيرٌ﴾ لا بقوله: ﴿حَسَداً﴾، لأنّ حسد الإنسان، لا يكون من غير نفسه، وقد يجوز أن يتصل بقوله: ﴿حَسَداً﴾ على التوكيد، كما قال تعالى: ﴿وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[1] ويحتمل

---

١. الأنعام: ٣٨.

وجهاً آخراً وهو أنّ اليهود كما يضيفون الكفر والمعاصي إلى الله تعالى، فقال الله: ﴿مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ﴾ تكذيباً لهم انّها من عند الله.

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقُّ﴾.

قال قتادة: من بعد ما تبيّن لهم أنّ محمّداً رسول الله ﷺ والإسلام دين الله، وهو قول الربيع والسدي وابن زيد، وروى عن ابن عباس مثله.

وقال ابن عباس: انّ قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ منسوخة بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾[١].

وقال قتادة نسخت بقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ الآية، وبه قال الربيع والسدي.

وروي عن أبي جعفر محمّد بن عليّ أنّه قال: لم يؤمر رسول الله ﷺ بقتل، ولا أُذن له فيه حتى نزل جبرائيل عليه السلام بهذه الآية ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾[٢] وقلّده سيفاً.

وقوله: ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ قال أبو عليّ: ﴿بِأَمْرِهِ﴾ لكم يعاقبهم أو يعافيهم هو على ذلك، ثم أتى بأمره فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[٣].

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قيل فيه ثلاثة أقوال:

قال أبو عليّ: إنّه قدير على عقابهم إذ هو ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقال الزجاج: قدير على أن يدعو إلى دينه بما أحب ممّا هو الأليق بانجائكم، أي فيأمر بالصفح تارة وبالعقاب أخرى على حسب المصلحة.

---

١. التوبة: ٥.

٢. الحج: ٣٩.

٣. التوبة: ٢٩.

والثالث: أنّه لما أُمر بالامهال، والتأخير في قوله: ﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا﴾ كأنّ فيه تعلق النفس بالعافية في ذلك، فقال أمهلوهم فإنّهم لا يعجزون الله، ولا يفوتونه، إذ هو ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وإنّما أمرهم بالصفح والعفو وإن كانوا مضطهدين مقهورين مقموعين، من حيث أنّ كثيراً من المسلمين كانوا عزيزين في عشائرهم وأقوامهم، يقدرون على الانتصار والانتقام من الكفّار، فأمرهم الله تعالى بأن يعفوا وإن قدروا حتى يأتي الله بأمره.

**قولـه تعـالى:** ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ آية واحدة بلا خلاف (١١٠).

إن قيل: ما المقتضي لذكر الصلاة والزكاة ها هنا.

قلنا: انّه تعالى لما أخبرهم بشدّة عداوة اليهود لهم وأمرهم بالصفح عنهم قال: ﴿أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فإنّ في ذلك معونة على الصبر مع ما تجزون بهما من الثواب والأجر، كما قال في موضع آخر: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا﴾ معنى ﴿ما﴾ الجزاء، وجوابه ﴿تَجِدُوهُ﴾ ومثله ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا﴾ والخير المذكور في الآية هو العمل الصالح الّذي يرضاه الله، ومعنى ﴿تَجِدُوهُ﴾ أي تجدوا ثوابه، وكذا قال الربيع كما قال ابن نجا:

وســبحت المدينــة لا تلمهــا[1]

---

١. وعجز البيت: رأت قمراً بسوقهم نهاراً.

أي سبحت أهل المدينة، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ معناه أنّه لا يخفى عليه شيء من أعمالكم، جازاكم على الاحسان بما تستحقّونه من الثواب، وعلى الاساءة بما تستحقّونه من العقاب، فاعملوا عمل من يدري أنّه يجازيه من لا يخفى عليه شيء من عمله، ففي ذلك دلالة على الوعد والوعيد، والأمر والزجر، وإن كان خبراً عن غير ذلك في اللفظ.

**قوله تعالى:** ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ آية بلا خلاف (١١١).

قوله: ﴿هُوداً﴾ يريد يهوداً فحذف الياء المزادة ووحّد كان، لأنّ لفظة من قد تكون للواحد وتكون للجماعة، والعرب تقول: من كان صاحباك، ولا يجوز الوقف على قوله: ﴿وَقَالُوا﴾ بل يجب صلته بقوله: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾ الآية.

فإن قيل: كيف جمع بين اليهود والنصارى في الحكاية مع افتراق مقالتهما في المعنى، وكيف يحكي عنهما ما ليس بقول لهما؟

قلنا: فعل ذلك للايجاز والاختصار وتقديره: قالت اليهود لن يدخل الجنة إلاّ من كان يهودياً، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلاّ من كان نصرانياً، فأدرج الخبر عنهما للإيجاز من غير إخلال، إذ شهرة حالهما تغني عن البيان، ومثله في الإدراج، والجمع من غير تفصيل قوله: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا﴾[١] وإنّما كانت الصورة إهبط لإبليس، ثم قيل اهبطا لآدم وحواء، فحكاه على المعنى وتقدير الكلام.

---

١.البقرة: ٣٦.

وقال بعض أهل الكتاب: لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً، وقال بعضهم: لن يدخل الجنة إلاّ من كان نصارى، والبعض الثاني غير الأوّل إلاّ أنّه لمّا كان اللفظ واحداً جمع مع الأوّل. قال حسان بن ثابت:

فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء[1]

تقديره ومن يمدحه وينصره، غير أنّه لما كان اللفظ واحداً أجمع مع الأوّل، وصار كأنّه إخبار به عن جملة واحدة، وإنّما كان حقيقة عن بعضين متفرقين، ومثله ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[2] يعني آدم، ثم قال: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[3] أي من النفس بمعنى الجنس، فهو في اللفظ على مخرج الراجع إلى النفس الأولى، وفي تحقيق المعنى لغيرها.

وهذا قول أكثر المفسّرين السدي وغيره، وفي معنى هود ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّه جمع هائد وهود، كحائل وحول، وعائد وعود، وعائط وعوط، وهو جمع المذكر والمؤنث على لفظ الواحد، والهائد: التائب الراجع إلى الحقّ.

والوجه الثاني: أن يكون مصدراً يصلح للواحد والجمع، كما يقال: رجل فطر، وقوم فطر ونسوة فطر، ورجل صوم وقوم صوم.

---

١. ديوانه من قصيدة يذم بها أبا سفيان بن الحارث حين علم أنّ أبا سفيان هجا رسول الله ﷺ ومطلعها:

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خلاء

ومنها:

ألا أبلغ أبا سفيان عنّي فأنت مجوف نخب هواء

٢. الأعراف: ١٨٩.

٣. الأعراف: ١٨٩.

والثالث: أن يكون معناه إلاّ من كان يهودياً إلاّ أنّ الياء الزائدة حذفت، ورجع إلى معنى الأصل من اليهود.

ومعنى ﴿أَمَانِيُّهُمْ﴾ قال المؤرج: أباطيلهم ـ بلغة قريش ـ وقال قتادة: أماني يتمنونها على الله كاذبة، وبه قال الربيع.

وقيل أيضاً: معناه تلك أقاويلهم وتلاوتهم، كما قال: ﴿لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إلاّ أَمَانِيَّ﴾[1] أي تلاوة.

ومعنى ﴿هَاتُوا﴾ احضروا، وهو وإن كان على لفظ الأمر المراد به الإنكار والتعبير، وتقديره إن آتيتم ببرهان صحّت مقالتكم، ولن يأتوا به، لأنّ كلّ مذهب باطل فلا برهان عليه.

﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي حجتكم.

وفي الآية دلالة على فساد التقليد، لأنّه لو جاز التقليد لما ألزم القوم أن يأتوا فيما قالوه ببرهان، وقد يجوز في العربية أمانيهم بالتخفيف على ما ذكره الزجاج، والثقيل أجود.

**قوله تعالى:** ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ آية بلا خلاف (١١٢).

فإن قيل: أليس بلى إنّما تكون في جواب الاستفهام مثل قوله ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ فكيف دخلت ها هنا؟

قلنا: إنّما جاز ذلك لأنّه يصلح أن يكون تقديره أمّا يدخل الجنة أحد فقيل: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ لأنّ ما تقدّم يقتضي هذا السؤال، ويصلح أن

---

١. البقرة: ٧٨.

يكون جواباً للجحد على التكذيب، كقولك: ما قام زيد فيقول: بل قد قام، ويكون التقدير ها هنا ليس الأمر كما قال الزاعمون ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلاّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى﴾ ولكن ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ فهو الّذي يدخل وينعم فيها، أو بلى من أخلص نفسه لطاعة الله.

ومعنى أسلم يحتمل أمرين: أحدهما: أسلم إلى كذا بمعنى صرفه إليه، كقولك: أسلمت الثوب إليه، والثاني: أسلم له بمعنى أخلص له من قولك: قد سلم الشيء لفلان إذا أخلص له، ومنه قوله: ﴿وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ﴾[١] أي خالصاً، وقال زيد بن عمرو بن نفيل:

وأسلمت نفسي لمن أسلمت     له المزن تحمل عذباً زلالا[٢]

وإنّما جاز أسلم وجهه لله على معنى أسلم نفسه لله على مجرى كلام العرب في استعمال وجه الشيء، وهم يريدون نفس الشيء، إلاّ أنّهم ذكروه باللفظ الأشرف الأنبه ودلّوا عليه به، كما قالﷻ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاّ وَجْهَهُ﴾[٣] أي إلاّ هو، وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾[٤] وقال الأعشى:

أؤول الحكم على وجهه     ليس قضائي بالهوى الجائر[٥]

يعني على ما هو من صحّته وصوابه. وقال ذو الرمة:

---

١.الزمر: ٢٩.

٢.سيرة ابن هشام ١: ٢٤٦، المزن واحدته مزنة: وهو السحاب عامة. وقيل: المزن السحاب البيضاء.

٣.القصص: ٨٨.

٤.الرحمن: ٢٦ – ٢٧.

٥.ديوانه: ١٤٣. رقم القصيدة ١٨. أول الحكم إلى أهله: رده إليهم. الجائر: المنحرف عن الصواب.

فطاوعت همي وانجلى وجه بازل    من الأمر لم يترك خلاجاً بزولها[١]

يريد انجلى البازل من الأمر.

وقال ابن عباس: أسلم وجهه لله أخلص عمله لله، وقال الربيع: أخلص لله، وقال الحسن: يعني بوجهه وجهه في الدين، وقيل: معناه استسلم لأمر الله.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في موضع نصب، لأنّه في موضع الحال، وإنّما قال: ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ﴾ على التوحيد، ثم قال: ﴿وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على الجمع لأنّ من لفظها لفظ الواحد ومعناها الجمع، فمرة تحمل على اللفظ، وأخرى على المعنى، كما قال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾[٢] وفي موضع آخر ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾[٣]. وقال الفرزدق:

تعال فإن عاهدتني لا تخونني    نكن مثل من يا ذئب يصطحبان[٤]

فثنّى واللفظ واحد لأجل المعنى.

فإن قيل: إذا كان قد ذكر ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ فلم قال: ﴿وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؟ قيل عن ذلك جوابان:

أحدهما: الدلالةعلى أنّهم على يقين لا على رجاء يخاف معه ألاّ يكون الموعود به، والثاني: الفرق بين حالهم، وبين حال أهل العقاب الّذي يخافون ويحزنون.

---

١ـ ديوانه: ٥٦ من قصيدة يمدح بها عبيد الله بن عمر بن عبيد الله بن معمر التميمي، طاوعت همي: طاوعت ما همت به نفسي، وقوله: بازل من الأمر هذا مثل، يقال: بزل ناب البعير بزولاً أي انشق وظهر. وخطة بزلاء: تفصل بين الحقّ والباطل. والخلاج: الشك والتردد.

٢. الأنعام: ٢٥، محمّد: ١٦.

٣. يونس: ٤٢.

٤. ديوان الفرزدق: ٨٧٠ تحـ الصاوي.

**قولــه تعــالى:** ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ آية بلا خلاف (١١٣).

اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية، فقال ابن عباس: انّه لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ أتتهم أحبار يهود ؛ فتنازعوا عند رسول الله ﷺ فقال رافع بن خويلد: ما أنتم على شيء، وكفر بعيسى وبالإنجيل.

فقال رجل من أهل نجران من النصارى: ما أنتم على شيء وجحد بنبوة موسى وكفر بالتوراة، فأنزل الله في ذلك الآية إلى قوله: ﴿فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

وقال الربيع: هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ.

ومعنى الآية أحد شيئين:

أحدهما: حلّ الشبهة بأنّه ليس في تلاوة الكتاب معتبر في الإنكار، لما لم يؤت على إنكاره، ببرهان فلا ينبغي أن تدخل الشبهة بإنكار أهل الكتاب لملّة أهل الإسلام، إذ كلّ فريق من أهل الكتاب قد أنكر ما عليه الآخر، ثم بيّن أنّ سبيلهم كسبيل من لا يعلم الكتاب في الإنكار لدين الإسلام من مشركي العرب، وغيرهم ممن الكتاب له فيهم، وجحدهم لذلك سواء، إذ لا حجة معهم يلزم بها تصديقهم، لا من جهة سمع ولا عقل.

والوجه الآخر: الذم لمن أنكر ذلك من أهل الكتاب على جهة العناد، إذ قد ساوى المعاند منهم للحقّ الجاهل به في الدفع له، فلم ينفعه علمه، بل حصل على مضرة الجهل كما حصل عليه من لا علم له به.

فإن قيل: إذا كانت اليهود إنّما قالت: ليست النصارى على شيء في تديّنها في التوراة، فكيف قال: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ وأهل الحقّ أيضاً يقولون مثل قولهم؟

قيل: إنّ المعنى (كذلك قال الذين لا يعلمون الكتاب)، أي فقد ساووا في ذلك من لا كتاب له، وكما لا حجة في جحد هؤلاء كذلك لا حجة في جحدهم، ولم يساووا أهل الحقّ فيه، لأنّهم قالوه عن علم.

والمعنيّ بقوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ ـ في قول السدي ـ هم العرب الذين قالوا: ليس محمّد ﷺ على شيء.

وقال الربيع: قالت النصارى مثل قول اليهود قبلهم، ووجه هذا القول: أي فقد ساووكم يا معشر اليهود في الإنكار وهم لا يعلمون.

وقال عطاء: هؤلاء الذين لا يعلمون أمم كانت قبل اليهود والنصارى، وقبل التوراة والإنجيل.

وقوله: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يحتمل أمرين:[١]

أحدهما: قال الحسن: حكمه فيهم أن يكذبهم جميعاً ويدخلهم النار.

وقال أبو عليّ: حكمه الانصاف من الظالم المكذب بغير حجة ولا برهان للمظلوم المكذب.

---

١. أثبت ثلاثة أمور.

وقال الزجاج: حكمه أن يريهم من يدخل الجنة عياناً، وهذا هو حكم الفصل في الآخرة، فأمّا حكم العقل في الدنيا فالحجة التي دلّ الله بها على الحقّ من الباطل في الديانة.

**قوله تعالى:** ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ آية واحدة (١١٤).

اختلف المفسّرون في المعني بهذه الآية، فقال ابن عباس، ومجاهد، واختاره الفرآء: انّهم الروم، لأنّهم كانوا غزوا بيت المقدس، وسعوا في خرابه حتى كانت أيّام عمر، فأظهر الله عليهم المسلمين، وصاروا لا يدخلونه إلاّ خائفين.

وقال الحسن وقتادة والسدي: هو بخت نصر خرّب بيت المقدس، قال قتادة: وأعانه عليه النصارى، وقال قوم: عنى به سائر المشركين، لأنّهم يريدون صدّ المسلمين عن المساجد، ويحبونه.

وقال ابن زيد، والبلخي، والجبائي والرماني: المراد به مشركي العرب، وضعّف هذا الوجه الطبري من بين المفسّرين بأن قال: إنّ مشركي قريش لم يسعوا قط في تخريب المسجد الحرام.

وهذا ليس بشيء، لأنّ عمارة المساجد بالصلاة فيها، وخرابها بالمنع من الصلاة فيها، وقد روي أنّهم هدموا مساجد كان أصحاب النبيّ يصلّون فيها بمكة، لما هاجر النبيّ وأصحابه.

وقال: وهو أيضاً لا يتعلّق بما قبله من ذم أهل الكتاب، كما يتعلّق إذا عنى به النصارى وبيت المقدس، فيصير الكلام منقطعاً.

فيقال له: قد جرى ذكر لغير أهل الكتاب من المشركين في قوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ وهذا أقرب من اليهود والنصارى، ولأنّ ذلك كلّه ذم، فمرة يوجّه إلى اليهود، ومرة إلى النصارى، ومرة إلى عبّاد الأوثان وغيرهم من أهل الشرك.

فإن قيل: كيف قال: ﴿مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ بالجمع وهو أراد المسجد الحرام، أو بيت المقدس؟ قيل عنه جوابان:

أحدهما: أنّ كلّ موضع منه مسجد، كما يقال لكل موضع من المجلس العظيم مجلس، فيكون اسماً يصلح أن يقع على جملته، وعلى كلّ موضع سجود فيه.

(والثاني): وقال الجبائي لأنّه يدخل فيه المساجد التي بناها المسلمون للصلاة بالمدينة.

وقوله: ﴿مِمَّنْ مَنَعَ﴾.

ومساجد الله قد بيّنا أنّ منهم من قال: أراد المسجد الأقصى، ومنهم من قال: أراد المسجد الحرام، ومنهم من قال: أراد جميع المساجد، وروي عن زيد بن عليّ عن أبيه عليهما السلام أنّه أراد جميع الأرض، لقوله عليه السلام: «جعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً».

وقوله: ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾.

والسعي والعدو والركض نظائر، وضد السعي الوقف.

وقوله: ﴿فِي خَرَابِهَا﴾ فالخرب، والهدم،والنقض نظائر ونقيض الخراب العمارة.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ رفع لأنّه خبر الابتداء وتقديره أيّ أحد أظلم.

وقوله: ﴿أَنْ يُذْكَرَ﴾ يحتمل وجوهاً من النصب، قال الأخفش: يجوز أن يكون على حذف من، وتقديره من أن يذكر، ويجوز أن يكون على البدل من ﴿مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾، وقال الزجاج: يجوز على معنى كراهية أن يذكر، وعلى الوجوه كلّها العامل فيه ﴿مَنَعَ﴾.

ومعنى قوله: ﴿أُوْلَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ﴾ فيها خلاف. قال قتادة: هم اليوم كذلك لا يوجد نصراني في بيت المقدس إلاّ أنهك ضرباً، وأبلغ إليه في العقوبة، وبه قال السدي.

وقال ابن زيد: نادى رسول الله ﷺ ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وقال الجبائي: بيّن الله أنّه ليس لهؤلاء المشركين دخول المسجد الحرام، ولا دخول المساجد، فإن دخل منهم داخل إلى بعض المساجد، كان على المسلمين إخراجه منه إلاّ أن يدخل إلى بعض الحكام بخصومة بينه وبين غيره إلى بعض القضاة، فيكون دخوله خائفاً من الإخراج على وجه الطرد بعد انفصال خصومته، ولا يقعد مطمئناً كما كان يقعد المسلم.

وهو الّذي يليق بمذهبنا، ويمكن الاستدلال به على أنّ الكفّار لا يجوز أن يُمكّنوا من دخول المساجد على كلّ حال، فأمّا المسجد الحرام خاصّة، فإنّ المشركين يمنعون من دخوله، ولا يتركون ليدخلوه لحكومة ولا غيرها، لأنّ الله تعالى قد أمر بمنعهم من دخوله بقوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾[١] يعني المسجد الحرام.

---

١.التوبة: ١٧.

وقال الزجاج: أعلم الله أنّ أمر المسلمين يظهر على جميع من خالفهم حتى لا يمكن دخول مخالف إلى مساجدهم إلاّ خائفاً، وهو كقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1] كأنّه قيل: أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلاّ خائفين، لإعزاز الله الدين وإظهاره المسلمين.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قال قتادة: معناه أنّهم (يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون).

وقال السدي: خزيهم في الدنيا أنّهم إذا قام المهدي، وفتحت قسطنطينية قتلهم، فذلك خزيهم في الدنيا أن يقتلوا إن كانوا حرباً، ويؤدّون الجزية إن كانوا ذمة.

وقال الجبائي: الخزي لهؤلاء الكفّار الذين أمرنا بمنعهم من دخول المساجد على سبيل ما يدخلها المؤمنون.

وقوله: ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال الفراء: يقول فيما وعد الله المسلمين من فتح الروم وإن لم يكن بعد والناس على خلافه، في أنّ معنى الآخرة يوم القيامة، كأنّه قيل: لهم في الآخرة عذاب جهنم.

**قوله تعالى:** ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ آية بلا خلاف (١١٥).

المشرق والشرق: اسمان لمطلع الشمس، والمغرب والغرب: اسمان لغربها.

وإنّما قيل: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ بالتوحيد وله جميع المشارق والمغارب لأحد أمرين:

---

١. التوبة: ٣٣.

أحدهما: أنّه أخرج ذلك مخرج الجنس، فدلّ على الجمع، كما قيل أهلك الناس الدينار والدرهم.

والآخر: أنّه على الحذف، كأنّه قيل المشرق الّذي تشرق منه الشمس كلّ يوم، والمغرب الّذي تغرب فيه كلّ يوم، وإنّما خصّ الله تعالى ذكر ذلك ها هنا لأحد أمور:

أحدها: قال ابن عباس: واختاره الجبائي أنّه رد على اليهود لما أنكروا تحويل القبلة إلى الكعبة، وقال: ليس هو في جهة دون جهة، كما تقول المشبهة.

والثاني: قال ابن زيد وقتادة: كان للمسلمين التوجّه بوجوههم إلى الصلاة حيث شاؤوا، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[1] وإنّما كان النبيّ ﷺ أولاً اختار التوجّه إلى بيت المقدس، وقد كان له التوجّه إلى حيث شاء.

وقال آخرون: كان ابن عمر يصلّي حيث توجّهت به راحلته في السفر تطوعاً، وذكر أنّ رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك ويتأوّل عليه الآية.

وقيل: نزلت في قوم صلّوا في ظلمة وقد خفيت عليهم جهة القبلة، فلما أصبحوا إذا هم صلّوا إلى غير القبلة، فأنزل الله هذه الآية، وهذا قول عبد الله بن عامر عن أبيه والنخعي، والأوّل أقوى الوجوه.

وقوله: ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ المراد بالوجه فيه اختلاف، قال الحسن ومجاهد: المراد به فثمّ جهة القبلة، وهي الكعبة، لأنّه يمكن التوجّه إليها من كلّ مكان. قال ابن بيض:

أيّ الوجـوه انتـجعت قلـت لهـا  لأيّ وجـــه إلاّ إلـــى الحكـــم
متـــى يقـــل صاحبـــا يرادفـــه  هـــذا ابـــن بـيض بالبـــاب يبتســـم

---

١. البقرة: ١٥٠.

وقيل: معناه فثمّ وجه الله، فادعوه كيف توجهتم.

وقال آخرون واختاره الرماني والجبائي: فثم رضوان الله، كما يقال: هذا وجه العمل، وهذا وجه الصواب، وكأنّه قال: الوجه الّذي يؤدّي إلى رضوان الله، وتقدير الآية واتصالها بما قبلها، كأنّه قال: لا يمنعكم تخريب من خرب المساجد أن تذكروه حيث كنتم من أيّ وجه، وله المشرق والمغرب، والجهات كلّها.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ قال قوم: معناه غني، فكأنّه قيل: واسع المقدور، وقال الزجاج: يدلّ على التوسعة للناس فيما رخّص لهم في الشريعة، وكأنّه قيل: واسع الرحمة، وكذلك رخّص في الشريعة، ومعنى القول الأوّل أنّه غني عن طاعتكم، وإنّما يريدها لمنفعتكم، وقال الجبائي: معناه واسع الرحمة.

ومعنى عليم أنّه عالم بوجه الحكمة، فبادروا إلى ما أمركم به من الطاعة، وقيل: واسع الرحمة عليم أين يضعها على وجوه الحكمة. ومعنى (ثَمَّ) هناك، تقول لما قرب من المكان: هنا، وما تراخى: ثمّ وهناك.

**قوله تعالى:** ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبۡحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ آية واحدة بلا خلاف (١١٦).

والمعني بهذه الآية النصارى وقال قوم: النصارى ومشركوا العرب معاً، من حيث قالوا: الملائكة بنات الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، هذا قول الزجاج.

وفي هذه الآية دلالة على أنّه لا يجوز الولد على وجه من الوجوه، لأنّه إذا كان جميع ما في السماوات والأرض ملكاً له، فالمسيح عبد مربوب، وكذلك الملائكة المقرّبون، لأنّ الولد لا يكون إلاّ من جنس الوالد، ولا يكون المفعول إلاّ من جنس الفاعل، وكلّ جسم فعل لله فلا مثل له ولا نظير على وجه من الوجوه تعالى الله عن صفات المخلوقين.

وقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ الأصل في القنوت الدوام، وينقسم أربعة أقسام: الطاعة، كقوله: ﴿كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ أي مطيعون، والقنوت الصلاة كقوله: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي﴾[١] والقنوت: طول القيام، وروي عن جابر بن عبد الله قال: سئل النبيّ ﷺ أيّ الصلاة أفضل؟ فقال: «طول القنوت». ويكون القنوت السكوت، كما قال زيد بن أرقم: كنّا نتكلّم في الصلاة حتى نزلت ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾[٢] فأمسكنا عن الكلام، وقيل في ﴿قَانِتُونَ﴾ ها هنا ثلاثة أقوال:

(الأوّل): قال مجاهد: معناه مطيعون، وطاعة الكافر في سجود ظله، وقال ابن عباس: مطيعون.

الثاني: قال السدي: كلّ له مطيعون يوم القيامة، وقال الربيع: كلّ له قائم يوم القيامة.

الثالث: قال الحسن: كلّ قائم له بالشهادة عبدة.

وقالت فرقة رابعة ـ وهو الأقوى ـ: كلّ دائم على حالة واحدة بالشهادة بما فيه من آثار الصنيعة، والدلالة على الربوبية، وزعم الفراء: أنّها خاصة لأهل الطاعة، بدلالة انّا نجد كثيراً من الخلق غير طائعين، وعلى ما اخترناه لا يحتاج إلى التخصيص.

**قوله تعالى:** ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ آية بلا خلاف (١١٧).

بديع بمعنى مبدع، مثل أليم بمعنى مؤلم، وسميع بمعنى مسمع، وبينهما فرق لأنّ في بديع مبالغة ليس في مبدع، ويستحق الوصف في غير حال الفعل

---

١. آل عمران: ٤٣.

٢. البقرة: ٢٣٨.

على الحقيقة، بمعنى إنّ من شأنه الانشاء، لأنّه قادر عليه، ففيه معنى مبدع، وقال السدي: تقول ابتدعها، فخلقها ولم يخلق قبلها شيئاً[١] تتمثل به، والإبداع، والإختراع، والإنشاء نظائر، وضد الابتداع الاحتذاء على مثال، يقال: أبدع إبداعاً، وابتدع ابتداعاً، وبدّع تبديعاً.

وقال ابن دريد: بدعت الشيء إذا أنشأته، والله ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي منشئهما، وبدعت الركي[٢] إذا استنبطتها، وركيّ بديع: أي جديد الحضر، ولست ببدع في كذا أي لست بأول من أصابه هذا، ومنه قوله: ﴿مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنْ الرُّسُلِ﴾[٣]. وكلّ من أحدث شيئاً فقد أبدعه، والاسم: البدعة، وأبدع بالرجل: إذا كلت راحلته وانقطع به، وقوله: ﴿مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنْ الرُّسُلِ﴾ أي ما كنت بأول مرسل، والبدعة: ما ابتدع من الدين وغيره، وجمعها بدع، وفي الحديث: «كلّ بدعة ضلالة». وتقول: جئت بأمر بديع، أي مبتدع عجيب، وأبدعت الابل: إذا تركت في الطريق من الهزل، وأصل الباب: الإنشاء.

وقوله: ﴿إِذَا قَضَى أَمْراً﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: إذا خلق أمراً، كما قال: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾[٤] أي خلقهنّ، وهو اختيار البلخي، والرماني، والجبائي.

والثاني: حتم بأن يفعل أمراً وحكم، وقيل أحكم أمراً، كما قال أبو ذؤيب:

---

١ـ في تفسير الطبري ـ دار المعارف المصرية ـ ٢: ٥٤١، ابتدعها فخلقها ولم يخلق شيء فيتمثل به ومثله، في الدر المنثور ١: ١١٠.

٢ـ الركي، جمع ركية: البئر تحفر.

٣ـ الأحقاف: ٩.

٤ـ فصلت: ١٢.

وعليهمـــا مســـرودتان قضـــاهما داود أو صـــنع الســـوابغ تبّـــع[١]

ومعنى قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ قيل فيه قولان:

أحدهما: أنّه بمنزلة المثل ومعناه أنّ منزلة الفعل له في السهولة، وانتفاء التعذّر كمنزلة ما يقال له كن فيكون، كما يقال: قال فلان برأسه كذا وقال بيده: إذا حرك رأسه وأومى بيده، ولم يقل شيئاً في الحقيقة، وقال أبو النجم:

إذ قالت الانساع للبطن الحقي قدماً فآضت كالفنيق المحنق[٢]

وقال عمرو بن حممة الدوسي[٣]:

فأصبحت مثل النسر طارت فراخه إذا رام تطياراً يقال لـه قـع[٤]

وقال آخر:

امـتلأ الحـوض وقـال قـطني مهلاً رويداً قد ملأت بطني[٥]

وقال آخر:

---

١. ديوانه: ١٩. واللسان (صنع) من قصيدة يرثي بها أولاده حين ماتوا بالطاعون، ومسرودتان: درعان من السرد وهو الخرز والنسج. تبع: اسم لكل ملك من ملوك حمير. الصنع: الحاذق والامرأة: صناع.

٢ـ اللسان (حنق) ذكر البيتين. وفي قول البيت الأوّل فقط. وروايته قد قالت بدل إذ قالت. والرجز لأبي النجم العجلي يصف الشاعر ناقة أنضاها السير. الانساع: جمع نسع ـ بكسر النون وسكون السين ـ وهو السير: خيط من الجلد. ولحق البطن: ضمر. وآض: صار ورجع، الفنيق: الجمل الفحل. والمحنق: الضامر القليل اللحم.

٣. وهو أحد المعمرين زعموا أنّه عاش ثلاثمائة وتسعين سنة وهو أيضاً أحد حكام العرب، وفي مجمع الأمثال للميداني ١: ٤١ نسبه في أربعة أبيات أخرى إلى عامر بن الظرب وهو من المعمّرين أيضاً.

٤. الحماسة للبحتري: ٢٠٥.

٥. اللسان (قطط) البيتان. وقول البيت الأوّل فقط.

فقالت له العينان سمعاً وطاعة وحدّرتا كالدر لما يثقب[١]

وقال العجاج يصف ثوراً:

وفيه كالاعواض للعكور فكر ثم قال في التفكير

أنّ الحياة اليوم في الكرور

والوجه الآخر أنّه علامة جعلها الله للملائكة إذا سمعوها، علموا أنّه أحدث أمراً، وكلاهما حسن، والأوّل أحسن وأشبه في كلام العرب في عادة الفصحاء، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[٢] وهو الّذي اختاره البلخي، والرماني، وأكثر المفسّرين، وقد قيل في ذلك أقوال فاسدة، لا يجوز التعويل عليها:

أنّ الأمر خاص في الموجودين الذين قيل لهم ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾[٣] ومن جرى مجراهم، لأنّه لا يؤمر المعدوم عندهم.

ومنها: أنّه أمر للمعدوم من حيث هو لله معلوم، فصح أن يؤمر فيكون.

ومنها: أنّ الآية خاصّة في الموجودات من إماتة الاحياء واحياء الموتى وما جرى مجرى ذلك من الأمور، وإنّما قلنا بافساد هذه الأقوال، لأنّه لا يحسن أن يؤمر إلاّ من كان عاقلاً مميزاً يقدر على ما أمر به، ويتمكن من فعله، وجميع ما ذكروه بخلافه، لأنّ المعدوم ليس بحي، ولا عاقل، ولا يصحّ أمره، ومن كان موجوداً لا يجوز أن يؤمر أن يكون قردة، لأنّ المعاني التي تكون بها كذلك، ليس في مقدوره، كذلك القول في الإماتة والاحياء.

---

١ـ اللسان (قول) وروايته قالت بدل فقالت وبالفاء أتم للوزن. وفي مجمع البيان وقالت بالواو. وفي الخصائص لابن جني ١: ٢٢: وأبدت كمثل الدر.

٢ـ حم – السجدة: ١١.

٣ـ البقرة: ٦٥.

وتأويـل قولـه: ﴿كُونُـوا قِـرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ قـد بيّناه فيمـا مضـى، فقـال بعضهم: إنّه أمر للموجود في حال كونه لا قبله ولا بعده، وانّه مثل قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنْ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾[1] وأنّ دعاء الله إياهم لا يتقدّم خروج القوم من قبورهم، ولا يتأخّر عنه، وهذا فاسد لأنّ من شرط حسن الأمر أن يتقدّم المأمور به، وكذلك القول في الدعاء، فلا يسلم ما قالوه، وتأويل ما استشهدوا به على ما بيّناه في الآية سواء في أنّه اخبار عن تسهيل الفعل وسرعة وقوعه وارادته، لا أن يكون هناك دعاء على الحقيقة، ثم يلزم على جميع ما ذكروه أن تكون الأشياء مطيعة لله تعالى، لأنّ الطاعة هي مانعة الأمر من الأشياء التي قالها: كوني بأن فعلت نفسها، ويلزم أن يكون لها عقل وتمييز وكلّ ذلك فاسد.

فأمّا من استدلّ بهذه الآية ونظائرها على أنّ كلام الله قديم من حيث أنّه لو كان محدثاً لاقتضى ألا يحصل إلاّ بكُنْ، والكلام في كُنْ كالكلام فيه إلى أن ينتهي إلى كن قديمة، وهو كلام الله القديم، فهذا باطل لأنّا قد بينّا معنى الآية، فلا يصحّ ما قالوه.

على أنّ الآية تقتضي حدوث كلامه من حيث أخبر أنّ المكونات تكون عقيب كن لأنّ الفاء توجب التعقيب، فإذا كانت الأشياء محدثة، فما يتقدّمها بوقت واحد لا يكون إلاّ محدثاً فبطل ما قالوه، وأيضاً فإنّه قال: ﴿إِذَا قَضَى أَمْراً﴾ ومعناه خلق، فبيّن أنّه يخلق الأمر وقوله: ﴿كُنْ﴾ أمر يوجب أن يكون محدثاً.

ودلّت الآية على نفي الولد عن الله من وجهين:

---

١.الروم: ٢٥.

أحدهما: أنّ الّذي ابتدع السماوات والأرض من غير مثال هو الّذي ابتدع المسيح من غير والد.

والآخر: أنّ من هذه صفته، لا يجوز عليه اتخاذ الولد، كما لا يجوز صفات النقص عليه تعالى عن ذلك، وإذا حملنا الآية على وجود المثال، فوجود الخلق هو كقوله: كُنْ إلاّ أنّه خرج على تقدير فعلين، كما يقال: إذا تكلّم فلان بشيء فإنّما كلامه مباح، وإذا أمر بشيء فإنّما كلامه مباح، وإذا أمر بشيء فإنّما هو حتم، وكما قال: تاب فاهتدى، فتوبته هي اهتداؤه، فلا يتعذّر أن يقال: كن قبله أو معه.

ومتى حملنا ذلك على أنّه علامة للملائكة فإنّه يحتمل أن يكون معه، ويحتمل أن يكون قبله، كما تقول: إذا قدم زيد قدم عمرو، فإنّه يحتمل أن يكون وقتاً للأمرين معاً إلاّ أنّه أشبه الشرط، كقولك: إن جئتني أعطيتك، ولذلك دخلت الفاء في الجواب، كما يجيىء في الشرط، كقوله: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾[1] وكذلك تحتمل الآية الأمرين.

**قوله تعالى:** ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٌۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ آية بلا خلاف (١١٨).

المعني بهذه الآية في قول مجاهد: النصارى، وقول ابن عباس: اليهود، وفي قول الحسن وقتادة: مشركوا العرب، وكلّ ذلك يحتمل، غير أنّه لمشركي العرب أليق، لأنّه يشاكل ما طلبوا حين قالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنْ

---

١. يوسف: ٧٧.

الأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ إلى قوله: ﴿هَلْ كُنتُ إلاَّ بَشَراً رَسُولاً﴾[١].

ويقوي ذلك قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾: الكتاب، فبيّن أنّهم ليسوا أهل كتاب، ومن اختار أنّ المراد بها النصارى قال: لأنّه قال قبلها: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾[٢] وهذا لا دلالة فيه، ولا يمتنع أن يذكر قوماً ويخبر عنهم، ثم يستأنف قوماً آخرين فيخبر عنهم، على أنّ مشركي العرب قد أضافوا إلى الله البنات، فدخلوا في جملة من قال: ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾.

ومعنى قوله: ﴿لَوْلا﴾ هلاّ، كما قال الأشهب بن رميلة:

تعدّون عقر النيب أفضل مجدكم ... بني ضوطرى لولا الكمي المقنعا[٣]

أي هلاّ تعقرون الكمي المقنعا، وإنّما قال: ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ وقد جاءتهم الآيات، لأنّهم طلبوا آية، كما أنّ آية الرسل توافق دعواتهم ؛ ويكلّمهم الله كما كلّمهم الله.

والمعني بقوله: ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾ اليهود على قول مجاهد، وعلى قول قتادة والسدي والربيع: اليهود والنصارى، والضمير في قوله: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني كناية عن قلوب اليهود والنصارى ـ على قول مجاهد ـ وعلى قول الربيع وقتادة: عن العرب واليهود والنصارى وغيرهم، فقوله: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني في الكفر بالاعتراض على أنبياء الله بالجهل، لأنّ اليهود قالت لموسى: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وقالت النصارى للمسيح: ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ وقالت العرب لمحمّد ﷺ: حوّل لنا الصفا ذهباً وغير ذلك، وكذلك قال

---

١.الإسراء: ٩٠ – ٩٣.

٢.البقرة: ١١٦.

٣.وقيل أنّه لجرير وهو مذكور في ديوانه: ٣٣٨. وروايته أفضل سعيكم. والبيت من قصيدة طويلة في مناقضة جرير والفرزدق. والكمي: الشجاع.

الله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾[١] وروي عن ابن إسحاق أنه قرأ ﴿تَشَابَهَتْ﴾ ـ بتشديد الشين ـ خطأ، لأنّ ذلك إنّما يجوز في المضارع، بمعنى تتشابه ـ فتدغم احدى التائين في الشين ـ هكذا قال الفراء، وغيره من أهل العلم.

وقوله: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ معناه أيقن بها قوم من حيث دلّتهم على الحقّ، فالواجب على كلّ هؤلاء أن يستدلّوا بها، ليصلوا إلى اليقين كما وصل غيرهم إليه بها.

واليقين والعلم والمعرفة نظائر في اللغة، ونقيضه الشك والجهل، تقول: أيقن ايقاناً، وتيقن تيقناً، واستيقن استيقاناً، وقال صاحب العين: اليقين النفس. قال الشاعر:

وما بالّذي أبصرته العيو ... ن من قطع يأس ولا من يقن[٢]

واليقين: علم يثلج به الصدر، ولذا يقولون: أجد برد اليقين، ولا يقولون: وجد برد العلم، فإن قيل: لم لم يؤتوا الآيات التي طلبوها، لتكون الحجة آكد؟

قلنا: إظهار الآيات يعتبر فيه المصالح، وليس بموقوف على اقتراح العباد، ولو علم الله أنّ ما اقترحوا من الآيات فيه مصلحة لأظهرها، فلما لم يظهرها علمنا أنّه لم يكن فيها مصلحة لنا أصلاً.

**قوله تعالى:** ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ آية بلا خلاف (١١٩).

معنى قوله: ﴿وَلا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ تسلية للنبيّ ﷺ فقيل له: (إنّما أنت بشير ونذير) ولست ﴿تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ﴾ ومثله قوله: ﴿فَلا

---

١.الذاريات: ٥٣.

٢.اللسان (يقن) اليقن ـ بفتح الياء والقاف ـ.

تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾[١] وقوله: ﴿عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾[٢].

وفي الآية دلالة على أنّه لا يؤخذ أحد بذنب غيره قريباً كان منه أو بعيداً، كما بيّن الله أنّه لا يطالب أحد بذلك غيره، وإن كان قد فرض على النبيّ ﷺ أن يدعو إلى الحقّ، ويزجر عن الباطل، وليس عليه أن يقبل المدعو، ومن قرأ بلفظ النهي قال الزجاج: يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون أمره بترك المسألة، والآخر: ما قاله الأخفش أن يكون المعنى على تفخيم ما أعد لهم من العقاب، كما يقال لا تسأل عن فلان، أي قد صار إلى أمر عظيم، وقال قوم: لو كان على النّهي لقال فلا بالفاء لأنّه يصير بمنزلة الجواب، كأنّه يدلّ على انّا أرسلناك بالحقّ ولا تسأل عن أصحاب الجحيم، ولا يحتاج بالرفع إلى الفاء، وإذا كان على الرفع فظاهر الكلام الأوّل يقتضيه اقتضاء الأحوال، أو اقتضاء البيان الّذي يجري مجرى الحجاج على من اعترض بأنّ فعل الداعي إلى الإيمان لا يحل موقعه إلاّ بأن يقبل المدعو إليه.

وأمّا إيصاله بما تقدّم على الجزم، فإنّما هو على معنى التغليظ لشأن الجحيم، ليزجر بذلك عن ترك اتباعه ﷺ والتصديق بما أتى به من البشارة، قال أبو عليّ الفارسي: إنّما تلزم الفاء إذا كان الكلام الأوّل علّة فيما بعد ذلك، كقولك: أعطيك فرساً فلا تسأل شيئاً آخراً، والآية بخلاف ذلك.

وفي الناس من قال: القراءة بالجزم مردودة، لأنّه لم يتوجّه له اتصال الكلام، ولا كيف جاء بالواو دون الفاء، وقد بيّنا الاتصال، فأمّا المجيئ بالواو

---

١. البقرة: ٢٧٢.

٢. النور: ٥٤.

فلأنّه لم يرد الدلالة على معنى الجواب، ولكن عطف جملة على جملة تتعلّق بها وتقضي على ما انطوى عليه معناها، ومعنى الحقّ في قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الإسلام ﴿بشيراً﴾ من اتبعك عليه بالثواب ﴿نذيراً﴾ من خالفك فيه بالعقاب، وقيل: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ يعني على الحقّ، كما قال: ﴿اللَّهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾[1] كأنّه قال: على أنّهما حقّ لا باطل.

**قوله تعالى:** ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾(١٢٠).

قيل في معنى هذه الآية قولان:

أحدهما: أنّ النبيّ ﷺ كان مجتهداً في طلب ما يرضيهم، ليقبلوا إلى الإسلام ويتركوا القتال، فقيل له: دع ما يرضيهم إلى ما أمر الله به من مجاهدتهم.

والآخر: قال الزجاج: كانوا يسألونه عليه السلام الهدنة والمسالمة ويرونه أنّه إن أمهلهم أسلموا، فأعلمه الله أنّهم لن يرضوا عنه حتى يتبع ملّتهم.

وهذه الآية تدلّ أنّه لا يصلح إرضاء اليهود ولا النصارى على حال، لأنّه تعالى علّقه بأنّ اليهود لا يرضون عنه حتى يكون ﷺ يهودياً، والنصارى لا يرضون عنه حتى يكون نصرانياً، فاستحال أن يكون يهودياً نصرانياً في حال، واستحال إرضاؤهم بذلك.

---

١. إبراهيم: ١٩.

وقوله: ﴿قُلْ إنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ معناه هو الّذي يهدي إلى الجنة، لا اليهودية ولا النصرانية.

وقيل: إنّ معناه الدعاء إلى هدى الله الّذي يكذب قولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلاّ مَنْ كَانَ هُوداً أوْ نَصَارَى﴾[١] وهي الأدلّة الواضحة على أنّ المطيع لله هو الّذي يفوز بثوابه في الجنة، لا من ذكروه من العصاة له.

وهذه الآية تدلّ على أنّ من علم الله منه أنّه لا يعصي، يتناوله الوعيد والزجر، لأنّه تعالى علم أنّ النبيّ ﷺ لا يعصي ولا يتبع أهواءهم.

وفيها دلالة على أنّ كلّ من اتبع الكفّار على كفرهم ما له من الله من ولي ولا نصير، لأنّه إذا وجب ذلك في متبع واحد، وجب ذلك في الجميع.

**قوله تعالى:** ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ آية بلا خلاف (١٢١).

المعني بهذه الآية ـ في قول قتادة واختيار الجبائي ـ أصحاب النبيّ ﷺ الذين آمنوا بالقرآن وصدّقوا به، وقال ابن زيد: هو من آمن بالنبيّ ﷺ من بني إسرائيل، والكتاب على قوله: التوراة.

ومعنى قوله: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾ قال ابن عباس: يتبعونه حقّ اتباعه، ولا يحرّفونه، ثم يعملون بحلاله ويقفون عند حرامه، ومثله قوله: ﴿وَالْقَمَرِ إذَا تَلاهَا﴾[٢] أي تبعها، وبه قال ابن مسعود، ومجاهد، وقتادة، وعطاء.

---

١. البقرة: ١١١.

٢. الشمس: ٢.

وروي عن أبي عبد الله عليه السلام: حقّ التلاوة الوقوف عند ذكر الجنة والنار يسأل في الأولى، ويستجير من الأخرى.

وقال قوم: ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ﴾ يقرؤونه حقّ قراءته.

والمعني بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ اليهود ـ على قول ابن زيد ـ والأولى أن يكون ذلك محمول على عمومه في جميع الكفّار، وبه قال الجبائي وأكثر المفسّرين.

**قوله تعالى:** ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ آية واحدة (١٢٢).

هذا خطاب من الله لبني إسرائيل الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وآله أمرهم الله أن يذكروا نعمته التي أنعم بها عليهم.

والنعمة: النفع الّذي يستحق به الشكر، والإنعام والإحسان والإفضال نظائر، ونقيض النعمة: النقمة، وهو الضرر المستحق.

ومعنى قوله: ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يعني عالمي زمانهم، وتفضيله إياهم بأن جعل فيهم النبوة والحكم، وهذه الآية قد تقدّم ذكر مثلها في رأس نيف وأربعين.

وقيل في سبب تكريرها ثلاثة أقوال:

أحدها: إنّ نعم الله لما كانت الأصل الّذي به يجب شكره وعبادته، ذكّر بها ليقبلوا إلى طاعته واتباع أمره، وليكون مبالغة في استدعائهم إلى ما يلزمهم لربهم التظاهر بالنعم عليهم.

والثاني: إنّه لما ذكر الكتاب وعنى به التوراة، وكان فيه الدلالة على شأن عيسى ومحمّد عليهما السلام في النبوة والبشارة المتقدّمة، ذكّرهم عز وجل بما أنعم عليهم من

ذلك، وفضّلهم كما جاء ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[١] بعد نعم ذكّرهم بها، ثم عدّد نعماً أخر، وقال فيها: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي فبأيّ هذه تكذّبان وكلّ تقريع جاء، فإنّما هو موصول بتذكير نعمه غير الأوّل، والثالث غير الثاني، وهكذا إلى آخر السورة، وكذلك الوعيد ـ في سورة المرسلات ـ بقوله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾[٢] إنّما هو بعد الدلالة على أعمال يعظم التكذيب بما تدعو إليه الأدلّة.

الثالث: إنّه مقدمة لما بعده، لأنّه تعالى أراد وعظهم ذكّرهم قبل ذلك بالنعم عليهم، لأنّه استدعاء إلى قبول الوعظ لهم.

وقيل فيه وجه رابع وهو أنّه لما تباعد بين الكلامين حسن التنبيه والتذكير.

وموضع ﴿الَّتِي﴾ نصب بالعطف على نعمتي.

**قوله تعالى:** ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ آية بلا خلاف (١٢٣).

ومثل هذه الآية أيضاً تقدم، وبيّنا ما فيها، فلا معنى للتكرار، وبيّنا أنّ العدل هو الفدية.

وقيل هو المثل، ويقال هذا عدله أي مثله، والعِدل هو الحمل، وبينّا قول من يقول: إنّ الشفاعة لا تكون إلاّ لمرتكبي الكبائر إذا ماتوا مصرّين، فإن قلنا ظاهر الآية متروك بالإجماع، لأنّه لا خلاف أنّ ها هنا شفاعة نافعة والآية تقتضي

---

١.الرحمن: ١٣ ـ ٧٧.

٢.الطور: ١١، المرسلات: ١٥ ـ ٤٩، المطففين: ١٠.

نفيها، وإن خصّوا بأنّها لا تنفع المصرّين، وإنّما تنفع التائبين؟ قلنا: لنا أن نخصّها بالكافرين دون فسّاق المسلمين.

وأمّا قوله: ﴿لا يشفعون﴾ إلاّ لمن ارتضى فنتكلّم عليه إذا انتهينا إليه.

ومن قال: إنّه ليس يعني أنّه يشفع لها شافع فلا تنفع شفاعته، لكنه يريد لا تأتي بمن يشفع لها، كما قال الشاعر:

علـى لاحـب لا يهتـدى بمنـاره

وإنّما أراد به لا منار هناك فيهتدى به، لا يضرّنا، لأنّا لا نقول: إنّ هناك شفاعة تحصل ولا تنفع، بل نقول: إنّ الشفاعة إذا حصلت من النبيّ وغيره فإنّها تنفع لا محالة، وكذلك عند المخالف.

وإن قلنا: أنّها تنفع في اسقاط المضار وقالوا: هم في زيادة المنافع، غير ان اتفقنا على أنّها تحصل لا محالة، ولسنا ممّن ينفي حصول الشفاعة أصلاً.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ آية بلا خلاف(١٢٤).

والابتلاء هو الاختبار وهو مجاز ها هنا لأنّ حقيقته الأمر من الله تعالى بخصال الإيمان فسمّي ذلك اختباراً، لأنّ ما يستعمل بالأمر منّا في مثل ذلك على جهة الاختبار والامتحان، فجرى تشبيهاً بما يستعمله أهل اللغة عليه، وقال ابن الاخشاذ: إنّما ذلك على أنه جلّ ثناؤه يعامل العبد معاملة المختبر الّذي لا يعلم، لأنّه لو جازاهم بعمله فيهم، كان ظالماً لهم.

والكلمات التي ابتلى الله إبراهيم بها فيها خلاف، فيروى في بعض

الروايات عن ابن عباس، وبه قال قتادة، وأبو الجلد: أنّه أمره إياه بعشرة سنن خمس في الرأس، وخمس في الجسد.

فأمّا التي في الرأس: فالمضمضة، والاستنشاق، والفرق، وقص الشارب، والسواك، وأمّا التي في الجسد: فالختان، وحلق العانة، وتقليم الأظفار، ونتف الأبطين، والاستنجاء.

وفي احدى الروايتين عن ابن عباس أنّه ابتلاه من شرائع الإسلام بثلاثين شيئاً:

عشرة منها في براءة: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ﴾ إلى آخرها، وعشرة في الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ إلى آخرها، وعشرة في سورة المؤمنين إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ وعشرة في سأل سائل إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فجعلها أربعين سهماً.

وفي رواية ثالثة عن ابن عباس أنّه أمره بمناسك الحج: الوقوف بعرفة، والطواف، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، والإفاضة.

قال الحسن: ابتلاه الله بالكوكب والقمر وبالشمس، وبالختان، وبذبح ابنه، وبالنار، وبالهجرة، وكلّهنّ وفى لله فيهنّ.

وقال مجاهد: ابتلاه الله بالآيات التي بعدها وهي: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ وقال الجبائي: أراد بذلك كلّما كلّفه من طاعاته العقلية والشرعية.

وقوله: ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ معناه وفى بهنّ على قول الحسن، وقال قتادة والربيع: عمل بهنّ، فأتمهنّ، وقال البلخي: الضمير في أتمهنّ راجع إلى الله، وهو اختيار الحسين بن عليّ المغربي.

قال البلخي: الكلمات هي الإمامة على ما قال مجاهد، قال: لأنّ الكلام متصل ولم يفصل بين قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ وبين ما تقدّمه بواو، فأتمهنّ الله بأن أوجب بها الإمامة له بطاعته واضطلاعه، ومنع أن ينال العهد الظالمين من ذريته، وأخبره بأنّ منهم ظالماً فرضي به وأطاعه وكلّ ذلك ابتلاء واختبار.

والتمام والكمال والوفاء نظائر، وضد التمام النقصان.

وقوله: ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ معناه واجعل من ذريتي من يؤتم به، ويقتدى به، على قول الربيع وأكثر المفسّرين.

وقال بعضهم: معناه أنّه سأل لعقبه أن يكونوا على عهده وورثته، كما قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ﴾[١] فأخبره الله أنّ في عقبه الظالم المخالف له وذريته، بقوله: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، والأوّل أظهر.

وقال الجبائي قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ سؤال منه لله أن يعرّفه هل في ذريته من يبعثه نبياً، كما بعثه هو، وجعله إماماً، وهذا الّذي قاله ليس في الكلام ما يدلّ عليه، بل الظاهر خلافه، ولو احتمل ذلك لم يمتنع أن يضيف إلى مسألة منه لله أن يفعل ذلك بذريته مع سؤاله تعريفه ذلك.

والذرية، والنسل، والولد نظائر، وأراد إبراهيم عليه السلام هذا، وقال بعضهم: عبّر بالذرية عن الآباء، وقال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾[٢] أي آباءهم، وهذا ليس بواضح، وبعض العرب ذرية ـ بكسر الذال ـ وبها قرأ زيد بن ثابت.

---

١. إبراهيم: ٣٥.

٢. يس: ٤١.

قال صاحب العين: الذر صغار النمل، واحده ذرة، والذر أخذك الشيء بأطراف أصابعك، تقول: ذررت الدواء أذرّه ذرّاً، وكذلك الملح وغيره، واسم الدواء ـ الّذي يتخذ للعين ـ ذرور، والذريرة: ذات قصب الطيب، وهو قصب يجاء به من الهند كأنّه قصب النشاب، والذرارة ما تناثر من الشيء الّذي تذرّه، والذرية: فعلية من ذررت، لأنّ الله تعالى ذرهم في الأرض، فنثرهم فيها، كما أنّ السريرة من سررت، والجمع الذراري، والسراري وما أشبهه وإن خفّفت جاز، والذرور ذروة الشمس، فهو يذر ذروراً وذلك أول طلوعها، وسقوطها إلى الأرض أو الشجر، وتقول: ذر قرن الشمس أي طلع، وأصل الباب الذر وهو التفرقة.

وقوله: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي﴾ والنيل واللحاق والإدراك نظائر، والنيل والنوال: ما نلته من معروف إنسان، وأناله معروفه ونوّله: أعطاه نوالاً. قال طرفة:

إن تنوّلـــه فقـــد تمنعــــه ... وتريـه النجم يجـري بـالظهر

وقولهم: نولك أن تفعل ذلك، ومعناه حقك أن تفعل، والنول خشبة الحائك الّذي ينسج الوسائد عليه ونحوها، وأداته المنصوبة أيضاً تسمّى النوال، وأصل الباب النيل، وهو اللحوق.

والمراد بالعهد ها هنا فيه خلاف، قال السدي واختاره الجبائي: إنّه أراد النبوة.

وقال مجاهد: هو الإمامة وهو المروي عن أبي جعفر، وأبي عبد الله عليه السلام قالوا: «لا يكون الظالم إماماً».

وقال أبو حذيفة: لا أتخذ إماماً ضالاً في الدنيا، وقيل: معناه الأمر بالوفاء له فيما عقده من ظلمه، وقال ابن عباس: فإذا عقد عليك في ظلم، فانقضه.

وقال الحسن: ليس لهم عند الله عهد يعطيهم عليه خيراً في الآخرة، فأمّا في الدنيا فقد يعاهدون فيوفى لهم، وكأنّه على هذا التأويل طاعة يحتسب بها في الآخرة.

وقوله: ﴿لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

يدلّ على أنّه يجوز أن يعطي ذلك بعض ولده إذا لم يكن ظالماً، لأنّه لو لم يرد أن يجعل أحداً منهم إماماً للناس، كان يجب أن يقول في الجواب لا ولا ينال عهدي ذريتك، وكان يجوز أن يقول في العربية: لا ينال عهدي الظالمون، لأنّ ما نالك فقد نلته، وروي ذلك في قراءة ابن مسعود إلاّ أنّه في المصحف بالياء. تقول: نالني خيرك، واستدلّ أصحابنا بهذه الآية على أنّ الإمام لا يكون إلاّ معصوماً من القبائح، لأنّ الله تعالى نفى أن ينال عهده ـ الّذي هو الإمامة ـ ظالم، ومن ليس بمعصوم فهو ظالم إمّا لنفسه، أو لغيره.

فإن قيل: إنّما نفى أن يناله ظالم ـ في حال كونه كذلك ـ فأمّا إذا تاب وأناب، فلا يسمّى ظالماً، فلا يمتنع أن ينال.

قلنا: إذا تاب لا يخرج من أن تكون الآية تناولته ـ في حال كونه ظالماً ـ فإذا نفى أن يناله، فقد حكم عليه بأنّه لا ينالها في هذه الحال دون غيرها، فيجب أن تحمل الآية على عموم الأوقات في ذلك، ولا ينالها وإن تاب فيما بعد.

واستدلّوا بها أيضاً على أنّ منزلة الإمامة منفصلة من النبوة، لأنّ الله خاطب إبراهيم عليه السلام وهو نبيّ، فقال له: انّه سيجعله إماماً جزاء له على إتمامه ما ابتلاه الله به من الكلمات، ولو كان إماماً في الحال، لما كان للكلام معنى، فدلّ ذلك على أنّ منزلة الإمامة منفصلة من النبوة، وإنّما أراد الله أن يجعلها لإبراهيم عليه السلام.

وقد أملينا رسالة مقرّرة في الفرق بين النبيّ والإمام، وانّ النبيّ قد لا يكون إماماً على بعض الوجوه، فأمّا الإمام فلا شك أنّه يكون غير نبيّ، وأوضحنا القول في ذلك، من أراده وقف عليه من هناك، وإبراهيم لغتان، وأصله إبراهام فحذفت الألف استخفافاً. قال الشاعر:

عـذت بمـا عـاذ بـه إبـراهم[١]

وقال أمية: مع إبراهم ألتقي وموسى .

**قوله تعالى:** ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ آية واحدة (١٢٥).

قوله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا﴾ عطف على قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ وذلك معطوف على قوله: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً﴾ والبيت الّذي جعله مثابة هو البيت الحرام.

والبيت في اللغة، المنزل، والمأوى نظائر.

وقوله: ﴿مَثَابَةً﴾ في معناه خلاف، قال الحسن: يثيبون إليه كلّ عام، أي ليس هو مرة في الزمان فقط، وقال ابن عباس: معناه أنّه لا ينصرف عنه أحد، وهو يرى أنّه قد قضى منه وطراً، فهم يعودون إليه.

وقال أبو جعفر عليه السلام: يرجعون إليه لا يقضون منه وطراً وبه قال مجاهد، وحكى الخازئي أنّ معناه يحجون إليه فيثابون عليه، وقال الجبائي: يثوبون إليه يصيرون إليه.

والفرق بين مثابة ومثاب، أنّ الأخفش قال: مثابة للمبالغة لما كثر من يثوب إليه، كما قيل علاّمة ونسّابة وسيّارة، وقال الفراء والزجاج: معناهما واحد، كالمقامة والمقام بمعنى واحد.

---

١. قائله عبد المطلب. اللسان (برهم) وتتمة الرجز:

مسـتقبل القبلـة وهـو قـائم ... إنّـي لـك اللّهـمّ عـان راغـم

وقوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أكثر القرّاء على لفظ الأمر، إلاّ ابن عامر ونافع فإنّهما قرءا على لفظ الخبر من فعل ماض، ويحتمل أن يكون اللفظ معطوفاً على قوله: ﴿واذْكُرُوا﴾ كأنّه قال: يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى.

وقال الربيع بن أنس: من الكلمات التي ابتلى إبراهيم ربّه قوله: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً﴾ وكأنّه قال: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾ وقال: ﴿اتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً﴾ وقيل: انّه معطوف على ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ لأنّ معناه واذكروا إذا جعلنا البيت واتخذوا، وقيل: انّه معطوف على معنى ﴿جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ لأنّ فيه معنى ثوبوا إليه واتخذوا، وظاهر قوله: واتخذوا أنّه عام لجميع المكلّفين إلاّ من خصّه الدليل وعليه أكثر المفسّرين.

وقال أبو عليّ الفارسي: وجه قراءة من قرأ، على الخبر أنّه عطف على ما أضيف إليه إذ كأنّه قال وإذ اتخذوا قال: وتقوية قوله أنّ ما بعده خبر، وهو قوله: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾.

المعني بقوله: ﴿مِنْ مَقَامِ﴾ قيل فيه أربعة أقوال:

أحدها: قال ابن عباس: الحجّ كلّه مقام إبراهيم.

(ثانيها): وقال عطا: مقام إبراهيم عرفة والمزدلفة والجمار.

(ثالثها): وقال مجاهد: الحرم كلّه مقام إبراهيم.

(رابعها): وقال السدي: مقام إبراهيم هو الحجر الّذي كانت زوجة إسماعيل وضعته تحت قدم إبراهيم حين غسلت رأسه، فوضع إبراهيم رجله عليه وهو راكب فغسلت شقه ثم رفعته من تحته، وقد غابت رجله في الحجر فوضعته تحت الشق الآخر، فغسلته فغابت أيضاً رجله فيه فجعلها الله من شعائره، فقال:

﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ وبه قال الحسن، وقتادة، والربيع، واختاره الجبائي، والرماني.

وهو الظاهر في أخبارنا وهو الأقوى، لأنّ مقام إبراهيم إذا أطلق لا يفهم منه إلاّ المقام المعروف الّذي هو في المسجد الحرام.

وفي المقام دلالة على نبوة إبراهيم عليه السلام، لأنّ الله تعالى جعل الصخرة تحت قدمه كالطين حتى دخلت قدمه فيها ـ وكان ذلك معجزة له ـ وقيل في معنى قوله ﴿مُصَلًّى﴾ ثلاثة أقوال:

قال مجاهد: مدعى، مأخوذ من صليت بمعنى دعوت.

وقال الحسن والجبائي: قبلة.

وقال قتادة والسدي: أمروا أن يصلّوا عنده.

وهو المروي في أخبارنا، وبذلك استدلّوا على أنّ صلاة الطواف فريضة مثله، لأنّ الله تعالى أمر بذلك والأمر يقتضي الوجوب، وليس ها هنا صلاة يجب أداؤها عنده غير هذه بلا خلاف.

وقوله: ﴿عَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي أمرنا أن طهّرا، قال الجبائي: أمرا أن يطهراه من فرث ودم كان يطرحه عنده المشركون قبل أن يصير في يد إبراهيم، ويجوز أن يريد طهراه من الأصنام، والأوثان التي كانت عليه للمشركين قبل أن يصير في يد إبراهيم، وبه قال قتادة ومجاهد، وقال السدي: طهراه ببنائكما له على الطهارة، كما قال: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ﴾[١].

والطائف والدائر والجائل نظائر، طاف يطوف طوافاً إذا دار حول الشيء، وأطاف به إطافة: إذا ألمّ به.

---

١ـ التوبة: ١٠٩.

ومعنى ﴿الطَّائِفِينَ﴾ ها هنا قيل فيه قولان:

أحدهما: ما قال سعيد بن جبير: ﴿الطَّائِفِينَ﴾ من أتاه من غربة.

والثاني: قال عطا واختاره الجبائي وغيرهم: الطائفون بالبيت ـ وهو الأصح ـ.

وقوله: ﴿وَالْعَاكِفِينَ﴾ ها هنا قيل فيه أربعة أقوال:

الأوّل: قال عطا واختاره الجبائي: انّهم المقيمون بحضرته.

والثاني: قال مجاهد وعكرمة: انّهم المجاورون.

والثالث: قال سعيد بن جبير، وقتادة: انّهم أهل البلد الحرام.

والرابع: قال ابن عباس: هم المصلّون، والأوّل أقوى، لأنّه المفهوم من اطلاق هذه اللفظة، قال النابغة[١]:

عكـوف علـى أبيـاتهم يثمـدونها    رمى الله في تلك الأكف الكوانع

والعكف واللزوم والدوام على الشيء نظائر.

والمعني بقوله: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ قال قتادة وعطا: هم الذين يصلّون عند الكعبة، يركعون عندها ويسجدون، وقال الحسن: ﴿الرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ جميع المؤمنين، وبه قال الفراء، وهو الأقوى، لأنّه العموم.

فإن قيل: كيف أمر الله تعالى أن يطهّرا بيته ولم يكن هناك بيت بعد؟

---

١. هو نابغة بني ذبيان في ديوانه، واللسان (رمي) روايتهما قعوداً بدل عكوف والانوف بدل الأكف، وفي بعض المصادر الأخرى عكوفاً بدل عكوف، وفي بعض الروايات يثمدونهم بدل يثمدونها. وهذا البيت من أبيات قالها لزرعة بن عامر. حين بعثت بنو عامر إلى حصن ابن حذيفة، وابنه عيينة بن حصن: أن اقطعوا حلف ما بينكم وبين بني أسد، والحقوهم ببني كنانة، ونحالفكم ونحن بنو أبيكم. وكان عيينة همّ بذلك، فقالت بنو ذبيان: أخرجوا من فيكم من الحلفاء، ونخرج من فينا! فأبوا، فقال النابغة هذه الأبيات، فمدح بني أسد، وذم بني عبس، ونقص بني سهم ومالك من غطفان وعبد بن سعيد بن ذبيان. وهاجم بهذا البيت الجميع ويثمدنها الضمير عائد إلى الأبيات. أي يلازمون بيوتهم، يسترزقونها، لأنّ معنى الثمد الاسترزاق. وهو هزء بهم. الكوانع جمع كانع: وهو الخاضع الذمي تدانى وتصاغر.

قيل: معناه ابنيا لي بيتاً مطهّراً ـ في قول السدي ـ وقال عطا: معناه طهّرا مكان البيت الّذي تبنياه فيما بعد، وفي الآية دلالة على أنّ الصلاة جوف البيت جائزة.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ آية (١٢٦).

التقدير: واذكروا إذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا بلداً آمناً، فإن قيل: هل كان الحرم آمناً قبل دعوة إبراهيمعليه السلام؟ قيل: فيه خلاف، قال مجاهد عن ابن عباس، وأبو شريح الخزاعي: كان آمناً لقول النبيّ صلى الله عليه وآله حين فتح مكة: هذه حرم حرّمها الله يوم خلق السماوات والأرض، وهو الظاهر في رواياتنا.

وقال قوم: كانت قبل دعوة إبراهيم كسائر البلاد، وإنّما صارت حرماً بعد دعوتهعليه السلام كما صارت المدينة، لما روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «انّ إبراهيمعليه السلام حرّم مكة، وانّي حرّمت المدينة».

وقال بعضهم: كانت حراماً والدعوة بوجه غير الوجه الّذي صارت به حراماً بعد الدعوة، والأوّل يمنع الله إياها من الاصطلام، والانتقام كما لحق غيرها من البلاد، وبما جعل في النفوس من تعظيمها، والهيبة لها.

والوجه الثاني: بالأمر على ألسنة الرسل، فأجابه الله إلى ما سأل.

وإنّما سأل أن يجعلها آمناً من الجدب والقحط، لأنّه أسكن أهله بواد غير ذي زرع ولا ضرع، ولم يسأله أمنه من انتقال وخسف، لأنّه كان آمناً من ذلك.

وقال قوم: سأله الأمرين على أن يديمهما له، وإن كان أحدهما مستأنفاً، والآخر كان قبل.

ومعنى قوله: ﴿بَلَداً آمِناً﴾ أي يأمنون فيه، كما يقال: ليل نائم أي النوم فيه.

والبلد والمصر والمدينة نظائر.

وقوله: ﴿فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً﴾ يعني بالرزق الّذي أرزقه إلى وقت مماته، وقيل: فأمتعه بالبقاء في الدنيا، وقال الحسن: فأمتعه بالأمن والرزق إلى خروج محمّد ﷺ فيقتله إن أقام على كفره، أو يجليه عنها، وقد قرئ في الشواذ فأمتعه على وجه الدعاء بصورة الأمر، ثم اضطره بمثل ذلك على أن يكون ذلك سؤالاً من إبراهيم أن يمتّع الكافر قليلاً ثم يضطرّه بعد ذلك إلى عذاب النار، والأوّل أجود لأنّه قراءة الجماعة، هذا مروي عن ابن عباس.

ومعنى ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ أدفعه إلى عذاب النار وأسوقه إليها، والاضطرار هو الفعل في الغير على وجه لا يمكنه الانفكاك منه، إذا كان من جنس مقدوره، ولهذا لا يقال: فلان مضطر إلى كونه ـ وإن كان لا يمكنه دفعه عن نفسه ـ لما لم يكن الكون من جنس مقدوره، ويقال: هو مضطر إلى حركة الفالج وحركة العروق، لما كانت الحركة من جنس مقدوره.

وقوله: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ هو الحال التي يؤدّي إليها أولها.

وصار وحال وآل نظائر، يقال: صار يصير مصيراً، قياسه رجع يرجع مرجعاً وصيّره تصييراً.

ومعنى الآية سأل سؤال عارف بالله مطيع له، وهو أن يرزق من الثمرات من آمن بالله، واليوم الآخر، فأجاب الله ذلك، ثم أعلمه أنّه يمنع من كفر به، لأجل الدنيا، ولا يمنعه من ذلك كما يتفضّل به على المؤمن، ثم يضطرّه في الآخرة إلى عذاب النار وبئس المصير، وهي كما قال: نعوذ بالله منها.

وقوله في الآية: ﴿قَلِيلاً﴾ يحتمل أن يكون صفة للمصدر، كما قال: متاعاً حسناً فوصف به المصدر، وليس لأحد أن يقول: كيف يوصف به المصدر، وهو فعل يدل على التكثير؟ وكيف يستقيم وصف الكثير بالقليل في قوله: ﴿فَأُمَتِّعُهُ﴾؟ وهلا كانت قراءة ابن عامر أرجح على هذا، وذلك أيضاً إنّما وصفه بأنّه قليل من كان آخره إلى نفاد ونقص وفناء، كما قال: ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ ويجوز أيضاً أن يكون صفة للزمان، كما قال: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ يعني بعد زمان قليل.

وعن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ أي تحمل إليهم من الآفاق.

**قوله تعالى:** ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ آية (١٢٧).

تقديره وإذ يرفع إبراهيم القواعد.

والرفع، والإعلاء، والإصعاد نظائر، ونقيض الرفع الوضع، ونقيض العلو السفل، ونقيض الإصعاد الإنزال.

والقواعد: واحدها قاعدة، قال الزجاج: أصله في اللغة الثبوت والاستقرار، فمن ذلك القاعدة من الجبل، وهي أصله، وقواعد البناء أساسه الّذي بني عليه، واحدتها قاعدة.

والقواعد والأساس والأركان نظائر، وقيل: إنّما قيل في واحدة القواعد من النساء قاعد لشيئين:

أحدهما: أنّ ذلك كالطالق والحائض وما أشبه ذلك من الصفات التي تختص بالمؤنث دون المذكر، فلم يحتج إلى علامة التأنيث، وإن أردت الجلوس قلت: قاعدة لا غير لأنّها تشارك في ذلك الرجال.

والوجه الآخر: إنّ ذلك على وجه التشبيه أي ذات قعود، كما يقال: نابل ودارع أي ذو نبل ودرع، لا تريد به تثبيت الفعل.

قال ابن عباس: معناه يقولان[1] ربّنا، ومثله: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾[2] أي يقولون[3]، ومثله: ﴿وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ﴾[4] أي يقولون، وقال بعضهم: هو شاذ تقديره يقول: ربّنا، يرده إلى إسماعيل وحده، ولا يعمل على ذلك لشذوذه.

وقال أكثر المفسّرين كالسدي وعبد بن عمير الليثي، واختاره الجبائي، وغيرهم: إنّ إبراهيم وإسماعيل معاً رفعا القواعد.

وقال ابن عباس: كان إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله، وقال بعض الشذاذ: انّ إبراهيم وحده رفعها وكان إسماعيل صغيراً وهو ضعيف لأنّه خلاف ظاهر اللفظ، وخلاف أقوال المفسّرين.

وقال أكثر أهل العلم: انّهما رفعا البيت للعبادة لا للسكنى، بدلالة قوله: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾. وهل كانت للبيت قواعد قبل إبراهيم؟ فيه خلاف.

فقال ابن عباس وعطا: قد كان آدم عليه السلام بناه ثم عفي أثره، فجدده إبراهيم، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام، وقال مجاهد، وعمرو بن دينار: بل أنشأه إبراهيم بأمر الله عزّ وجلّ إياه، وكان الحسن يقول: أول من حجّ البيت إبراهيم عليه السلام.

---

١. في مجمع البيان: وفي حرف عبد الله بن مسعود ويقولان ربّنا تقبل منّا. وفي ـ حاشية ـ وفي حرف عبد الله يقولان ربّنا.

٢. الرعد: ٢٣ – ٢٤.

٣. يقولون سلام عليكم.

٤. الأنعام: ٩٣.

وقد روي في أخبارنا أنّ أوّل من حجّ البيت آدم، وذلك يدلّ على أنّه قد كان قبل إبراهيم، وإنّما قال: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ لأنّه لما ذكر الدعاء، اقتضى حينئذٍ ذكر ذلك، كأنّه قال: انّك أنت السميع العليم بنا، وبما يصلحنا.

ومعنى قوله: ﴿تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ أي أثبنا على عمله، وهو مشبه بتقبل الهدية في أصل اللغة.

وروي عن محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام أنّه قال: إنّ الله تعالى وضع تحت العرش أربع أساطين وسمّاه الضراح وهو البيت المعمور، وقال للملائكة: طوفوا به، ثم بعث ملائكة فقال: ابنوا في الأرض بيتاً بمثاله وقدره، وأمر من في الأرض أن يطوفوا بالبيت.

وقال أبو جعفر: إسماعيل أوّل من شق لسانه بالعربية، وكان أبوه يقول: وهما يبنيا البيت: يا إسماعيل هابي ابن[١] أي أعطني حجراً، فيقول له إسماعيل بالعربية: يا أبي هاك حجراً، وإبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة.

وروي عن عبد الله بن عمر قال: لما أهبط الله آدم من الجنة قال: إنّي منزل معك أو مهبط معك بيتاً تطوف حوله كما يطاف حول عرشي، وتصلي عنده كما يصلى عند عرشي، ولما كان زمن الطوفان رفع، وكانت الأنبياء يحجّونه ولا يعلمون مكانه حتى بوأه الله لإبراهيم فأعلمه مكانه فبناه من خمسة أجبل: من حرا، وثبير، ولبنان، وجبل الطور، وجبل الخمر[٢]، قال الطبري وهو جبل بدمشق.

**قولـه تعـالى:** ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ آية بلا خلاف (١٢٨).

---

١.وفي العبرانية معنى أعطني حجراً: هاتلي ابن.

٢.الخمر جبل بيت المقدس سمّي بذلك لكثرة كرومه ياقوت.

روي في الشواذ عن عوف بن الأعرابي أنّه قرأ (مُسْلِمِيْن) على الجمع، وإنّما سألا الله تعالى أن يجعلهما مسلمين بمعنى: أن يفعل لهما من الألطاف ما يتمسّكان معه بالإسلام في مستقبل عمرهما، لأنّ الإسلام كان حاصلاً في وقت دعائهما ويجري ذلك مجرى أحدنا، إذا أدّب ولده وعرّضه لذلك حتى صار أديباً جاز أن يقال: جعل ولده أديباً، وعكس ذلك إذا عرّضه للبلاء والفساد، جاز أن يقال: جعله ظالماً محتالاً فاسداً، ويجوز أن يكونا قالا ذلك تعبداً، كما قال تعالى: ﴿رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ﴾.

والإسلام: هو الانقياد لأمر الله تعالى بالخضوع، والإقرار بجميع ما أوجب عليه، وهو والإيمان واحد عندنا، وعند أكثر المرجئة والمعتزلة، وفي الناس من قال: بينهما فرق، وليس ذلك بصحيح، لقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[1] وإنّما خصّا بالدعوة بعض الذرية في قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾، لأنّ من للتبعيض من حيث أنّ الله تعالى كان أعلمه أنّ في ذريتهما من لا ينال العهد لكونه ظالماً، وقال السدي: إنّما عنيا بذلك العرب، والأوّل هو الصحيح، وهو قول أكثر المفسّرين.

وقوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ فالمناسك ها هنا المتعبدات، قال الزجاج: كلّ متعبد منسك، وقال الجبائي: المناسك هي ما يتقرّب به إلى الله من الهدى، والذبح، وغير ذلك من أعمال الحج والعمرة.

وقال قتادة: أراهما الله مناسكهما الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والإفاضة عن عرفات والإفاضة من جمع ورمي الجمار حتى أكمل الله الدين.

فهذا القول أقوى لأنّه العرف في معنى المناسك وقال عطا: مناسكنا مذابحنا.

---

١. آل عمران: ٨٥.

والنسك في اللغة: العبادة، رجل ناسك عابد، وقد نسك نسكاً، والنسك: الذبيحة، يقال: من فعل كذا فعليه نسك، أي دم يهريقه.

وقوله: ﴿وَأَرِنَا﴾ يحتمل أمرين: أحدهما: أن يكون من رؤية البصر، والآخر: أن يكون من رؤية القلب بمعنى أعلمنا. قال حطائط بن جعفر[١]:

أريني جواداً مات هزلاً لعلني     أرى ما ترين أو بخيلاً مخلدا[٢]

أي عرفني ومعنى قوله: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ أي ارجع علينا بالرحمة والمغفرة، وليس فيه دلالة على جواز الصغيرة، أو فعل القبيح عليهم، ومن ادّعى ذلك فقد أبطل، وقال قوم: معناه تب على ظلمة ذريتنا، وقيل: بل قالا ذلك انقطاعاً إليه تعالى تعبداً ليقتدى بهما فيه، وهو الّذي نعتمده.

﴿والتَّوَّابُ﴾ القابل للتوبة ها هنا، وإذا وصف به العبد فمعناه أنّه فاعل التوبة دفعة بعد أخرى، فيفيد المبالغة، فعلى مذهبنا إذا قلنا: قبل الله توبته أي تاب عليه معناه أنّه يستحق الثواب، وإذا قلنا: تاب العبد من كبيرة مع الإقامة على كبيرة أخرى، معناه عند من أجاز ذلك أنّه رفع العقاب بها على تلك الكبيرة التي تاب منها، وعندنا أنّه يستحق بها الثواب أيضاً، وفي الآية دلالة على أنّه يحسن الدعاء بما يعلم الداعي أنّه يكون لا محالة، لأنّهما كانا عالمين بأنّهما لا يفارقان الإسلام، ولا يأتيان الكبيرة.

**قوله تعالى:** ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ آية واحدة بلا خلاف(١٢٩).

---

١.هو رجل من بني نهشل بن دارم.

٢.اللسان (أنن) و (علل). قال ابن بري فيه: قال حطائط بن جعفر، ويقال هو لدريد. وروايته لأنّني بدل لعلّني وهما بمعنى واحد. والشاعر يخاطب أمه عند ما لامته على إنفاقه ماله.

الضمير في قوله فيهم راجع إلى الأمة المسلمة التي سأل الله إبراهيم من ذريته، والمعنيّ بقوله: ﴿رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ هو النبيّ ﷺ لما روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى» يعني قوله: ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [١] وهو قول الحسن وقتادة والسدي وغيرهم من أهل العلم، ويدلّ على ذلك أيضاً، وأنّ المراد به نبيّنا ﷺ دون الأنبياء الذين بعثهم الله من بني إسرائيل، أنّه دعى بذلك لذريته الذين يكونون بمكة وما حولها على ما تضمنته الآية.

وفي قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ ولم يبعث الله من هذه صورته إلاّ محمّداً ﷺ، والمراد بالكتاب القرآن ـ على قول ابن زيد وأكثر المفسّرين ـ ومعنى ﴿الْحِكْمَةَ﴾ ها هنا السنّة، وقيل: المعرفة بالدين والفقه في التأويل، وقيل: العلم بالأحكام التي لا يدرك علمها إلاّ من قبل الرسل عليهم السلام، فالأوّل قول قتادة، والثاني قول أنس بن مالك، والثالث قول ابن زيد، وقال قوم: هو كلام مثنى كأنّه وصف التنزيل بأنّه كتاب، وبأنّه حكمة، وبأنّه آيات، وقال بعضهم: الحكمة شيء يجعله الله في القلب ينوّره به كما ينوّر البصر فيدرك المبصر وكلّ حسن.

ومعنى قوله: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ قال ابن عباس: هو طاعة الله والإخلاص له، وقال ابن جريج: يطهّرهم من الشرك ويخلّصهم منه، وقال الجبائي: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ معناه يستدعيهم إلى فعل ما يزكون به، من الإيمان والصلاح، ويحتمل أن يراد به أنّه يشهد لهم بالزكاء آمنوا وأصلحوا.

و ﴿الْعَزِيزُ﴾ القادر الّذي لا يعجزه شيء، وقيل: القادر الّذي لا يمتنع عليه شيء أراد فعله، وقيل: القدير وهو مبالغة الوصف بالقدرة، ونقيض العز الذل.

---

١. الصف: ٦.

وقوله: ﴿الْحَكِيمُ﴾ يحتمل أمرين:

أحدهما: المدبر الّذي يحكم الصنع، يحسن التدبير.

والثاني: بمعنى عليم، والأوّل بمعنى حكيم في فعله بمعنى محكم، فعدل إلى حكيم للمبالغة، وإنّما ذكر الحكيم ها هنا لأنّه يتصل بالدعاء، كأنّه قال: فزعنا إليك، لأنّك القادر على إجابتنا العالم بما في ضمائرنا، وبما هو أصلح لنا ممّا لا يبلغه علمنا.

**قولــه تعــالى:** ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ۚ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ آية بلا خلاف (١٣٠).

قوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ﴾ فالرغبة المحبة لما فيه للنفس منفعة، ورغب فيه ضد رغب عنه، والرغبة: المحبة، والرغبة والمحبة والإرادة نظائر، وبينهما فرق، نقيض الرغبة الرهبة، ونقيض المحبة البغضة، ونقيض الإرادة الكراهية.

ومعنى قوله: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ اخترناه للرسالة والصفو التميز من سائر الكدر، واصطفيناه على وزن افتعلناه من الصفوة، وإنّما قلبت التاء طاء، لأنّها أشبه بالصاد بالاستعلاء والاطباق، وهي من مخرج التاء فأتى بحرف وسط بين الحرفين، والإصطفاء والإختيار والإجتباء نظائر، والصفاء والنقاء والخالص نظائر، والصفاء نقيض الكدر، وصفوة كلّ شيء خالصه من صفوة الدنيا، وصفوة الماء وصفوة الإخاء تقول: صفا صفاء.

قوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ﴾ إنّما خصّ الآخرة بالذكر وإن كان في الدنيا كذلك، لأنّ المعنى من الذين يستوجبون على الله الكرامة وحسن الثواب، فلما كان خلوص الثواب في الآخرة دون الدنيا، وصفه بما ينبئ عن

ذلك، ففي قوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ دلالة على أنّ ملّة إبراهيم هي ملّة نبيّنا محمّد ﷺ، لأنّ ملّة إبراهيم داخلة في ملّة محمّد ﷺ مع زيادات في ملّة محمّد ﷺ، فبيّن أنّ الذين يرغبون من الكفّار عن ملّة محمّد التي هي ملّة إبراهيم، قد سفهوا أنفسهم وهو معنى قول قتادة والربيع.

**قوله تعالى:** ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ آية بلا خلاف (١٣١).

قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ﴾ متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ﴾ وموضعه نصب وتقديره: ولقد اصطفيناه حين قال له ربّه أسلم، وقال الحسن: إنّما قال ذلك حين أفلت الشمس، ﴿قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي﴾[١] وأنّه أسلم حينئذٍ، وهذا يدلّ على أنّه كان ذلك قبل النبوة، وأنّه قال له ذلك إلهاماً استدعاه به إلى الإسلام، فأسلم حينئذٍ، لما وضح له طريق الاستدلال بما رأى من الآيات، والعبر الدالة على توحيده، ولا يصحّ أن يوحي الله تعالى إليه قبل إسلامه بأنّه نبيّ الله، لأنّ النبوة حال اعظام واجلال، ولا يكون ذلك قبل الإسلام، وإنّما قال: ﴿اصْطَفَيْنَاهُ﴾ على لفظ المتكلّم مع قوله: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ﴾ على لفظ الغائب للتصرّف في الكلام، كما قال الشاعر:

باتت تشكي إلي النفس مجهشة وقد حملتك سبعاً بعد سبعينا[٢]

والإسلام واجب على كلّ مكلّف، وإن اختلفت شرائع الأنبياء فيما يتعبدون من الحلال والحرام، لقوله تعالى: أن ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[٣]

---

١.الأنعام: ٧٨ – ٧٩.

٢.اللسان (جهش) قائله لبيد. أجهش إذا تهيأ للبكاء.

٣.آل عمران: ١٩.

وأنّ الإسلام إنّما هو الاخلاص لله بالعمل بطاعته، واجتناب معصيته وذلك واجب على كلّ متعبّد، وكلّه إسلام.

**قولـه تعـالى:** ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ آيـة بـلا خلاف (١٣٢).

والوصية مأخوذة من قولهم: أوصى النبت إذا اتصل بعضه ببعض، فلما أوصل الموصي جعل أمره إلى الموصى إليه، قيل: وصية وَوصى وأوصى وأمر وعهد نظائر في اللغة، وضد أوصى أهمل، والوصاة كالوصية، والوصاية مصدر التوصي، والفعل أوصيت إيصاء ووصيت توصية، في المبالغة والكثرة وتقول: قد قبل الوصاية، وإذا انطاع المرعى للسائمة فأصابته رواعد، قيل: وصى لها الرعي يصي وصياً ووصياً، وأصل الباب: الوصية وهي الدعاء إلى الطاعة.

والهاء في قوله: ﴿وَوَصَّى بِهَا﴾ يحتمل أن تعود إلى أحد شيئين: أحدهما إلى الملّة، وقد تقدّم ذكرها في قوله: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾.

والثاني: أن يعود إلى الكلمة في قوله: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والأوّل أقوى، لأنّه مذكور في اللفظ، وهو قول الزجاج وأكثر المفسّرين، والثاني حكاه البلخي وبعض أهل اللغة.

وارتفع يعقوب، لأنّه معطوف على إبراهيم، والمعنى ووصّى بها يعقوب، وبه قال ابن عباس وقتادة، وقال بعضهم: إنّه على الاستئناف كأنّه قال: ووصّى يعقوب أن ﴿يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ والأوّل أظهر لأنّ عليه أكثر المفسّرين.

(والألف واللام) في الدين للعهد دون الاستغراق، لأنّه إنّما أراد بذلك دين الإسلام دون غيره من الأديان، وإنّما أسقطت أن في ﴿وَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أن ﴿يَا بَنِيَّ﴾ وأثبت في ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرِ﴾[١]، لأنّ أوصى في الآية بمعنى القول، فجعل بمنزلة قولك إلاّ تقديره تقدير القول، فيجوز حينئذٍ إلحاق أن، كما قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرِ﴾ ومثله ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[٢] وقوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾[٣] وكلّ هذا الباب يجوز فيه الوجهان: بأن تقدّره تقدير القول، ليكمل به تقدير الفعل الّذي ليس بقول.

وأمّا قوله: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ فلا يجوز إسقاطها في مثله من الكلام، لأنّه ليس فيه معنى الحكاية، والقول كما في الدعوى والإرسال، وأمّا قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ﴾[٤] فلا يجوز في مثله إثبات، لأنّه يضمر معه القول، ولا يجوز معه التصريح بالقول، ولا مع إضمار أن لأنّه حكاية، كما تقول: قلت له زيد في الدار، ولا يجوز قلت له أنّ زيداً في الدار، وأنشد الكسائي:

إنّـي سـأبدي لـك فيمـا أبـدي     لـي شـجنان شجـن بنجـد

وشـجن لـي ببـلاد الهنـد[٥]

---

١. نوح: ١.

٢. يونس: ١٠.

٣. الأعراف: ٤٤.

٤. الأنعام: ٩٣.

٥. اللسان (شجن). الشجن: هوى النفس وهو مجاز من الحزن والهم. وكنوا به المرأة المحبوبة التي تشغل القلب.

لأنّ الإبداء قول، ومنه قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾[١]، لأنّ العدة قول.

فإن قيل: كيف قال: ﴿لا تَمُوتُنَّ﴾ على وجه النهي لهم عن الموت، والموت ليس في مقدورهم، فيصح أن ينهوا عنه؟

قلنا: اللفظ وإن كان على لفظ النهي، فما نهوا عن الموت، وإنّما نهوا في الحقيقة عن ترك الإسلام لئلاّ يصادفهم الموت عليه.

وتقديره لا تتعرّضوا للموت على ترك الإسلام بفعل الكفر، ومثله من كلام العرب لا رأيتك ها هنا، فالنهي في اللفظ للمتكلّم، وإنّما هو في الحقيقة للمخاطب، فكأنّه قال: لا تتعرّض لأن أراك بكونك ها هنا، ومثله لا يصادفنك الإمام على ما يكره، وتقديره: لا تتعرّض لأن يصادفك على ما يكره، ومثله لا يكوننّ زيد إلاّ عندك، تقديره لا تتعرّض لأن يكون زيد ليس عندك بالتفريط في ذلك، والاهمال له، والأصل في هذا أنّ التعريض لوقوع الشيء بمنزلة إيقاع الشيء.

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ جملة في موضع الحال، وتقديره: لا تموتنّ إلاّ مسلمين.

**قوله تعالى:** ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ آية واحدة بلا خلاف (١٣٣).

---

١. المائدة: ٩.

﴿أَمْ﴾ ها هنا منقطعة وليست بمتصلة كقوله: ﴿الم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾[١] ومثله قول الشاعر[٢]:

كذبتك عينُك أم رأيت بواسط    غلس الظلام من الرباب خيالا

ولا تجيئ منقطعة الألف وقد تقدّمها كلام، لأنّها بمعنى بل، وألف الاستفهام، كأنّه قيل: بل كنتم شهداء، ومعناها ـ هنا ـ الجحد: أي ما كنتم شهداء، واللفظ لفظ الاستفهام، والمعنى على خلافه، لأنّ إخراجه مخرج الاستفهام أبلغ في الكلام، وأشدّ مظاهرة في الحجاج أن يخرج الكلام مخرج التقرير بالحق فتلزم الحجة، والإنكار له فتظهر الفضيحة، فلذلك أخرج الجحد في الأخبار مخرج الاستفهام.

والمخاطب بـ ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾ أهل الكتاب في قول الربيع، والمعنى: أنّكم لم تحضروا ذلك، فلا تدّعوا على أنبيائي ورسلي الأباطيل بنحلكم إياهم خلاف الإسلام من اليهودية والنصرانية، فإنّي ما بعثتهم إلاّ بالحنيفية، والشهداء جمع شهيد، و ﴿إِذْ﴾ ها هنا بدل من إذْ الأولى، والعامل فيها معنى الشهادة، وقيل بل العامل فيها حضر، وكلاهما حسن.

والحاضر والشاهد من النظائر، ونقيض الحاضر الغائب، ويقال: حضر حضوراً، وأحضره إحضاراً، واستحضره استحضاراً، واحتضره احتضاراً، وحاضره محاضرة، والحضر خلاف البدو، وحضرت القوم أحضرهم حضوراً: إذا شهدتهم، الحاضر خلاف الغائب، وأحضر الفرس إحضاراً: إذا عدا عدواً شديداً واستحضرته استحضاراً، والحضرة الجماعة من الناس ما بين الخمسة إلى العشرة.

---

١. السجدة: ١ و ٢ و ٣.

٢. هو الأخطل من قصيدة يهجو بها جريراً كما في ديوانه: ٤١.

وإنّما قال: ﴿آبَائِكَ﴾ وإسماعيل عم يعقوب، لما قاله الفراء وأبو عبيدة: من أنّ العرب تسمّي العم أباً، فالآية دالة على أنّ العمومة يسمّون آباء.

وقد روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «ردّوا عليَّ أبي» يعني العباس عمّه فسمّي العم أباً كما سمّي الجد أباً من حيث يجب له التعظيم، نحو ما يجب للأب.

**قوله تعالى:** ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ آية بلا خلاف (١٣٤).

قوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ فالأمة المراد بها هنا الجماعة، والأمة على ستة أقسام الجماعة، والأمة الحين لقوله: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[١] أي بعد حين، والأمة القدوة والإمام، لقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً﴾[٢] والأمة العامة وجمعها أمم. قال الأعشى:

وإن معاويـــــة الأكرمـــــين     حسـان الوجـوه طـوال الأمـم[٣]

والأمة: الاستقامة في الدين والدنيا. قال النابغة:

وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع[٤]

والأمة: أهل الملة الواحدة، كقولهم: أمة موسى، وأمة عيسى، وأمة محمّد ﷺ وأصل الباب: القصد من أمّه يؤمّه إذا قصده، ومعنى خلت مضت، كما تقول لثلاث خلون من الشهر، أي مضين، وأصله: الانفراد ومنه خلا الرجل

---

١. يوسف: ٤٥.

٢. النحل: ١٢٠.

٣. ديوانه. رقم القصيدة ٤. وروايته عظام القباب بدل حسان الوجوه. وفي اللسان (أمم) بيض الوجوه.

٤. اللسان (أمم). وصدر البيت:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة

بنفسه: إذا انفرد، وخلا المكان من أهله أي انفرد منهم، وحد الخلو: حصول الشيء وحده، والفرق بين الخلو والفراغ، أنّ الخلو إذا لم يكن مع الشيء غيره، وقد يفرغ منه وهو معه، فإذا قلت خلا منه فليس معه، والكسب: العمل الّذي يجلب به نفع، ويدفع به ضرر عن النفس، وكسب لأهله: إذا اجتلب ذلك لهم بعلاج ومراس، ولذلك لا يجوز في صفة الله.

وقوله: ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ معناه أنّه لا يقال لكم اعملوا كذا وكذا، وعلى جهة المطالبة بما يلزمهم من أجل عملهم، كما لا يقال لهم لم عملتم أنتم كذا وكذا، وإنّما يطالب كلّ إنسان بعمله دون عمل غيره كما قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[1].

وفي الآية دلالة على بطلان قول المجبرة: إنّ الأبناء يؤخذون بذنوب الآباء، ويؤخذ الطفل بذنب أبيه، لأنّ الله تعالى نفى ذلك، ومثله قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ وقوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾[2].

والإشارة بقوله: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ولدهم، يقول الله تعالى لليهود والنصارى: يا معشر اليهود والنصارى دعوا ذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والمسلمين من أولادهم بغير ما هم أهله ؛ ولا تنسبوا إليهم الكفر، واليهودية والنصرانية، ولا تضيفوها إليهم وإنّها أمة قد خلت، ولا تسألون أنتم عما كانوا يعملون.

**قوله تعالى:** ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ آية بلا خلاف (١٣٥).

---

١.الأنعام: ١٦٤.

٢.غافر: ١٧.

الضمير في قوله: ﴿وَقَالُوا كُونُوا﴾ يرجع إلى اليهود والنصارى، لأنّ كلّ فريق منهم دعي إلى ما هو عليه ومعنى ﴿تَهْتَدُوا﴾ أي تصيبوا طريق الحقّ، كأنّهم قالوا: تهتدوا إلى الحقّ.

وروي عن عبد الله بن عباس أنّه قال: قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله ﷺ: ما الهدى إلاّ ما نحن عليه، فاتبعنا يا محمّد تهتد، وقالت النصارى مثل ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ الآية.

وفي قوله: ﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾ حجة على وجوب اتباع ملّة إبراهيم إذ كانت سليمة من التناقض، وكان في اليهودية والنصرانية تناقض، وذلك لا يكون من عند الله، فصارت ملّة إبراهيم أحق بالاتباع من غيرها.

والتناقض في اليهودية مثل منعهم من جواز النسخ ممّا في التوراة ممّا يدلّ على جواز ذلك، وامتناعهم من العمل بما تقدّمت به البشارة في التوراة من اتباع النبيّ الأمي مع اظهارهم التمسّك بها، وامتناعهم من الاذعان لما دلّت عليه المعجزة من نبوة عيسى، ونبوة محمّد ﷺ مع إقرارهم بنبوة موسى من أجل المعجزة، إلى غير ذلك من أنواع التناقض.

وأمّا النصارى أب وابن وروح قدوس إله واحد، مع زعمهم أنّ الأب ليس هو الابن وأنّ الأب إله وروح القدس إله، فإذا قيل لهم: قولوا ثلاثة آلهة امتنعوا من ذلك، إلى ما يصفون به الباري تعالى ممّا يوجب الحاجة والحدث، ويقولون مع ذلك إنّه قديم لم يزل إلى غير ذلك من مناقضاتهم التي لا تحصى كثيرة، وهي موجودة في الكتب عليهم نبهنا على جملها.

وأمّا الحنيفية فهي الاستقامة، وإنّما قيل للذي يقبل باحدى قدميه على الأخرى أحنف تفاؤلاً بالسلامة، كما قيل للهلكة: مفازة، تفاؤلاً بالفوز والنجاة، وهو قول الرياشي وابن قتيبة وأهل اللغة.

وقال الزجاج: أصله الميل، وإبراهيم حنيف إلى دين الإسلام، وقال: العادل إلى دين ربه عن اليهودية والنصرانية، وقال أبو حاتم: قلت للأصمعي: من أين عرف في الجاهلية الحنيف؟ فقال: لأنّه من عدل عن دين اليهود والنصارى فهو حنيف عندهم، ولأنّ كلّ من حج البيت كانوا يسمّونه حنيفاً، وكانوا إذا أرادوا الحج قالوا: هلم نتحنّف، وقال صاحب العين: الحنف ميل في صدر القدم، يقال: رجل حنف، وسمّي الأحنف لحنف كان به، وقالت حاضنته وهي ترقصه:

والله لـولا حنـف برجـله   ما كان في صبيانكم كمثله[١]

والحنيف: المسلم الّذي يستقبل قبلة البيت الحرام على ملّة إبراهيم كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً.

وقال بعضهم: الحنيف كلّ من أسلم في أمر الله، ولم يلتو في شيء، والجمع الحنفاء.

وقال بعضهم: قيل حنيف، لأنّه تحنّف عن الأديان كلّها أي مال إلى الحقّ.

وفي الحديث أحبّ الأديان إلى الله الحنيفية السمحة، وهي ملّة إبراهيم لا حرج فيها، ولا ضيق، وأصل الباب الحنف، وهو الميل[٢].

---

١. اللسان (حنف) وروايته في فتيانكم من مثله.

٢. بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة على سيّد الأنبياء وخاتم المرسلين، وعلى آله الميامين الأئمّة الطيبين الطاهرين، ورضي الله عن الصحابة المهتدين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد فقد تمّ ـ بحمد الله تعالى ومنّه ـ ما انتخبته من تفسير التبيان للشيخ الطوسي﴿﴾، معوّضاً ما ضاع من التعليقة عليه للشيخ ابن إدريس الحلي حيث لم تصل أيدينا إلى نسخته التامة التي ضاعت فيما ضاع من التراث، وقد نهجت ـ فيما أحسب ـ نهجاً مقارباً لنهجه، فإن وفّقت فذلك حسبي في إعادة الكتاب إلى تمام نصابه، وإن تكن الأخرى، فحسبي مبلغ جهدي وعلمي، راجياً من الله سبحانه وتعالى حسن ثوابه: ﴿ربّنا تقبل منّا انّك سميع الدعاء﴾.

# فهارس الكتاب

مقدمة المحقق ........................................ ٥
مقدمة الشيخ الطوسي في كتابه (التبيان في تفسير القرآن) ........ ١٥
فصل في ذكر جمل لا بدّ من معرفتها قبل الشروع في تفسير القرآن ........ ١٧
فصل في ذكر أسامي القرآن، وتسمية السور والآيات ........ ٣٥

## سورة الفاتحة

(سورة الفاتحة) أسماؤها ـ وسبب تسميتها بها ........ ٤١
قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ ........ ٤٤
قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ........ ٤٤
قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ........ ٤٥
قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ........ ٤٧
قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ........ ٤٧
قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ........ ٤٩
قوله تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ........ ٥٢
قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ........ ٥٤
قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ ........ ٥٤

## سورة البقرة

قولـه تعـالى: ﴿آلـم﴾ ........................................ ٥٧
قوله تعالى: ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾ ........................................ ٦٣
قوله تعالى: ﴿هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾ آية (٢) ........................................ ٦٣
قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ ...﴾ آية (٣) ................ ٦٤
قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ...﴾ آية (٤) ........................ ٦٨
قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ ...﴾ آية (٥) ........................ ٦٩
قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ ...﴾ آية (٦) ................ ٧١
قوله تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ...﴾ آية (٧) ................ ٧٥
قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ ...﴾ آية (٨) ................ ٧٩
قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا ...﴾ آية (٩) ........................ ٨١
قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً ...﴾ آية (١٠) ................ ٨٤
قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ ...﴾ آية (١١) ................ ٨٧
قوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ ...﴾ آية (١٢) ........................ ٨٩
قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ ...﴾ آية (١٣) ................ ٩٠
قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ...﴾ آية (١٤) ................ ٩١
قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ ...﴾ آية (١٥) ........................ ٩٣
قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلالَةَ بِالْهُدَى ...﴾ آية (١٦) ................ ٩٦
قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً ...﴾ آية (١٧) ........................ ٩٨
قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ﴾ آية (١٨) ........................ ١٠٣
قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ ...﴾ آية (١٩) ................ ١٠٥

قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ ...﴾ آية (٢٠) ........................ ١١١

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ ...﴾ آية (٢١) ........... ١١٣

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ فِرَاشاً ...﴾ آية (٢٢) ........................ ١١٤

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا ...﴾ آية (٢٣) ............ ١١٦

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ ...﴾ آية (٢٤) ................ ١١٩

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ...﴾ آية (٢٥) ............... ١٢١

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً ...﴾ آية (٢٦) .................. ١٢٤

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ ...﴾ آية (٢٧) ............................ ١٢٩

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً ...﴾ آية (٢٨) ..................... ١٣٠

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ ...﴾ آية (٢٩) ..................... ١٣٣

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ ...﴾ آية (٣٠) ................. ١٣٤

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ...﴾ آية (٣١) ............................ ١٤٤

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا ...﴾ آية (٣٢) ............................ ١٤٨

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ...﴾ آية (٣٣) .......................... ١٥٠

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ ...﴾ آية (٣٤) ..................... ١٥٣

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ...﴾ آية (٣٥) ........... ١٥٩

قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا ...﴾ آية (٣٦) .................. ١٦٤

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ ...﴾ آية (٣٧) .......................... ١٦٩

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً ...﴾ آية (٣٨) .............................. ١٧٢

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ...﴾ آية (٣٩) ......................... ١٧٥

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي ...﴾ آية (٤٠) ........................ ١٧٦

قوله تعالى: ﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً ...﴾ آية (٤١) ............................ ١٧٧

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ...﴾ آية (٤٢) ........................ ١٧٩
قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ آية (٤٣) ........................ ١٨٢
قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ ...﴾ آية (٤٤) ........................ ١٨٤
قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ...﴾ آية (٤٥) ........................ ١٨٥
قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ ...﴾ آية (٤٦) ........................ ١٨٨
قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ ...﴾ آية (٤٧) ........................ ١٩١
قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ ...﴾ آية (٤٨) ........................ ١٩٢
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ...﴾ آية (٤٩) ........................ ١٩٦
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ ...﴾ آية (٥٠) ........................ ١٩٩
قصة موسى عليه السلام ........................ ٢٠٠
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ (٥١) ........................ ٢٠٣
قصة السامري ........................ ٢٠٤
قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ ...﴾ آية (٥٢) ........................ ٢٠٥
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ...﴾ آية (٥٣) ........................ ٢٠٦
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ...﴾ آية (٥٤) ........................ ٢٠٨
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ ...﴾ آية (٥٥) ........................ ٢١١
قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ...﴾ آية (٥٦) ........................ ٢١٤
قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ...﴾ آية (٥٧) ........................ ٢١٧
سبب نزول المنّ والسلوى ........................ ٢١٩
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ...﴾ آية (٥٨) ........................ ٢٢٠
قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً ...﴾ آية (٥٩) ........................ ٢٢١
قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ ...﴾ آية (٦٠) ........................ ٢٢٢

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ: يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ ...﴾ آية (٦١) ........................٢٢٥
قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا ...﴾ آية (٦٢) ........................٢٣٠
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ ...﴾ آية (٦٣) ........................٢٣٣
قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ...﴾ آية (٦٤) ........................٢٣٥
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا ...﴾ آية (٦٥) ........................٢٣٧
قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا ...﴾ آية (٦٦) ........................٢٣٩
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ ...﴾ آية (٦٧) ........................٢٤١
قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ...﴾ آية (٦٨) ........................٢٤٢
قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا ...﴾ آية (٦٩) ........................٢٤٤
قوله تعالى: ﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ ...﴾ آية (٧٠) ........................٢٤٦
قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ ...﴾ آية (٧١) ........................٢٤٧
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ...﴾ آية (٧٢) ........................٢٥٠
قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ...﴾ آية (٧٣) ........................٢٥١
قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ...﴾ آية (٧٤) ........................٢٥٢
قوله تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ ...﴾ آية (٧٥) ........................٢٦٠
قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا ...﴾ آية (٧٦) ........................٢٦٢
قوله تعالى: ﴿أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ...﴾ آية (٧٧) ........................٢٦٥
قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ ...﴾ آية (٧٨) ........................٢٦٥
قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ ...﴾ آية (٧٩) ........................٢٧٠
قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ ...﴾ آية (٨٠) ........................٢٧٢
قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً ...﴾ آية (٨١) ........................٢٧٣
قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ...﴾ آية (٨٢) ........................٢٧٤

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ...﴾ آية (٨٣) ........................ ٢٧٤
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ﴾ آية (٨٤) ........................ ٢٧٨
قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ ...﴾ آية (٨٥) ........................ ٢٨٠
قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ...﴾ آية (٨٦) ........................ ٢٨٥
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ...﴾ آية (٨٧) ........................ ٢٨٦
قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ آية (٨٨) ........................ ٢٨٩
قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ...﴾ آية (٨٩) ........................ ٢٩١
قوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ ...﴾ آية (٩٠) ........................ ٢٩٤
قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ...﴾ آية (٩١) ........................ ٢٩٧
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ...﴾ آية (٩٢) ........................ ٢٩٩
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ ...﴾ آية (٩٣) ........................ ٣٠٠
قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ ...﴾ آية (٩٤) ........................ ٣٠٤
قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً﴾ آية (٩٥) ........................ ٣٠٥
قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ ...﴾ آية (٩٦) ........................ ٣٠٦
قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ ...﴾ آية (٩٧) ........................ ٣٠٩
قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ ...﴾ آية (٩٨) ........................ ٣١١
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ...﴾ آية (٩٩) ........................ ٣١٢
قوله تعالى: ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً ...﴾ آية (١٠٠) ........................ ٣١٤
قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ...﴾ آية (١٠١) ........................ ٣٧٥
قوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ ...﴾ آية (١٠٢) ........................ ٣١٦
قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ﴾ آية (١٠٣) ........................ ٣٢٨
قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا ...﴾ آية (١٠٤) ........................ ٣٢٩

قوله تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ...﴾ آية (١٠٥) ............٣٣١
قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا ...﴾ آية (١٠٦) ..................................٣٣٣
قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ ...﴾ آية (١٠٧) ..................٣٤٠
قوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ ...﴾ آية (١٠٨) .........................٣٤٢
قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ...﴾ آية (١٠٩) .......................................٣٤٥
قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ...﴾ آية (١١٠) ...............................٣٤٧
قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ ...﴾ آية (١١١) .........................................٣٤٨
قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ آية (١١٢) .........................٣٥٠
قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصَارَى ...﴾ آية (١١٣) ............................٣٥٣
قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ ...﴾ آية (١١٤) ........................٣٥٥
قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ...﴾ آية (١١٥) .........................................٣٥٨
قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً﴾ آية (١١٦) ....................................................٣٦٠
قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ...﴾ آية (١١٧) .........................................٣٦١
قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ...﴾ آية (١١٨) ...........................................٣٦٦
قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً ...﴾ آية (١١٩) .....................................٣٦٨
قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ﴾ آية (١٢٠) ..............................................٣٧٠
قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ ...﴾ آية (١٢١) ...............................٣٧١
قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِي﴾ آية (١٢٢) .....................................٣٧٢
قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ ...﴾ آية (١٢٣) .....................................٣٧٣
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ ...﴾ آية (١٢٤) ............................٣٧٤
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ ...﴾ آية (١٢٥) ............................٣٧٩
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا ...﴾ آية (١٢٦) ............................٣٨٣

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ ...﴾ آية (١٢٧) ........................... ٣٨٥
قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ...﴾ آية (١٢٨) ........................... ٣٨٧
قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ ...﴾ آية (١٢٩) ........................... ٣٨٩
قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ ...﴾ آية (١٣٠) ........................... ٣٩١
قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ...﴾ آية (١٣١) ........................... ٣٩٢
قوله تعالى: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ...﴾ آية (١٣٢) ........................... ٣٩٣
قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ...﴾ آية (١٣٣) ........................... ٣٩٥
قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ...﴾ آية (١٣٤) ........................... ٣٩٧
قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى ...﴾ آية (١٣٥) ........................... ٣٩٨
فهرس الكتاب........................................................... ٤٠١

تم بحمد الله